الكناية
في القرآن الكريم
موضوعاتها ودلالاتها البلاغية

الدكتور
أحمد فتحي رمضان الحياني
أستاذ البلاغة المساعد في قسم اللغة العربية
كلية الآداب / جامعة الموصل






الكناية في القرآن الكريم

موضوعاتها ودلالاتها البلاغية




رقم الإيداع لدى المكتبة الوطنية (2013/7/2521)

الحياني، أحمد فتحي

الكناية في القرآن الكريم موضوعاتها ودلالاتها البلاغية/ أحمد فتحي الحياني. - عمان: دار غيداء للنشر والتوزيع، 2013

( ) ص

ر.إ.: (2013/7/2521).

الواصفات: / الكناية// ألفاظ القرآن// القرآن الكريم

* تم إعداد بيانات الفهرسة والتصنيف الأولية من قبل دائرة المكتبة الوطنية

ISBN 978-9957-572-33-4

دار غيداء للنشر والتوزيع

تلاع العلي - شارع الملكة رانيا العبدالله
تلفاكس: 5353402 6 962+
ص.ب: 520946 عمان 11152 الأردن

مجمع العساف التجاري - الطابق الأول
خلوي: 95667143 7 962+
E-mail: darghidaa@gmail.com

الكناية في القرآن الكريم

موضوعاتها ودلالاتها البلاغية

د. أحمد فتحي رمضان الحياني

أستاذ البلاغة المساعد في قسم اللغة العربية

كلية الآداب / جامعة الموصل

الطبعة الأولى

2014 م – 1435 هـ

الإهداء

إلى والديّ..

إحساناً.. وخفض جناح

وإلى زوجتي. وأولادي: سارة وعلي ومروة

وإلى أخوتي وأخواتي

وإلى خال أولادي الأخ الكريم أبو كرم.

جميعاً أهدي ثمرة جهدي

الفهرس

الفصل السادس: الكناية المعرفية:..

الفصل السابع: الكناية التعريضية:..

الفصل الثامن: كنايات عن يوم القيامة:

الفصل التاسع: كنايات في موضوعات متفرقة:

المقدمة

الحمد لله ربِّ العالمين، والصلاة والسلام على سيد البلغاء وإمام الفصحاء محمد وعلى آله وصحبه ومن اهتدى بهديهم إلى يوم الدين.

وبعد:

فإن هذا: محاولة جادة تنطلق من القرآن الكريم كتاب العربية الأكبر لدراسة ظاهرة أسلوبية من ظواهر أساليبه المعجزة، وهي ظاهرة الكناية بوصفها فنّاً من فنون القول التي يحفل بها القرآن الكريم.

واختياري هذا الموضوع عائد أساساً إلى سببين، أولهما: حبّي الكبير لكتاب الله منذ الصغر.. وثانيهما: إيماني بأن التخصص في علم البلاغة العربية يجب أن يتعمّق في رحاب القرآن، فهو معجزة البلاغة العربية ومقياسها الأمثل الذي يُحتذى به على مدار الزمن. من أجل ذلك انعقدت النية على أن تكون دراستي فيما يتعلق بالقرآن،ووقع الاختيار على موضوع (الكناية) تحديداً لأهميته في الدرس البلاغي والأدبي من جهة، ولعدم دراسة هذا الفن البياني دراسة على وجه الاستقلال شاملةً متقصيّة من جهة أخرى.

وقد اتّبعت في كتابي منهجين:

الأول: منهج تاريخي تجلّى في المهاد النظري الذي صدِّرت به الكتاب، استعرضت فيه الكناية لغةً واصطلاحاً ونشأةً وتطوراً وقيمةً وبلاغةً، وكان هذا المنهج كفيلاً ببيان مفهوم الكناية وتطوره عبر المراحل التاريخية المتعاقبة.

والثاني: منهج تحليلي قامت عليه فصول الأطروحة رأيته جديداً وكفيلاً ببيان الملامح الفنية التي توافرت عليها الكناية القرآنية، وقد وظّفها القرآن وسيلة حيوية فاعلة في توصيل أغراضه ومقاصده التي هدف إليها.

وموضوع الكناية ليس سهلاً يسيراً، فهو يكاد أن يكون من أكثر الأساليب البلاغية دقةً وخفاءً، وقد اختلف البلاغيون القُدامى في تحديده وبيان ما يدخل ضمنه من الظواهر والأساليب.. بيد أن مفهوم الكناية تبلور على يدي قُدامة بن جعفر باسم "الأرداف" وأخذه عنه البلاغيون الذين جاءوا بعده، ونقل عبد القاهر الجرجاني تعريف قُدامة للأرداف وسمّاه كناية، وكذلك فعل البلاغيون بعد الجرجاني.. ويتّسع مفهوم الكناية عند ابن الأثير حينما رآها

كل أسلوب يحتمل معنيين، أحدهما قريب، والآخر بعيد، وهو مراد المتكلم في الغالب، ويتحقّق هذا المعنى البعيد عنده إمّا بالارداف،وهو التعبير عن الملزوم بلازمه، وهو ما ذهب إليه قُدامة بن جعفر، أو بالتمثيل، وهو التعبير عن المعنى بمثاله، أو بالمجاورة، وهو التعبير عن الشيء بتركه إلى ما جاوره، ومع هذا التوسع في مفهوم الكناية فإن ابن الأثير لم يعدّ التعريض منها. ثم يتّسع مفهوم الكناية عند السكاكي حينما رآها تشمل: التعريض والإرداف والتمثيل والتلويح والرمز والإشارة والإيماء، فجعلها طرقاً للكناية وإن اختلفت إذ يضمها بعد عام وهو الإشارة إلى المعنى البعيد عن طريق المعنى القريب الذي يدل عليه ظاهر اللفظ.

لذلك كان حقيقاً على الكتاب أن ينتهج هذا المفهوم الواسع للكناية بطرقها المتعددة في الدراسة وأن لا يقتصر على كناية الإرداف، كما استقرت تعريفاً واصطلاحاً لها عند المتأخرين كالقزويني وشرّاح تلخيصه.. لأن هذا المفهوم الواسع للكناية يستوعب أنواعها ويعبر عن طبيعتها الفنية والأدبية، وأجدى في دراسة الكناية القرآنية دراسة أدبية وقد شملت هذه الأنواع.

أما مصادر الكتاب ومراجعه فهي عديدة متنوعة، ويقف في طليعة المصادر القديمة المختصة التي حَظِيَ بها الكتاب وأغنته: تفسير (الكشاف) للزمخشري (ت 538هـ) الذي استنار به الكتاب واستأنس، فلا عجب أن يحتلّ مكانةً متميّزة فيه، فضلاً عمّا أفادته التفاسير الأخرى والمصادر البلاغية المختصة والمراجع الحديثة، وقد عملت هذه المصادر والمراجع على نمو الكتاب واكتماله بالصورة التي خرج بها، وقبل كل ذلك كان (القرآن الكريم) هو مصدري الوحيد التمس منه بالتلاوة المتكررة آناء الليل والنهار الهداية إلى المعرفة والإفادة بما يُغني الكتاب.

أمّا بناء الكتاب فقد قام على مهاد وتسعة فصول، اختصّ المهاد بدراسة الكناية من خلال المعاجم والمؤلفات التي تناولت بلاغة القرآن وتفسيره، والدراسات البلاغية المختصة عبر المراحل التاريخية، ولّما كان من المتعذر بسط جميع الدراسات عمدت إلى مبدأ (الانتقاء) فأوردت أكثر المصادر دلالةً على الموضوع وأوفاها قدرةً على استكمال متطلباته مركّزاً في أثناء البسط على موضوع الكناية القرآنية ومجليًّا آراء الدارسين القُدامى من خلال تحليلهم لهذا الفن، وقد امتاز عندهم ـ على الأغلب الأعم ـ بالروح الأدبية في تذوقه تذوقاً أدبياً أصيلاً.

وأعقب المهاد الكناية في القرآن الكريم، وقد انتظمت في فصول تسعة جاءت حسب المكنى به والمكنى عنه، فحملت عنوانات موضوعية مجترحة من طبيعة الكنايات التي تناولتها، وقد عمدت إلى الانتقاء في التحليل لكثرتها، فكان الفصل الأول بعنوان (الكناية الجنسية)

يبحث في طبيعة هذه الكناية في القرآن،وقد كانت نوعين: كناية جنسية مشروعة بين الزوجين، وكناية جنسية غير مشروعة فيما وراء ذلك، وقد ركّز الفصل على الكناية الجنسية المشروعة في العرض والتحليل والتطبيق لكثرتها وأهميتها في أداء الدلالة الانسانية التي قيّمها القرآن في العلاقة بين الزوجين.

وكان الفصل الثاني بعنوان (الكناية اللونية) وقد كانت نوعين: كناية باللون المباشر كاللون الأبيض والأسود والأزرق والأصفر، وكناية باللون غير المباشر وهو يتغلل في الصورة الكنائية فيتداعى ليشير إلى دلالته على نحو مكثفكاللون المباشر بوصفهما إشارة كنائية موحية.

وجاء الفصل الثالث بعنوان (الكناية النفسية) وقد كان ميدان التطبيق على الكنايات التي تجسِّد بالحركة المرئية سواء أكانت الحركة باليد أو بالعين أو بالرأس أو بأي عضو من أعضاء جسم الانسان تُجسِّد حالات نفسية معينة وخلجات شعورية متلونة حسب السياق الذي تتشكّل فيه..

أما الفصل الرابع فهو يحمل عنوان (الكناية الخُلُقية) تؤدي فيه كل كناية دلالة خُلُقية سلبية كانت أو إيجابية كالغيبة والنميمة، والبخل والتبذير، والشجاعة والجبن، والتكبر والتواضع والكرم، تصل إلى المتلقي عبر فن الكناية ذي الطاقة التعبيرية والتصويرية فتكشف الكناية عن مكنوناتها بما يثري الفكر والشعور وتحدث بالمتلقي استجابةً في تلقيه الدلالات الخُلُقية ترغيباً أو تنفيراً.

وتناول الفصل الخامس (الكناية الساخرة) من خلال مجمل الآيات التي احتوت كنايات ساخرة وهي ـ على الأعم الأغلب ـ تستهدف أئمة الكفر والشرك في صورة كاريكاتيرية تثير السخرية منهم والضحك، وتحطِّم قواهم النفسية والمعنوية التي يوجهونها إلىمحاربة الاسلام وإيذاء المسلمين.

أما الفصل السادس الذي يحمل عنوان (الكناية المعرفية) فقد تناول الدلالة المعرفية في إطار ما يتعلق بالحواس والإدراك كالسمع والبصر والفؤاد بوصفها وسائل تلقّي المعرفة التي تعدّ في المنظور القرآني أداة هادية إلى الإيمان بالله ﷻ، فحددّت هذه الكناية عالمين متضادين: عالم الكفر والضلال وأصحابه الكافرين الذين تصوِّرهم الكناية وهم يرزحون في موانع حسية

تحجبهم عن المعرفة في صورة بيانية معجزة، وعالم الإيمان والهُدى وأصحابه المؤمنين الذين أفـادوا مما منحهم الله من حواس ووسائل إدراك وفهم على نور وبصيرة.

وانعقد الفصل السابع (الكناية التعريضية) على دراسـة نـوع مـن الكنايـة يعـدُّ طريقـة متميّزة من طرقها في التعبير فاستخلصنا التعريف لهذا النوع مـن الكنايـة ثـم أفـضنا بالتحليـل والتطبيق الكاشف عن وظيفته في مواقع الآيات الكريمة وبيان أثره التعبيري فيها.

وجاء الفصل الثامن بعنوان (كنايات عن يوم القيامة) يصوِّر ذلـك اليـوم العظـيم (يـوم القيامة) من خلال كنايات متعددة، تجلّي كلّ كناية دلالة خاصة بها في بنائها وإيقاعها، فضلاً عن كنايات أخرى تتصل بذلك اليوم وما يحدث فيه مـن أهـوال وأحـداث مروِّعـة للكـون والحيـاة والإنسان.

واشتمل الفصل التاسع (كنايـات في موضـوعات متفرقـة) علـى محـاور متعـددة هـي: كنايات عن الشدة والكرب، وكنايات عن مصارع الغابرين،وكنايات عـن عـذاب الله، وكنايـات عن رحمة الله، وكنايات أخرى تنفرد كل كناية بموضوع معين يصل إلى المتلقي عبـر فـن الكنايـة بحيوية وقـوة وتأثير.. وكنايات تتعلـق بخلْق الكون، وأخرى تتعلّق بذات الله ﷻ يُستشف منهـا معاني عظمة الله وقدرته المهيمنة على الكون، وربما كان وراء هـذه الصور الكنائية مـن الأسـرار والمعاني مالا يحيط بها الإدراك والإجتهاد.

وانتهى مطاف الكتاب بخاتمة عرضت لأهـم النتائج وأميزهـا، ولم آدّخـر في كـل مراحـل الكتاب وسعاً لتحقيق بعض من طمـوح،: ثـم الحقـت بـ: جـدولاً إحـصائياً مفـصلاً لكنايـات القرآن الكريم مرتَّباً حسب السور القرآنية، وملحقاً إحصائياً آخر للكناية التعريـضية، معتمـداً في الأغلب التفاسير والمصادر البلاغية المختصة، واجتهـدت في تعيين طائفة من الكنايات القرآنية ممّا لم تُذكر في الدراسات القرآنية والبلاغية مبيِّناً نوعهـا ودلالاتهـا بمقتضى سـياق الآيـة، ومتحرِّياً الدقـة والاستقصاء ما أستطعت إلى ذلـك سبيلاً، والله حسبي وهو نعم الوكيـل.

أحمد فتحي رمضان

المهاد

الكناية في الدراسات البلاغية

الكناية لغةً:

كنى في (المعجم العربي) تدل على (عدول عن لفظ إلى آخر دال عليه). قال الخليل (ت 170 هـ): "كنى فلان يكني عن اسم كذا، إذا تكلّم بغيره ممّا يُستدلُّ به عليه، نحو: الجماع.. والغائط والرفث ونحوه"[1]، فهو يشترط دلالة المكنى به على المكنى عنه.

كما اشترط هذه الدلالة ابن فارس (ت 395 هـ): "يُقال: كنّيتُ عن كذا.. إذا تكلّمت بغيره مما يُستدلُّ عليه"[2].

إلاّ أن الجوهري (ت 393 هـ) قال: "الكناية: أن تتكلّم بشيء وتريد به غيره"[3]. وبذلك فهو لم يشترط دلالة المكنى به على المكنى عنه صراحةً، ويبدو أنّ الجوهري لم يذكر الدلالة، لكونها لازمة للكناية، وأن المكنى لا يعمد إلى مالا دلالة له على المكنى عنه، ولهذا فإن ابن منظور (ت 711هـ) يأخذ بالقولين (الذي يشترط الدلالة والذي لا يشترطها) وكأن القولين واحد فيقول: "والكناية أن تتكلّم بشيء وتريد به غيره، وكنّى عن الأمر بغيره يُكنى كناية. يعني: إذا تكلم بغيره مما يستدل به عليه، نحو: الرفث والغائط ونحوه"[4].

وفي ضوء هذا تُفسّر الكناية بأيٍّ من هذين القولين. وهذا ما ذهب إليه الفيروز آبادي (ت 817 هـ)، إلاّ أنه يقدّم ما أشترطت فيه الدلالة على ما لم تشترط فيه الدلالة على ما لم تشترط فيه فقال: "كنا به عن كذا يَكْني، ويَكْنُو كناية: تكلّم بما يُستدلّ به عليه أو أن تتكلّم بشيء وتريد غيره"[5].

(1) كتاب العين: 5 / 411 (كني).
(2) مقاييس اللغة: 5 / 139 (كنو).
(3) الصحاح: 6 / 2477 (كنى).
(4) لسان العرب: 15 / 233 (كنى).
(5) القاموس المحيط: 4 / 386 (كنى).

ونرى أن اشتراط الدلالة على المكنى عنه وتقييد الكناية به أولى من عدم اشتراطها وإطلاق القول فيها، إذ إنّ اشتراط الدلالة يميِّز الكناية من غيرها من الأساليب. فمع الاطلاق يفهم من الكناية مجرد العدول عن لفظ إلى غيره، فتختلط الكناية بغيرها كالتورية أو المجاز [1].

وقد جعل قسم من اللغويين الكناية تورية، قال ابن فارس معقباً على قول الشاعر:

وإني لأكنو عن قَذُورَ بغيرها ... وأُعْرِبُ أحياناً بها فأُصارحُ

ألا تراهُ جعل الكناية مقابلة للمصارحة؟ ولذلك تسمّى الكُنْيَة كُنيةً، كأنها توريةٌ عن اسمه"[2]. وانتهى إلى أن: "الكاف والنون والحرف المعتل يدل على تورية عن اسم بغيره"[3]. وقال ابن منظور ـ أيضاً ـ: "الكُنى: جمع كُنْيَة من قولك: كَنَيتُ عن الأمر، وكَنَوْتُ عنه: إذا وَرَّيت عنه بغيره"[4].

وهكذا فسّر بعض اللغويين الكناية التي قالوا فيها: بأنها العدول عن لفظ إلى آخر دال عليه بالتورية التي أجمعوا على أنها من الستر والاخفاء[5].

ولعل هذا الخلط عائد إلى اشتراك الكناية والتورية في معنى (الستر والإخفاء) لغةً فكلاهما يستر المعنى ويخفيه وراء لفظ غير لفظه.

ومعلوم أن العدول عن ذكر اللفظ، لا يعني بالضرورة إخفاءه وستره، كما لا يعني إبرازه وإظهاره، وإنما هو مجرد تركه، ومن هنا "فاللفظ في الكناية ليس بالواضح وضوح المذكور صراحةً، ولا هو بالخفي الذي أُخفي عن عمد وقصد، فهو أشبه ما يكون بالمكسو بثوب رقيق، يشف عمّا تحته، فلا هو مستور، ولا هو عارٍ، أمّا المورّي عنه فمكسو بكساء ساتر يستره ويخفيه، ولهذا يعمد إلى التورية عند إرادة الاخفاء والإيهام والتضليل، بخلاف الكنى، إذ هي دالة على أصحابها دلالة الأسماء على مسمّياتها. ولولا هذه الدلالة لما عدل الناس عن الأسماء

(1) ينظر: الكناية، د. محمد جابر فياض، ص 120.

(2) مقاييس اللغة: 5 / 139 (كنو).

(3) المصدر نفسه: 5 / 139 (كنو).

(4) لسان العرب: 15 / 234 (كني).

(5) ينظر مثلاً: لسان العرب: 15 / 389 (ورى).

اليها "[1]" وهذا ما أشار إليه ابن منظور في تعقيبه على قول القائل: "رأيت عِلْجاً يـوم القادسـية وقد تكنّى وتحجّى أي تستر، من كَنَى عنه إذا وَرّى، أو من الكُنْيَة، كأنه ذكر كنيته عند الحرب لِيُعرف"[2]. فقد أصاب في قوله: "كأنه ذكر كنيته ليعرف"، وجانب الصواب في قوله: ".. أي تستر، من كَنَى عنه إذا ورّى". إذ لماذا يتستر وهو علم من أعلام القادسية، وبطل من أبطالها؟ وممّن يتستّر؟ وليوث الحرب، وأبطال المعارك وأعلامها يزمجرون بأسمائهم وكناهم وألقابهم عندما يكونون على أعدائهم، ليشيعوا الرعب في نفوسهم[3].

والبيت الذي استدل به ابن فارس لم يرد فيه الشاعر التورية والإيهام والتضليل، ولو أراد ذلك لما ذكر اسمها صراحةً في صدر بيته، ولما قال في عجزه "وأعرب أحياناً بها فأصارح"، لأن الكناية دالةٌ على ما عدل عنه، لا لتخفي وتوهم وتضلّل.

وفي ضوء ما سبق يمكن القول أن الكناية ـ لغةً ـ هي عدول عن لفظ إلى آخر دال عليه.

والعدول في هذا المفهوم اللغوي للكناية لا يعني ستره وإخفاءه وتضليله كما هو في (التورية) "(*)" ولا يعني ـ أيضاً ـ إبرازه وإظهاره وكشفه فينقلب التعبير إلى تعبير مباشر يقرّر

(1) الكناية، ص 121.

(2) لسان العرب:/ 15 / 233 (كنى).

(3) ينظر: الكناية، ص 122.

(*) يمكن أن نلحظ بعض الفروق بين أسلوبي (الكناية والتورية) في المعنى الاصطلاحي لهما على الرغم من اشتراكهما لغةً في الستر والإخفاء، فكلاهما يستر المعنى ويخفيه وراء لفظ غير لفظه ـ أهمها:

1 ـ أن الكناية تقع في المفردة والتركيب على حين أن (التورية) لا تقع إلاّ في المفردة.

2 ـ تهدف التورية إلى تضليل المورّي عنه وإخفائه، إذ هي ترتكز إلى المغالطة والإيهام في حين أن الكناية دالة على المكنى عنه لا توهم ولا تضلل بل هي توحي بالمعنى المكنى عنه من وراء سجفها، وقال ابن الأثير الحلبي في جوهر الكنز: "ولا فرق بين التورية والكناية، إذ التورية ذكر لفظ له معنيان، والكناية كذلك. وما قال أحد من العلماء بالفرق، إلاّ أن التورية أُفْرِدَت وصار الناس يلهجون بذكرها في محاوراتهم، ونظمهم، ونثرهم، ويستحسنون لفظها، فصارت كأنها غير الكناية" ص 111. فهو ينظر إلى المعنى اللغوي لهما دون المعنى الاصطلاحي كما هو واضح.

3 ـ إنّ التورية ترد على الوجه الحقيقي، بينما ترد الكناية على الوجه المجازي.

وينظر: نشاط الصفدي في النقد والبلاغة، د. مناهل فخر الدين فليح، ص 335 وما بعدها.

معناه بطريقة مباشرة. وإنما يعني أن المكني عنه ليس بالواضح وضوح المذكور صراحةً، ولا هو بالخفي المضلِّل الذي لا تكاد تتبيّنه إلاّ بالتأمل وإمعان النظر. هو أشبه ما يكون بالمكسو بثوب رقيق شفاف يُوحي بالمعنى ولا يباشر به، يُلمِّح إليه ولا يقرِّره.

مفهوم الكناية ودلالتها الاصطلاحية:

يجد الباحث في فن الكناية أقوالاً كثيرة متناثرة في مصادر متنوعة أسهم فيها جمع غفير من العلماء من مفسرين ولغويين ونحويين وأدباء وبلاغيين، أسهموا جميعاً في تطوير الدلالة للكناية حتى استقرت بدلالتها الاصطلاحية عند البلاغيين المتأخرين.

وفي طليعة هؤلاء العلماء المفسرون لكتاب الله، فقد احتوى القرآن الكريم كنايات كثيرة، تضمّنت منها أحكاماً شرعية، فكان لزاماً على المفسر أن يوضح معانيها والمراد منها.

ويُعَدُّ ابن عباس (رضي الله عنهما) (ت 68 هـ) من أوائل المفسرين، فقد أشار إلى عدد من كنايات القرآن، وبيّن المكني عنه في كل منها وعلّله، فقال في قوله ـ تعالى ـ: ﴿ أَوْ لَٰمَسْتُمُ ٱلنِّسَآءَ ﴾ [1] "المسّ واللمس والمباشرة: الجماع، ولكنّ الله يعف ويكني ما شاء بما شاء" [2]، وفي قوله ـ تعالى ـ: ﴿ أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ ٱلصِّيَامِ ٱلرَّفَثُ إِلَىٰ نِسَآئِكُمْ ﴾ [3] "الرفث الجماع، ولكن الله كريم يكني" [4].

وفي قوله ـ تعالى ـ: ﴿ فَٱلْـَٰٔنَ بَٰشِرُوهُنَّ ﴾ [5]، "المباشرة: الجماع ولكن الله يكني ما شاء بما شاء" [6]، وفي قوله ـ تعالى ـ: ﴿ فَلَا رَفَثَ... ﴾ [7]، الرفث هنا غير الرفث الذي ذُكر في ﴿ أُحِلَّ

(1) من الآية 43 من سورة النساء، وسورة المائدة، من الآية: 6.

(2) جامع البيان في تفسير القرآن، الطبري: 5 / 65. وينظر: الاتقان في علوم القرآن، للسيوطي: 2 / 8.

(3) سورة البقرة، من الآية: 187.

(4) جامع البيان في تفسير القرآن: 2 / 94.

(5) سورة البقرة، من الآية 187.

(6) جامع البيان في تفسير القرآن: 2 / 98.

(7) سورة البقرة، من الآية: 197.

لَكُمْ لَيْلَةَ ٱلصِّيَامِ ٱلرَّفَثُ إِلَىٰ نِسَآئِكُمْ ... ﴾ فهو من التعريض بذكر الجماع، وهو من العرابة في كلام العرب، أي أدنى الرفث "[1].

وكما هـو واضح فإن استعمال الكناية عند ابن عباس يفيد ستر المعنى الـذي نلجـأ إليـه باستعمال ألفاظ مهذبة دالة على المعنى المُراد بدلاً من الألفاظ الموضوعة لذلك المعنى.

وقد نهج أكثر المفسرين بعده نهجه في التفسير والبيان مثل: (مجاهد: ت 103 هـ)، و (قتادة: ت 117 هـ)، وغيرهما [2].

أما اللغويون والنحاة فإن مفهوم الكناية عندهم يعني كلّ عدول عن صريح اللفظ إلى ما دلّ عليه من الضمائر والكُنى وأسماء الأشياء والأعداد.

فأبو عمرو بن العلاء (ت 154 هـ) يطلق الكناية على الضمير لحلوله محل الاسم الصريح، ودلالته عليه، فقال: "لا تُضاف ﴿ تُبَشِّرُونَ ﴾ إلاّ بنون الكناية كقولك (تبشرونني) "[3].

ويذكر الخليل الكناية ودلالتها والدافع التهذيبي الذي يدفع إليها في الكلام في قوله المارّ ذكره [4].

ويذكر سيبويه (ت 180 هـ) تكنية العرب بفلان وفلانة ـ من غير ما ألف ولام ـ عن أسماء المتحدث عنهم من الآدميين، وبالألف واللام في تكنيتهم عن غير الآدميين فقال: "هذا فلانُ بنُ فلان، لأنه كناية عن الأسماء التي هي علاماتٌ غالبة، فأُجريت مجراها،فإذا كنيت عن غير الآدميين قلت: الفلان والفلانة،جعلوه كناية عن الناقة التي تسمى بكذا، والفرس الذي يسمى بكذا، ليفرّقوا بين الآدميين والبهائم "[5].

---

(1) جامع البيان في تفسير القرآن: 2 / 154.
(2) ينظر: جامع البيان في تفسير القرآن: المواضع السابقة نفسها، و 1 / 232، 323، 324، 327 وغيرها.
(3) مجاز القرآن، لأبي عبيدة: 1 / 13.
(4) ينظر: ص 7 من:.
(5) الكتاب: 3 / 507.

ومثّل (كم) في الكناية عن العدد بفلان وفلانة في الكناية عن الأسماء فقال: "وذلك قولك: له كذا وكذا درهماً، وهو مبهم في الأشياء بمنزلة (كم) وهو كناية للعدد، بمنزلة (فلان) إذا كنيتَ به في الأسماء"[1].

وهكذا أطلق سيبويه الكناية على علامة المضمر من أسماء الآدميين وغير الآدميين والأعداد. وهذا المفهوم للكناية هو بالمعنى النحوي لا البلاغي، وهو ما نجده عند الفرّاء (ت 207 هـ)، وقد أشار الفرّاء إلى عدد من كنايات القرآن، ونقل في بعضها ما قاله ابن عباس، فقال في قوله ـ تعالى ـ: ﴿ وَلَٰكِن لَّا تُوَاعِدُوهُنَّ سِرًّا ﴾[2] يقول: لا يصفنّ أحدكم نفسه في عِدّتها بالرغبة في النكاح والاكثار منهعن ابن عباس أنه قال: السِرُّ ـ في هذا الموضع ـ النكاح

ألا زَعَمَت بَسْباسـةُ اليوم أنني كَبِرتُ وألاّ يَشْهَدَ السِرَّ أمثالي

قال الفرّاء: "ويرى أنه مما كنى الله عنه. قال ـ تعالى ـ: ﴿ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ الْغَائِطِ[3] ﴾"[4].

وقال في قوله ـ تعالى ـ: ﴿ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَارُهُمْ وَجُلُودُهُم ﴾[5] الجلد ـ ها هنا ـ والله أعلم ـ هو ما كنى عنه، كما قال ـ تعالى ـ: ﴿ وَلَٰكِن لَّا تُوَاعِدُوهُنَّ سِرًّا ﴾ يريد: النكاح، وكما قال: ﴿ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ الْغَائِطِ ﴾ والغائط الصحراء"[6].

وقال في قوله ـ تعالى ـ: ﴿ يَأْتِيكُم بِهِ ﴾[7] كنايةٌ عن ذهاب السمع والبصر والختم على الأفئدة. وإذا كنيت عن الأفاعيل وإن كثرت وحّدتَ الكناية، كقولك للرجل: اقبالك وإدبارك يؤذيني. وقد يُقال: إنّ الهاء التي في ﴿ بِهِ ﴾ كناية عن الهدى، وهو كالوجه الأول"[8].

---

(1) نفسه: 2 / 170.
(2) سورة البقرة، من الآية: 235.
(3) سورة النساء، من الآية 43 ، وينظر : سورة المائدة، الآية : 6 .
(4) معاني القرآن: 1 / 153، وينظر: الاتقان في علوم القرآن: 2 / 100.
(5) سورة فصلت، من الآية 20.
(6) معاني القرآن: 3 / 16.
(7) سورة الأنعام، من الآية: 46.
(8) معاني القرآن: 1 / 335.

إنّ ضمير الغائب المفرد (الهاء) ناب عن ذهاب السمع والبصر والختم على الأفئدة، أو عن الهدى وأن يحلّ الضمير محل الاسم هو الكناية عند الفرّاء، وهذا ما نفهمه في شرحه لقوله - تعالى -: ﴿ فَإِذَا هِيَ شَٰخِصَةٌ أَبۡصَٰرُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ﴾ [(1)] وقال: وإن شئت جعلت ﴿ هِيَ ﴾ للأبصار، كنيت عنها ثم أظهرت الأبصار لتفسرها، كما قال الشاعر:

لَعَمْرُ أبيها لا تقـــــول ظَعينتي ألا فَرّ عــــنـي مــــالكُ بـــن أبي كعب

فذكر الظعينة وقد كنّى عنها في (لَعمر) "[(2)].

ومقتضى كلامه أن ﴿ هِيَ ﴾ تحل محل ﴿ أَبۡصَٰرُ ﴾ مضمرة في الآية، وجاءت الأبصار الثانية لتفسّر هذا المضمر، كما هو الأمر في بيت مالك بن أبي كعب الذي أضمرت فيه الظعينة الأولى وناب عنها الضمير "ها" وجاءت الظعينة الثانية لتشرح هذا المضمر وتبيّنه.

ويتضح أكثر أن الكناية عند الفرّاء هي ما ينوب عن المضمر أو علامته على حد قول أهل النحو، حين يشرح الآية الكريمة: ﴿ إِنَّا جَعَلۡنَا فِيٓ أَعۡنَٰقِهِمۡ أَغۡلَٰلٗا فَهِيَ إِلَى ٱلۡأَذۡقَانِ ﴾ [(3)] قال: " فكنّى عن هي، وهي للأيمان ولم تُذكر. وذلك أنّ الغُلّ لا يكون إلاّ باليمين، والعنق، جامعاً لليمين، والعُنق: فيكفي ذكر أحدهما من صاحبه "[(4)] أي أنّ الأيمان مضمرة في الآية وحلّت ﴿ هِيَ ﴾ محلها، فنابت أو كنّت عنها.

وشأن أبي عبيدة (ت 210 هـ) شأن الفرّاء في أن المعنى النحوي للكناية لم يمنعه من أن يشير إشارة عابرة - أيضاً - إلى الكناية بمعناها البلاغي، وهي إشارة تفيد الستر ولا شيء غيره، بمفهومه اللغوي الصرف. قال أبو عبيدة: "ومن مجاز ما يحوّل خبره إلى شيء من سببه، ويُترك خبره قوله - تعالى -: ﴿ فَظَلَّتۡ أَعۡنَٰقُهُمۡ لَهَا خَٰضِعِينَ ﴾ [(5)] حوّل الخبر إلى الكناية التي في آخر الأعناق"[(6)].

(1) سورة الأنبياء، من الآية: 97.
(2) معاني القرآن: 2 / 212.
(3) سورة يس، من الآية: 8.
(4) معاني القرآن: 2 / 372.
(5) سورة الشعراء، الآية: 4.
(6) مجاز القرآن: 1 / 12.

الكناية في ضوء هذا المعنى هي ما ينوب عن المضمر ـ أي إضمار (الكفار) وظهور الضمير (هم): ﴿أَعْنَاقُهُمْ﴾، والتقدير: (أعناق الكفار)، ولما كان الضمير ساتراً لكلمة الكفار أطلق عليه أبو عبيدة لفظ الكناية.

ويقول: "ومن مجاز ما جاء من الكنايات في موضع الأسماء بدلاً منهن قال ـ تعالى ـ: ﴿إِنَّمَا صَنَعُوا كَيْدُ سَاحِرٍ﴾ [1] فمعنى ﴿مَا﴾ معنى الاسم، مجازه: إنّ صنيعهم كيدُ ساحرٍ" [2].

إنّ ﴿مَا﴾ كناية عن الصنيع، حسب مفهوم الكناية عنده، أي هي التي نابت في الآية عنه وحلّت محلّه، وقد أضمر فصارت علامة له. والشيء نفسه في قوله ـ تعالى ـ: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ [3] إذ ﴿إِيَّاكَ﴾ كناية عن المفعول ذكرت عوضاً عنه وقامت مقامه [4].

ويكشف أبو عبيدة عن المكنى عنه في دراسته لطائفة من الآيات مثل قوله ـ تعالى ـ: ﴿أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ الْغَائِطِ﴾ يقول: "كناية عن حاجة ذي البطن" [5] وفي قوله ـ تعالى ـ: ﴿أَوْ لَامَسْتُمُ النِّسَاءَ﴾ "كناية عن الغشيان" [6]. وقال في قوله ـ تعالى ـ: ﴿انقَلَبْتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ﴾ [7] كلّ من رجع عما كان عليه، فقد رجع على عقبيه" [8]. وفي قوله ـ تعالى ـ: ﴿فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَىٰ مَا أَنفَقَ فِيهَا﴾ [9] أي فاصبح نادماً، والعرب تقول ذلك للنادم: أصبح فلان يقلّب كفّيه ندماً وتلهّفاً على ذلك، وعلى ما فاته" [10]. وقال في قوله ـ تعالى ـ: ﴿هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ﴾ [11] يقال لأمرأة الرجل: هي فراشه، ولباسه، وإزاره، ومحلّ إزاره" [12].

---

(1) سورة طه، من الآية: 69.
(2) مجاز القرآن: 1 / 15.
(3) سورة الفاتحة، من الآية: 5.
(4) ينظر: مجاز القرآن: 1 / 24.
(5) المصدر نفسه: 1 / 128.
(6) المصدر نفسه: 1 / 155.
(7) سورة آل عمران، من الآية: 144.
(8) مجاز القرآن: 1 / 104.
(9) سورة الكهف، من الآية: 42.
(10) مجاز القرآن: 1 / 404.
(11) سورة البقرة، من الآية: 187.
(12) مجاز القرآن: 1 / 67.

. إنّ الكناية بالمعنى النحوي هو الاستعمال الأساس عند أبي عبيدة وعند الفرّاء كذلك، أي أنها تؤدي مفهوماً نحوياً لا بلاغياً بوصفها وسيلة تعبير تصويرية، أو تركيباً يشكل مجموعة إشارات لغوية تدل على مدركات تنتقل بوساطتها إلى المعنى المطلوب إذ إن مفهوم الكناية عندهما يفيد أنها إحدى وسائل لغة القرآن الفنية.

إنّ المعنى البلاغي للكناية نجده يتضح ويتعمّق عند الجاحظ (ت 255 هـ) فهو قد وقف عند الكناية وقفات متعددة، تحدث فيها عن هذه الطريقة في التعبير العربي بشكله الفني، حديثاً يحدّد معناها البلاغي الذي ارتآه علماء البيان بعده. فقد ذكر أمثلة مختلفة للكناية بنوعيها: القريبة والبعيدة.

وقد أفرد الجاحظ للكناية باباً في كتابه (الحيوان) سمّاه (باب من الفطَن وفَهْم الرّطانات والكنايات) [1]. ومما أورده في هذا الباب قوله: أخبرني شيخٌ من بني العنبر قال: أَسَرَ بنو شَيبان رجلاً من بني العنبر، قال: دَعوني حتى أرسل إلى أهلي ليفدوني، قالوا: على ألاّ تكلّم الرسول إلاّ بين أيدينا، قال: نعم، قال: فقال للرسول: إئت أهلي فقل: إنّ الشجَر قد أورق، وقل: إنّ النّساء قد اشْتَكَت وخَرَزت القِرَبَ، قال له: انطلق إلى أهلي فقل لهم: عَرُّوا جملي الأصهب، واركبُوا ناقتي الحمراء، وسلوا حارثاً عن أمري ـ وكان حارث صديقاً له ـ فذهب الرسول فأخبرهم، فدعَوا حارثاً فقصّ عليه الرسول القصة فقال: أمّا قوله: 'إنّ الشجر قد أورق' فقد تسلّح القوم، وأمّا قوله: إنّ النساء قد اشتكت وخرزت القِرَب' فيقول: قد اتخذت الشُكا وخَرَزَت القِرَب للغزو، وأما قوله: 'عَرُّوا جملي الأصهب' فيقول: ارحلوا عن الصمّان'، وأما قوله: 'اركبوا ناقتي الحمراء' فيقول: انزلوا الدَّهناء. وكان القوم قد تهيّئوا لغزوهم، فخافوا أن ينذرهم، فأنذرهم وهم لا يشعرون، فجاء القوم يطلبونهم فلم يجدوهم' [2].

وهذا النص يشهد باستعمال الجاحظ لمصطلح الكناية حسب معناه اللغوي، لكنه في الوقت نفسه مرتبط بمعناه البلاغي ومندرج تحت المفهوم العام لهذه الوسيلة التعبيرية، لأن الكنايات في النص:

1 ـ ستر للمعنى المراد.

2 ـ استعمال الألفاظ يريد بها المتكلم لازم معناها، لا معناها الذاتي المباشر.

---

(1) الحيوان: 3 / 122.

(2) المصدر نفسه: 3 / 124 ـ125.

3 ـ تحتمل أن تكون حقيقة من جهة أنها استعمال حقيقي للفظ، ومجازاً من حيث تعبيرها عن معنى آخر قريب من المعنى المقصود وذي علاقة دلالية به.

وكذلك نلحظ أن الجاحظ وعى نوعين من الكناية هما: (القريبة والبعيدة) وقد أشار إليهما أكثر علماء البلاغة بعده حين قسّموها إلى قريبة وبعيدة. والقريبة هي: "أن تنتقل إلى مطلوبك من أقرب لوازمه إليه"[1]. والبعيدة هي "أن تنتقل إلى مطلوبك من لازم بعيد بواسطة لوازم متسلسلة"[2].

قال الجاحظ: "قالوا: حبّذا الوَضَحُ. والوضح كناية عن البياض، والبياض كناية عن البرص. وأوضاح الخيل: ما فيها من البياض"[3] إذ يصح عدّ هذا المثال من الكناية القريبة، إذ انتقالنا من الوضح إلى البرص، لا يقتضي منّا عملية ذهنية بعيدة التدرج من اللازم إلى الملزوم.

ونجد وعي الجاحظ بالكناية البعيدة في أمثلة لم يتوخ منها أصحابها ستر المعنى، الذي ترفّعوا عن التعبير عنه بشكل مباشر، وإنما تخيّلوا وعبّروا عن تخيّلهم بلغة مبدعة مهذّبة.

قال عمر بن الخطاب ﷺ: "هذا عدوٌ شديدٌ كَلَبُهُ، قليلٌ سَلَبُهُ"[4]. فالانتقال من اللازم (المعنى المكنى به) إلى الملزوم (المعنى المكنى عنه) لا يتم في قول عمر إلاّ بتلطف وإعمال فكر، لأن الكلب يستدعي في ذهننا ضراوة الحيوان وشدته الناتجتين عن الداء الذي أصابه،ثم ننتقل من هذا الذي ندركه من الكلام بشكل مباشر إلى المعنى المرتب عليه الخاضع لظروف الخطاب، وهو أن عمر وصف العدو بداء الكلب أو جنونه، ومعناه أنه شديد قاس، وربما لا نحتاج إلى هذا الانتقال من المعنى المباشر إلى المعنى المراد، عبر معنى ضمني في قوله: "قليل سلبه". لكن الأمر لا يقف عند هذا الحد، سواء فيما يتعلق بالكلب أو السلب، بل يتعداه إلى كناية بعيدة أرادها عمر، وهي نهيه عن أن يتعرّض المخاطب إلى هذا العدو أو يحاربه، لأن حربه شديدة وغنائمه قليلة[5]. وقد أدرك ذلك الجاحظ قائلاً: "فهي كما ترى عن التعرّض لهم، بأحسن كناية"[6].

---

(1) مفتاح العلوم، السكاكي، ص 190.
(2) نفسه، ص 190 ـ191.
(3) البرصان والعرجان، ص 94.
(4) رسائل الجاحظ: 1 / 76.
(5) ينظر: الرؤية البيانية عند الجاحظ، ادريس بلمليح، ص 225 ـ226.
(6) رسائل الجاحظ: 1 / 76.

والكناية عند الجاحظ أسلوب تقتضيه الضرورة، فهو عنده أبلغ من التصريح إذا كان التصريح لا يحسن، أو كان متعذراً، والتصريح أبلغ إذا كانت الكناية لا تفي بالغرض، يقول في ذلك "وقال بعض أهل الهند: ومن البصر بالحجة والمعرفة بمواضع الفُرصة أن تَدَع الإفصاح بها إلى الكناية عنها، إذا كان الإفصاح أوعرَ طريقةً"[1].

وبذلك فإن الجاحظ يسلك في دراسة أسلوب الكناية مسالك مختلفة مع تبيين قيمتها التعبيرية، ومواضع صلاحيتها وعدم صلاحيتها في الاستعمال اللغوي[2].

أما ابن قتيبة (ت 276 هـ) فقد خصّص في كتابه (تأويل مشكل القرآن) باباً سمّاه (الكناية والتعريض) وقد أطال الحديث فيه عنهما. والكناية عنده أنواع، ولها مواضع يقتضيها مقتضى الحال والسياق. قال: "والكناية أنواع، ولها مواضع، فمنها أن تكني عن اسم الرجل بالأبوة لتزيد في الدلالة عليه إذا أنت راسلته، أو كتبت إليه، إذ كانت الأسماء قد تتفق، أو لتعظمه في المخاطبة بالكُنية، لأنها تدل على الحُنكة وتُخبر عن الاكتهال"[3].

فالكناية عنده ذات مدلول لغوي، بمعنى عدول عن لفظ إلى آخر دال عليه لاظهار المعنى بما يليق زيادة في الدلالة وتعظيماً للمخاطب.

وعلى الرغم من أنّ ابن قتيبة لم يقدّم إلاّ مفهوماً لغوياً للكناية إلاّ أنه عرض لكثير من شواهدها وبخاصة الكنايات القرآنية وحللّها تحليلاً يدلّ على أنه كان يعي وظيفتها وقيمتها في التعبير عن المعاني. قال في قوله ـ تعالى ـ: ﴿ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ﴾[4] أي طهّر نفسك من الذنوب، فكنى عن الجسم بالثياب، لأنها تشتمل عليه"[5]. وقال في قوله ـ تعالى ـ: ﴿ لَوْ أَرَدْنَآ أَن نَّتَّخِذَ لَهْوًا لَّٱتَّخَذْنَٰهُ مِن لَّدُنَّآ إِن كُنَّا فَٰعِلِينَ ﴾[6] قال (قتادة) و (الحسن): اللهو: المرأة: وقال ابن عباس: هو الولد.

(1) البيان والتبيين: 1 / 88.
(2) ينظر: البلاغة عند الجاحظ، د. أحمد مطلوب، ص 98.
(3) تأويل مشكل القرآن، ص 256.
(4) سورة المدثر، الآية: 4.
(5) تأويل مشكل القرآن، ص 142.
(6) سورة الأنبياء، الآية: 17.

والتفسيران متقاربان، لأن امرأة الرجل لَهْوُهُ، وولده لَهوه، ولـذلك يُقـال: امـرأةُ الرجـل وولده ريحانتاه. وأصل اللهو: الجماع، فَكُنّي عنه باللهـو، كما كُنّي عنه بالسِّر، ثـم قيـل للمـرأة لَهْوٌ لأنها تُجامع "[1].

وقال في قولـه ـ تعالى ـ: ﴿ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ ﴾[2]، أي يمسكون عـن العطيـة، وأصـل هذا: أن المُعطي بيده يمدُّها ويبسطها بالعطاء، فقيل لكل من بَخِل ومنع: قد قبض يده. ومنه قوله ـ تعالى ـ: ﴿ وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا بِمَا قَالُوا ﴾[3] أي: مُمْسِكَة. ومنه قوله ـ تعالى ـ: ﴿ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ ﴾[4] أي: دَنَوا من الهلاك. وأصـل هـذا: أنّ العدوّ إذا أحاط بقوم أو بلـد فحاصره فقد دنا أهلُه من الهَلَكَة"[5].

وذكر (التعريض) وعدّه لوناً من ألـوان الكناية، وقال فيـه: "والعرب تستعمله في كلامهـا كثيراً، فتبلغ إرادتها بوجه هو ألطف وأحسن مـن الكـشف والتـصريح "[6]، وضـرب لـه أمثلـة قرآنية، فمن ذلك ما خبَّر الله ﷻ من نَبَإِ الخَصْمِ: ﴿ إِذْ دَخَلُوا عَلَىٰ دَاوُودَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ قَالُوا لَا تَخَفْ خَصْمَانِ بَغَىٰ بَعْضُنَا عَلَىٰ بَعْضٍ فَاحْكُم بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَلَا تُشْطِطْ وَاهْدِنَا إِلَىٰ سَوَاءِ الصِّرَاطِ ۞ إِنَّ هَٰذَا أَخِي لَهُ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً وَلِيَ نَعْجَةٌ وَاحِدَةٌ فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا وَعَزَّنِي فِي الْخِطَابِ ﴾[7]، إنما هو مثل ضربه الله ﷻ ونبهّه على خطيئته بـه. وورّى عن النساء بذكـر النعّاج، كما كنى الشاعر عـن جاريـة بـشاة، وكنـى الآخـر عـن النـساء بالقُلُص "[8].

ومـن التعـريض قولـه ـ تعـالى ـ: ﴿ قَالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا فَاسْأَلُوهُمْ إِن كَانُوا يَنطِقُونَ ﴾[9]، أراد: بل فعله الكبير، إن كـانوا ينطقون فسلوهـم، فجعل النطق شـرطاً للفعـل، أي إنْ كانوا ينطقون فقد فعله، وهو لا يعقِل ولا ينطق "[1].

(1) تأويل مشكل القرآن: 262 ـ 263.
(2) سورة التوبة، من الآية: 67.
(3) سورة المائدة، من الآية: 64.
(4) سورة يونس، من الآية: 22.
(5) تأويل مشكل القرآن، ص 267.
(6) نفسه، ص 263.
(7) سورة ص، الآيتان: 22، 23.
(8) تأويل مشكل القرآن: 266 ـ 267.
(9) سورة الأنبياء، الآية: 63.

ويقدم أبو العباس المبرِّد (ت 285 هـ) في كتابه (الكامل) دراسة عن الكناية اتسمت بالتصنيف العلمي.

يقول المبرد: "والكلام يجري على ضروب، فمنه ما يكون في الأصل لنفسه، ومنه ما يُكنى عنه بغيره، ومنه ما يقع مثلاً، فيكون أبلغ في الوصف"[2]. وقسّم الكناية ثلاثة أقسام، قال: "والكناية تقع على ثلاثة أضرب، أحدها: التّعمية والتّغطية، كقول النابغة الجعدي:

أكني بغير اسمها وقد عَلِمَ اللـه خفيّاتِ كلِّ مُكْتَتِمِ [3]

الكناية في هذا الضرب تعني الستر وعدم التصريح (أكني بغير اسمها).

أما الضرب الثاني، وهو الضرب الأحسن عند المبرد: "ويكون من الكناية ـ وذاك أحسنها ـ الرغبة عن اللفظ الخسيس المفحش إلى ما يدل على معناه من غيره، قال الله ـ وله المثل الأعلى ـ: ﴿أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ الرَّفَثُ إِلَىٰ نِسَائِكُمْ﴾ [4]. وقال: ﴿أَوْ لَامَسْتُمُ النِّسَاءَ﴾ والملامسة في قول أهل المدينة ـ مالك وأصحابه ـ غير كناية، إنما هو اللّمْسُ بعينهوكذلك قولهم في قضاء الحاجة: جاء فلان من الغائط، وإنما الغائط الوادي، وقال الله ﷻ:في المسيح بن مريم وأمه (صلى الله عليهما): ﴿كَانَا يَأْكُلَانِ الطَّعَامَ﴾ [5] وإنما هو كناية عن قضاء الحاجة.وقال ـ تعالى ـ: ﴿وَقَالُوا لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدْتُمْ عَلَيْنَا﴾ [6] وإنما هو كناية عن الفروج"[7].

واستحسان المبرد لهذا الضرب من الكناية راجع إلى أنه يستر اللفظ الخسيس المعبّر عن معنى يدلّ عليه غيره، وهذا في حدّ ذاته يمثل محاولة من المبرد لدراسة الكناية تقوم على الموازنة بين دوافعها.

والضرب الثالث من الكناية: (التفخيم والتعظيم)، ومنه اشتُقّت (الكنية) وهو أنْ يُعظّم الرجل من يُدعى باسمه، ووقعت في الكلام على ضربين:

---

(1) تأويل مشكل القرآن: 268.
(2) الكامل: 2 / 290.
(3) نفسه: 2 / 290.
(4) سورة البقرة، من الآية: 187.
(5) سورة المائدة، من الآية: 75.
(6) سورة فصّلت، من الآية: 21.
(7) الكامل: 2 / 291ـ292.

"وقعت في الصبيّ على جهة التفاؤل، بأن يكون له ولد ويُدعى بولده كنايةً عن اسمه، وفي الكبير أن يُنادى باسم ولده صيانة لاسمه"[1]. وتعني الكناية ستر الاسم وإخفاءه وهو يقوم على المفهوم اللغوي وهو الكنية.

وعلى الرغم من أنّ المبرّد لم يعرّف الكناية تعريفاً اصطلاحياً، إلاّ أنه في دراسته لها حاول فيها الموازنة بين ضروبها المتفاوتة بين حَسَن وأحسن، وأول من حاول تقسيمها إلى ثلاثة أضرب، وإنْ كان هذا التقسيم لا يرجع إلى تقسيم الجنس إلى أنواعه، وإنما هي ضروب لما تؤديه الكناية من فائدة في صناعة الكلام[2].

وتتسم دراسة البلاغة بطابع التخصّص عند ابن المعتز (ت 296 هـ) في كتابه (البديع) وتصبح الكناية عنده واحدة من محاسن الكلام والشعر فقال: "ومنها - يقصد محاسن الكلام - التعريض والكناية. قال علي ﷺ لعقيل، ومعه كبش له: أحد الثلاثة أحمق. فقال عقيل: أمّا أنا وكبشي فعاقلان. وكان عروة بن الزبير إذا أسرع إليه إنسان بسوء لم يُجِبْه ويقول: إني لأتركك رفعاً لنفسي عنك، فجرى بينه وبين علي بن عبد الله بن عباس كلام فأسرع عروة بسوء فقال: إني لأتركك لما تترك الناس له فاشتد ذلك على عروة.

وقال بعض ولد العباس بن محمد لابنه: يا ابن الزانية، فقال: ﴿ وَالزَّانِيَةُ لَا يَنكِحُهَا إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ ﴾[3] [4] [5]، مُضَمِّناً الآية الكريمة على سبيل التعريض.

وما ذكره ابن المعتز من أمثلة هي أدخلُ في التعريض منها في الكناية وإن كانت العلاقة بينهما علاقة عموم وخصوص، إلاّ أن فضله - على الرغم من أنه لم يقدِّم تعريفاً للكناية - يتمثّل في أنه أوقف كتابه على موضوع البلاغة خِلافاً لمن قبله كالجاحظ والمبرد اللّذين اتسمت دراسة الكناية عندهما بسمة لغوية حيث أُريد بها غالباً (الستر والخفاء) ولكنّها لم تخلُ من العمق والنضج ومن بعض الملاحظات التي حددت التعريف الاصطلاحي للكناية فيما بعد.

---

(1) نفسه: 2 / 292.

(2) ينظر: علم البيان، د. بدوي طبانة، ص235، وينظر: الأسلوب الكنائي نشأته تطوره بلاغته ـ د. محمود السيد شيخون، ص 9.

(3) سورة النور، من الآية : 3 .

(4) سورة النور، من الآية: 3.

(5) البديع، ص 64.

ووقف ابن جرير الطبري (ت 310 هـ) في تفسيره على كثير من الكنايات القرآنية، وأشار إلى المكنى به والمكنى عنه فيها، وهو يعزو ما يذهب إليه أهل التأويل فيها. قال ـ تعالى ـ في الآية الكريمة: ﴿ أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ الرَّفَثُ إِلَىٰ نِسَائِكُمْ ﴾، فأمّا الرفث فإنه كناية عن الجماع في هذا الموضع،بمثل الذي قلنا في تأويل الرفث قال أهل التأويل"[1].

وقال في قوله ـ تعالى ـ: ﴿ هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ ﴾ كما قال نابغة بن جعدة:

إذا ما الضّجيعُ ثنى عِطفَها ... تداعتْ فكانتْ عليهِ لِباساً

ويروى: (تثنّت)، فكنى عن اجتماعهما متجردين في فراش واحد باللباس، كما يُكنى بالثياب عن جسد الإنسان[2].

وقال في الآية: ﴿ وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُم بَيْنَكُم بِالْبَاطِلِ وَتُدْلُوا بِهَا إِلَى الْحُكَّامِ لِتَأْكُلُوا فَرِيقًا مِّنْ أَمْوَالِ النَّاسِ بِالْإِثْمِ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾[3] يعني ـ تعالى ذكره ـ بذلك: ولا يأكل بعضكم مال بعض بالباطل، فجعل ـ تعالى ذكره ـ بذلك آكل مال أخيه بالباطل كالآكل مال نفسه بالباطل. ونظير ذلك قوله ـ تعالى ـ: ﴿ وَلَا تَلْمِزُوا أَنفُسَكُمْ ﴾[4] وقوله ـ تعالى ـ: ﴿ وَلَا تَقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ ﴾[5] بمعنى لا يلمز بعضكم بعضاً، ولا يقتل بعضكم بعضاً ـ لأن الله تعالى ذكره ـ جعل المؤمنين أخوة، فقاتل أخيه كقاتل نفسه، ولامزه كلامز نفسه.

وكذلك تفعل العرب، تُكنى عن أنفسها بأخواتها، وعن أخواتها بأنفسها فتقول: أخي وأخوك أيّنا أبطش، تعني: أنا وأنت نصطرع، فننظر أيّنا أشدّ، فيكني المتكلم عن نفسه بأخيه، لأن أخا الرجل عندها كنفسه"[6].

وقال في الآية: ﴿ وَإِن يُقَاتِلُوكُمْ يُوَلُّوكُمُ الْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ ﴾[7]، فقوله ﴿يُوَلُّوكُمُ الْأَدْبَارَ﴾ كناية عن انهزامهم، لأنّ المنهزم يحوّل ظهره إلى جهة الطالب، هرباً إلى ملجأ وموئل يئل إليه

(1) جامع البيان في تفسير القرآن: 2 / 94.
(2) نفسه: 2 / 94.
(3) سورة البقرة، الآية: 188.
(4) سورة الحجرات، من الآية: 11.
(5) سورة النساء، من الآية: 29.
(6) جامع البيان في تفسير القرآن: 2 / 106 ـ107.
(7) سورة آل عمران، من الآية: 111.

منه، خوفاً على نفسه،والطالب في أثره، فدبر المطلوب ـ حينئذٍ ـ يكون محاذي وجه الطالب الهازمة"[1].

ويذكر ابن عبد ربّه (ت 328هـ) في كتابه (العقد الفريد) عدداً من الكنايات القرآنية في الباب الذي خصصه للكناية والتعريض والذي أورد فيه أنواعاً منهما، فقال: "بابالكناية والتعريض: من أحسن الكناية اللطيفة التكنية عن المعنى الذي يَقْبُح ظاهرهوقد كنى الله ـ تعالى ـ في كتابه عن الجماع بالملامسة، وعن الحدث بالغائط،فقال ـ تعالى ـ: ﴿ أَوْ جَآءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ ٱلْغَآئِطِ ﴾ والغائط: الفَحْص وجمعه غيطان. ﴿ وَقَالُواْ مَالِ هَـٰذَا ٱلرَّسُولِ يَأْكُلُ ٱلطَّعَامَ... ﴾[2] وإنما كنى به عن الحدث. وقال ـ تعالى ـ: ﴿ وَٱضْمُمْ يَدَكَ إِلَىٰ جَنَاحِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ ... ﴾[3] فكنى بالسُّوء عن البرص"[4].

وأردف ابن عبد ربّه هذا الباب بباب: (الكناية يُورّى بها عن الكذب والكفر)، وذكر له شواهد هي من التورية أو الإيهام والتضليل المتعمد المقصود وليس من الكناية، من ذلك: "ولمّا ولي الواثقُ وأقعد للناس أحمد بن أبي دواد للمحنة في القرآن ودعا إليه الفقهاء، أُتي فيهم بالحارث بن مِسكين، فقيل له: أتشهد أن القرآن مخلوق؟. قال: أشهد أن التوراة والانجيل والزبور والقرآن، هذه الأربعة مخلوقة، ومدّ أصابعه الأربع، فعرَّض بها وكنّى عن خلق القرآن، وخلّص مُهْجته من القتْل وعجز أحمد بن نصر ـ فقيه بغداد ـ عن الكناية فأباها فقُتِل وصُلِب"[5].

وأمثلة هذا الباب كأمثلة الباب ـ أيضاً ـ الذي جاء به بعنوان:: الكناية عن الكذب في طريق المدح "فهي من التورية والإيهام وليس من الكناية، من ذلك الذي أورده: "ودخل على عيسى بن موسى وعنده ابن شُبْرُمة، فقال له: أتعرف هذا الرجل؟ ـ وكان رُمِيَ عنده بريبة ـ فقال: إنّ له بيتاً وقدماً وشرفاً، فخلّى سبيله. فلما انصرف ابن شبرمة، قال له أصحابه: أكنت تعرف هذا الرجل؟ قال: لا، ولكني عرفتُ أنَّ له بيتاً يأوى إليه، وقدماً يمشي عليها، وشرفُهُ:

(1) جامع البيان في تفسير القرآن: 4 / 31.
(2) سورة الفرقان، من الآية: 7.
(3) سورة طه، من الآية: 22.
(4) العقد الفريد: 2 / 461 ـ462.
(5) المصدر نفسه: 2 / 465.

أدناهُ ومُتَّكِياه "[1]، وأردف هذا كله بباب: "الكناية والتعريض في طريق الدعابة "قال فيه: "سُئل ابن سيرين عن رجل، فقال: تُوفِّي البارحة، فلما رأى جَزَع السائل، قال: ﴿ ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَٱلَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا ﴾ [2] وإنما أردت بالوفاة: النوم "[3].

وبذلك خلط ابن عبد ربِّه بين الكناية والتورية. ولم يدخل في باب الكناية إلاّ ما ذكره من آيات قرآنية كريمة.

ثم نجد أسلوب الكناية يتطوّر من مفهومه اللغوي إلى المفهوم الاصطلاحي عند قدامة ابن جعفر (ت 337 هـ) في كتابه (نقد الشعر)، وهو أول من عرّفها باسم (الأرداف) ولم يسمِّها كناية، وذلك في دراسته لأنواع ائتلاف اللفظ والمعنى. قال: "ومن أنواع ائتلاف اللفظ والمعنى، وهو أن يريد الشاعر دلالة على معنى من المعاني فلا يأتي باللفظ الدال على ذلك المعنى، بل بلفظ يدل على معنى هو ردفه وتابع له، فإذا دَلَّ على التابع أبان عن المتبوع "[4].

وهذا التعريف للأرداف هو تعريف (الكناية) عند الدارسين بعده كـأبي هلال العسكري (ت 395 هـ) [5]، وابن سنان الخفاجي (ت 466 هـ) [6] وعبد القاهر الجرجاني (ت 471 هـ) [7] وغيرهم [8]، والشواهد التي ساقها للأرداف هي من شواهد الكناية عند البلاغيين.

ثم يحاول قُدامة أن يجلّي هذا التعريف للأرداف بأبيات شعرية يبيّن فيها المعنى الذي ينطوي تحت هذا الفن، من ذلك قول عمر بن أبي ربيعة:

بعيدةُ مَهْوَى القُرطِ إمّـــا لنـــوفلٍ ... أبوها وإمّـــــا عبدُ شمْس وهاشمُ

يقول: "وإنما أراد الشاعر أن يصف طول الجيد فلم يذكره بلفظه الخاص به، بل أتى بمعنى هو تابعٌ لطول الجيد، وهو بعد مهوى القرط "[9].

---

(1) المصدر نفسه: 2، 466ـ467.
(2) سورة الزمر، من الآية: 42.
(3) العقد الفريد: 2 / 467.
(4) نقد الشعر، ص 157.
(5) كتاب الصناعتين، ص 350.
(6) سر الفصاحة، ص 221.
(7) دلائل الإعجاز، ص 105.
(8) العمدة: 1 / 313 ـ314 مثلاً.
(9) نقد الشعر، ص 157 ـ158.

ويقول في بيت امرئ القيس:

ويُضحي فتيتُ المِسْكِ فوقَ فراشِها نؤومَ الضُّحى لَمْ تَنْطَقْ عن تَفَضُّلِ

وإنما أراد أن يذكر ترفُّهَ هذه المرأة وأنّ لها من يكفيها فقال: "نؤوم الضحى" وأن فتيت المسك يبقى إلى الضحى فوق فراشها، وكذلك سائر البيت أي هي لا تتنطق لتخدم ولكنها في بيتها متفضلة"[1].

وتكاد الدراسة التي قام بها قُدامة بشواهدها نجدها في دراسة الكناية عند من جاء بعده.

وقد أشار قُدامة إلى الوسائطين المكنى به والمكنى عنه وأثرها في وضوح المعنى وغموضه، قال: "ومن هذا النوع ما يدخل في الأبيات التي يسمونها أبيات المعاني، وذلك إذا ذكر الردف وحده، وكان وجه اتباعه لما هو ردف له غير ظاهر، أو كانت بينه وبينه أرداف أُخَر، كأنها وسائط وكثرت حتى لا يظهر الشيء المطلوب بسرعة إذا غمض، ولم يكن داخلاً في جملة ما ينسب إلى جيد الشعر إذ كان من عيوب الشعر الانغلاق وتعذّر العلم بمعناه"[2].

وفي ضوء هذه الوسائط التي أشار إليها قدامة يؤسس البلاغيون المتأخرون ـ خاصة ـ معياراً لجودة الكناية ورداءتها، ومصطلحات توصف بها الكناية بحسب تلك الوسائط كالتلويح والرمز والإيماء والإشارة[3].

وبذلك يُعدّ قُدامة أول من أعطى التعريف الاصطلاحي لفن الكناية، متجاوزاً بذلك الدراسات السابقة عليه والتي كادت لا تتجاوز المفهوم اللغوي للكناية.

أما أبو هلال العسكري (ت 395 هـ) فنجده يفرّق بين المفهوم اللغوي للكناية ومفهومها الاصطلاحي، إلا أنها موزعة بين عدة مصطلحات هي: (الكناية، والتعريض، والارداف، والمماثلة)[4].

ويعرّف الكناية والتعريض ـ وكأنهما شيء واحد عنده ـ بقوله: "وهو أن يُكنى عن الشيء ويعرّض به ولا يصرّح، على حسب ما عملوا باللَّحْن والتورية عن الشيء، كما فعل

(1) نفسه، ص 158.
(2) نقد الشعر، ص 159.
(3) ينظر: مفاتيح العلوم، ص194. وسنتكلم عليها بالتفصيل في موضعها.
(4) ينظر: كتاب الصناعتين، ص 350 ـ370.

العَنْبري إذ بعث إلى قومه بصُرَّةِ شوك وصُرَّة رمل وحنظلة يريد: جاءتكم بنو حنظلة في عدد كثير ككثرة الرمل والشوك"[1].

مفهوم الكناية هنا مفهوم لغوي، ويعني: الستر والخفاء. ومن الشواهد القرآنية التي أوردها لها، قوله ـ تعالى ـ: ﴿ أَوْ جَآءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ ٱلْغَآئِطِ ﴾ قال: "فالغائط كناية عن الحاجة، وملامسة النساء كناية عن الجماع" وقوله ـ تعالى ـ: ﴿ وَفُرُشٍ مَّرْفُوعَةٍ ﴾[2] قال "كناية عن النساء"[3].

في حين نجد التعريف الاصطلاحي للكناية في تعريفه للإرداف كما عرّفه قُدامة من قبل. قال أبو هلال: "أن يُريد المتكلم الدلالة على معنى فيترك اللفظ الدال عليه، الخاص به، ويأتي بلفظ هو ردْفُه وتابعٌ له، فيجعله عبارة عن المعنى الذي أراده"[4].

ومن الشواهد القرآنية التي أوردها، قوله ـ تعالى ـ: ﴿ فِيهِنَّ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ ﴾[5] قال: "وقصور الطرف في الأصل موضوعة للعفاف على جهة التوابع والأرداف، وذلك أن المرأة إذا عفّت قصرت طرفها على زوجها، فكان قصور الطرف رِدْفاً للعفاف، والعفاف رِدْف وتابع لقصور الطرف"[6].

كذلك نجد صوراً من الكناية عند العسكري في فصل (المماثلة) وقد عرّفها بقوله: "المماثلة: أن يريد المتكلم العبارة عن معنى، فيأتي بلفظ يكون موضوعاً بمعنى آخر، إلاّ أنه ينبيء إذا أورده عن المعنى الذي أراده، كقولهم: "فلانٌ نَقِيُّ الثَّوْبِ"، يريدون به أنه لا عيب فيه. وليس موضوع نقاء الثوب البَراء من العيوب، وإنما استعمل فيه تمثيلاً"[7].

وأورد للمماثلة شواهد من القرآن الكريم منها قوله ـ تعالى ـ: ﴿ وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ ٱلْبَسْطِ ﴾[8] قال: "فمثّل البخيل الممتنع من البذل بالمغلول، لمعنى يجمعهما،

---

(1) نفسه، ص 368. وينظر: معجم المصطلحات البلاغية وتطورها، د. أحمد مطلوب: 3 / 157.
(2) سورة الواقعة، الآية: 34.
(3) كتاب الصناعتين، ص 368.
(4) كتاب الصناعتين، ص 350. وينظر: نقد الشعر، ص 157، للمقارنة.
(5) سورة الرحمن، من الآية: 56. وينظر: سورة الصافات، الآية: 48، وسورة ص، الآية: 52.
(6) كتاب الصناعتين، ص 350.
(7) نفسه، ص 353. وقارن بقدامة في نقد الشعر، ص 159 ـ160.
(8) سورة الاسراء، من الآية: 29.

وهو أن البخيل لا يَمُدُّ يَدَهُ بالعطية فشبّهه بالمغلول"[1]،وقوله ـ تعالى ـ: ﴿كَالَّتِي نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنكَاثًا﴾ [2]، قال: "فمثّل العمل ثم إحباطه بالنقض بعد الفتل"[3]. وقوله ـ تعالى ـ: ﴿وَلَا تَتَّخِذُوٓا۟ أَيْمَٰنَكُمْ دَخَلًۢا بَيْنَكُمْ فَتَزِلَّ قَدَمٌۢ بَعْدَ ثُبُوتِهَا﴾ [4]" وأورد قوله ـ تعالى ـ: ﴿إِنَّ هَٰذَآ أَخِى لَهُۥ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً وَلِىَ نَعْجَةٌ وَٰحِدَةٌ﴾ [5]" وهو ليس من باب المماثلة، وإنما هو كناية عن موصوف (النساء)، أي: كنّى بالنعّاج عن النساء ولم يتّضح في هذه الكناية التمثيل. فهو قد خلط بينهما كما خلط الكناية بالتعريض إلى حدٍّ لم يتبين القارئ ما يراه العسكري كناية وما يراه تعريضاً"[6].

وهذا الخلط في المصطلحات نجده عند ابن رشيق (ت 456 هـ) أيضاً في دراسته للكناية وقد جعلها في باب المجاز وباب الاشارة.

في باب المجاز يقول: "وكذلك الكناية في مثل قوله ﷺإخباراً عن عيسى ومريم ـ عليهما السلام ـ: ﴿كَانَا يَأْكُلَانِ ٱلطَّعَامَ﴾ [7]" كناية عمّا يكون عنه من حاجة الانسان، وقوله ـ تعالى ـ حكاية عن آدم وحواء ـ صلى الله عليهما ـ: ﴿فَلَمَّا تَغَشَّىٰهَا﴾ [8] كناية عن الجماع"[9].

ثم يذكر الكناية في باب الإشارة، والإشارة عنده تشمل عدة مصطلحات أغلبها يندرج تحت مفهوم الكناية الاصطلاحي مثل: (التفخيم والإيماء والتعريض والتلويح والكناية والتمثيل والرمز واللمحة والتورية والتتبيع).

والتتبيع عنده الارداف عند قُدامة بن جعفر، قال ابن رشيق: "ومن أنواع الإشارة التتبيع، وقوم يسمونه التجاوز، وهو: أن يريد الشاعر ذكر الشيء فيتجاوزه، ويذكر ما يتبعه في الصفة وينوب عنه في الدلالة عليه، وأول من أشار إلى ذلك أمرؤ القيس يصف امرأة:

---

(1) كتاب الصناعتين، ص 354.
(2) سورة النحل، من الآية: 92.
(3) كتاب الصناعتين، ص 354.
(4) سورة النحل، من الآية: 94.
(5) سورة ص، من الآية: 23.
(6) ينظر: كتاب الصناعتين، ص 368.
(7) سورة المائدة، من الآية: 75.
(8) سورة الأعراف، من الآية: 189.
(9) العمدة: 1 / 268.

ويُضحي فتيتُ المِسْكِ فوقَ فراشِهـا   نـؤُومُ الضُّحى لم تَنْتطِقْ عـن تفضُّلِ

فقوله: "يضحي فتيت المسك "تتبيع، وقوله "نؤوم الضحى "تتبيع ثـان، وقولـه "لم تنتطق عن تفضل "تتبيع ثالث، وإنما أراد أن يصفها بالتَّرفُّه، والنعمة، وقلَّة الامتهان في الخدمة، وأنها شريفة مكفية المؤنة، فجاء بما يتبع الصفة ويدل عليها أفضل دلالة"(1).

ونجد المعنى اللغوي للكناية عنده في التورية التي يقول فيها: "وأما التورية في أشعار العرب فإنما هي كناية: بشجرة، أو شاة، أو بيضة، أو ناقة، أو مهرة، أو ما شاكل ذلك كقول المسيّب بن عَلَس:

دعـا شجرَ الأرضِ داعيـهـمُ   لِيَنصُـرهُ السِّـدْرُ والأثـأبُ

فكنى بالشجر عن الناس، "يقولون في الكلام المنثور: جاء فلان بالشوك والشجر، إذا جاء بجيش عظيم"(2).

وأكثر ما أورده من شواهد للتورية هو من الكناية، من ذلك إيراده لقوله ـ تعالى ـ: ﴿إِنَّ هَٰذَآ أَخِى لَهُۥ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً وَلِىَ نَعْجَةٌ وَٰحِدَةٌ﴾ قال: "كناية بالنعجة عن المرأة"(3). ويبدو أن المعنى اللغوي للتورية والكناية الذي يشتركان فيه وهو (الستر والخفاء) هو الذي جعل ابن رشيق وغيره يخلط: بينهما ويسمي أحدهما بالآخر(4).

وعقد ابن سنان الخفاجي (ت 466 هـ) في كتابه (سر الفصاحة) دراسة للكناية امتازت بالعمق والتحليل الأدبي لها لتجلية قيمتها التعبيرية والجمالية من خلال موازنتها مع غيرها من التعابير في حدود النصوص التي تناولها.

وهو قد درس الكناية في موضعين:

الأول: تحت اسم الكناية، وذلك في دراسته للأجناس التي يجب فيها وضع الألفاظ موضعها، قال: "ومن هذا الجنس حسن الكناية عمّا يجب أن يُكنى عنه في الموضع الذي لا يحسن فيه التصريح، وذلك أصل من أصول الفصاحة، وشرط من شروط البلاغة"(5).

---

(1) نفسه: 1 / 313 ـ 314.

(2) العمدة: 1 / 311.

(3) نفسه: 1 / 312.

(4) ينظر، ص 26 من: (الهامش)

(5) سر الفصاحة، ص 155، 156. وينظر: البيان والتبيين: 1 / 88.

فالكناية عنده أصل من أصول الفصاحة، وشرط من شروط البلاغة، والكناية أسلوب له مقامه وغرضه الذي يحسن فيه، والعدول عنه في المكان الذي يقتضيه يؤدي إلى فقدان الأسلوب الفصاحة والبلاغة. قال: "وإنما قلنا في الموضع الذي لا يحسن فيه التصريح، لأن مواضع الهزل والمجون وإيراد النوادر يليق بها ذلك، ولا تكون الكناية فيها مرضية، فإن لكل مقام مقالاً، ولكل غرض فناً وأسلوباً"(1).

ويورد ابن سنان مما يستحسن من الكنايات ومما يستقبح منها، قال: "ومما يستحسن من الكنايات قول امرئ القيس:

فَصِرنا إلى الحُسنى ورقَّ كلامُنا   وَرُضتُ فذلَّت صعبةٌ أيَّ إذلالِ

لأنه كنى عن المباضعة بأحسن ما يكون من العبارة.

ومن هذا الفن أيض منت حسن الكناية قول أبي الطيب:

تدّعي ما ادعيتُ من ألم الشوقِ   إليها والشوقُ حيثُ النُّحولُ

لأنه كنى عن كذبها فيما ادعته من شوقها بأحسن كناية، وأضداد هذا من قبح العبارات قول أبي الطيب:

إنّي على شَغَفي بما في خُمرِه   لأعِفُّ عمّا في سراويلاتِها (2)

فالحسن عند ابن سنان في التعبير الكنائي أن يُكنى عن المعنى الذي لا يحسن في التصريح بألفاظ أخرى لا يدلّ ظاهرها عليه، والقبح عنده خلاف ذلك وهو التصريح باللفظ المفحش كما فعل المتنبي. وهذا هو ما ذهب إليه المبرد من قبل في أنّ من الكناية ـ وذلك أحسنها ـ الرغبة عن اللفظ الخسيس المفحش إلى ما يدل على معناه من غيره"(3).

كما نجد الكناية عند ابن سنان في نعوت البلاغة والفصاحة، وهو يتابع في هذا قُدامة بن جعفر في التحليل والتعريف، قال: "ومن نعوت البلاغة والفصاحة أن تراد الدلالة على المعنى، فلا يستعمل اللفظ الخاص الموضوع له في اللغة، بل يُؤتى بلفظ يتبع ذلك المعنى

(1) سر الفصاحة، ص 156.
(2) سر الفصاحة، ص 156 ـ157.
(3) ينظر: ص 19 من:.

ضرورة، فيكون في ذكر التابع دلالة على المتبوع، وهذا يُسمى الأرداف والتتبيع، لأنه يُؤتى فيه بلفظ هو ردف اللفظ المخصوص بذلك المعنى وتابعه"(1).

ويقدم الخفاجي أمثلة لهذا النوع من الكناية ويحللّها تحليلاً يجلّي فيه القيمة التعبيرية له، من ذلك تحليله لبيت عمرو بن ربيعة:

بعيدةُ مَهْوى القُـــــرطِ إمّا لنوفلٍ   أبوهـــــا وإمّا عبد شمس وهاشمُ

"فإنه إنما أراد أن يصف هذه المرأة بطول العنق، فلو عبّر عن ذلك باللفظ الموضوع له لقال ـ طويلة العنق ـ فعدل عن ذاك وأتى بلفظ يدل عليه وليس هو الموضوع له، فقال ـ بعيدة مهوى القرط ـ فدل ببعد مهوى قرطها على طول الجيد، وكان في ذلك من المبالغة ما ليس في قوله ـ طويلة العنق ـ لأن بعد مهوى القرط يدل على طول أكثر من الطول الذي يدل عليه ـ طويلة العنق ـ لأن كل بعيدة مهوى القرط طويلة العنق، وليس كل طويلة العنق بعيدة مهوى القرط، إذا كان الطول في عنقها يسيراً، وهذا موضع يجب فهمه"(2).

فهو يوازن بين التعبير لو جاء مصرحاً بطول العنق، والتعبير الكنائي (بعيدة مهوى القرط) لسبين قيمة التعبير الكنائي والمبالغة التي يحققها مِمّا لا نجده في التعبير الحقيقي الصريح.

ومثل هذه الموازنات تدللّ على نضج دراسته للكناية، من ذلك تحليله لبيت البحتري، قال: "ومن هذا الفن من الأرداف قول أبي عُبادة:

فأوْجَرْتُهُ فَأَضْلَلْـــتُ نَصْلَهُــــحيث   يــكــــون اللّبُ والرّعـــبُ والحِقْدُ

لأنه أراد ـ القلب ـ فلم يعبر عنه باسمه الموضوع له، وعدل إلى الكناية عنه بما يكون اللب والرعب والحقد فيه، وكان ذلك أحسن لأنه إذا ذكره بهذه الكنايات كان قد دلّ على شرفه وتميزه من جميع الجسد بكون هذه الأشياء فيه، وأنه أصاب هذا المرمى في أشرف موضع منه،ولو قال ـ أصبته في قلبه ـ لم يكن في ذلك دلالة على أن القلب أشرف أعضاء الجسد، فعلى هذا السبيل يحسن الارداف"(3).

---

(1) سر الفصاحة، ص 212، ونقد الشعر، ص 157.

(2) سر الفصاحة، ص 221.

(3) سر الفصاحة، ص 223.

ورغم هذا التحليل الذي يبين قيمة الكناية في التعبير عن المعنى، إلاّ أن الخفاجي يفصل بين الكناية والإرداف ولكل منهما موضعه الخاص به. والكناية عنده مقصورة على ما يستقبح ذكره من الألفاظ[1] "وهذه النظرة في دراسة الكناية تعدّ غرضاً واحداً من أغراضها وليست هي مفهومها العام، وهي نظرة لغوية تقوم على ستر ما يستقبح ذكره ـ من الكلام ـ وتضع الكناية في موضع ضيّق محدود بفصل بينها وبين (الإرداف) الذي هو معناه الاصطلاحي عند البلاغيين"[2].

وسبب ذلك راجع إلى أن الكناية عنده ذات معنى لغوي لستر ما يستقبح ذكره وأما الإرداف وهو المعنى الاصطلاحي، فهو عنده من النعوت،فعمر بن أبي ربيعة ينعت صاحبته (بعيد مهوى القرط)، والبحتري يصف القلب بأنه مكمن اللب والرعب والحقد، وأن في الإرداف من المبالغة في الوصف مالا يكون في التعبير الصريح[3].

إنّ دراسة الخفاجي للكناية مهّدت لمرحلة جديدة في دراستها، وذلك على يد عبد القاهر الجرجاني (ت 471 هـ) الذي أفاد فائدة كبيرة من الدراسات السابقة له، خصوصاً ما قدمه الخفاجي في تحليلاته لأسلوب الكناية، وما قدّمه قُدامة بن جعفر من قبل من حيث تحديد المفهوم الاصطلاحي للكناية وعدم الفصل بينه وبين المفهوم اللغوي.

خصص عبد القاهر الجرجاني فصلاً للفظ يُطلق والمراد به غير ظاهره، قال فيه: "اعلم أنّ لهذا الضرب اتساعاً، وتفنناً لا إلى غاية، إلاّ أنه على اتساعه يدور في الأمر الأعم على شيئين: الكناية والمجاز. والمراد بالكناية ههنا: أن يريد المتكلم إثبات معنى من المعاني، فلا يذكره باللفظ الموضوع له في اللغة، ولكن يجيء إلى معنى هو تاليه وردفه في الوجود، فيومىء به إليه، ويجعله دليلاً عليه"[4]. فهو يُعَرّف الكناية كما عرّف قُدامة الإرداف من قبله، إلاّ أن عبد القاهر يسميها الكناية.

وقد أورد عبد القاهر أمثلة لهذا النوع من الكناية وأفاض في التحليل لبيان قيمتها وبلاغتها وأثرها في تصوير المعنى المقصود. مثال ذلك قولهم: "هو طويل النجاد"، يريدون طويل القامة، و"كثير رماد القدر" يعنون كثير القِرى، وفي المرأة: "نؤوم الضحى"، والمراد أنها مترفة

(1) ينظر: المصدر نفسه، ص 156 وما بعدها.
(2) الكناية أساليبها ومواقعها في الشعر الجاهلي، محمد الحسن علي الأمين احمد، ص 354.
(3) ينظر: الكناية أساليبها ومواقعها في الشعر الجاهلي، ص 36.
(4) دلائل الإعجاز، ص 105. وللمقارنة، ينظر: نقد الشعر، ص 157.

مخدومة، لها من يكفيها أمرها وإذا كانت المرأة مترفة لها من يكفيها أمرها ردف ذلك أن تنام إلى الضحى "(1).

ويقول في بيت الشاعر:

وما يــــكُ فيَّ مِنْ عَـــيْبٍ فإنِّيجَبانُ الــكلب مهـــزولُ الفَـــصيلِ

"فكما أنه إنما كان من فاخر الشعر ومما يقع في الاختيار لأجل أن أراد أن يذكر نفسه بالقرى والضيافة فكنّى عن ذلك بجبن الكلب وهُزال الفصيل، وترك أن يصرح فيقول: قد عرف أن جنابي مألوف وكلبي مؤدّب لا يهرّ في وجوه من يغشاني من الأضياف، وإنّي أنحر المتالي من إبلي وأدع فصالها هزلى "(2).

وكما تحدث عبد القاهر عن الكناية بطريق الإرداف في إثبات الصفة، تحدث عن نوع ثانٍ من أنواع الكناية اصطلح عليه بالكناية عن نسبة، وهو أول من تحدث عنه وجلّى أسراره ودقّته في التعبير(3) يقول في هذا النوع من الكناية: "هذا فن من القول دقيق المسلك، لطيف المأخذ، وهو أنّا نراهم كما يصنعون في نفس الصفة بأن يذهبوا بها مذهب الكناية والتعريض، كذلك يذهبون في إثبات الصفة هذا المذهب، وإذا فعلوا ذلك بدت هناك محاسن تملأ الطرف، ودقائق تعجز الوصف، ورأيت هناك شعراً شاعراً، وسحراً ساحراً، وبلاغة لا يكمل لها إلاّ الشاعر المفلق"(4). ثم يُفسِّر هذا الكلام بقوله: "وتفسير هذه الجملة وشرحها أنهم يرمون وصف الرجل ومدحه وإثبات معنى من المعاني الشريفة له فيدعون التصريح بذلك ويكنون عن جعلها فيه بجعلها في شيء يشتمل عليه ويتلبس به ويتوصلون في الجملة إلى ما أرادوا من الإثبات.."(5) ويورد عبد القاهر أمثلة كثيرة على هذا النوع من الكناية، من ذلك قول زياد بن الأعجم:

إنَّ السَّمـــاحةَ والمـــروءةَ والنَّدى   في قُبَّةٍ ضُـــربَتْ عـــلى ابنِ الحَشْرَجِ

---

(1) نفسه، ص 105.
(2) نفسه، ص 297.
(3) ينظر: الصورة الأدبية، د. مصطفى ناصف، ص 152. وينظر: عبد القاهر الجرجاني، بلاغته ونقده، د. أحمد مطلوب، ص 158.
(4) دلائل الإعجاز، ص 296.
(5) نفسه، ص 296.

يبين عبد القاهر قيمة الكناية في البيت بتصويرها المعنى بطريقة حسية مؤثرة من خلال موازنته للبيت بما يقابله من معنى على سبيل التصريح.

ثم يقول: "وعدل إلى ما ترى من الكناية والتلويح فجعل كونها في القبة المضروبة عليه عبارة عن كونها فيه والإشارة إليه فخرج كلامه بذلك إلى ما خرج إليه من الجزالة، وظهر فيه ما أنت ترى من الفخامة"(1).

ومن هذا النوع أيضاً من الكناية (كناية عن نسبة) عنده ما ذكره في قوله: "ومما هو اثبات للصفة على طريق الكناية والتعريض قولهم: المجد بين ثوبيه، والكرم في برديه، وذلك أن قائل هذا يتوصل إلى إثبات المجد والكرم للممدوح بأن يجعلهما في ثوبه الذي يلبسه، كما توصل زياد إلى اثبات السماحة والمروءة والندى لابن الحشرج بأن جعلهما في القبة التي هو جالس فيها"(2).

وكل ما ذكره عبد القاهر من شواهد سواء للكناية عن صفة أو الكناية عن نسبة دارت في كتب البلاغة بعده، قاطبة ولم يكد يخرج أحد عنها

إنّ قيمة الكناية في التعبير الأدبي عند عبد القاهر لا تنحصر في نطاق ضيّق لا تخرج عن تغطية المعنى المستفحش كما رأينا عند ابن سنان مثلاً، وإنما هي وسيلة حيوية من التعبير لكونها من الأساليب الإيحائية، فهي لا تدل على المعنى في صورة مباشرة، وإنما يشتغل بها الذهن ويعمل فيها الخيال.

في الكناية معنى يقود إلى معنى مقصود من وراء الألفاظ والتراكيب وهو الذي سمّاه عبد القاهر "معنى المعنى" ومن خلاله وضّح عبد القاهر قيمة الكناية وأثرها في إيصال المعاني في أشكال وصور متعددة، يقول عبد القاهر: "الكلام على ضربين: ضرب أنت تصل منه إلى الغرض بدلالة اللفظ وحده، وذلك إذا قصدت أن تخبر عن زيد مثلاً بالخروج على الحقيقة، فقلت: خرج زيد، وبالانطلاق عن عمرو فقلت: عمرو منطلق. وعلى هذا القياس.. وضرب آخر أنت لا تصل منه إلى الغرض بدلالة اللفظ وحده ولكن يدلك اللفظ على معناه الذي يقتضيه موضوعه في اللغة، ثم تجد لذلك المعنى دلالة ثانية تصل بها إلى الغرض، ومدار هذا الأمر على الكناية والاستعارة والتمثيل"(3).

(1) نفسه، ص 297.

(2) نفسه، ص 299.

(3) دلائل الاعجاز، ص 262.

ثمَّ قدّم عبد القاهر أمثلة للكناية والاستعارة والتمثيل، موضحاً فيها "معنى المعنى" من ذلك أمثلته على الكناية: "أوَلا ترى أنك إذا قلت: هو كثير رماد القدر، أو قلت: طويل النجاد، أو قلت في المرأة: نؤوم الضحى، فإنك في جميع ذلك لا تفيد غرضك الذي تعني من مجرد اللفظ، ولكن يدل اللفظ على معناه الذي يوجبه ظاهره، ثم يعقل السامع من ذلك المعنى على سبيل الاستدلال معنىً ثانياً هو غرضك، كمعرفتك من كثير رماد القدر أنه مضياف، وإذ قد عرفت هذه الجملة، فها هنا عبارة مختصرة، وهي أن تقول: المعنى، ومعنى المعنى، تعني بالمعنى المفهوم من ظاهر اللفظ، والذي تصل إليه بغير واسطة، وبمعنى المعنى أن تعقل من اللفظ معنى، ثم يفضي بك ذلك المعنى إلى معنى آخر، كالذي فسّرت لك"[1].

إنّ "معنى المعنى" الذي لا يفهم من ظاهر اللفظ في أسلوب الكناية جعل البلاغيين يقسمون الكناية إلى قريبة وبعيدة، والقريبة إلى جليّة وخفية، وذلك في ضوء الوسائط بين المكنى به والمكنى عنه ومدى قربها وبعدها أو ظهورها وخفائها. وقد تحدث عبد القاهر عن كل هذا بقوله: "وإذا كان ذلك كذلك عَلِمَ عِلْم الضرورة أن مصرف ذلك إلى دلالات المعاني على المعاني، وأنهم أرادوا من شرط البلاغة أن يكون المعنى الأول الذي تجعله دليلاً على المعنى الثاني ووسيطاً بينك وبينه متمكّناً في دلالته مستقلاً بوساطته، يَسْفُر بينك وبينه أحسن سفارة، ويشير لك إليه أبين إشارة، حتى يخيل إليك أنك فهمته من حاقّ اللفظ، وذلك لقلّة الكلفة فيه عليك وسرعة وصوله إليك"[2].

فالوسائط بين المكنى به والمكنى عنه عند عبد القاهر هي الروابط التي تربط بين المعاني الظاهرية للفظ والمعاني الثواني التي تتولد عنها، أو معنى المعنى كما يسميه عبد القاهر ممّا يجعل الصورة الكنائية متماسكة موحية بالمعاني بوصفها تعبيراً فنياً غير مباشر.

وعلى كثرة ما أورد عبد القاهر الجرجاني من شواهد للكناية بنوعيها التي ذكرها (كناية عن صفة، وكناية عن نسبة) كما اصطلح عليهما عند المتأخرين والتي دارت في كتبهم، إلاّ أنه لم يقف عند الكنايات القرآنية فيما ساق من أمثلة.

إلاّ أن الكناية القرآنية ستحظى بعناية كبيرة عند الزمخشري (ت 538 هـ) في تفسيره البلاغي للقرآن الكريم، يقول الزمخشري: "ولا يغوص على شيء من تلك الحقائق ـ يقصد

(1) نفسه، ص 262 ـ263.
(2) نفسه، ص 266 ـ267.

الحقائق التي تضمها آيات القرآن - إلاّ رجل قد برع في علمين مختصين بالقرآن وهما: علم المعاني وعلم البيان"[1].

ولما كانت الكناية من فنون البيان فقد حظيت عنده بعناية كبيرة، وأشاد بكنايات القرآن الكريم في أكثر من موضع فقال: ".. ولا ترى أحسن، ولا ألطف، ولا أحدّ للمفاصل من كنايات القرآن وآدابه"[2]. وقال: "وقوله: ﴿هُوَ أَذًى فَاعْتَزِلُوا النِّسَاءَ فِي الْمَحِيضِ وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّىٰ يَطْهُرْنَ فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ ۞ نِسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَكُمْ فَأْتُوا حَرْثَكُمْ أَنَّىٰ شِئْتُمْ﴾[3]، من الكنايات اللطيفة، والتعريضات المستحسنة وهذه وأشباهها في كلام الله آداب حسنة، على المؤمنين أن يتعلّموها، ويتأدّبوا بها، ويتكلّفوا مثلها في محاوراتهم ومكاتباتهم.."[4].

وهذه الكنايات القرآنية التي تهدف إلى التهذيب بتغطية المعاني المستفحشة بألفاظ حسنة دالة على المعنى،، قد وقف الزمخشري عندها كثيراً موازناً بين معانيها التي تقصدها.

قال في قوله - تعالى -: ﴿فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ﴾[5] فكنى به عن الجماع لأنه لا يكاد يخلو من شيء من ذلك (فإن قلت): لِمَ كنى عنه ههنا بلفظ الرفث الدال على معنى القبح، بخلاف قوله: ﴿وَقَدْ أَفْضَىٰ بَعْضُكُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ﴾[6]، ﴿فَلَمَّا تَغَشَّاهَا﴾[7]، ﴿بَاشِرُوهُنَّ﴾[8]، ﴿أَوْ لَامَسْتُمُ النِّسَاءَ﴾[9]، ﴿دَخَلْتُمْ بِهِنَّ﴾[10]، ﴿فَأْتُوا حَرْثَكُمْ﴾[11].

---

(1) الكشاف: 1 / 16.
(2) نفسه: 2 / 241.
(3) سورة البقرة، من الآية: 222، ومن الآية: 223.
(4) الكشاف: 1 / 362.
(5) سورة البقرة، من الآية: 197.
(6) سورة النساء، من الآية: 21.
(7) سورة الأعراف، من الآية 189.
(8) سورة البقرة، من الآية 187.
(9) سورة النساء، من الآية: 43، وسورة المائدة، من الآية: 6.
(10) سورة النساء، من الآية: 23.
(11) سورة البقرة، من الآية: 223.

﴿ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ ﴾ [1] ﴿ فَمَا اسْتَمْتَعْتُم بِهِ مِنْهُنَّ ﴾ [2] ﴿ وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ ﴾ [3] (قلت): استهجاناً لما وجد منهم قبل الإباحة، كما سمّاه اختياناً لأنفسهم. (فإن قلت) لم عَدّى الرفث بإلى (*) (قلت): لتضمينه معنى الإفضاء لما كان الرجل والمرأة يعتنقان ويشتمل كل واحد منهما على صاحبه في عناقه شبّه باللباس المشتمل عليه "[4].

والزمخشري قد ذكر الأنواع الثلاثة للكناية حسب المعنى المكنى عنه، كما استقرت عند البلاغيين المتأخرين. وهذه الأنواع هي: الكناية عن صفة، والكناية عن موصوف، والكناية عن نسبة. والزمخشري وإن لم يسمِّها بما اصطلح عليه فيما بعد، إلا أنه عني بمفهومها ووجّه جهوده نحو الكشف عن قيمتها البلاغية في التعبير القرآني.

وبذلك فهو يضيف نوع (الكناية عن موصوف) التي لم يذكرها عبد القاهر الجرجاني الذي اقتصر على ذكر الكناية عن صفة والكناية عن نسبة.

فالكناية عن صفة نجدها عند الزمخشري في تفسيره لقوله ـ تعالى ـ مثلاً: ﴿ وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَىٰ مَا أَنفَقَ فِيهَا ... ﴾ [5] قال: " وأحيط به عبارة عن إهلاكه. وأصله من أحاط به العدو، لأنه إذا أحاط به فقد ملكه واستولى عليه، ثم استعمل في كل إهلاك. ومنه قوله ـ تعالى ـ: ﴿ إِلَّا أَن يُحَاطَ بِكُمْ ﴾ [6] ومثله قولهم: أتى عليه، إذا أهلكه، ومن أتى عليهم العدو: إذا جاءهم مستعلياً عليهم. وتقليب الكفين: كناية عن الندم والتحسر، لأن النادم يقلّب كفيه ظهراً لبطن، كما كنّى عن ذلك بعضّ الكف [7] والسقوط في اليد [1]. ولأنه في معنى الندم عُدِّيَ تعديته بعلى، كأنه قيل: فأصبح يندم [2].

(1) سورة البقرة، من الآية 237.
(2) سورة النساء، من الآية 24.
(3) سورة البقرة، من الآية: 222.
(*) يقصد قوله تعالى ـ: ﴿ أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ الرَّفَثُ إِلَىٰ نِسَائِكُمْ هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ ... ﴾ سورة البقرة، من الآية 187.
(4) الكشاف: 1 / 338.
(5) سورة الكهف، من الآية 24.
(6) سورة يوسف، من الآية 66.
(7) وورد في القرآن ﴿ عَضُّوا عَلَيْكُمُ الْأَنَامِلَ ﴾ سورة آل عمران، من الآية 119. و ﴿ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ ﴾ سورة الفرقان، الآية: 27.

ونجد الكناية عن موصوف في تفسير لقوله ـ تعالى ـ مثلاً: ﴿وَحَمَلْنَٰهُ عَلَىٰ ذَاتِ أَلْوَٰحٍ وَدُسُرٍ﴾ [3]، "أراد السفينة،وهي من الصفات التي تقوم مقام الموصوفات فتنوب منابها وتؤدي مؤداها، بحيث لا يفصل بينها وبينها "[4].

ويقول في قوله ـ تعالى ـ: ﴿وَلَا يَأْتِينَ بِبُهْتَٰنٍ يَفْتَرِينَهُۥ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ﴾ [5] "كانت المرأة تلتقط المولود فتقول لزوجها: هو ولـدي منك، كنّى بالبهتان المفترى بين يديها ورجليها عن الولد الذي تلصقه بزوجها كذباً، لأن بطنها الذي تحمله فيه بين اليدين، وفرجها الذي تلده به بين الرجلين "[6].

والكناية عن النسبة نجدها عنده في تفسير لقوله ـ تعالى ـ مثلاً: ﴿أَن تَقُولَ نَفْسٌ يَٰحَسْرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِى جَنۢبِ ٱللَّهِ﴾ [7]، قال: "والجنب: الجانب، يُقال: أنا في جنب فلان، وجانبه وناحيته، ثم قالوا: فرّط في جنبه وفي جانبه، يريدون في حقه، قال سابق البربري:

أمـــا تتّقين اللهَ في جَـــنْـبِ وامـــقِلةٍ كبِدُ حَـــرّى عليكِ تَقطَّعُ

وهذا من باب الكناية، لأنك إذا أثبت الأمر في مكان الرجل وحيِّزه فقد أثبته فيه. ألا ترى إلى قوله:

إنَّ السَّماحةَ والمـــروءةَ والنَّـــدى في قُبَّةٍ ضُـــرِبَتْ عـــلى ابنِ الحَشْرَجِ

ومنه قول الناس: لمكانك فعلت كذا: يريدون لأجلك.

وفي الحديث: ((من الشرك الخفيّ أن يصلي الرجل لمكان الرجل))، وكذلك فعلت هذا من جهتك. فمن حيث لم يبقَ فرق فيما يرجع إلى أداء الغرض بين ذكر المكان وتركه قيـــل: ﴿فَرَّطتُ فِى جَنۢبِ ٱللَّهِ﴾، على معنى: فرّطت في ذات الله "[8].

---

(1) كما ورد في قوله تعالى: سورة الأعراف، من الآية 149.
(2) الكشاف: 2 / 565.
(3) سورة القمر، الآية: 13.
(4) الكشاف: 4 / 345.
(5) سورة الممتحنة، من الآية 12.
(6) الكشاف: 4 / 415.
(7) سورة الزمر، من الآية 56.
(8) الكشاف: 4 / 106.

ثم يزيد الكناية توضيحاً وبياناً بقوله: "فإن قلت: فمرجع كلامك إلى أن ذكر الجنب كلاذكر سوى ما يعطي من حسن الكناية وبلاغتها، فكأنه قيل: فرطت في الله، فما معنى في الله؟ قلت: لابد من تقدير مضاف محذوف، سواء ذكر الجنب أو لم يذكر. والمعنى: فرّطت في طاعة الله وعبادة الله، وما أشبه ذلك"[1].

إنّ أسلوب الكناية عند الزمخشري ذو مدلول أوسع ممّا نجده عند المتأخرين، وهذا شأن المتقدمين فإنهم انطلقوا نحو الدرس البلاغي من منطلق اللغة، ونحوا به نحواً أدبياً رحباً، إذ إنّ قضية الانتقال من اللازم إلى الملزوم ومن الملزوم إلى اللازم التي أثارها البلاغيون الذين دخلوا دائرة العلمية الدقيقة من بعد الزمخشري كالسكاكي والقزويني، لم يلتفت الزمخشري إلى شيء منها، فللكناية أن تنتقل من أيهما شاءت، ففي الوقت الذي يرى السكاكي أن الكناية انتقال من اللازم إلى الملزوم يرى القزويني أن اللازم لابد من أن يكون ملزوماً في الكناية، وحينئذ يكون الانتقال من الملزوم إلى اللازم، وهذا ما نجده في قول الخطيب القزويني: "وفرّق السكاكي وغيره بينهما [يعني الكناية والمجاز] بوجه آخر وهو أن مبنى الكناية على الانتقال من اللازم إلى الملزوم ومبنى المجاز على الانتقال من الملزوم إلى اللازم، وفيه نظر لأن اللازم ما لم يكن ملزوماً يمتنع أن يُنتقل منه إلى الملزوم فيكون الانتقال حينئذ من الملزوم إلى اللازم"[2]. فكما أن طول النجاد لازم لطول القامة هو ملزوم لها أيضاً، فيصح الانتقال في الحالتين.

يقول د. محمد أبو موسى: "وقد شغلت هذه المسألة أقلام الشرّاح بقدر ربما لم يكن في حاجة ماسة إليه، لأن الانتقال في الدلالات اللغوية لا يلتزم بهذه الدلالات المنطقية"[3].

والزمخشري لم ينشغل بهذه المسائل المنطقية، وإنما انشغل ببلاغة الكناية في التعبير عن المعاني، يقول في قوله ـ تعالى ـ: ﴿ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا۟ وَلَن تَفْعَلُوا۟ فَٱتَّقُوا۟ ٱلنَّارَ ﴾[4] فإن قلت: ما معنى اشتراطه في إتقاء النار انتفاء إتيانهم بسورة من مثله؟ قلت: إنهم إذا لم يأتوا بها وتبيّن عجزهم عن المعارضة صحّ عندهم صدق رسول الله ﷺ وإذا صحّ عندهم صدقه ثم لزموا العناد ولم ينقادوا ولم يشايعوا استوجبوا العقاب بالنار، فقيل لهم: إن استبنتم العجز فاتركوا العناد، فوضع

(1) نفسه: 4 / 106.
(2) الإيضاح: 2 / 456 ـ457.
(3) التصوير البياني، دراسة تحليلية لمسائل البيان، ص 370.
(4) سورة البقرة، من الآية: 24.

﴿فَاتَّقُوا النَّارَ﴾ موضعه لأن اتقاء النار لصيقه وضميمه ترك العناد، من حيث إنه من نتائجه، لأن من اتقى النار ترك المعاندة، ونظيره أن يقول الملك لحشمه: إن أردتم الكرامة عندي فاحذروا سخطي، يريد فأطيعوني واتبعوا أمري وأفعلوا ما هو نتيجة حذر السخط، وهو من باب الكناية التي هي شعبة من شعب البلاغة، وفائدته الإيجاز الذي هو من حلية القرآن، وتهويل شأن العناد بإنابة إتقاء النار منابه، وإبرازه في صورته مشيعاً ذلك بتهويل صفة النار وتفظيع أمرها"[1]. فالانتقال هنا من اللازم (ترك المعاندة) إلى الملزوم (اتقاء النار) وترك المعاندة (لازم) لاتقاء النار.

وفرّق الزمخشري بين الكناية والتعريض، فقال: "فإن قلت: أيّ فرق بين الكناية والتعريض؟ قلت: الكناية أن تذكر الشيء بغير لفظه الموضوع له، كقولك: طويل النجاد والحمائل لطويل القامة، وكثير الرماد للمضياف.

والتعريض: أن تذكر شيئاً تدل به على شيء لم تذكره،كما يقول المحتاج للمحتاج إليه: جئتك لأسلّم عليك، ولأنظر إلى وجهك الكريم، ولذلك قالوا: وحسبك بالتسليم منّي تقاضياً.

وكأنه إمالة الكلام إلى عرض يدلّ على الغرض،ويسمى التلويح لأنه يلوح منه ما يريده"[2].

إنّ أسلوب الكناية وجد مناخاً خصباً في تفسير الزمخشري مفهوماً وتطبيقاً، بل إنّ علم البيان والمعاني تطور تطوّراً كبيراً، فقد كان تفسيره تطبيقاً عملياً وظّف فيه الظواهر البلاغية للكشف عن أسرار بلاغة التعبير القرآني.

يقول د. شوقي ضيف: "يمكن أن يُقال إنّ قواعد علم البيان قد كملت عنده كما كملت قواعد علم المعاني، وكل ما هنالك أنه بقي من يستقصيها ويتتبعها عنده وعند عبد القاهر وينظمها في مصنَّف يجمع متفرّقها ويضم منثورها"[3].

(1) الكشاف: 1 / 248 وما بعدها.
(2) نفسه: 1 / 372 ـ373.
(3) البلاغة تطور وتاريخ، ص 265.

وفي طليعة من استقصى وتتبع ما قاله الجرجاني والزمخشري فخر الدين الرازي (ت 606 هـ)، وأبو يعقوب السكاكي (ت 626هـ)، وعلى يديهما دخلت الكناية مرحلة جديدة في الدراسة هي مرحلة التبويب المنطقي والتنظيم والتعريف.

لخص الفخر الرازي ما ذهب إليه عبد القاهر الجرجاني في فصول ثلاثة تحدث فيها عن الكناية [1]. خصص الفصل الأول للكلام في حقيقة الكناية، والفصل الثاني في أن الكناية ليست من المجاز، والفصل الثالث في ترجيح الكناية على التصريح وترجيح الاستعارة على التصريح بالتشبيه.

أوضح الفصل الأول حقيقة الكناية بقوله: "إنّ اللفظة إذا أطلقت وكان الغرض الأصلي غير معناها فلا يخلو أما أن يكون معناها مقصوداً أيضاً ليكون دالاً على ذلك الغرض الأصلي، وإما أن لا يكون كذلك. فالأول هو الكناية. والثاني هو المجاز" [2].

وأوضح في الفصل الثاني أن الكناية ليست من المجاز، فقال: "وبيانه أن الكناية عبارة عن أن تذكر وتفيد بمعناها معنىً ثانياً هو المقصود وإذا كنت تفيد المقصود بمعنى اللفظ وجب أن يكون معناه معتبراً وإذا كان معتبراً فما نقلت اللفظة عن موضوعها، فلا يكون مجازاً" [3]. ثم يوضح ما قاله بقوله: "مثاله اذا قلت: كثير الرماد فأنت تريد أن تجعل حقيقة كثرة الرماد دليلاً على كونه جواداً فأنت قد استعملت هذه الألفاظ في معانيها الأصلية ولكن غرضك في إعادة كونه كثير الرماد معنىً ثان يلزم الأول وهو الجود، وإذا وجب في الكناية اعتبار معانيها الأصلية لم تكن مجازاً أصلاً" [4].

وأوضح في الفصل الثالث ما ذهب إليه عبد القاهر في تعليل بلاغة الكناية، وترجيحها على التصريح، فقال: "فاعلم أن السبب في كون الكناية أبلغ من الإفصاح هو أنّ الكناية ذكر الشيء بوساطة ذكر لوازمه ووجود اللازم يدل على وجود الملزوم، ومعلوم أن ذكر الشيء مع

(1) نهاية الإيجاز في دراية الإعجاز، ص 135 ـ137.

(2) نفسه، ص 135.

(3) نهاية الإيجاز في دراسة الاعجاز، ص 136.

(4) نفسه، ص 136.

دليله أوقع في النفوس من ذكر الشيء لا مع دليله فلأجل ذلك كانت الكناية أبلغ "[1]. وهو يضعّف هذا الرأي الذي نقله عن عبد القاهر لوجهين:

"الأول: انك إذا قلت: فلان طويل النجاد فطول النجاد مشكوك فيه كما أن طول القامة مشكوك فيه، وليس أحدهما أظهر عند العقل من الآخر حتى يستدل بالأعرف على الأخفى اللّهم إلاّ إذا جعلنا الطريق إلى معرفة طول النجاد الحس، ولكنه أيضاً كان في معرفة طول القامة، فظهر ضعف هذه العلة.

الثاني: وهو أن الاستدلال باللازم على الملزوم طريقة باطلة، فإن الحياة لازمة للعلم، ولا يمكن الاستدلال بوجود الحياة على وجوده، فبطل ما قاله "[2].

وبذلك ينقل الرازي فن الكناية من ميدانه البلاغي إلى الحجاج المنطقي، والاحتكام إلى العقل، وإقحام اللازم والمعلوم، دون أن يشير إلى موضع المزية في التعبير الكنائي والاستعاري من التصريح به.

"انّ اللزوم الذي أبرزه الرازي كان له أثره غير الحميد، في توجيه دراسة هذا اللون من ألوان التعبير وجهة منطقية، أضرت به أكثر مما أفادته، إذ شغل الدارسون بعده باللازم والملزوم، وتعذر الانتقال من اللازم إلى الملزوم، ما لم يكن اللازم ملزوماً بنفسه، أو بانضمام قرينة إليه، لجواز أن يكون اللازم أعم، ولا دلالة للعام على الخاص. فضلاً عمّا قيل فيهما، من أنهما عقليان أو عرفيان، وعفى هذا الجدل العقيم على الناحية الفنية في هذا اللون من التعبير الفني الرائع "[3].

أما السكاكي فقد عرّف الكناية بقوله: "الكناية هي ترك التصريح بذكر الشيء إلى ذكر ما يلزمه لينتقل من المذكور إلى المتروك، كما تقول: فلان طويل النجاد لينتقل منه إلى ما هو ملزومه، وهو طول القامة "[4].

---

(1) نهاية الايجاز في دراسة الإعجاز، ص 137. وللمقارنة، ينظر: دلائل الإعجاز، ص 110 ـ 111.

(2) نهاية الإيجاز في دراسة الاعجاز، ص 137.

(3) الكناية، ص 183 ـ184.

(4) مفتاح العلوم، ص 189.

إنّ الكناية عنده مبنية على الانتقال من اللازم إلى الملزوم، والمطلوب بالكناية لا يخرج عن أقسام ثلاثة:

- الكناية المطلوب بها نفس الموصوف.
- الكناية المطلوب بها نفس الصفة.
- الكناية المطلوب بها تخصيص الصفة بالموصوف.

وهذه الأقسام قد ذكرها الجرجاني والزمخشري من قبله، فالجرجاني ذكر الكناية عن صفة والكناية عن نسبة (تخصيص الصفة بالموصوف)، وأضاف الزمخشري إليهما الكناية عن موصوف، إلاّ أن السكاكي نظّم هذه الأقسام وقسّمها تقسيمات أخرى وقسّمها من جهة أخرى إلى قريبة وبعيدة وحاول تقنينها وتعريفها.

ففي القسم الأول: في الكناية المطلوب بها نفس الموصوف، تقرب الكناية تارة وتبعد أخرى. وعرّف القريبة بقوله: "هي أن يتفق في صفة من الصفات اختصاص بموصوف معين عارض، فتذكرها متوصلاً بها إلى ذلك الموصوف، مثل أن تقول: جاء المضياف، وتريد زيداً، لعارض اختصاص للمضياف بزيد"[1]. وعرّف البعيدة بقوله: "هي أن تتكلف اختصاصها بأن تضم إلى لازم آخر وآخر فتلفق مجموعاً وصفياً مانعاً عن دخول كل ما عدا مقصودك فيه، مثل أن تقول في الكناية عن الانسان، حي مستوى القامة، عريض الأظفار"[2].

أما القسم الثاني: في الكناية المطلوب بها نفس الصفة، الكناية فيه أيضاً تقرب تارة وتبعد تارة، وعرّف القريبة بقوله: "هي أن تنتقل إلى مطلوبك من أقرب لوازمه إليه، مثل أن تقول: فلان طويل نجاده،أو طويل النجاد، متوصلاً به إلى طول قامته،أو مثل أن تقول: فلان كثير أضيافه، أو كثير الأضياف، متوصلاً به إلى أنه مضيافوأن هذا النوع القريب تارة يكون واضحاً كما في المثالين المذكورين، وتارة خفياً كما في قولهم: عريض القفا، كنايةً عن الأبله، وفي قولهم: عريض الوسادة عن هذه الكناية"[3]، يريد (البله). وعرّف البعيدة بقوله: "فهي أن تنتقل إلى مطلوبك من لازم بعيد بوساطة لوازم متسلسلة مثل لأن تقول: كثير الرماد، فتنتقل من كثرة الرماد إلى كثرة الجمر ومن كثرة إحراق الحطب تحت القدور، ومن كثرة إحراق الحطب إلى كثرة

(1) مفتاح العلوم، ص 190.
(2) نفسه، ص 190.
(3) نفسه، ص 190.

الطبائع، ومن كثرة الأكلة، ومن كثرة الأكلة إلى كثرة الضيفان، ثم من كثرة الضيفان إلى أنه مضياف، فانظر بين الكناية وبين المطلوب بها كم ترى من لوازم[1].

أما القسم الثالث: في الكناية المطلوب بها تخصيص الصفة بالموصوف: "فهي أيضاً تتفاوت في اللطف، فتارةً تكون لطيفة، وأخرى ألطف، واللطيف قول زياد الأعجم:

إنّ السَّماحةَ والمروءةَ والنّدى ... في قُبّةٍ ضُرِبَتْ على ابنِ الحَشْرَجِ

والألطف منه قول الشنفري الأزدي في وصف امرأة بالعفة:

يَبِيتُ بِمَنْجاةٍ من اللومِ بيتُها ... إذا ما بيوتٌ بالملامَةِ حُلَّتِ[2]

وأشار السكاكي إلى فنون الكناية كالرمز والإشارة والتلويح والإيماء والتعريض، قال: "ثم أن الكناية تتفاوت إلى تعريض وتلويح ورمز وإيماء وإشارة، ومساق الحديث يحسر لك اللثام عن ذلك"[3].

وما ذكره السكاكي من تقسيمات للكناية وما يتعلّق بها من فنون وقف عندها المتأخرون ولم يخرجوا عنها أو يضيفوا إليها، ودخلت البلاغة عهداً جديداً امتاز بالشروح والتلخيص، وأشهر التلخيصات، كتاب (التلخيص) للخطيب القزويني (ت 739 هـ)، لخّص فيه كتاب (المفتاح) للسكاكي.

وقد عرّف القزويني الكناية فيه، بقوله: "الكناية لفظ أُريد به لازم معناه مع جواز ارادته معه"[4]. وفي كتابه الآخر (الإيضاح) عرّفها أيضاً بقوله: "لفظ أُريد به لازم معناه مع جواز ارادة معناه حينئذٍ"[5].

فهو يفرّق بين الكناية والمجاز من جهة إرادة المعنى الحقيقي، فالكناية يجوز فيها إرادة المعنى الحقيقي، أما المجاز فإنه لا يجوز فيه إرادة المعنى الحقيقي، وبذلك تفترق الكناية عن المجاز.

(1) نفسه، ص 190 ـ 191.
(2) مفتاح العلوم، ص 192 ـ 193.
(3) مفتاح العلوم، ص 190. وللاستزادة، ينظر: ابن رشيق في: العمدة، من هذه الفنون الكنائية: 1 / 302 وما ذكر منها بعده.
(4) التلخيص، ص 337.
(5) الإيضاح: 2 / 456.

وقسّم القزويني الكناية ثلاثة أقسام، كما قسّمها السكاكي وهي:

1 ـ المطلوب بها غير صفة ولا نسبة [1].

2 ـ المطلوب بها صفة، وتنقسم إلى قريبة وبعيدة وواضحة وخفية [2].

3 ـ المطلوب بها نسبة [3].

ثمّ أنّ الكناية تتلون كما هي عند السكاكي إلى تعريض، وتلويح، ورمز، وإيماء، وإشارة.

وامتازت الكناية في (تلخيصه) بالاقتضاب، والجفاف من الشواهد والأمثلة على خلاف ما عرضه في كتابه (الإيضاح) لفن الكناية، فقد امتازت بالتنظيم وإيراد الشواهد وشرحها، وهذا أمر وارد في التلخيصات، وكتاب (التلخيص) كما هو معروف، لخّص كتاب (الإيضاح)، ومن الشواهد القرآنية التي عرض لها قوله ـ تعالى ـ: ﴿ وَلَمَّا سُقِطَ فِيٓ أَيۡدِيهِمۡ ﴾ [4]. قال فيها: "أي ولّما اشتد ندمهم وحسرتهم على عبادة العجل، لأن من شأن من اشتدّ ندمه وحسرته أن يعضّ يده غمّاً، فتصير يده مسقوطاً فيها، لأن فاهُ قد وقع فيها" [5].

ولم يخرج الذين اتبعوا القزويني في منهجه في الدرس البلاغي، وبخاصة فيما يتعلق بالكناية الى غير ما ذهب إليه ممّا يلفت انتباه الباحث. ومن هؤلاء بهاء الدين السبكي (ت 773 هـ) [6] وسعد الدين التفتازاني (ت 791 هـ) [7] وأبو يعقوب المغربي (ت 1110 هـ) [8] وابن معصوم المدني (ت 1120 هـ) [9].

وإذا كان القزويني يمثل امتداداً للسكاكي في منهج الدرس البلاغي العلمي ربما بحكم تلخيصه لمفتاحه، فإن ضياء الدين ابن الأثير (ت 637 هـ)، والعلوي (ت 749 هـ)، يمثلان الامتداد الحق لعبد القاهر الجرجاني في منهج الدرس البلاغي الأدبي القائم على الذوق

---

(1) نفسه: 2 / 457.

(2) نفسه: 2 / 458.

(3) الإيضاح: 2 / 462.

(4) سورة الأعراف، من الآية: 149.

(5) الإيضاح: 2 / 461.

(6) عروس الأفراح في شرح تلخيص المفتاح، ضمن شروح التلخيص: 4 / 237 وما بعدها.

(7) المختصر على تلخيص المفتاح، ضمن شروح التلخيص: 4 / 237 وما بعدها.

(8) مواهب الفتاح في شرح تلخيص المفتاح، ضمن شروح التلخيص: 4 / 237 وما بعدها.

(9) أنوار الربيع في أنواع البديع: 5 / 309 ـ316.

والتحليل والتعريف الموجز والاقلال من التقسيم والمصطلح العلمي. ولذلك أرجأنا الحديث عنهما إلى هذا الموضع وجعلناهما في صعيد واحد.

فأما ابن الأثير فإنه يقدّم دراسة بلاغية وافية لأسلوب الكناية، يقول د. أحمد مطلوب واصفاً دراسة ابن الأثير للكناية: "ولعل ما كتبه ابن الأثير في (الجامع الكبير) و (المثل السائر) يغني الباحث في هذا الموضوع، فقد جعل لهذا الفن روحاً، وبعث فيه حياة، فإذا بالكناية صور متحركة، وإذا بالأمثلة توحي بكل بديع عجيب، وليت المتأخرين استفادوا مما ذكره ابن الأثير"[1].

أشار ابن الأثير إلى خلط كثير من البلاغيين بين الكناية والتعريض، وبدأ بالكناية وقال أنها حُدَّت: "باللفظ الدال على الشيء، على غير الوضع الحقيقي، بوصف جامع بين الكناية والمكنى عنه"[2].

وقال بفساد هذا التعريف، لأنه يمكن أن يكون حداً للتشبيه كذلك. ونقل ما ذهب إليه علماء أصول الفقه من أنها: "اللفظ المحتمل"[3]. وقال: أنهم يريدون به اللفظ الذي يحتمل الدلالة على المعنى وخلافه. وأشار إلى فساده أيضاً، لأن كل كناية لفظ محتمل، وليس كل لفظ محتمل كناية.

وحدّ الكناية الجامع لها عنده هو: "أنها كل لفظة دلّت على معنى يجوز حمله على جانبي الحقيقة والمجاز، بوصف جامع بين الحقيقة والمجاز"[4]. وقال أن الكناية مشتقة من الستر، يقال: كنيت عن الشيء إذا سترته، وأجرى هذا الحكم في الألفاظ التي يُستر فيها المجاز بالحقيقة، فتكون دالة على الساتر وعلى المستور معاً. "ألا ترى إلى قوله - تعالى -: ﴿أَوْ لَٰمَسْتُمُ ٱلنِّسَآءَ﴾ فإنه إنْ حُمل على الجماع كان كناية، لأنه ستر الجماع بلفظ اللمس الذي حقيقته مصافحة الجسد الجسدَ، وإنْ حُمل على الملامسة التي هي مصافحة الجسد الجسد كان حقيقة، ولم يكن كناية، وكلاهما يتمّ به المعنى"[5].

---

(1) القزويني وشروح التلخيص، ص 420.
(2) المثل السائر: 3 / 50.
(3) نفسه: 3 / 51.
(4) نفسه: 3 / 52.
(5) نفسه: 3 / 53.

وابن الأثير يرى الكناية جزءاً من الاستعارة، لأنها لا تكون إلاّ بطيّ المكنى عنه، ونسبتها إلى الاستعارة نسبة خاص إلى عام، فكل كناية استعارة، وليست كل استعارة كناية. ويفرّق بينهما من وجه آخر، فيقول: "الاستعارة لفظها صريح، والصريح هو ما دلّ عليه ظاهر لفظه، والكناية ضد الصريح، لأنها عدول عن ظاهر اللفظ، وهذه ثلاثة فروق أحدها: الخصوص والعموم، والآخر الصريح، والآخر الحمل على جانب الحقيقة والمجاز "(1).

وأورد تقسيم البلاغيين للكناية أقساماً ثلاثة فقال: "وقد ذهب قوم إلى أن الكناية تنقسم أقساماً ثلاثة: تمثيلاً، وإردافاً، ومجاورة "(2).

وفصّل القول في كل قسم مبيّناً المقصود منه، ثم انتهى إلى أنه تقسيم ليس بصحيح " لأن من شرط التقسيم أن يكون كل قسم منه مختصاً بصفة خاصة، تفصله عن عموم الأصل "(3). وذلك لأن الكنايات عنده كلها تمثيل " فإن التمثيل عبارة عن مجموع الكناية، لأن الكناية إنما هي أن تراد الاشارة إلى معنى، فيوضع لفظ لمعنى آخر، ويكون ذلك اللفظ مثالاً للمعنى الذي أريدت الإشارة إليه "(4).

والتمثيل في الكناية يتضح في التركيب، ويقلّ في المفرد، قال: " الا ترى إلى قوله ـ تعالى ـ: ﴿ إِنَّ هَٰذَآ أَخِي لَهُۥ تِسۡعٞ وَتِسۡعُونَ نَعۡجَةٗ وَلِيَ نَعۡجَةٞ وَٰحِدَةٞ ﴾ فإنه أراد الإشارة إلى النساء، فوضع لفظاً لمعنى آخر، وهو النعاج، ثم مثّل به النساء. وهكذا يجري الحكم في جميع ما يأتي من الكنايات، لكن منها ما يتضح التمثيل فيه.. ومنه ما يكون دون ذلك في الشبهية "(5). ثم قال: " فوجدت الكناية إذا وردت على طريق اللفظ المركب، كانت شديدة المناسبة واضحة الشبهية، وإذا وردت على طريق اللفظ المفرد لم تكن بتلك الدرجة في قوة المناسبة والمشابهة "(6).

ثم يعقد مقارنة بين الكناية المركبة والكناية المفردة لتوضيح ذلك، فيقول: " الا ترى إلى قولهم (فلان نقي الثوب) وقولهم (اللمس) كناية عن الجماع، فإن نقاء الثوب أشدّ مناسبةً

---

(1) نفسه: 3 / 55.
(2) المثل السائر: 3 / 58. وينظر: الجامع الكبير، ص 157.
(3) المثل السائر: 3 / 59.
(4) المثل السائر 0: 3 / 59. وللمقارنة، ينظر: نقد الشعر، ص 159 ـ160.
(5) نفسه: 3 / 59.
(6) نفسه: 3 / 59.

وأوضح شبهاً، لأنا إذا قلنا: نقاء الثوب من الدنس كنزاهة العرض من العيوب اتضحت المشابهة، ووجدت المناسبة بين الكناية والمكنى عنه شديدة الملاءمة، وإذا قلنا: (اللمس كالجماع) لم يكن بتلك الدرجة في قوة المشابهة. وهذا الذي ذكر في أن من الكناية تمثيلاً وهو كذا وكذا، غير سائغ ولا وارد، بل الكناية كلها هي ذاك"[1].

ويعرّف ابن الأثير التعريض بقوله: "اللفظ الدال على الشيء من طريق المفهوم لا بالوضع الحقيقي، ولا المجازي، فإنك إذا قلت لمن تتوقع صلته ومعروفه بغير طلب: والله إني لمحتاج، وليس في يدي شيء، وأنا عريان والبرد قد آذاني، فإن هذا وأشباهه تعريض بالطلب، وليس هذا اللفظ موضوعاً في مقابلة الطلب لا حقيقةً ولا مجازاً، إنما دلّ عليه من طريق المفهوم، بخلاف دلالة اللمس على الجماع"[2].

ويقول: "والتعريض أخفى من الكناية، لأن دلالة الكناية لفظية وضعية من جهة المجاز، ودلالة التعريض من جهة المفهوم لا بالوضع الحقيقي ولا المجازي وإنما سُمّي التعريض تعريضاً لأن المعنى فيه يُفهم من عُرضه أي من جانبه، وعُرض كل شيء جانبه، والكناية تشمل اللفظ المفرد والمركب معاً، وأما التعريض فإنه يختص باللفظ المركب، ولا يأتي في اللفظ المفرد البتة"[3].

ومن الكنايات القرآنية التي أوردها قوله ـ تعالى ـ: ﴿أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ﴾[4]، قال: "فإنه كنى عن الغيبة بأكل الانسان لحم إنسان آخر مثله، ثم لم يقتصر على ذلك حتى جعله ميتاً، ثم جعل ما هو في الغاية من الكراهة موصولاً بالمحبة، فهذه أربع دلالات واقعة على ما قُصِدت له مطابقةً للمعنى الذي وردت من أجله"[5].

ثم يوضح المناسبات في الدلالات بين المكنى به والمكنى عنه في المواضع الأربعة التي عقدتها الآية، أي يبحث عن الوصف الجامع في الدلالات، قال: "فأما جعل الغيبة كأكل الانسان لحم إنسان آخر مثله فشديد المناسبة جداً، لأن الغيبة، إنما هي ذكر مثالب الناس وتمزيق أعراضهم، وتمزيق العرض مماثل لأكل الانسان لحم من يغتابه، لأن أكل اللحم تمزيق

(1) نفسه: 3 / 59.
(2) نفسه: 3 / 56.
(3) المثل السائر: 3 / 57. وينظر: حدائق الزهر والريحان في البيان عن بلاغات التبيان، محمد أمين الخطيب العمري، ص 31.
(4) سورة الحجرات، من الآية: 12.
(5) المثل السائر: 3 / 62.

على الحقيقة، وأما جعله كلحم الأخ لما في الغيبة من الكراهة، لأن العقل والشرع مجتمعان على استكراهها، آمران بتركها والبعد عنها، ولَمّا كانت كذلك جعلت بمنزلة لحم الأخ في كراهته وأما جعل اللحم ميتاً فمن أجل أن المغتاب لا يشعر بغيبته ولا يحس بها. وأما جعله ما هو في الغاية من الكراهة موصولاً بالمحبة، فلما جُبِلَت عليه النفوس من الميل إلى الغيبة والشهوة لها مع العلم بقبحها"[1].

فهو يشترط المناسبات في الدلالات في الأسلوب الكنائي، فإذا لم يجد المناسبة والوصف الجامع بين المكنى به والمكنى عنه لم يعد التعبير كنائياً. قال: "أنه لابد من الوصف الجامع بينهما لئلا يلحق بالكناية ما ليس منها، ألا ترى إلى قوله ـ تعالى ـ: ﴿ إِنَّ هَٰذَآ أَخِي لَهُۥ تِسۡعٌ وَتِسۡعُونَ نَعۡجَةٗ وَلِيَ نَعۡجَةٞ وَٰحِدَةٞ ﴾ فكنى بذلك عن النساء، والوصف الجامع بينهما هو التأنيث من أجل ذلك لم يُلْتَفت إلى تأويل من تأول قوله ـ تعالى ـ: ﴿ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرۡ ﴾ أنه أراد بالثياب القلب على حكم الكناية، لأنه ليس بين الثياب والقلب وصف جامع، ولو كان بينهما وصف جامع لكان التأويل صحيحاً"[2]. وجعل من الكنايات القرآنية قوله ـ تعالى ـ:

﴿ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَسَالَتۡ أَوۡدِيَةُۢ بِقَدَرِهَا فَٱحۡتَمَلَ ٱلسَّيۡلُ زَبَدٗا رَّابِيٗاۖ ﴾[3] وذلك لوجود المناسبة والوصف الجامع، وحمل اللفظ على جانبي الحقيقة والمجاز، فقال: "هذه الآية من باب الكنايات التي لفظها يجوز حمله على جانبي الحقيقة والمجاز. وقد رأيت جماعة من أئمة الفقه لا يحقّقون أمر الكناية، وإذا سئلوا عنها عبّروا عنها بالمجاز، وليس الأمر كذلك، وبينهما وصف جامع، كهذه الآية وما جرى مجراها، فإنه يجوز حمل الماء على المطر النازل من السماء وعلى العلم، وكذلك حمل الأودية على مهابط الأرض وعلى القلوب، وهكذا يجوز حمل الزبد على الغثاء الرابي الذي تقذفه السيول، وعلى الضلال، وليس في أقسام المجاز شيء يجوز حمله على الطرفين معاً سوى الكناية"[4].

---

(1) نفسه: 3 / 62.
(2) المثل السائر: 3 / 53.
(3) سورة الرعد، من الآية: 17.
(4) المثل السائر: 3 / 63.

"وقال في قوله ـ تعالى ـ: ﴿ وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَارَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ وَأَرْضًا لَّمْ تَطَئُوهَا ﴾ [1]، والأرض التي لم يطأوها كناية عن مناكح النساء، وذلك من حَسَن الكناية ونادره "[2].

وقد تتبع ابن الأثير أساليب الكناية في القرآن والشعر والنثر المركبة منها والمفردة، وامتازت تحليلاته لها بالحيوية والعمق.

وأما العلوي (ت 749 هـ) فهو يفيد من دراسة الكناية عند الجرجاني وعند ابن الأثير بخاصة، فيعقد لها دراسة بلاغية أدبية امتازت بالعمق في صورة منظمة تعتمد التقسيم والتبويب. وهو يناقش فيها كثيراً من التعاريف للكناية وبخاصة تعريف الجرجاني وتعريف ابن الأثير، ثم ينتهي بعد المناقشة إلى تعريف الكناية بقوله: "فالمختار عندنا في بيان ماهية الكناية، أن يُقال: هي اللفظ الدال على معنيين مختلفين، حقيقة ومجاز من غير واسطة، لا على جهة التصريح "[3]. ثم يفسر تعريفه بقوله: "ولنفسر مرادنا بهذه القيود، فقولنا: اللفظ الدال يحترز به عن التعريض، فإنه ليس مدلولاً عليه بلفظ، وإنما هو مفهوم من جهة الإشارة والفحوى،وقولنا على معنيين، يُحترز به عمّا يدل على معنى واحد، وقولنا حقيقة ومجاز، يحترز به عن اللفظ المشترك، فإن دلالته على ما يدل عليه من المعاني على جهة الحقيقة لا غير، وقولنا من غير واسطة، يحترز به عن التشبيه، فإنه لابد فيه من أداة التشبيه، إمّا ظاهرة كقولك: زيد كالأسد، وإمّا مضمرة كقولك: زيد البحر، وقولنا على جهة التصريح، يحترز به عن الاستعارة، فإن دلالتها على ما تدل عليه من جهة صريحها، إمّا من غير قرينة، كدلالة الأسد على الحيوان، وإمّا مع القرينة كدلالة الأسد على الشجاع، فكلاهما مفهوم من جهة التصريح، بخلاف الكناية فإن الجماع ليس صريحاً من قوله ـ تعالى ـ: ﴿ فَأْتُوا حَرْثَكُمْ ﴾ وإنما هو مفهوم على جهة التبع كما دلّت عليه بحقيقتها "[4].

والكناية عند العلوي هي من المجاز، لأن المقصود منها هو المعنى المكنى عنه، وليس المقصود هو المعنى الحقيقي للفظ،قال: "أن الكناية قد دلّت على معناها اللغوي الذي وُضعت من أجله، فبعد ذلك لا يخلو حالها، إمّا أن تدل على معنى مخالف لما دلّت عليه بالوضع أم لا،

(1) سورة الأحزاب، من الآية: 27.
(2) المثل السائر: 3 / 63.
(3) الطراز: 1 / 373.
(4) الطراز: 1 / 373ـ374.

فإنْ لم تدل فلا معنى للكناية، وإنْ دلّت عليه وجب القول بكونه مجازاً، لمّا كـان مخالفـاً لمـا دلّـت عليه بالوضع "[1].

وقسّم العلوي الكناية إلى ثلاثة أقسام باعتبار ذاتها، وباعتبار حالها، وباعتبار حكمها.

فالقسم الأول: باعتبار ذاتها تنقسم لديه إلى مفردة، ومركبة. فأما المفـردة: " فهي ما كانت الكناية حاصلة في اللفظة الواحدة، وهذا كقوله ـ تعالى ـ: ﴿إِنَّ هَٰذَآ أَخِى لَهُۥ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً وَلِىَ نَعْجَةٌ وَٰحِدَةٌ﴾ فالمراد بالنعجة في كِلا الموضعين المرأة، وإنما كنى بالنعجة عـن المـرأة لِمـا بينهمـا مـن الملاءمة في التذلّل والضعف والرحمة وكثرة التآلف، وكقوله ـ تعالى ـ:

﴿أَوْ لَٰمَسْتُمُ ٱلنِّسَآءَ﴾ فإنه كنايةٌ عن الجماع "[2]. وأمـا المركبـة " فهـي أكثـر ورود الكنايـة عليها، كقولك: (الكرمُ في بُرْدَيْهِ، والمجْدُ بين ثَوْبَيْهِ، والعفاف في عِطْفَيْهِ)، هذا في المدح، وفي الـذم: (إنَّهُ لعريضُ الوساد)"[3].

ثم يوازن بين النوعين (المفردة والمركبة) بقوله: " فإذا وردت على طريقـة التركيـب كانـت أشد ملاءمة، وأعظم بلاغـةً، وإذا وردت على صورة الافراد لم يكن لها تلك المزية التي حـصلت للمركبة، ومثاله أنك إذا قلت في الكناية المركبة: فلان نقي الثـوب، وأردت إيـراده علـى صـورة المشابهة، فإنك تقول: هو في نزاهة العرض من العيوب كنزاهة الثوب من الأدناس، فإذا حـصل على هـذا التأليف اتضحت المشابهة ووُجـدت المناسبة وظهر أمر الكناية، وإذا قلـت في الكنايـة المفردة، اللمس في الجماع لم تكن في تلك الدرجة من المناسبة وقوة المشابهة "[4].

والقسم الثاني: باعتبار حالها تنقسم إلى قريبة وبعيدة. والقريبة هي: " ما يكون الانتقال إلى المطلوب بأقرب اللوازم.. ومثالها: (بعيدةُ مَهْوَى القُـرْطِ) فإنـه كنايـةٌ عـن طـول عنقهـا، وهـذا حاصل على القرب من غير اعتبار واسطة "[5]. وأما البعيدة: فهي " ما يكون الانتقال إلى مطلوبها من لازم أبعد منه، مثالها، (فلان كثير الرماد) فهذه تكثر فيها الوسـائط، لأنـك تنتقـل مـن كثـرة

(1) نفسه: 1 / 375 ـ376.

(2) نفسه: 1 / 427 ـ428.

(3) نفسه: 1 / 429.

(4) الطراز: 1 / 430. وينظر: المثل السائر: 3 / 59 للمقارنة.

(5) نفسه: 1 / 430. وللمقارنة، ينظر: مفتاح العلوم، ص 190 ـ191.

الرماد إلى كثرة الجمر، ثم إلى كثرة الإحراق تحت القدر، ثم إلى كثرة الطبائخ، ثم إلى كثرة الآكلين، ثم إلى كثرة الأضياف، ثم إلى كونه مضيافاً»[1].

أما القسم الثالث: باعتبار حكمتها فإنها تنقسم إلى حسنة وقبيحة. فالحسنة كقول أعرابية تصف زوجها: (إنه إبلٌ قليلات المسارح، كثيرات المبارك، إذا سمعن صوت المزهر أيقنَّ أنهنَّ هوالك)[2]. والقبيحة ما تخلو من الفائدة المرادة من الكناية، وهو عيب عند أهل البلاغة، من ذلك قول أبي الطيب المتنبي:

إنّي عـــلى شَغَـــفي بما في خُمْرِها لأعـــفُّ عمّا في سراويلاتها[3]

إذ إنّ (خمرها وسراويلاتها) فقدت غرض الستر والاخفاء وقربت من التصريح بالمعنى.

ويورد العلوي كثيراً من أمثلة الكناية من القرآن الكريم، والسنّة النبوية، وكلام علي أمير المؤمنين ﷺ، وكلام البلغاء، والكنايات الشعرية، وحفل كل نوع من هذه الأنواع الخمسة بعدد وافر من الشواهد.

ومن الكنايات القرآنية التي أوردها قوله ـ تعالى ـ: ﴿أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ﴾، وقوله ـ تعالى ـ: ﴿أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا رَّابِيًا..﴾. وهو لا يكاد يخرج في تفسيره لهذه الكنايات القرآنية عمّا قاله ابن الأثير من قبل[4].

والعلوي يفرّق بين الكناية والتعريض، والفروق بينهما تظهر من أوجه ثلاثة:

الوجه الأول: الكناية واقعة في المجاز، بخلاف التعريض فلا يعدّ من المجاز.

الوجه الثاني: الكناية تقع في المفرد والمركب، والتعريض لا يقع إلاّ في اللفظ المركب.

الوجه الثالث: التعريض أخفى من الكناية، لأن دلالة الكناية مدلول عليها من جهة اللفظ بطريق المجاز، بخلاف التعريض، فإن دلالته من جهة القرينة والاشارة[5].

ولم يضف الذين جاءوا من بعده إلى فن الكناية إضافات جوهرية، بل الملاحظ عليهم النقل من عبد القاهر الجرجاني والزمخشري وابن الأثير وغيرهم من علماء البلاغة والبيان.

(1) نفسه: 1 / 431. وللمقارنة، ينظر: مفتاح العلوم، ص 190 ـ 191.
(2) نفسه: 1 / 432.
(3) نفسه: 1 / 432 ـ 433.
(4) الطراز: 1 / 400 ـ 407. وينظر للمقارنة: المثل السائر: 3 / 62 ـ 63.
(5) الطراز: 1 / 397 ـ 398. وقارن بابن الأثير، المثل السائر: 3 / 56 ـ 57.

ومن هؤلاء ابن القيّم الجوزيّة (ت 751هـ)[1]، وبدر الدّين الزركشي (ت 794هـ)[2]، وابن حجة الحموي (ت 837 هـ)[3] والسيوطي (ت 911 هـ)[4] وابن معصوم المدني (ت 1120 هـ)[5].

ولا نجانب الحقيقة إذا قلنا إنّ المحدثين والمعاصرين من البلاغيين[*] لم يخالفوا ما انتهى إليه البلاغيون المتأخرون خلافاً جوهرياً في دائرة فن الكناية وإن كان لكلٍّ منهم ملاحظاته وطريقة تناوله لهذا الفن البياني[6].

الكناية بين الحقيقة والمجاز:

أكثر علماء البيان على مذهب أن الكناية من المجاز[7] لأن اللفظ المستعمل لايراد منه معناه الحقيقي.

قال ابن الأثير: "وقد تقدم القول في باب الاستعارة أنها جزء من المجاز وعلى ذلك تكون نسبة جزء الجزء، وخاص الخاص[8]. ولما كانت الكناية عندهنسبتها للاستعارة نسبة جزء الجزء وخاص الخاص، فهي من المجاز، إلا أن مجازيتها تختلف عن مجازية الاستعارة وتفترق عنها بالقرينة، القرينة مع الاستعارة تمنع من إيراد المعنى الحقيقي، فالاستعارة صريحة في مجازيتها.

أما الكناية فلا مانع يمنع من إيراد المعنى الحقيقي مع المعنى المكنى عنه المجازي، والمعنى المكنّى عنه في الكناية هو المستور وهو المجاز. يقول ابن الأثير: "فإن المستور هنا ـ يقصد الكناية ـ

---

(1) ينظر: الفوائد المشوق إلى علوم القرآن، ص 126 وما بعدها.

(2) ينظر: البرهان في علوم القرآن: 2 / 300 ـ301.

(3) ينظر: الخزانة، ص 359 ـ361.

(4) ينظر: الاتقان في علوم القرآن: 3 / 143 ـ148.

(5) ينظر: أنوار الربيع في أنواع البديع: 5 / 309 ـ316.

(*) ينظر مثلاً: علم البيان، د. بدوي طبانة، ص 234 وما بعدها. وينظر: البلاغة والتطبيق، د. أحمد مطلوب، ود. حسن البصير، ص 367 وما بعدها. وينظر: بناء الصورة الفنية في البيان العربي، د. كامل حسن البصير، ص 328 وما بعدها. وينظر: التصوير البياني، د. حفني محمد شرف، ص 221 وما بعدها. وينظر: جواهر البلاغة، أحمد الهاشمي، ص 345 وما بعدها. وينظر: البلاغة الواضحة، علي الجارم، مصطفى أمين، ص 123 وما بعدها.

(6) ينظر: الكناية، د. محمد جابر فياض، ص 197.

(7) الطراز: 1 / 375.

(8) المثل السائر: 3 / 55.

هو المجاز، لأن الحقيقة تفهم أولاً ويتسارع إليها الفهمَ قبل المجاز، لأن دلالة اللفظ عليها دلالة وضعية، وأما المجاز فإنه يُفهم بعد فهم الحقيقة، إنّما يُفهم بالنظر والفكرة"[1].

وذهب العلوي إلى ما ذهب إليه ابن الأثير[2] ورأى بعضهم أنها ليست من المجاز لأنك تعتبر في ألفاظ الكناية معانيها الأصلية، ثم يفيد بمعانيها معنىً ثانياً هو المقصود. نرى هذا عند فخر الدين الرازي، يقول: "الكناية عبارة عن أن تذكر لفظة وتفيد بمعناها معنىً ثانياً هو المقصود، وإذا كنت تفيد المقصود بمعنى اللفظ وجب أن يكون معناه معتبراً، وإذا كان معتبراً فما نقلت اللفظة عن موضوعها فلا يكون مجازاً"[3]. أي أنّ المعنى الثاني هو "معنى المعنى" كما يسميه الجرجاني[4] الذي يفيده اللفظ الكنائي ليس بمجاز، لأن المعنى الأصلي هو دليل يقود إليه فبينهما تلازم وارتباط، وبذلك نحن نستعمل الألفاظ في معانيها الأصلية.

ويُفهم من كلام السكاكي أن الكناية حقيقة، قال: "واعلم أن التعريض تارةً يكون على سبيل الكناية وأخرى على سبيل المجاز، فإذا قلت: آذيتني فستعرف، وأردت المخاطب ومع المخاطب انساناً آخر معتمداً على قرائن الأحوال كان من القبيل الأول، وإنْ لم ترد إلاّ غير المخاطب كان من القبيل الثاني"[5].

فالكناية عنده ليست مجازاً، وأن التعريض هو لون من ألوان الكناية، أو طريق من طرقها، ويكون أحياناً مجازاً على خلاف الكناية، كما مثّل له في قوله "آذيتني فستعرف" إذا كان المقصود غير المعنى الحقيقي الذي يمثله (المخاطب) وإنما المقصود من هو مع المخاطب بإمالة الكلام إليه.

وقال الخطيب القزويني: "فرّق السكاكي وغيره بوجه آخر وهو أن مبنى الكناية على الانتقال من الملزوم إلى اللازم"[6].

(1) نفسه: 3 / 54.
(2) الطراز: 1 / 376 وما بعدها.
(3) نهاية الإيجاز في دراية الإعجاز، ص 136. وينظر: نهاية الأرب، للنويري: 7 / 60.
(4) دلائل الاعجاز، ص 263.
(5) مفتاح العلوم، ص 194. وينظر: الإيضاح: 2 / 467.
(6) الإيضاح: 2 / 456.

وفرّق الخطيب بين الكناية والمجاز من جهة ارادة المعنى الحقيقي ولازمه، ولا يجوز في المجاز ذلك. لأن "المجاز ملزوم قرينة معاندة لارادة الحقيقة، وملزوم معاند الشيء معاند لذلك الشيء"[1].

والذي يميل إليه: هو أنّ الكناية تعبير مجازي[2] لأنه من أساليب التعبير غير المباشرة، وإنْ كان ظاهر اللفظ يُوحي بمعناه الحقيقي، إلاّ أن هذا المعنى الحقيقي ليس هو المقصود في الكناية، وإنما المقصود معنىً آخر يختفي وراء ظاهر اللفظ ويرتبط به. وما دام المُراد ليس هو معنىً ظاهر اللفظ، فالأَولى أن تكون الكناية من المجاز، كما أن هناك ألواناً من الكناية يتعذّر فهم معناها الحقيقي أو إيراده، يتّضح ذلك بخاصة مع الكناية بالتمثيل.

الفرق بين الكناية والتعريض:

لاحظنا فيما عرضناه من أسلوب الكناية عند البلاغيين جمع الكناية مع التعريض عند أغلبهم كأنهما أسلوب واحد أو أنهما لفظان مترادفان[3].

ولعل سبب هذا التقارب وجمع الأسلوبين في صعيد واحد عائد إلى أن "دلالة الكناية كدلالة التعريض في أنّ كلاً منهما لم يُصرّح فيه بالألفاظ الدالة على المعنى المقصود"[4].

فالتعريض كالكناية في كونه لا يُراد به معناه الذي يدل عليه ظاهره، وإنما يُراد به معنىً آخر يرتبط باللفظ الظاهر ويلازمه،إلاّ أن التلازم بين المعنيين في الكناية والتعريض مختلف، ففي الكناية أساسه العرف والعادة ـ في الأعم الأغلب ـ ولا يرتبط بموقف محدد أو سياق معين، على حين أن التلازم بين المعنيين في التعريض ينبع من الموقف الخاص الذي يُقال فيه الكلام[5].

وفرّق السكاكي بين الكناية والتعريض، وجعل التعريض جزءاً من الكناية وطريقة من طرقها[6].

(1) نفسه: 2 / 456.
(2) ينظر: البلاغة العربية، المعاني والبيان والبديع، د. أحمد مطلوب، ص 238.
(3) ينظر مثلاً: كتاب الصناعتين، ص 368، والعمدة: 1 / 302 ـ 303.
(4) علم البيان، د. بدوي طبانة، ص 256.
(5) ينظر: التعبير البياني، د. شفيع السيد، ص 151.
(6) ينظر: ص من:، وينظر: مفتاح العلوم، ص 190، 194.

ووضع ابن الأثير الفروق الظاهرة بين الكناية والتعريض، فالتعريض عنده هو: "اللفظ الدال على الشيء من طريق المفهوم"[1]، فقوله ـ تعالى ـ: ﴿ قَالُوٓا۟ ءَأَنتَ فَعَلْتَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَا يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ۞ قَالَ بَلْ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا فَسْـَٔلُوهُمْ إِن كَانُوا۟ يَنطِقُونَ ﴾[2] تصل دلالته إلى السامع من جهة المفهوم،لأن هدف ابراهيم ﷺ إقامة الحجة والبرهان على قومه، بأن هؤلاء لا يضرّون ولا ينفعون فهم لا ينطقون، وأبسط مظاهر توقع النفع أو الضر أن يعي الشيء، ويتكلم ليحقق ما يُريد، والحجر لا يعي ولا يتكلم فسلب حيتئذٍ أبسط مظاهر الضر والنفع[3]. وفي قوله ـ تعالى: ﴿ فَقَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ مَا نَرَىٰكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِىَ ٱلرَّأْىِ وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍۭ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَٰذِبِينَ ﴾[4]، تعريض بأن الله لو أرسل بشراً رسولاً، لاختارنا دونك لاعتبارات في مقاييسهم تقتضي أحقيتهم النبوّة كما يتخيلون[5]. وفي قوله ـ تعالى ـ: ﴿ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱمْرَأَتَ نُوحٍ وَٱمْرَأَتَ لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَٰلِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا وَقِيلَ ٱدْخُلَا ٱلنَّارَ مَعَ ٱلدَّٰخِلِينَ ﴾[6]. في هذه الآية تعريض. قال الزمخشري: "وفي طيّ هذين التمثيلين تعريض بأمي المؤمنين المذكورتين في أول السورة (عائشة وحفصة) وما فرط منهما من التظاهر على رسول الله ﷺ بما كرهه، وتحذيرهما على أغلب وجه وأشدّه،أن لا تتكلا على أنهما زوجا رسول الله ﷺ فإن ذلك الفضل لا ينفعهما إلاّ مع كونهما مخلصتين"[7].

وبذلك تكون دلالة التعريض أخفى من دلالة الكناية، لأن دلالته من جهة المفهوم، ودلالتها لفظية وضعية من جهة المجاز، وقول ابن الأثير في ذلك وفي بيان الفروق الأخرى سبق ذكره[8].

---

(1) المثل السائر: 3 / 56.

(2) سورة الأنبياء، الآيتان: 62 و 63.

(3) ينظر: المثل السائر: 3 / 72. وينظر: حدائق الزهر والريحان في البيان عن بلاغات التبيان، ص 32. وأصول البيان العربي رؤية بلاغية معاصرة، د. محمد حسين علي الصغير، ص 118.

(4) سورة هود، الآية: 27.

(5) ينظر: المثل السائر: 3 / 72، وأصول البيان العربي، رؤية بلاغية معاصرة، ص 119.

(6) سورة التحريم، الآية: 10.

(7) الكشاف: 4 / 458.

(8) ينظر: ص 45 من:، وينظر: المثل السائر: 3 / 57.

ومفهوم التعريض عند العلوي لا يختلف عن مفهومه عند ابن الأثير [1]، والذي ننتهي إليه أنّ التعريض لون من ألوان الكناية، أو طريقة متميزة من طرقها له خاصية فنية في التعبير عن المعنى إذا جاء في سياقه النابع من الموقف الخاص الذي يُقال فيه الكلام.

ويبرز التعريض في القرآن الكريم بخاصة بوصفه "أسلوباً مشرقاً من الأساليب البيانية يجتمُّه الأدب القرآني، وتدعو إليه لغته المهذبة، تقويماً للخُلُق، وصيانةً للنفس الانسانية من العبث والغيظ والإثارة المؤذية" [2].

معيار الجودة في الكناية عند البلاغيين:

أجمع دارسو البلاغة على أن أسلوب الكناية هو أبلغ من الافصاح، وأن التعريض أوقع من التصريح.

يقول عبد القاهر الجرجاني: "قد أجمع الجميع على أن الكناية أبلغ من الافصاح، والتعريض أوقع من التصريح" [3].

ويقول السكاكي: "واعلم أن أرباب البلاغة وأصحاب الصياغة للمعاني مطبقون على أن المجاز أبلغ من الحقيقة وأن الاستعارة أقوى من التصريح بالتشبيه وأن الكناية أوقع من الإفصاح بالذكرفيصير حال الكناية كحال المجاز في كون الشيء معها مدعى ببيّنة ومع الافصاح بالذكر مدعى لا ببيّنة" [4].

وذهب السبكي أن الكناية "هي أبلغ من كل مجاز مرسل ويحتمل أن يُقال أنها أبلغ من الاستعارة أيضاً" [5].

وفي إطلاقهم بأن المجاز أبلغ من الحقيقة، والكناية أوقع من التصريح هكذا مجرداً من سياق، يجانب الحقيقة، إذ أنّ أبلغية أي أسلوب يحدده السياق الذي يتشكل فيه، فالأسلوب المجازي يكون أبلغ من الحقيقي إذا جاء في سياقه الذي يتطلبه، والحقيقي يكون أبلغ من المجازي

(1) ينظر: الطراز: 1 / 397 ـ398.

(2) أصول البيان العربي، رؤية بلاغية معاصرة، ص 119.

(3) دلائل الاعجاز، ص 109.

(4) مفتاح العلوم، ص 194 ـ195. وينظر: الإيضاح: 2 / 468.

(5) عروس الأفراح في شرح تلخيص المفتاح، ضمن شروح التلخيص: 4 / 277.

في مقامه، فليس هناك أسلوب أبلغ من أسلوب مجرداً من سياق ومقتضى حال، فالسياق هو الذي يحدد أبلغية الأسلوب.

والملاحظ أنّ البلاغيين القُدامى قد استندوا في تحديد أبلغية الأسلوب الكنائي إلى معيار دقيق واضح، بوصفه أسلوباً فنياً غير مباشر، يؤدي لفظه الصريح بمعناه إلى معنى ثانٍ يرتبط بالمعنى الأول ويلازمه، وفي هذا إثارة للذهن وحسن وقع في النفس وشدة تأثير في المخاطب بما يتمثله من لوازم حسية تجسد له المعنى المقصود.

وللوصول من المعاني الأوّل إلى المعاني الثواني كما يُسميها الجرجاني [1] يتم بوسائط، وفي ضوء هذه الوسائط من حيث قربها أو بعدها، خفاؤها أو جلاؤها كان تقويم البلاغيين لأسلوب الكناية.

وأول من أشار إلى هذه الوسائط هو قُدامة بن جعفر في دراسته للكناية التي سمّاها (الأرداف). وقد استبعد قُدامة من الأرداف من دائرة الشعر، لكونه غامضاً بسبب كثرة الوسائط وغموضها إلى الحد الذي يتعذّر معه فهم معناه. قال: "ومن هذا النوع ما يدخل في الأبيات التي يسمونها أبيات المعاني، وذلك إذا ذُكر الردف وحده، وكان وجه اتباعه لما هو ردف له غير ظاهر، أو كانت بينه وبينه أرداف أُخَر، كأنها وسائط، وكثرت حتى لا يظهر الشيء المطلوب بسرعة إذا غمض، ولم يكن داخلاً في جملة ما ينسب إلى جيد الشعر إذ كان من عيوب الشعر وتعذّر العلم بمعناه" [2].

وأشار الجرجاني في تحليلاته لأسلوب الكناية إلى هذه الوسائط، وجعل معيار الجودة فيها راجعاً إلى بيانها ووضوحها في الدلالة على المعنى المقصود، وجعل ذلك شرطاً من شروط البلاغة، قال: "إنّ من شرط البلاغة أن يكون المعنى الأول الذي تجعله دليلاً على المعنى الثاني ووسيطاً بينك وبينه متمكّناً في دلالته، مستقلاً بوساطته، يسفر بينك وبينه أحسن سفارة، ويشير لك إليه أبين إشارة، حتى يخيّل إليك أنك فهمته من حاقّ اللفظ، وذلك لقلّة الكلفة فيه عليك، وسرعة وصوله إليك" [3].

(1) ينظر: دلائل الإعجاز، ص 263ـ264.
(2) نقد الشعر، ص 159.
(3) دلائل الإعجاز، ص 266ـ267.

فبلاغة الأسلوب الكنائي تعتمد على النسج الداخلي الذي يربط بين المعنيين الأصلي والمقصود [1] من حيث بعد الوسائط وقربها، وغموضها، ووضوحها.

ويتضح معيار الجودة في الأسلوب الكنائي عند السكاكي في صورة واضحة منظمّة، إذ يجترح مصطلحات في ضوء الوسائط، ويقسم الكناية على ضوئها، فيقول: "متى كانت الكناية عرضية على ما عرفت كان اطلاق اسم التعريض عليها مناسباً، وإذا لم تكن كذلكنُظر فإن كانت ذات مسافة بينها وبين المكنى عنه متباعدة لتوسط لوازمكما في كثير الرماد وأشباهه كان اطلاق اسم التلويح عليها مناسباً لأن التلويح هو أن تشير إلى غيرك عن بعد، وإن كانت ذات مسافة قريبة مع نوع من الخفاء كنحو: عريض القفا وعريض الوسادة كان اطلاق اسم الرمز عليها مناسباً، لأن الرمز هو أن تشير إلى قريب منك على سبيل الخفية، وإنْ كانت لا مع نوع الخفاء كان اطلاق اسم الايماء والإشارة عليها مناسباً" [2].

وهذه المصطلحات التي ذكرها السكاكي من (تعريض وتلويح ورمز وإيماء وإشارة) قد تبنّاها البلاغيون بعده في دراستهم الكناية، ومن ثم حدّدوا قوتها أو ضعفها، فقد استندت إلى معيار نابع من رؤية بلاغية تحدّد بوضوح الصورة الكنائية ووظيفتها في التعبير غير المباشر عن المعاني.

وفي ضوء هذا الاستعراض التاريخي لمفهوم الكناية عند البلاغيين القُدامى والمتأخرين يمكن استنتاج خلاصة وافية تحيط بتعريفها وأنواعها، ويمكن بوساطتها دراسة الكناية القرآنية بوصفها أسلوباً من أساليبه المتميزة لها خصائصها الفنية في التعبير والتصوير والتأثير.

نُثبت الخلاصة تعريف الكناية عند البلاغيين المتأخرين بأنه: "لفظ أُريد به لازم معناه مع جواز إرادة معناه حينئذٍ.

وفي المنظور المعاصر هي لفظ أو صورة مذكورة على سبيل المجاز بديلة عن أخرى محذوفة،وهذه الصورة تعبر عن المعنى المُراد بطريق الحقيقة والمسوّغ لذلك أن الأولى لازمة لتحقق الثانية، أي هي "ضرب من العدول عن لفظ يقرّر معناه حقيقةً وصراحةً والإتيان بلفظ

(1) الكناية أساليبها ومواقعها في الشعر الجاهلي، ص 113.

(2) مفتاح العلوم، ص 194.

آخر يؤدي هذا المعنى في شيء من التأول على أن تكون هناك علاقة لازمة بين اللفظين فيما يؤديانه، لذلك فإن هذه العملية اللغوية تنتج لنا صورة بديلة لازمة لما عدل عنه وترك إلى سواه"[1].

ومثال ذلك قولهم: "طويل النجاد" و"كثير الرماد" و"نؤوم الضحى" هي صور كنائية بديلة عن الرجل طويل القامة، وعن الرجل الكريم، وعن المرأة المترفة التي لها من يخدمها. وثمة فرق بين الصورة الكنائية وبين ما عدل عنه من معان حقيقية، فالصورة الكنائية هي تصوير للمعنى لا نلحظه في المعنى الذي عدل عنه. فقولنا: (هذا رجل كريم) هو تعبير مباشر من غير تصوير فني، أما إذا عدلنا عن هذا اللفظ وقلنا "كثير الرماد" رسمنا صورة حسية مُشاهدة لصفة ذلك الرجل يصل فيها المعنى إلى المتلقي بتجسيد يخضع للمقايسة ويُفضي من ثم إلى التوكيد وقوة التأثير، وهذا الملحظ الفني في الكناية قد عبّر عنه عبد القاهر الجرجاني بقوله: "أما الكناية فإن السبب في أن كان للاثبات بها مزية لا تكون للتصريح أن كل عاقل يعلم - إذا رجع إلى نفسه - أنّ اثبات الصفة باثبات دليلها، وايجابها بما هو شاهد في وجودها، آكد وأبلغ في الدعوة من أن تجيء إليها فتثبتها هكذا ساذجاً غُفْلاً، وذلك أنك لا تدعي شاهد الصفة ودليلها إلاّ والأمر ظاهر معروف وبحيث لا يُشك فيه ولا يظن بالمخبر التجوّز والغلط"[2].

ومثاله أيضاً قوله - تعالى -: ﴿ وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ ٱلْبَسْطِ ﴾[3] فالآية الكريمة تنهى عن صفتين مذمومتين هما: البخل والتبذير. وقد عدل التعبير القرآني عن صفة (البخل) إلى التصوير الكنائي الفني ﴿ وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ ﴾، نرى فيه البخيل وقد بدا ذراعه متجمّداً وكفّه مقبوضة في صورة محسوسة تتملاّها العين ويتحسسها الوجدان فهو مغلول اليد قد شدّت إلى عنقه لا يبدر منه عمل يُنتفع به، ولا ينهى بهمّة يفيد منها الآخرون. فالصورة الكنائية بديلة عن حقيقة لازمة لصفة البخل، فهي صفة تنفّر الناس منه لما يرونه عليه عياناً ويحسّونه فيه مشاهدةً.

وعدل التعبير القرآني كذلك عن صفة (الاسراف) إلى الصورة الكنائية البديلة ﴿ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ ٱلْبَسْطِ ﴾ فإذا المسرف الباذخ يبسط يده غاية البسط ويلحّ على بسطها في عناء

(1) بناء الصورة الفنية في البيان العربي، د. كامل حسن البصير، ص 328.
(2) دلائل الإعجاز، ص 110 ـ111.
(3) سورة الإسراء، من الآية: 29.

وعنت، فهو يُصوِّر للناس في هذه الصورة البديلة واقع أمره واللازم لهذا الواقع، فيفهم المتلقون أنه بهذا يضرّ نفسه بعدم الإبقاء على شيء ينفعه ويجدي سواه [1].

وبذلك يتجلى الفرق في التعبير عن الأفكار والمعاني بين الأسلوب الكنائي المصوِّر الموحي بطريق إثارة الحواس والذهن والمخيِّلة وبين التعبير الحقيقي المباشر الذي عدل عنه القرآن، وهذا وجه من وجوه إعجاز القرآن الكريم.

ونظر البلاغيون في طبيعة (المكنى عنه) الذي يتوارى خلف سجف الكناية فجعلوه ثلاثة أضرب وتبعاً لذلك قسموا الكناية إلى أنواع هي: الكناية عن الصفة، والكناية عن الموصوف، والكناية عن النسبة [2].

كما نظروا في السياق والوسائط التي توصلنا إلى المكنى عنه، فبنوا على ذلك خمسة أضرب هي: التعريض والتلويح والإيماء والإشارة والرمز [3].

وكل ما ذكروه من هذه الأضرب هي صور بديلة لازمة للمعنى المقصود يتميز الواحد من الآخر بسمة لغوية وفنية في التعبير عن الأفكار والمعاني بحيوية وقوة تأثير في المتلقي [4].

فالتعريض هو ضرب من الكناية، ويعتمد إدراك مفهومه على السياق، لذا فإن مدلوله خفي مستتر يهتدي إليه المتلقي ويكشفه من خلال ظرف القول ومناسبته وما إليهما من قرائن لا ينبض بها البناء اللغوي مباشرةً وإنما تتهادى في حدث تاريخي ومدعاة اجتماعي وعارض شخصي، ومع ذلك كلّه ينبغي أن تتوفر هذه القرائن لئلاً يضل المتلقي ويتيه عن المراد من التعريض [5]، وقد ورد (التعريض) في القرآن الكريم بكثرة ملحوظة تكشف أمثلته القرآنية عن طبيعته بوصفه ضرباً من ضروب الكناية.

أما التلويح فهو في اللغة أن تشير إلى غيرك من بعد [6]، وفي الاصطلاح: هو الكناية التي بينها وبين المعنى المكنى عنه مسافة متباعدة وذلك بسبب كثرة الوسائط التي تتوسط بين اللفظ الكنائي وبين المعنى المكنى عنه المقصود [7].

---

(1) ينظر: بناء الصورة الفنية في البيان العربي، ص 330.
(2) ينظر: مفتاح العلوم، ص 190 وما بعدها. وينظر: الإيضاح: 2 / 457.
(3) ينظر: مفتاح العلوم، ص 190. وينظر: الإيضاح: 2 / 466.
(4) ينظر: بناء الصورة الفنية في البيان العربي، ص 329.
(5) بناء الصورة الفنية في البيان العربي، ص 331 ـ332.
(6) ينظر: لسان العرب: 2 / 586 (لوح).
(7) ينظر: الإيضاح: 2 / 466. وينظر: البلاغة والتطبيق، ص 375.

وأما الإشارة والإيماء فهما لفظان مترادفان يلتقيان لغةً في أن تشير إلى قريب منك إشارة واضحة [1]، وفي الاصطلاح هما الكناية التي قلّت وسائطها مع وضوح المكنى عنه الذي تفضي إليه [2].

أما الرمز فهو في اللغة أن تشير إلى قريب منك بنحو شفه أو حاجب [3] وقيل أصل الرمز: "الكلام الخفي الذي لا يكاد يُفهم، ثم استعمل حتى صار الإشارة وقال الفرّاء: الرمز بالشفتين خاصة [4]. وقال ابن منظور: "الرمز تصويت خفي باللسان كالهمس، ويكون بتحريك الشفتين بكلام غير مفهوم باللفظ من غير إبانة صوت،إنما هو إشارة بالشفتين" [5].

فالرمز في لغة العرب على وجه الاجمال هو الاشارة، وفي كلامهم ما يدل على أنّ الإشارة أو الرمز طريق من طرق الدلالة، فقد تصحب الكلام فتساعده على البيان والافصاح، لأن حسن الاشارة باليد أو الرأس من تمام حسن البيان كما يقول الجاحظ [6]. أو تنوب الاشارة عن الكلام فتستقل هي بالدلالة، أو أن الانسان يلجأ إلى الإشارة حين العجز عن الكلام كالذي جعله الله آية لزكريا ﷺ على ما بشّره به من الولد، لما دعا الله - تعالى - أن يجعل له آية على ذلك: ﴿ قَالَ رَبِّ ٱجْعَل لِّيٓ ءَايَةً قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْزًا ﴾ [7].

والجاحظ أول أديب عربي أطال في الكلام على الاشارة، وجعل الإشارة ضرورة للخطيب، لكنه لم يبالغ فيها [8]" وتمتاز دلالة الإشارة بما يأتي:

- إنها سريعة قصيرة.
- غير مباشرة أي لا تفصح عن دلالتها إفصاحاً مباشراً، لأن الدلالة المباشرة تكون بطريق الألفاظ بحسب ما تدل عليه من معانيها اللغوية الوضعية.

---

(1) ينظر: لسان العرب: 1 / 201 (ومأ) و: 4 / 436 ـ437 (شور).
(2) مفتاح العلوم، ص 194. الإيضاح: 2 / 467، والبلاغة والتطبيق، ص 377.
(3) ينظر: أساس البلاغة، ص 1278 (رمز)، الإيضاح: 2 / 466.
(4) العمدة: 1 / 306.
(5) لسان العرب: 5 / 356 (رمز).
(6) البيان والتبيين: 1/ 70. وينظر: الرمزية في الأدب العربي، د. درويش الجندي، ص 41 ـ44.
(7) سورة آل عمران، من الآية 41. وينظر: الرمزية في الأدب العربي، ص 42.
(8) ينظر: البيان والتبيين: 1 / 69، 70، 77، 78.

ـ أن تكون خفية، والخفاء هو نتيجة الخاصتين السابقتين، فهي لسرعتها وقصرها لا يفهمها إلاّ الفطن الذي يكون ذهنه مهيأً لها، كما أنّ الدلالة غير المباشرة بطبيعتها هي أقل وضوحاً من الدلالة التقريرية المباشرة [1].

أما في الاصطلاح فقد أطلق البلاغيون المتأخرون (الرمز) على الكناية الرامزة وهي التي قلّت وسائطها إلى المكنى عنه مع خفاء [2] وقد تناول البلاغيون أمثلة من التعابير العربية الموروثة شواهد عليها، منها قولهم: (عريض القفا) كنايةً عن البلادة [3] فإنّ لزوم البلادة لعرض القفا لا يعرفه إلاّ القليل،وكذلك قولهم: عريض الوسادة،لينتقل منه إلى عرض القفا، ثم إلى البلادة، فالواسطة بين الكناية وما ترمز إليه شيء واحد، ولكنه لازم خفي [4] ومنها قولهم: (أملس الجلد) كنايةً عن الذي لم يُدَنَّس بعار ولم تصبه مثلبة حيث كان يُقال للرجل الذي لا يلصق به ذم هو أملس الجلد [5].

فالكناية الرامزة عند هؤلاء البلاغيين قد استوت تعبيراً لغوياً، لا يعسر تحديد مفهومها ومدلولها كما لو كانت بناءً لغوياً متعارفاً عليه في تداوله والعدول به عن اللفظ المباشر الصريح [6]. وحتى الشعراء الذي استخدموها أداةً في التعبير والتصوير على الرغم من خفائها فإنها قريبةٌ إلى ذهن المتلقي فيما تشير إليه من معانٍ وأفكار ولا تجهده في خفائها وغموضها، ومما مثّل به البلاغيون للرمز قول أحد القدماء يصف امرأة قُتل زوجها ومُبيت:

عَقَلْتُ لَـــها مَنْ زَوْجِهَا عَدَدَ الحَصى   مَعَ ـــــــ ـع أوْ مَـ ـــــعَ جُنْحِ كُلِّ أَصيلِ

يريد اني لم اعطها عقلاً ولا قَوَداً بزوجها، إلاّ الهمّ الذي يدعوها إلى عدّ الحصى. وأصله من قول امرئ القيس:

ظللت ردائي فـــــوق رأسيَ قاعداً   أعــــد الحصــــى ما تنقضي عبراتي [7]

(1) ينظر: الرمزية في الأدب العربي، ص 43.

(2) ينظر: مفتاح العلوم، ص 194. وينظر: الايضاح: 2 / 466، والبلاغة والتطبيق، ص 376.

(3) ينظر: مفتاح العلوم، ص 190. وينظر: الإيضاح: 2 / 458.

(4) ينظر: مفتاح العلوم، ص 190.

(5) بناء الصورة الفنية في البيان العربي، ص 333.

(6) ينظر: بناء الصورة الفنية في البيان العربي، ص 334.

(7) العمدة: 1 / 305. وينظر: البلاغة والتطبيق، ص 376.

فالشاعر في حالة نفسية من القلق والهم والحزن، وقد رمز لحالته النفسية بوضع الرداء على الرأس، وعدّ الحصى، وسيلان العبرات وهي بديلة عن عبارات صريحة مثل (أنا حزين أشاغل نفسي فلا تجدي مشاغلتي فما أنفك أبكي). فما استعمله الشاعر من كنايات رامزة علالرغم من خفائها فإنها قريبة إلى المتلقي فيما ترمز إليه لا يتيه في الإغراب ولا يضل عن المقصود، وبهذا المفهوم أصبح الرمز من الكنايات الفنية بما فيها من طاقة إيحائية قد تقرر بناؤها على وفق سنن العربية وما جرى به معجمها الاجتماعي الفني[1].

وأجلى خصائص الكناية الرامزة الإيجاز وغير المباشرة في التعبير عن المعنى، وبسبب هاتين الخاصتين يلفّها الخفاء والغموض. والإيجاز وغير المباشرة هما الدعامتان الأساسيتان للرمزية في الأدب العربي[2]" فالايجاز يزيد في دلالة الكلام من طريق الإيحاء، لأنه يترك على أطراف المعاني ظلالاً خفيفة يشتغل بها الذهن، ويعمل فيها الخيال، حين تبرز وتتلوّن وتتّسع، تشعّب إلى معان أخرى، يتحمّلها اللفظ بالتفسير أو التأويل[3]. واما غير المباشرة في التعبير - الدعامة الثانية للرمزية العربية - فهي من خواص اللغة الأدبية بوجه عام. ومعنى هذه الخاصية: الخروج على أوضاع اللغة، لصلة من الشبه، أو لأية علاقة من التجوز[4]" وقد سلك الأدب العربي إلى غير المباشرة في التعبير مسالك مختلفة أهمها: الكناية والمجاز، يقول عبد القاهر الجرجاني في "فصل في اللفظ يطلق والمراد غير ظاهره": اعلم أن لهذا الضرب اتساعاً وتفنناً لا إلى غاية، إلا أنه على اتساعه يدور في الأمر الأعم على شيئين: "الكناية والمجاز"[5].

والغموض الناشيء عن هذين الخاصتين هو غموض مستحسن ما دام سببه دقة الفكرة وعمقها، ويرجع عبد القاهر الجرجاني استحسانه لهذا الغموض الفني إلى طبيعة نفسية فيقول: "من المركوز في الطبع أن الشيء إذا نيل بعد الطلب له أو الاشتياق إليه، ومعاناة الحنين نحوه، كان نيله أحلى، وبالميزة أولى، فكان موقعه من النفس أجلّ وألطف، وكانت به أضنّ

(1) ينظر: بناء الصورة الفنية في البيان العربي، ص 334.
(2) ينظر: الرمزية في الأدب العربي، ص 55، 68.
(3) دفاع عن البلاغة، ص 99.
(4) ينظر: الرمزية في الأدب العربي، ص 55.
(5) دلائل الإعجاز، ص 105.

وأشـف، وكذلك ضرب المثل لكـل ما لطف موقعه ببرد المـاء علـى الظمأ»[1]. أما الغمـوض المفتعل الذي يكون نتيجة تعقيد الأسلوب وسوء ترتيب الكلام فهـو غمـوض مـذموم عنـد الجرجاني، لأنه يكدّ الذهن فيما لا طائل تحته، وقول عبد القاهر: «والمعقّد من الشعر والكـلام لم يذمّ لأنه مما تقع حاجة فيه إلى الفكـر على الجملـة، بـل لأن صـاحبه يعثـر فكـرك في متـصرّفه، ويشيك إلى المعنى، ويوعر مذهبك نحوه. بل ربما قسّم فكرك، وشعب ظنّك، حتى لا تدري مـن أين تتوصل وكيف تطلب»[2].

فالأصل في جمال الغموض في التعبير الأدبي عند العرب أن يكـون مـصدر طاقـة إيحائيـة يترك على أطراف المعاني ظلالاً خفيفة تعمق المعنى وتلونـه وتوسـعه لا أن يكـون مغلقـاً يقـف أمامه القارئ حائراً دهشاً ـ فلا جمال ولا فـن ـ[3]، ومـن ثـم يمكـن أن يلتقـي مفهـوم الرمـز في المذهب الرمزي الغربي مـع مفهـوم الرمز في الأدب العربي في عـدد مـن الخـصائص الفنيـة، فكلاهما إيحائي بجوهـره لا يكتفي بتصوير الأشياء المادية. بـل يسعى إلى نقل تأثيرهـا في الـنفس بعد أن يلتقطها الحس. وغايـة الـشاعر الرمـزي الوصـول إلى خَلْـق حالـة نفـسية معينـة في جـو القصيدة.

ولما كانت اللغة العادية، التي لا تتعدّى الشيء المحسوس عاجزة عن نقل الحالات النفـسية الغامضة، لجأ الشاعر إلى الرمـز لما فيه من طاقة إيحائية في التعبير عنها[4] فالرمز هو استحـضار لتجربة شعورية، يقول الناقـد كينيـث بـيرك: إنّ الرمـز هـو المقابـل اللفظي للتجربـة الانـسانية المعاشة،ولذلك فهو يتميز بالقوة والحيوية والتدفق والتعقيـد، ولا يعـني التعقيـد صـعوبة إدراكـه ولكنه يعني تعدد الأبعاد والجوانب، وهذا يمكّن الرمز مـن أن يـبرز الخـط الرئيـسي في العمـل الأدبي ويزيد من اقناعنا به»[5]،وأحياناً يكون الرمز بمثابة تنفيس للعواطـف والاحساسات الـتي أثارهـا العمـل الأدبـي داخـل القـارئ، وأحيانـاً أخـرى يقـوم الرمـز ذاتـه بإثـارة العواطـف

(1) أسرار البلاغة، ص 118.
(2) المصدر نفسه، ص 125 ـ126.
(3) ينظر: الرمزية في الأدب العربي، ص 66.
(4) ينظـر: الرمزيـة والأدب العربـي الحـديث، أنطـوان كـرم، ص 12. وينظـر: الأدب الرمـزي، هنـري بـير، ترجمـة: هنـري زغيـب، ص 10 ـ11. وينظـر: الرمزيـة والرومانتيكيـة في الـشعر اللبنـاني، أمية حمدان، ص 28 ـ28.
(5) المذاهب الأدبية من الكلاسيكية إلى العبثية، د. نبيل راغب، ص 110.

والاحساسات الراكدة داخله، وهكذا تتعدّد وظائف الرمز بتعدّد واختلاف النصوص الواردة بها[1]، وهو في كلّ يقوم بوظيفة عضوية في العمل الأدبي.

أما إذا أصبح الرمز وسيلة تعقيد وغموض شديدين كما هو طابع الرمز عند الغربيين ـ على الأعم الأغلب ـ وهو من المآخذ التي أخذها النقّاد عليها[2] فإنها تفترق بذلك عن مفهوم الرمز العربي في التعبير الأدبي عند العرب بوصفه طاقة إيحائية في التعبير والتصوير.

وثمة مآخذ كثيرة أخذها النقّاد على الرمزين منها: إسرافهم في عدّ الشعر ضرباً من الموسيقى الخالصة[3]، ونزعتهم الذاتية المسرفة في تباين آرائهم في الحقائق النفسية والكونية، واعتمادهم الأحلام والرؤى للوصول إلى أعماق النفس، فجاءت صورهم الشعرية غريبة غامضة يعسر على القارئ إدراكها[4] وفهمها. وهو ما يُلاحظ في الرمزية الغربية وما يأتي على شاكلتها في الأدب العربي الحديث حيث نزع أصحابها إلى تقليد الغرب[5]. ويمكن القول على وجه الإجمال: "أن الرمزية الغربية في جملتها مذهب انطوائي يجنح إلى الأثرة ويعيش في الظلام. مذهب يدعو إلى اعتزال المجتمع ويضنّ بالأدب أن يكون هادياً ومرشداً إلى الخير والحق، وينفر من العقل والمنطق ويجنح إلى الخيال الشارد والوهم الذي لا سند له من التفكير المستقيم ويخلط بين المدركات الحسية التي أراد لها الله أن تكون متميزة، فجعل لكل مدرك حاسة وجعل الحواس خمساً لا واحدة. وهو مذهب يطلب المستحيل فلن يكون الشعر أبداً موسيقى خالصة، لأنّ الشعر مكّون من كلمات، والكلمات مرتبطة بمعانيها، ولا يمكن أن تتجرد من هذه المعاني لتصير نغمات خالصة كما تبين ذلك للرمزين الغربيين أنفسهم، فاعترفوا بعجزهم عن تحقيق هذا المطلب الجامح، كما لا يمكن كذلك أن يتصل الفنان الشاعر بعالم الجمال الأعلى عن طريق شعره وفنه، بتخذ من ذلك تعاويذ ورقى ليصل إلى سر الوجود وهو مغمور في حمأة الدّنس والرذيلة، كما كان معظم أدباء الرمزية"[6].

(1) المصدر نفسه، ص 110.
(2) ينظر: الرمزية والرومانتيكية في الشعر اللبناني، ص 31.
(3) ينظر: الخلاصة في مذاهب الأدب الغربي، د. علي جواد الطاهر، ص 57. وينظر: المذاهب الأدبية من اللاكلاسيكية إلى العبثية، ص 116.
(4) ينظر: الرمزية والرومانتيكية في الشعر اللبناني، ص 28.
(5) ينظر: الرمزية والأدب العربي الحديث، انطوان غطاس كرم، ص 183.
(6) الرمزية في الأدب العربي، ص 542 ـ543.

أما الرمزية في القرآن الكريم فلا بُدّ من الالمام بها إلمامة عاجلة لأنها متصلة بموضوعنا إتصالاً وثيقاً، فقد احتوى القرآن على صور تمثل الرمزية العربية في أسمى مظاهرها وفي كلا ركنيها: الإيجاز، وغير المباشرة في التعبير [1] فالرمزية في القرآن في جملتها جارية مجرى الرمزية العربية ذات المعاني المقررة المحددة التي تستشف من العبارة الموجزة والصور المجازية والكنايات وما إلى ذلك مما لا يعبّر مباشرةً عن المعاني [2].

والتعبير الرمزي في القرآن نجده متناثراً في أغلب سوره مما يحمل على إرادة الرمزية بمعناها الدقيق [3] فهو يتخذ الرمز وسيلة مهذبة من وسائل التعبير الفني، دون تجريح أو تقريع أو لوم أو تعنيف، بما يترك شعوراً غامضاً بالنفس أو أسى داخلياً في المشاعر والعواطف، وإنما يمسّ النفس مسّاً رفيقاً، ويداعب العواطف مداعبة هادفة [4] من ذلك كناياته الأدبية المبثوثة في كثير من سوره، منها قوله ـ تعالى ـ في صفة المسيح ﷺ وأمه: ﴿مَّا ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ وَأُمُّهُۥ صِدِّيقَةٌ ۖ كَانَا يَأْكُلَانِ ٱلطَّعَامَ ۗ﴾ [5] فأي أدب أسمى من هذا الأدب الذي يتمثل في الكناية بأكل الطعام عن الغائط والبول، لأنهما بسبب منه إذ لابد للآكل منهما [6]" وقوله ـ تعالى ـ في المهر: ﴿وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُۥ وَقَدْ أَفْضَىٰ بَعْضُكُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ﴾ [7] فكنى بالإفضاء عن الإصابة، وقيل عن الخلوة، والأول أصح لأن العرب إنما تكني عمّا يقبح ذكره، والخلوة لا يقبح ذكرها" [8].

وغير ذلك من الكنايات القرآنية التي أولاها البلاغيون والنقّاد العرب عناية بالذكر وبيان المعاني التي تنطوي تحتها، كما عرضناها في هذا التمهيد، ولابدّ من القول إن ما ذكره

---

(1) نفسه، ص 188.
(2) الرمزية في الأدب العربي، ص 194.
(3) أصول البيان العربي رؤية بلاغية معاصرة، ص 122.
(4) نفسه، ص 121.
(5) سورة المائدة، من الآية: 75.
(6) ينظر: البرهان في علوم القرآن: 2 / 304.
(7) سورة النساء، من الآية: 21.
(8) ينظر: البرهان في علوم القرآن: 2 / 311.

البلاغيون والنقّاد والمفسّرون من الكنايات القرآنية كان محدوداً إذ يكرر ـ على الأغلب ـ اللاحق منهم ما ذكره السابق من شواهد الكناية القرآنية، لذلك ظلّت الكناية القرآنية بحاجة إلى استقصاء شامل في القرآن كلّه[1] استقصاء يجمعها على صعيد واحد يمهّد لدراستها دراسة موضوعية شاملة تبيّن خصائصها التعبيرية والتصويرية بوصفها أسلوباً من أساليب القرآن البليغة المعجزة.

(1) ينظر: الأسلوب الكنائي ـ نشأته تطوره بلاغته ـ، محمود السيد شيخون، ص 57 ـ58.

الفصل الأول

الكناية الجنسية

الفصل الأول

الكناية الجنسية

نقصد بالكناية الجنسية الكناية الدالة على العلاقة الجنسية بين الزوج وزوجته بالدرجة الأساس، إذ إنّ هناك نوعين من العلاقة الجنسية: العلاقة الجنسية المشروعة، وهي علاقة التزاوج بالطريق المشروع الذي أحلّه الله ﷺ وهي علاقة تحقق أهدافها ومنها الحفاظ على كيان المجتمع الإنساني من الضياع والتفكك والدمار، أما النوع الثاني: العلاقة الجنسية غير المشروعة بطريق الفوضى والإنحلال والتفسخ في الخلق، فهي العلاقة التي حرّمها الله وحرمتها الشرائع والقوانين [1].

وقد عبّر القرآن الكريم عن هذين النوعين من العلاقة الجنسية بالأسلوب الكنائي الموحي، وبخاصة عن الفعل الجنسي بين الزوج وزوجته، إذ لا يصرح بهذا الفعل في القرآن كلّه [*] وإنما يُكنى عنه بألفاظ تدل عليه، فهو مرة يكني عنه بـ (الملامسة والمس والغشيان والتقرّب والإفضاء والدخول والإتيان والمباشرة والرفث والتمتع والاعتزال واللباس والهجر في المضاجع والسِّر..) في الحياة الدنيا، ومرة يكني عنه بـ (الطمث والفرش المرفوعة) في الجنة في الحياة الأخرى.

وإذ لا يُصرح القرآن بالفعل الجنسي فإنه يعمد باستبدال ألفاظ قبيحة فاحشة بألفاظ حسنة في التعبير عن المعنى المقصود، وبذلك يتجلى البعد التهذيبي الذي تنطوي عليه الكناية القرآنية الجنسية، فهي تتسامى وتترفع عن التصريح بالألفاظ المفحشة التي تخدش الشعور وتحط من الذوق الجمالي، وبذلك تبعث الكناية القرآنية جواً نفسياً إيحائياً خاصاً عند المتلقي لها يختلف عمّا تبعثه الدلالة التي يؤديها التعبير المباشر.

---

(1) ينظر: العلاقات الجنسية غير الشرعية وعقوبتها في الشريعة والقانون، د. عبد الملك السعدي، القسم الأول، ص 34.

(*) أما الفعل الجنسي بالطريق غير المشروع كالزنا، فإن القرآن يصرح به أحياناً كما سيأتي بيانه.

وقد أشار البلاغيون القُدامى إلى هذا البعد التهذيبي في دراستهم للكناية، من ذلك ما ذهب إليه المبرد بقوله: "من الكناية - وذلك أحسنها - الرغبة عن اللفظ الخسيس المفحش إلى ما يدل على معناه من غيره"[1].

فالبعد التهذيبي التربوي هدف من أهداف الكناية القرآنية، ويتجلى هذا الهدف بخاصة مع الكناية الجنسية في التعبير عن العلاقة بين الزوجين، فيرتفع بهذه العلاقة إلى أفق كريم ينأى بها عن الصورة الحيوانية الغليظة، ومن مجموع إيحاءات الكناية القرآنية الجنسية نلحظ إيحاءً للإنسان بالصورة "الإنسانية" في المباشرة والالتقاء.

وفضلاً عن هذا البعد التهذيبي التربوي فإن الكناية القرآنية الجنسية تحقق كذلك إيحاءات فنية تنسجم مع السياق الذي تتشكل فيه لا نلمحها في التعبير الصريح الفاحش،وذلك لأن الكناية وسيلة حيوية في التعبير، لكونها من الأساليب الإيحائية، فهي لا تدل على المعنى في صورة مباشرة، وإنما يعمل الذهن فيها والخيال في الوقوف على المعنى المقصود.

والقرآن يختار الكناية اختياراً دقيقاً في التعبير عن المعنى المُراد، إذ إنّ "كل كلمة في القرآن موضوعة في موضعها اللائق بها"[2] تؤدي معناها، وتحقق في سياقها أبعاداً معنوية ونفسية وجمالية.

---

(1) الكامل: 2 / 191، وينظر مثلاً: البرهان في وجوه البيان، ابن وهب، ص 133. وسر الفصاحة، ص 155 ـ156. وبديع القرآن، ابن أبي الأصبع المصري، ص 53. والتبيان في البيان، للطيبي، ص 214.

(2) تفسير المنار، محمد عبدة: 2 / 12. وينظر: من بلاغة القرآن، أحمد بدوي، ص 57.

(*) لا يعبر القرآن بلفظ (الزنا) إلا عندما يكون هناك داعٍ للتعبير بهذا اللفظ الصريح كسياق نهي يتطلب التعبير المباشر كقوله ـ تعالى ـ: ﴿ وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَىٰ إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا ﴾ [سورة الإسراء، الآية: 12] ، وهذا التعبير المباشر قليل إزاء التعابير الكنائية عن الزنا نفسه، فهو يعبرعنه بالتعبير الكنائي: ﴿ فَمَنِ ابْتَغَىٰ وَرَاءَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْعَادُونَ ﴾ [سورة المؤمنون، الآية: 7] و [سورة المعارج: الآية 31]، وبالفاحشة في عدة مواضع: [سورة النساء، الآية: 15، 19، 22، 25] و [سورة النور، الآية: 19]، و [سورة الأحزاب، الآية: 30] و [سورة الطلاق، الآية: 1]، وبالعنت في موضع واحد: [سورة النساء، الآية: 12]، وبالمراودة في ستة مواضع من [سورة يوسف، الآيات: 23، 26، 30، 32، 50، 51].
أما (اللواط) فلم يرد بلفظه، بل مُكنى عنه بالفاحشة، ينظر: [سورة الأعراف، الآية: 80]، و [سورة النمل، الآية: 54] و [سورة العنكبوت: 28]، وكنّى عنه بالمراودة في [سورة القمر، الآية: 37]. وبالاتيان في [سورة النساء، الآية: 16] و [سورة الأعراف، الآية 80] و [سورة

كما أننا نلحظ على هذا اللون من الكناية الجنسية في القرآن (التلوين والتعدد)، إذ يستخدم القرآن أكثر من سبع عشرة مادة لغوية كنائية في التعبير عن المعنى المكنى عنه (الجماع) بين الزوج وزوجته، وفي كل كناية نلحظ إيحاءً جديداً في سياقها فهي كلها تشترك في التعبير عن المعنى المكنى عنه الرئيس (الجماع)، وتفترق فيما توحي به من إيحاءات تنسجم مع السياق الذي تكون فيه وتتسق، وفضلاً عن ذلك فإن هذا التعدد في الكناية الجنسية وهذه الكثرة الملحوظة ـ فيما نرى ـ تنطوي على دلالة موحية خاصة إذا ما قُورنت بما ورد في القرآن من ألفاظ صريحة دالة على الفاحشة كـ (الزنا واللواط) (*) التي تقل قلّة ملحوظة إزاء الكنايات الجنسية المشروعة بين الزوجين،وتتمثل هذه الدلالة في الحث على تضييق النطق بها والتداول بها في المجتمع، لأن تداولها يعمل على إزالة التحرج من ارتكاب الفاحشة، فتشيع في النفوس، لتشيع بعد ذلك في المجتمع فهو بعد اجتماعي مرتبط بالبعد التهذيبي، وهما من أهداف القرآن الذي يحارب الفاحشة أن تشيع في الواقع لأنها لا تُلبي الفطرة السليمة، وتعمل على فساد المجتمع وتهديمه، على خلاف التعابير الكنائية المعبرة عن العلاقة الجنسية، بين الزوجين والموافقة للفطرة الانسانية، إذ يرتفع القرآن بعلاقة الزوجين والتقائهما عن المستوى الحيواني، ويقيم العلاقة الجنسية بينهما على أساس من المشاعر الانسانية الكريمة، التي تجعل من التقاء جسدين التقاء انسانين نفساً وقلباً وروحاً، توجه فيه طاقة الزوجين في هذا الالتقاء وجهة بنّاءة في المجتمع غايتها استئناف الحياة بإنجاب عنصر الحياة الفعّال وهو الانسان.

وسنعمد إلى توزيع الكنايات الجنسية إلى موادها اللغوية المتنوعة في سياقاتها التي جاءت فيها، ثم ننظر في وظيفة الكناية في التعبير بوصفها أسلوباً إيحائياً غير مباشر يثير نوازع التأمل ويؤدي المعنى خير أداء.

النمل، الآية:54] و [سورة العنكبوت، الآية: 28]. وجعل (اللواط) من جملة الأعمال الخبيثة، فقال في حق قرية لوط: ﴿كَانَت تَّعْمَلُ الْخَبَائِثَ﴾ [سورة الأنبياء، الآية: 74].

فيتجلى بذلك البعد التهذيبي الذي يحرص عليه القرآن لتربية الأذواق والنفوس، وفضلاً عمّا ذكرنا، ينظر الآيات الآتية التي احتوت كنايات ذوات بعد تهذيبي: [سورة النساء، الآيات: 19، 20، 21] و [سورة الأنعام، الآية:/ 120] و[سورة النور، الآية: 26] و [سورة المؤمنون، الآية: 72] و [سورة القصص، الآية: 55] و [سورة فصلت، الآيات: 20، 21، 22].

الرفث واللباس والمباشرة:

وردت هذه الكنايات الثلاث (الرفث واللباس والمباشرة) في سياق عبادة الصيام في قوله ـ تعالى ـ: ﴿ أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ الرَّفَثُ إِلَىٰ نِسَائِكُمْ هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَخْتَانُونَ أَنفُسَكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنكُمْ فَالْآنَ بَاشِرُوهُنَّ وَابْتَغُوا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ ثُمَّ أَتِمُّوا الصِّيَامَ إِلَى اللَّيْلِ وَلَا تُبَاشِرُوهُنَّ وَأَنتُمْ عَاكِفُونَ فِي الْمَسَاجِدِ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَقْرَبُوهَا كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴾ [1].

يختار القرآن الكناية المفردة ﴿ الرَّفَثُ ﴾ في سياق عبادة الصيام، ونعني بالكناية المفردة وقوعها في اللفظة الواحدة [2]، والرفث هي أنسب كناية في التعبير عن معناها في هذا السياق، لأن الرفث في حقيقته هو: "كلام متضمن لمايستقبح من ذكر الجماع ودواعيه" [3] أو هو "الفحش من القول، وكلام النساء في الجماع" [4] فاللفظ الكنائي في حقيقته دال على معنى القبح لا نجده في لفظ كنائي جنسي آخر كالافضاء أو الغشيان أو المباشرة أو غير ذلك مما جاء في القرآن كله من كنايات جنسية، وذلك لأن معنى القبح في كناية الرفث مقصود في سياقه، وقد علل الزمخشري استعمال هذه الكناية في سياقها بالاستهجان، وذلك لما وجد منهم قبل الإباحة كما سمّاه اختياناً لأنفسهم [5]، ويبقى المعنى الحقيقي لهذا اللفظ يظلل السياق بمعناه، وإن كان المقصود منه المكنى عنه الموصوف وهو (الجماع)، ويدل على هذا المكنى عنه تعديته بحرف الجر ﴿ إِلَىٰ ﴾: ﴿ الرَّفَثُ إِلَىٰ نِسَائِكُمْ ﴾ فيتعين المعنى المقصود وهو الافضاء (الجماع) لأن الرفث في معنى الإفضاء، يقال: أفضيت إلى المرأة، فجاء بالى مع الرفث إيذاناً وإشعاراً أنه بمعناه [6]. وبينهما ـ المعنى

(1) سورة البقرة، الآية: 187.

(2) ينظر: المثل السائر: 3/ 59. والطراز: 1/ 427.

(3) المفردات في غريب القرآن، للراغب الأصبهاني، ص 290.

(4) لسان العرب: 2/ 153 (رفث). وينظر: صفوة البيان لمعاني القرآن، حسنين محمد مخلوف، ص 44.

(5) ينظر: الكشاف: 1/ 338. وينظر: تفسير القرآن العظيم، لابن كثير: 1/ 309 ـ210. فيما وجد منهم قبل الإباحة.

(6) ينظر: لسان العرب: 2/ 154. وتفسير التحرير والتنوير: 2/ 182 الكتاب الأول.

الحقيقي والمعنى المكنى عنه ـ من التلازم والارتباط، وهذا هو الارداف عند البلاغيين [*].
فالتابع هو ﴿ٱلرَّفَثُ﴾ بمعناه الحقيقي وهو المكنى به، والمتبوع هو (الجماع) وهو المكنى عنه
المقصود، ولما تحقق المقصود من قرب، والقرب هو الانتقال إلى المطلوب بسهولة ويسر تسمى
الكناية عندئذٍ قريبة واضحة [1]. ولقرب كناية الرفث ووضوحها قيل بأنها حقيقة فيما تشير إليه
من معناها الحقيقي وفي إطلاقها على الجماع [2].

ولمّا كانت الكناية في سياق عبادة الصيام، فقد عبّرت عن جو عبادة الصيام في صورة
يعجز التعبير عنه غير هذا الكناية، لأن اختيارها كان لقصد جمع المعنيين الصحيح والكنائي [3]،
لا الاقتصار على المعنى المُكنى عنه حسب، وبهذا الجمع بين المعنيين توحي الكناية بإيحاء يتسق
مع عبادة الصيام إتساقاً فنياً ملحوظاً، إذ يظل المعنى الحقيقي الصريح يظلل السياق بمعناه، وهو
من المفطرات للصائم، فإذا كان مُحرّماً في أثناء الصيام بين الزوج وزوجته نهاراً، فإنه مُباح ليلاً،
وبذلك تكون الكناية موحية بما يصاحب المكنى عنه من قول يلازمه وشعور يرتفع بالفعل
الجنسي لأنه من شؤون الالتذاذ بين الزوجين بما يليق بهما بوصفهما انسانين، وتتواشج من
كناية الرفث وتتصل بها وتعمق معناها الإنساني الكناية المفردة الأخرى ﴿لِبَاسٌ﴾: ﴿هُنَّ لِبَاسٌ
لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ﴾ القائمة في بنيتها على الاستعارة التصريحية [*] حيث استعار (اللباس)
للزوجين بجامع شدة الاتصال بينهما، فاللباس من معانيه التغطية والستر، فالمراد هو "قرب
بعضهم من بعض واشتمال بعضهم على بعض كما تشتمل الملابس على الأجسام" [4]، وبهذا

(*) وهو أن نريد دلالة على معنى من المعاني، فلا نأتي باللفظ الدال على ذلك المعنى، بل بلفظ يدل على معنى هو ردفه وتابع له، فإذا دلّ على التابع أبان عن المتبوع. ينظر: نقد الشعر، ص 157. وحلية المحاضرة: 1 / 155. وكتاب الصناعتين، ص 350. وتحرير التحبير، لابن أبي الأصبع المصري، ص 207.

(1) ينظر: مفتاح العلوم، ص 190.

(2) ينظر: تفسير التحرير والتنوير: 2 / 182 الكتاب الأول.

(3) ينظر: تفسير التحرير والتنوير: 2 / 234، الكتاب الأول.

(*) الاستعارة التصريحية: هي الاستعارة التي يذكر فيها (المشبه به) الذي هو (المستعار منه) صريحاً، ويحذف (المشبه) الذي هو (المستعار له). ينظر: مفتاح العلوم، ص 174.

(4) تلخيص البيان في مجازات القرآن، للشريف الرضي، ص 12. وينظر: المنتخب من كنايات الأدباء واشارات البلغاء، للجرجاني، ص 7، 10.

المعنى الذي أشارت إليه الاستعارة تتجلى رحمة الله وعنايته برفع العنت والمشقة بتحليل الرفث إليهن في الليل، لأن الامساك عن قربان النساء في الليل عنت ومشقة لأنه وقت الاضطجاع، على خلاف الامساك عنهنّ في النهار لإمكان الاستعانة عليه في النهار بالبعد عن المرأة [1] ففي تحليل الرفث وقاية من تعاطي القبيح، قال الراغب: "لبس الثوب: استتر به.. وجعل اللباس لكل ما يغطي من الانسان عن قبيح، فجعل الزوج لزوجه لباساً من حيث أنه يمنعها ويصدها عن تعاطي قبيح "[2] سواء أكان المقصود بالقبيح ما وجد منهم قبل الإباحة، أو غير ذلك من منكر أو خيانة، وبذلك تلوح الملابسة في الاستعارة بين الزوجين بالمعنى المكنى عنه المقصود وهو "الجماع "[3] وبه يتحقق معنى ستر الزوج الزوجة، والزوجة الزوج، فكلاهما يستر الآخر، كما دلّ اشتراكهما بمشبه به واحد ﴿لِبَاسٌ﴾ ، وليتحقق ذلك الملمح الانساني في اتصالهما، إذ يغدو الزوجان وكانهما حالة واحدة، جسداً ونفساً وروحاً، بل هما كذلك، صلة النفس بالنفس، وهي صلة السكن، قال ابن عباس: "هنّ سكنٌ لكم وانتم سكنٌ لهن "[4] وهي صلة الستر والتجمل، إنّ الكناية جاءت تعبير كامل عن حقيقة الصلة التي يفترضها القرآن بين الزوجين، وبهذه المعاني الإنسانية الكريمة التي أوحت بها كناية ﴿لِبَاسٌ﴾ يباشر الزوج زوجته ﴿فَٱلْـَٔـٰنَ بَـٰشِرُوهُنَّ﴾ فكنى بالمباشرة عن الجماع لما فيه من التقاء البشرتين [5] وفيها ايحاءان ينسجمان مع السياق:

---

(1) ينظر: تفسير التحرير والتنوير: 2 / 182، الكتاب الأول.

(2) المفردات، ص 674.

(3) البرهان في علوم القرآن: 2 / 304. وينظر: المعاني الثانية في الأسلوب القرآني، فتحي احمد عامر، ص 424.

(4) تفسير القرآن العظيم: 1 / 209. وينظر: صفوة التفاسير، محمد علي الصابوني: 1 / 112.

(5) البرهان في علوم القرآن: 2 / 303. وينظر: المعاني الثانية في الأسلوب القرآني، ص 424.

(*) كان الناس في رمضان إذا صام الرجل فأمسى فنام حرّم عليه الطعام والشراب والنساء حتى يفطر في الغد، فانزل الله: ﴿أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ ٱلصِّيَامِ ٱلرَّفَثُ إِلَىٰ نِسَآئِكُمْ ...﴾ ففرحوا بذلك فرحاً شديداً. ينظر: لباب النقول في أسباب النزول، للسيوطي، بهامش تفسير الجلالين، ص 67 وما بعدها. وينظر: تفسير القرآن العظيم: 1 / 209.

ـ أن المبادرة في الفعل للزوج، أي أعطائه الفاعلية من خلال الأمر (باشر)، فهو أولى بالفاعلية، وهو أشد حاجة بالتذكير بالمعاني الإنسانية التي أوحت بها كناية ﴿ لِبَاسٌ ﴾ فطرة، وأقدر على رفع هذه العلاقة الانسانية إلى مستوى القداسة.

ـ الإيحاء بإباحة الفعل (المكنى عنه) الذي كان محرماً قبلا ذلك (*).

والكناية المباشرة تنطوي على حكمة سديدة لأنها تحقق الغاية المرجوة، كما أفاد التعبير الكنائي ﴿ وَٱبْتَغُواْ مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْ ﴾ الذي يفيد في معناه القريب: طلب ما أباحه الله من مباشرة النساء في غير وقت الصيام، أما معناه المكنى عنه البعيد فهو (الولد) (1) الثمرة المرجوة، ففي الكناية تحريض للناس على مباشرة النساء عسى أن يتكون النسل من ذلك، وذلك لتكثير الأمة وبقاء النوع في الأرض (2).

ثم تنتهي الآية بالتقوى ﴿ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴾ إذ التذكير بالله وتقواه نلحظه ـ على الأعم الأغلب ـ مع الكنايات الجنسية، وهو مقصود إذ يعمل على إظهار الحالة الانسانية الكريمة للزوجين وبروزها في علاقتهما الجنسية لينأى بها عن الطابع الحيواني البهيمي، ويعطيها بعداً إنسانياً فيرفع هذه العلاقة إلى مستوى القداسة المتصلة بالله وتقواه.

وتتكرر الكناية (الرفث) في سياق عبادة الحج فتوحي بمعناها بدقة مقصودة، وذلك في قوله ـ تعالى ـ: ﴿ ٱلْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَٰتٌ ۚ فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ ٱلْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِى ٱلْحَجِّ ۗ وَمَا تَفْعَلُواْ مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ ٱللَّهُ ۗ وَتَزَوَّدُواْ فَإِنَّ خَيْرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقْوَىٰ ۚ وَٱتَّقُونِ يَٰٓأُوْلِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾ (3).

فالكناية (الرفث) تتسق مع جو عبادة الحج الذي يتجرد فيه العبد لله من كل أوهاق الدنيا وأدرانها، والارتفاع على دواعيها، فهو رياضة روحية على التعلق بالله ﷻ دون سواه. ويصعد معنى التجرد الوصل بالواو الذي جمع الجدال والفسوق بالرفث على صعيد واحد بصيغة النفي التي يراد منها النهي ﴿ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِى ٱلْحَجِّ ﴾ أي: 'لا يرفث ولا يفسق وهو أبلغ من النهي الصريح،لأنه يفيد أن هذا الأمر مما لا ينبغي أن يقع أصلاً، فإن ما كان مُنكراً مستقبحاً في نفسه ففي أشهر الحج يكون أقبح وأشنع، ففي الاتيان

(1) ينظر: الكشاف: 1 / 338.

(2) ينظر: تفسير التحرير والتنوير: 2 / 183، الكتاب الأول.

(3) سورة البقرة، الآية: 197.

بصيغة الخبر وإرادة النهي مبالغة واضحة "[1]، وإذا كانت الكناية يُراد منها المُكنى عنه (الجماع)، فإن المعنى الحقيقي لها (الفحش من القول..) يبقى مقصوداً، بأن اختيارها دون غيرها كان لقصد جمع المعنيين الصريح والكنائي [2]، وهو مظهر من مظاهر دقتها وإعجازها، لأن إرادة المعنيين يتطلبه سياق عبادة الحج، وذلك تضييقاً لمساحة المحظور إلى أقصى حد، ولتبقى منافذ الخير والتقوى مفتوحة على إطلاقها، يحث عليها السياق ويحبب إليها ﴿ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ اللَّهُ ﴾، ثم يذكر السياق بالتقوى كما ذكّر بها في سياق عبادة الصيام ﴿ وَاتَّقُونِ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ ﴾ لأن التقوى هي الضمانة الحقيقية في الطاعة وأولو الألباب هم خير من ينتفع بالتوجيه ويتقي، كما أنها تظلل السياق بذلك التطهر الروحي الذي تحث عليه والنظافة الشعورية في بيت الله الحرام.

ومن وراء الكنايات السابقة ما يربي حاسة الذوق والنفس، والترفع عن ذكر حاجات الجسد، والتحفظ على أسرار الإنسان، وصيانة الشرف متمثلاً في تلك العلاقة الكريمة بين الزوج وزوجته، فيرق احساسهما، ويخصب شعورهما، فيكونان أقرب إلى العالم المثالي [3] بما يليق بالانسان.

الإفضاء:

ورد الفعل ﴿ أَفْضَىٰ ﴾ كناية عن (الجماع) في قوله - تعالى -: ﴿ وَإِنْ أَرَدتُّمُ اسْتِبْدَالَ زَوْجٍ مَّكَانَ زَوْجٍ وَآتَيْتُمْ إِحْدَاهُنَّ قِنطَارًا فَلَا تَأْخُذُوا مِنْهُ شَيْئًا أَتَأْخُذُونَهُ بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ۝ وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُ وَقَدْ أَفْضَىٰ بَعْضُكُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ وَأَخَذْنَ مِنكُم مِّيثَاقًا غَلِيظًا ﴾ [4].

قال ابن عباس: "الإفضاء في هذه الآية الجماع ولكن الله كريم يكني" [5].

ثمة تلحظ دقة الكناية في موضعها، فضلاً عن إيجازها وتكثيفها للمعنى، والإيجاز من طبيعة الكناية. إذ في الكناية ﴿ أَفْضَىٰ ﴾ إيحاء الاتساع في المعنى الذي يتناسق مع سياق الآية، فالفضاء هو: "المكان الواسع، ومنه أفضى بيده إلى كذا، وأفضى إلى امرأته - في الكناية أبلغ

(1) صفوة التفاسير: 1 / 131.

(2) ينظر: تفسير التحرير والتنوير: 2 / 234، الكتاب الأول.

(3) ينظر: المعاني الثانية في الأسلوب القرآني، ص 424، 464.

(4) سورة النساء، الآيتان: 20 ـ21.

(5) الجامع لأحكام القرآن، للقرطبي: 5 / 102. وينظر: تفسير القرآن العظيم: 1 / 443.

وأقرب إلى التصريح من قولهم: خلا بها"[1]. وهو اتساع مادي ومعنوي ملحوظ في العلاقة الزوجية يهدف سياق الآية إظهاره والتذكير به في موضعه، لأن السياق سياق (طلاق) ورغبة عن الزوجة.

فالجماع هو المعنى الرئيس وهو المعنى المكنى عنه، فضلاً عمّا تحققه الكناية من إيحاءات تتصل بصلة حيوية بين الزوجين يتحقق بها معنى المباشرة الزوجية تمام التحقق فيلابس كل منهما الآخر حتى كأنهما حقيقة واحدة[2" لذلك فإن الكناية ﴿أَفْضَىٰ﴾ تنطوي على وسائط متعددة بين المكني به والمكنى عنه فتكون بذلك تلويحاً. والتلويح: أن يُشار إلى المطلوب من بعد، أي ينتقل إلى المقصود عبر وسائط متعددة[3]. وفي الكناية تتمثل هذه الوسائط بسعة المعاشرة الزوجية بينهما في كل صورها المادية منها والمعنوية كما توحي الكناية، إذ ان الفعل الكنائي ﴿أَفْضَىٰ﴾ مطلق في دلالته لم يقيده مفعول محدد، أي لا يقف مدلوله عند حدود (الجماع) بل هو يشمل العواطف والمشاعر، والأسرار والهموم، والتجاوب في كل صورة من صور التجاوب، فالكناية على اطلاقها توحي بكثير من الصور لتلك الحياة المشتركة بين الزوجية آناء الليل وأطراف النهارفيتضاءل إلى جوار هذه المعاني ذلك المعنى المادي، فيخجل الزوج أن يطلب بعض ما دفع، وهو يستعرض في خياله، وفي وجدانه ذلك الحشد من الصور والذكريات والمشاعر الماضية في لحظة الفراق الأسيف[4].

وفي الكناية معانٍ أخرى توحي بها، إذ فيها إيحاء التحول من حالة إلى حالة يذكر بها القرآن الزوجين، التحول والانتقال من فردية الزوج ـ الرجل والمرأة ـ بالإفضاء إلى فضاء الأسرة الرحيب، أي التحول بالإفضاء من عالم الفرد المغلق على ذاته إلى عالم التواصل الأسري الذي هو فضاء إنساني يتجاوز فردية الإنسان ويسمو به حيث الطمأنينة والسكن والاستقرار، وفيه يفضي ما بداخله إلى زوجه، فيلامس احدهما الآخر إلى حد التوحد من أجل خلق كيان واحد جديد، فبقدر ما يكون الإفضاء انطلاقاً في النفس والروح والمشاعر هو توحيد بالزوج أيضاً وغايته بناء الأسرة التي تنعم بالاستقرار والطمأنينة وبذلك تجلي الكناية أهمية هذه العلاقة

(1) المفردات: 574.
(2) ينظر: تفسير المنار: 4/ 459.
(3) ينظر: التبيان في البيان، ص 213. وينظر: الإيضاح: 2/ 466.
(4) ينظر: في ظلال القرآن: 2/ 287 ـ288.

الزوجية التي يقطعها الزوج إذ كـان الإفـضاء بكـل معانيـه الـتي كثفهـا ﴿مِّيثَاقًا غَلِيظًا﴾ كمـا تجسمه الاستعارة المكنية ﴿غَلِيظًا﴾ (*) تعظيماً لشأنه وأهميته، فهو: "حق الصحبة والمضاجعة ؛ كأنه قيل: وأخذن به منكم ميثاقاً غليظاً: أي بإفضاء بعضكم إلى بعض، ووصفه بالغلظ لقوته وعظمه "(1). وليكون المعنى مؤثراً لإحداث الاستجابة النفسية المرجوة في الزوج، وهي الامتناع عن أخذ مال الزوجة المرغوب عنها.

ولا يخفى ما في الكنايـة ﴿أَفْضَىٰ﴾ مـن معنى يرتفـع بالمـرأة وبالعلاقـات الزوجيـة الى المستوى الإنساني الكريم. وللزوجة القيمة والاعتبار، ولها حقـوق الرعايـة حتـى وهـي مطلقـة مرغوب عنها.

التغشّي:

ورد الفعل ﴿تَغَشَّىٰهَا﴾ كنايةً عن الجماع في قولـه ـ تعـالى ـ: ﴿ ۞ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا ۖ فَلَمَّا تَغَشَّىٰهَا حَمَلَتْ حَمْلًا خَفِيفًا فَمَرَّتْ بِهِۦ ۖ فَلَمَّآ أَثْقَلَت دَّعَوَا ٱللَّهَ رَبَّهُمَا لَئِنْ ءَاتَيْتَنَا صَٰلِحًا لَّنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴾ (2).

﴿تَغَشَّىٰهَا﴾ كناية دقيقة عن "الجماع "(3) في موضعها، فقـد عبّـرت بإيحاءاتهـا عـن جـو السياق الذي تـشكلت فيـه، فهـي منبثقـة في معناهـا ومتصلة بقولـه: ﴿خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا﴾ ، فالزوجة مخلوقة من نفسه، فهي بعض منه، وبـذلك يتحقـق معنى السكن والمحبة والإيناس على أبلغ وجه، قال الزمخشري: "﴿لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا﴾: ليطمئن إليها ويميل ولا ينفر، لأن الجنس إلى الجنس أميل وبه آنس، وإذا كانت بعضاً منه كان السكون والمحبة أبلـغ، كما يسكن الإنسان إلى ولـده ويحبه محبة نفسـه لكونه بضعة منه "(4)، والكنايـــــــــــــة ﴿تَغَشَّىٰهَا﴾ تصعد هذه المعاني وتصورها، يُقال: "غشيه غشاوة وغشاء: أتاه أتيان مـا قـد غـشيه

(*) الاستعارة المكنية: هي الاستعارة الـتي يحـذف فيهـا المـشبه بـه (المـستعار منـه) ويرمـز لـه باثبـات بعـض لوازمـه للدلالـة عليـه. ينظـر: مفتـاح العلـوم، ص 179. جـواهر البلاغـة في المعـاني والبيـان والبـديع، أحمد الهاشمي، ص 305.

(1) الكشاف: 1 / 514.

(2) سورة الأعراف، الآية: 189.

(3) الإتقان في علوم القرآن: 3 / 144. وينظر: المنتخب من كنايات الأدباء وإشارات البلغاء، ص 10.

(4) الكشاف: 2/ 145.

أي ستره، والغشاوة ما يُغطى به الشيء"[1]، فهي تفيد ادخال كل واحد منهما في الآخر بلطيف الممازجة وشديد الملابسة حتى ليغدو الفعل الجنسي معها امتزاج طائفين لا التقاء جسدين، وفي ذلك إيحاء للانسان بالصورة "الانسانية" في الفعل، وافتراقها عن الصورة الحيوانية البهيمية، فضلاً عن تنسيق الكتابة فنياً مع جو السكن[2] والخلق من نفس واحدة.

فالكناية رمز لأنها أشارت إلى المطلوب من قرب بخفاء، وسميت رمزاً للطف الإشارة[3] إلى المقصود.

ومن وراء الدلالة الحسية التي صوّرتها الكناية بين الزوج وزوجته التي يسكن إليها نلحظ:

- الستر والتغطية التي صوّرته الكناية بالملابسة الحسية والاختلاط يشير إلى الستر بالدلالة المعنوية كذلك، إذ المعنى المُكنى عنه (الجماع) يلبي حاجة النفس فطرة، يليها بالكناية الموحية بالمودة القائمة بين المتغشيّ والمتغشّى، وأن المتغشّى (الزوجة) تتقبل فعل الغاشي بارتياح وأنس وطمأنينة.
- فعل التغشية الكنائي فيه خفاء لطيف ينسجم والتعبير عن المكنى عنه (الجماع) الذي يتم بخفاء وتستر، وهو من لوازم الهدوء والطمأنينة والسكن.
- في الكناية ﴿ تَغَشَّاهَا ﴾ إيحاء بالفعل الجنسي الأول: فض (غشاء البكارة) ويعزز ذلك ويقويه سياق الآيةوأن هذا التغشي مرتبط بهدفه وغايته، فهو ليس لمجرد الشهوة ﴿ فَلَمَّا تَغَشَّاهَا حَمَلَتْ حَمْلًا ... ﴾ هو فعل انساني هدفه بقاء نوع الانسان والحياة.

ثم يظلل السياق كناية (التغشي) بدعاء الزوجين وتضرعهما لله ربهما، مما يضفي عليها ذلك الطابع الإنساني الهادف، وهو المعنى الملحوظ عقب كل كناية جنسية.

---

(1) المفردات: 451.
(2) ينظر: في ظلال القرآن: 3 / 701.
(3) ينظر: التبيان في البيان، ص 213.

الاعتزال والتقرب والاتيان:

وردت هذه الكنايات الثلاث عن (الجماع) في قوله ـ تعالى ـ: ﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْمَحِيضِ ۖ قُلْ هُوَ أَذًى فَٱعْتَزِلُوا۟ ٱلنِّسَآءَ فِى ٱلْمَحِيضِ ۖ وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّىٰ يَطْهُرْنَ ۖ فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ ٱللَّهُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ ۞ نِسَآؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ فَأْتُوا۟ حَرْثَكُمْ أَنَّىٰ شِئْتُمْ ۖ وَقَدِّمُوا۟ لِأَنفُسِكُمْ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّكُم مُّلَـٰقُوهُ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾[1].

الاعتزال في قوله ـ تعالى ـ: ﴿ فَٱعْتَزِلُوا۟ ٱلنِّسَآءَ ﴾ كناية عن الامتناع عن الجماع في فترة الحيض، جاء في التفسير: "الحيض شيء يستقذر ويؤذي من يقربه نفرةً منه وكراهةً له ﴿ فَٱعْتَزِلُوا۟ ٱلنِّسَآءَ ﴾ فاجتنبوهن: يعني فاجتنبوا مجامعتهن"[2] فالكناية أطلقت وأريد بها لازم معناها، وهو الامتناع عن إتيان الفعل الجنسي في هذه الفترة، والاعتزال هو: "تجنب الشيء بالبدن كان ذلك أو بالقلب"[3] وليس المقصود بالكناية مطلق الاعتزال، وإنما هو اعتزال بالجسد عن ممارسة الفعل الجنسي حسب، وذلك على وجه الالزام والوجوب كما دلّت صيغة الأمر الحقيقي. جاء في التفسير: "والمراد التنبيه على أن الغرض عدم المعاشرة لا عدم القرب منهنّ وعدم مؤاكلتهنّ ومجالستهنّ كما يفعل اليهود إذا حاضت عندهم المرأة"[4]، وهذا المعنى المكنى عنه تعززه كناية التقرب ﴿ وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّىٰ يَطْهُرْنَ ﴾ بأسلوب النهي الحقيقي، فهي كنايةٌ عن الكف عن الجماع على وجه الالزام والوجوب، والنهي عن قربهن أبلغ من النهي عن ممارسة الفعل، فالكناية وإن كان المقصود منها النهي عن الجماع، إلاّ أنها تشير في معناها الحقيقي القريب إلى دواعي الفعل (التقرب) المُنهي عنه وهو يمثل واسطة بين اللفظ الكنائي والمعنى المكني عنه، وفي ذلك تشنيع ومبالغة في إتيان الفعل (الجماع) في فترة الحيض، وذلك لما فيه من ضرر للزوجين نفسياً ومادياً وبخاصة الزوجة. ثم تأتي الكناية ﴿ فَأْتُوهُنَّ ﴾ بصيغة الأمر على وجه الإباحة والترغيب بممارسة المعنى المكنى عنه (الجماع) بعد الطهارة من الحيض: "فإذا تطهرن بالماء فأتوهنّ في المكان الذي أحله الله لكم، وهو مكان النسل والولد"[5]. وتوحي الكناية ﴿ فَأْتُوهُنَّ ﴾ بدلالة السهولة واليسر في

---

(1) سورة البقرة، الآيتان: 222 ـ223.

(2) الكشاف: 1/ 361. وينظر: تفسير القرآن العظيم: 1/ 246.

(3) المفردات: 499.

(4) صفوة التفاسير: 1/ 142.

(5) صفوة التفاسير: 1/ 142.

ممارسة المُكنى عنه بعد تطهرّهنّ، قال الراغب: "الاتيان مجيء بسهولة"[1]، وهي دلالة نفسية ملحوظة بعد تطهر الزوجة من الحيض على خلاف وهي حائض. وتتعمق هذه الدلالة بتكرار كناية الاتيان في السياق ﴿ فَأْتُواْ حَرْثَكُمْ ﴾ متواشجة مع التشبيه البليغ ﴿ نِسَآؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ فَأْتُواْ حَرْثَكُمْ أَنَّىٰ شِئْتُمْ ﴾ حيث شبّه النساء وذلك لانسجامه مع سياق الاخصاب والنسل. قال الزمخشري: "شبّههنّ بالمحارث تشبيهاً لما يُلقى في ارحامهنّ من النطف التي منها النسل بالبذور، وقوله: ﴿ فَأْتُواْ حَرْثَكُمْ أَنَّىٰ شِئْتُمْ ﴾ تمثيل: أي فأتوهنّ كما تأتون أراضيكم التي تريدون أن تحرثوها من أي جهة شئتم لا تحظر عليكم جهة دون جهة.والمعنى:جامعوهنّ من أي شق أردتم بعد أن يكون المأتى واحداً وهوة موضع الحرث"[2]. قال ابن عباس: "اسق نباتك من حيث ينبت"[3]. وذلك لتحقيق الهدف الأسمى: هدف النسل لامتداد الحياة، فكما أنّ الأرض موضع انبات الزرع الذي به بقاء الحياة والانسان،كذلك النساء موضع انبات الذي فيه بقاء نوع الانسان والحياة.

ونلاحظ على الكنايات الثلاث ﴿ فَٱعْتَزِلُواْ، وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ، فَأْتُوهُنَّ ﴾ اعطاء الفاعلية فيها للزوج فيتناسب ذلك مع السياق والحالة النفسية للزوجة في فترة الحيض، فالحيض هو ﴿ أَذًى ﴾، والجماع فيه يضر بالزوجة مادياً بخاصة، ولا ترغب هي فيه نفسياً كما أثبت الطب ذلك[4] فلا جرم أن تكون الفاعلية للزوج لا للزوجة.

ثم يأتي تذكير الزوجين بتقوى الله وملاقاته ـ طريقة القرآن ـ بعد الكنايات الجنسية، ليضفي على العلاقة الزوجية ذلك الملمح الانساني الكريم، فضلاً عن التحذير من اتيان المرأة في غير موضع الحرث الذي لا يحقق الهدف الأسمى المرجو من الالتقاء.

---

(1) المفردات: 7.

(2) الكشاف: 1 / 362. وينظر: صفوة البيان لمعاني القرآن، ص 54.

(3) صفوة التفاسير: 1 / 142.

(4) ينظر: الطب النبوي، ابن قيم الجوزية، ص 203. وينظر: الاسلام والتربية الجنسية، د. وجيه زين العابدين، ص 59. وينظر: الإعجاز الطبي في القرآن، د. السيد الجميلي، ص 234. وينظر: العلاقات الجنسية غير الشرعية وعقوبتها في الشريعة والقانون: 2 / 400.

اللَّمس والمس:

وردت الكناية عن (الجماع) بمادة (لمس) في موطنين بصيغة فاعل (لامس) الدالة على المشاركة في قوله ـ تعالى ـ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقْرَبُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنتُمْ سُكَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَعْلَمُواْ مَا تَقُولُونَ وَلَا جُنُبًا إِلَّا عَابِرِي سَبِيلٍ حَتَّىٰ تَغْتَسِلُواْ وَإِن كُنتُم مَّرْضَىٰٓ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَآءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ ٱلْغَآئِطِ أَوْ لَٰمَسْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَلَمْ تَجِدُواْ مَآءً فَتَيَمَّمُواْ صَعِيدًا طَيِّبًا فَٱمْسَحُواْ بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَفُوًّا غَفُورًا ﴾[1].

قوله ـ تعالى ـ: ﴿ أَوْ لَٰمَسْتُمُ ٱلنِّسَآءَ ﴾ كناية، أي: "جامعتموهن"[2]، ونجد من بين اللفظ الكنائي ﴿ لَٰمَسْتُمُ ﴾ وبين المعنى المُكنى عنه (الجماع) واسطة تتمثل في المعنى الحقيقي للمس، واللمس لا يكون إلاّ باليد خاصة[3]، فالذهن لا ينتقل من المعنى الأصلي للفظ إلى المعنى الكنائي له مباشرة، وإنما يتم عبر واسطة تتمثل في فعل يتوسط بينهما، وهو المعنى الحقيقي للكناية (لمس) إذ يمثل مقدمة للفعل بوصفه ممهداً للفعل الجنسي بين الزوجين، فالكناية موحية بمراعاة هذه الحالة النفسية والوجدانية للزوجين قبل اتصالهما جنسياً لكونه فعلاً انسانياً متميزاً.

وأحسب أن اختيار الكناية من مادة (اللمس) في هذا السياق دون كناية (المس) هو لقصد جمع المعنيين الحقيقي والكنائي إذ بهما يتعمق المعنى الإنساني للاتصال الجنسي بين الزوجين.

كما نلاحظ أن اختيار الكناية من مادة (اللمس) وبصيغة فاعل (لامس) الدالة على المشاركة منظور فيه سياق الآية، إذ إن (لامس) أكثر انسجاماً من غيرها كـ (المس). واعطاء الفاعلية للزوج يتناسق مع سياق الآية وما فيها من أسلوب نهي حقيقي عن التقرب إلى الصلاة في حالة السكر ـ قبل تحريم الخمر نهائياً ـ (*)، فهو نهي بموضوعه ألصق بالرجل من المرأة، وكذلك موضوع السفر.. وإن كان المخاطبون بالآية هم المؤمنون جميعاً.. إلاّ أنّ ما ذُكر من صفات ألصق بالرجل من المرأة.. فضلاً عن إيحاء الكناية بذلك البعد الانساني في العلاقة الزوجية بما يليق بالزوجين برعاية الجانب النفسي والروحي، إذ ليس المقصود مجرد (الجماع)

---

(1) سورة النساء، الآية: 43، وسورة المائدة، الآية: 6.

(2) صفوة التفاسير: 1 / 329. وينظر: من بلاغة القرآن، ص 227.

(3) ينظر: الفروق اللغوية، أبو هلال العسكري، ص 249.

حسب،وإنما إظهار ذلك الطابع الانساني الذي يطبع الفعل الجنسي بين الزوجين والذي يعمل على تميز علاقتهما الجنسية وادامتها والارتفاع بها عن المعنى الحيواني الغليظ.

كما يتجلى من الكناية وسياق الآية الذي تشكلت فيه صورة من الأدب الخطابي السامي الرفيع يعلمنا القران إياه حين يتخاطب البشر فيما بينهم في مثل هذه الشؤون، فقد سبق الكناية الجنسية، الكناية ﴿ أَوْ جَآءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ ٱلْغَآئِطِ ﴾ ، والغائط: كناية عن حاجة ذي البطن [1] والغائط هو المكان الذي يتم فيه الفعل، فهو يكتفي بذكر المكان والعودة منه لأنه ملازم له كنايةً عمّا تم فيه، وتصعيداً لهذا الأدب في الخطاب لا يسند الفعل إلى المخاطبين، وإنما ينكره زيادة في أدب الخطاب المؤثر في النفس.

أما كناية (المس) عن الجماع فقد وردت في سبعة مواطن:

ـ بصيغة الفعل المضارع ﴿ تَمَسُّوهُنَّ ﴾ في ثلاثة مواطن في سياق الطلاق، في قوله تعالى: ﴿ لَّا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ مَا لَمْ تَمَسُّوهُنَّ أَوْ تَفْرِضُوا۟ لَهُنَّ فَرِيضَةً ۚ وَمَتِّعُوهُنَّ عَلَى ٱلْمُوسِعِ قَدَرُهُۥ وَعَلَى ٱلْمُقْتِرِ قَدَرُهُۥ مَتَـٰعًۢا بِٱلْمَعْرُوفِ ۖ حَقًّا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ [2].

ـوبصيغة الفعل المضارع ﴿ يَمْسَسْنِى ﴾ في موطنين على لسان السيدة مريم (عليها السلام) في قوله تعالى: ﴿ قَالَتْ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِى وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِى بَشَرٌ ۖ قَالَ كَذَٰلِكِ ٱللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۚ إِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾ [3].

ـ وبصيغة الفعل المضارع ﴿ يَتَمَآسَّا ﴾ في موطنين في قوله ـ تعالى ـ: ﴿ وَٱلَّذِينَ يُظَـٰهِرُونَ مِن نِّسَآئِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا۟ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مِّن قَبْلِ أَن يَتَمَآسَّا ۚ ذَٰلِكُمْ تُوعَظُونَ بِهِۦ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴾ [4].

نلحظ أن كناية (المس) عن الجماع أنسب وأدق في التعبير عن هذا الموصوف في سياق الطلاق وما يترتب عليه من أحكام ففي قوله ـ تعالى ـ: ﴿ لَّا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ مَا لَمْ

(*) حرّم الله الخمر في الاسلام على مراحل، ينظر السور الآتية: البقرة، الآية: 219، والنساء، الآية: 43، والمائدة، الآية: 90. على الترتيب في نزول الآيات بتحريمها. ينظر: لباب النقول في أسباب النزول، ص 220 ـ221.

(1) ينظر: مجاز القرآن: 1 / 15.

(2) سورة البقرة، الآيتان: 236، 237. وفي سورة الأحزاب، الآية: 49.

(3) سورة آل عمران، الآية: 47. وفي سورة مريم، الآية: 20.

(4) سورة المجادلة، الآية: 3، والاية: 4 من السورة نفسها.

﴿تَمَسُّوهُنَّ ...﴾ إذ لا نجد بين اللفظ الكنائي والمعنى المكنى عنه واسطة، فالذهن ينتقل إلى المعنى المكنى عنه (الجماع) إذ لا يشترط ان يكون المس باليد، قال أبو هلال العسكري: "والمس يكون باليد وبالحجر وغير ذلك ولا يقتضي أن يكون باليد، لهذا قال ـ تعالى ـ: ﴿مَّسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ﴾ [1]، وقال: ﴿وَإِن يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ﴾ [2]، ولم يقل يلمسك" [3] لذلك نرجح أن لا يكون هناك وساطة، وإنما المقصود هو المسيس (الجماع) فتكون الكناية بذلك من النوع القريب الواضح، لأن الانتقال فيها إلى المقصود سهل ميسور. وهذا الفهم للكناية يناسب السياق الذي يهدف إلى بيان هذا الحكم، جاء في التفسير: "أي لا اثم عليكم أيها الرجال إن طلقتم النساء قبل المسيس (الجماع) وقبل أن تفرضوا لهن مهراً.." [4].

كذلك مع كناية ﴿يَمْسَسْنِي﴾ في سياق السيدة مريم (عليها السلام): ﴿وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ﴾ في تبرئة نفسها من هذا الموصوف، إلاّ أننا نلحظ في الكناية ﴿يَمْسَسْنِي﴾ التجزئة عند التلفظ بها، فتوحي بمعناها، وكأنها بهذه التجزئة للفعل تدفع الموصوف الذي لا تستطيع التلفظ به إلاّ بتقطيعه لبراءتها منه، فالكناية هنا تجسد الحالة النفسية الظاهرة للسيدة مريم أحسن تجسيد.

أما الكناية ﴿يَتَمَاسَّا﴾ عن الجماع فقد جاءت في سياق الظهار من الزوجة (*): ﴿وَالَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِن نِّسَائِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مِّن قَبْلِ أَن يَتَمَاسَّا ... فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ مِن قَبْلِ أَن يَتَمَاسَّا ...﴾. ﴿مِّن قَبْلِ أَن يَتَمَاسَّا﴾ أي من قبل أن يستمتع أحدهما بالآخر، فيحرم عليهما الجماع" [5]. وقال الزمخشري: "ثم يعودون لمثله، فكفارة من عاد أن يحرر رقبة ثم يماس المظاهر منها لا تحل له مماستها إلاّ بعد تقديم الكفارة" [6].

---

(1) سورة البقرة، من الآية: 214. وينظر: سورة يونس، الآية 21. وسورة الأنبياء، الآية: 46.

(2) سورة الأنعام، من الآية: 17. وينظر: سورة يونس، الآية: 107.

(3) الفروق اللغوية، ص 249 ـ250.

(4) صفوة التفاسير: 1 / 152.

(*) كان الرجل في الجاهلية يغضب لأمر من امرأته فيقول لها: (أنت عليّ كظهر أمي) فتحرم عليه، ولا تطلق، وتبقى هكذا، لا هي حل له فتقوم بينهما الصلات الزوجية، ولا هي مطلقة منه فتجد لها طريقاً آخر. وكان هذا طرفاً من العنت الذي تلاقيه المرأة في الجاهلية". ينظر: في ظلال القرآن: 8 / 10. وتفسير القرآن العظيم: 4 / 319.

(5) صفوة البيان لمعاني القرآن، ص 707.

(6) الكشاف: 4 / 387. وينظر: تفسير القرآن العظيم: 4 / 321 ـ322.

ويلفت الانتباه أن الكناية ﴿يَتَمَآسَّا﴾ أسندت فيها الفاعلية للزوجين، والبادي أن ذلك منظور فيه الحالة النفسية للزوجين، فالسياق يحدد الكفارة بتحرير رقبة أو صيام شهرين متتابعين لمن لم يجد رقبة يحررها أو إطعام ستين مسكيناً إن لم يستطع الصيام. ولا يخفى -على الأقل- ما في صيام الشهرين المتتابعين من مشقة وجهد وهي فترة زمنية طويلة نسبياً، فلا يستبعد أن تتحرك نفساهما لتلبية دواعي الغريزة، مما لا يستبعد بإزائه حدوث الميل والفعل الجنسي من أي منهما على حد سواء.

ويتجلى ما في الكناية من تكريم للزوجة على الصعيد الإجتماعي والإنساني، إذ يحرر المرأة مما كانت تواجهه من عنت وخسف -كما دلّت حالة الظهار- فهو يكرمها وينشئ لها القيمة والاعتبار والحقوق والضمانات، بوصفها زوجة لها حقوق الرعاية والتكريم، فارتفع بها وبالعلاقات الزوجية إلى ذلك المستوى الإنساني الرفيع.

الهجر في المضاجع:

وردت الكناية ﴿وَٱهۡجُرُوهُنَّ فِي ٱلۡمَضَاجِعِ﴾ في قوله -تعالى-: ﴿ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ بِمَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بَعۡضَهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖ وَبِمَآ أَنفَقُواْ مِنۡ أَمۡوَٰلِهِمۡۚ فَٱلصَّٰلِحَٰتُ قَٰنِتَٰتٌ حَٰفِظَٰتٞ لِّلۡغَيۡبِ بِمَا حَفِظَ ٱللَّهُۚ وَٱلَّٰتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَٱهۡجُرُوهُنَّ فِي ٱلۡمَضَاجِعِ وَٱضۡرِبُوهُنَّۖ فَإِنۡ أَطَعۡنَكُمۡ فَلَا تَبۡغُواْ عَلَيۡهِنَّ سَبِيلًاۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيّٗا كَبِيرٗا﴾ [1].

﴿وَٱهۡجُرُوهُنَّ فِي ٱلۡمَضَاجِعِ﴾ كناية، فهي تعبير أطلق وأريد به لازم معناه وهو (الامتناع عن الجماع)، قال ابن عباس: "الهجر هو أن لا يجامعها ويضاجعها على فراشها ويوليها ظهره" [2]. ويكون ذلك إذا نشزت الزوجة ولم يفد معها الوعظ والتذكير، والنشوز: العصيان، وهو صورة حسية يجسد الحالة النفسية للمرأة المستعلية، لأن النشوز في أصله هو الارتفاع والاستعلاء عن المكان [3] جاء في التفسير: "أي عصيانهن وارتفاع طبيعتهن وطغيانهن على الأزواج فعظوهنّ بالمواعظ الحسنة المناسبة لعقولهن فإن رجعن إلى الاعتدال، وإلاّ فاهجروهن في المضاجع: اتركوهن منفردات في المضاجع.. ولا تباشروهن بالجماع، لأن الغاية من الهجر ذلك" [4].

(1) سورة النساء، الآية: 34.
(2) تفسير القرآن العظيم: 1 / 466. وينظر: الكشاف: 1 / 524.
(3) ينظر: أساس البلاغة، ص 456 ـ457 (نشز).
(4) مواهب الرحمن في تفسير القرآن، محمد عبد الكريم المدرس: 3 / 380 ـ381.

ثمة نلحظ ما في هذه الكناية من عقوبة نفسية بالغة التأثير للزوجة، لأن الهجر في المضجع يتعلق بأقوى ما تملكه المرأة الناشز من سلاح في إغراء الزوج واستمالته، فإذا ما عاقبها الزوج من هذه الجهة واستطاع أن يقهر دوافعه إزاء هذا الإغراء، فقد سدد إليها سهماً موجعاً قد يكون علاجاً ناجعاً في إصلاحها والرجوع عن عصيانها وطغيانها، وذلك بسبب ما يجلب الهجر من آلام نفسية، ومن هذا نلحظ دقة استخدام الكناية بلفظ الهجر دون غيره كالاعتزال مثلاً، فقال: ﴿وَٱهْجُرُوهُنَّ فِى ٱلْمَضَاجِعِ﴾ ولم يقل 'اعتزلوهنّ في المضاجع'، وذلك لأن الهجر يحمل دلالة الارتباط الوجداني بين الهاجر (الزوج) والمهجور (الزوجة)، وهو يوحي بأن ثمة مودة قائمة في نفسيهما على الرغم من تعالي الزوجة على زوجها، ومن ثمّ قد يكون الهجر في المضاجع موعظة حسنة يحقق الهدف المتوخى منه برجوع الزوجة إلى الاعتدال وهو الهدف لا إذلالها والاعتداء عليها.

الدخول:

جاءت هذه المادة كنايةً عن (الجماع) مكررة في قوله ـ تعالى ـ: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَٰتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَأَخَوَٰتُكُمْ وَعَمَّٰتُكُمْ وَخَٰلَٰتُكُمْ وَبَنَاتُ ٱلْأَخِ وَبَنَاتُ ٱلْأُخْتِ وَأُمَّهَٰتُكُمُ ٱلَّٰتِىٓ أَرْضَعْنَكُمْ وَأَخَوَٰتُكُم مِّنَ ٱلرَّضَٰعَةِ وَأُمَّهَٰتُ نِسَآئِكُمْ وَرَبَٰٓئِبُكُمُ ٱلَّٰتِى فِى حُجُورِكُم مِّن نِّسَآئِكُمُ ٱلَّٰتِى دَخَلْتُم بِهِنَّ فَإِن لَّمْ تَكُونُوا۟ دَخَلْتُم بِهِنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ وَحَلَٰٓئِلُ أَبْنَآئِكُمُ ٱلَّذِينَ مِنْ أَصْلَٰبِكُمْ وَأَن تَجْمَعُوا۟ بَيْنَ ٱلْأُخْتَيْنِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾[1].

تتناول الآية سائر أنواع المحرمات من النساء، أي اللواتي يحرم الزواج منهن وقد جاء التعبير ﴿دَخَلْتُم بِهِنَّ﴾ كناية عن(الجماع)، قال الزمخشري: '﴿دَخَلْتُم بِهِنَّ﴾: كناية عن الجماع، كقوله بنى عليها وضرب عليها الحجاب، يعني: أدخلتموهنّ الستر'[2] وفي تفسير الجلالين: ' دخلتم بهنّ: جامعتموهنّ '[3].

(1) سورة النساء، الآية: 23.
(2) الكشاف: 1 / 517، وينظر: الجامع لأحكام القرآن: 5 / 113.
(3) تفسير الجلالين، ص 107.

فهي كناية واضحة عن الجماع حمل فيها معنى الدخول على جانبي الحقيقة والمجاز، فالدخول حقيقة في ضرب الحجاب عليهن وادخالهن الستر، ويراد منه المعنى المكنى عنه وهو الجماع [1]. وجاء في تفسيرها: "كناية عن الجماع أي من نسائكم اللاتي أدخلتموهنّ الستر ـ قاله ابن عباس ـ فإن لم تكونوا أيها المؤمنون قد دخلتم بأمهاتهنّ وفارقتموهن فلا جناح عليكم في نكاح بناتهن" [2]. وقال الراغب: "ودخل بأمرأته: كناية عن الإفضاء إليها" [3] وهو يقصد بالإفضاء إليها (الجماع)، وإن كانت كناية الإفضاء التي فسّر بها غير دقيقة في التعبير عن كناية الدخول في الآية، لأنه ليس في كناية ﴿دَخَلْتُم بِهِنَّ﴾ إيحاء كناية الإفضاء ـ وإن كانت الكنايتان دالتين على الجماع ـ كما أن الإفضاء لا ينسجم في الآية كالدخول، فلكل منهما إيحاؤه الخاص وسياقه الخاص. في الأول لا نلحظ في كناية ﴿دَخَلْتُم بِهِنَّ﴾ ذلك الاتساع في المعنى كما نلحظه في كناية الإفضاء عبر الوسائط المتعددة بين اللفظ الكنائي والمعنى المكنى عنه، وإنما ينتقل الذهن في كناية ﴿دَخَلْتُم بِهِنَّ﴾ إلى المعنى المكنى عنه عبر واسطة واحدة وهي الدخول إلى مضجعها مما لم يكن مسموحاً به قبل الزواج، وهي وساطة حقيقية في معناها تقود إلى الدلالة المجازية وهي المعنى المكنى عنه (الجماع)، وبذلك تكون الكناية من النوع القريب الواضح لأن الانتقال فيها إلى المقصود سهل ميسور.

وفي ضوء ذلك نلحظ دقة الكناية في السياق الذي جاءت فيه تعبيراً عن الجماع، فهي قد جاءت في سياق آية تقرر أحكاماً تتعلق بالمحرمات من النساء في أسلوب تقريري مفصل لا يحتمل غير معناه الذي هدف إليه على وجه من التحديد والتوضيح.

(1) ينظر: أساليب المجاز في القرآن الكريم، أحمد حمد حسن، ص 630.
(2) صفوة التفاسير: 1 / 269.
(3) المفردات: 240.

التمتّع:

ورد التمتع كنايةً عن (الجماع) في قوله ـ تعالى ـ: ﴿ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ كِتَابَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَأُحِلَّ لَكُم مَّا وَرَاءَ ذَٰلِكُمْ أَن تَبْتَغُوا بِأَمْوَالِكُم مُّحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَافِحِينَ فَمَا اسْتَمْتَعْتُم بِهِ مِنْهُنَّ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ فَرِيضَةً وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا تَرَاضَيْتُم بِهِ مِن بَعْدِ الْفَرِيضَةِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴾ [1].

﴿ فَمَا اسْتَمْتَعْتُم ﴾ كنايةٌ عن الجماع، قال الزمخشري: ﴿ فَمَا اسْتَمْتَعْتُم بِهِ مِنْهُنَّ ﴾ فما استمتعتم به من المنكوحات من جماع "[2]، ونقل القرطبي عن الحسن ومجاهد وغيرهما أن معنى ﴿ فَمَا اسْتَمْتَعْتُم ﴾ انتفعتم وتلذذتم بالجماع من النساء بالنكاح الصحيح "[3]. فالتمتع كنايةً عن الجماع لانطباق التمتع عليها، لأن التمتع لغةً مراد ومشار به إلى معنى الجماع لأن التلذذ لا يحصل في الغالب إلاّ منه [4]، فبينهما من التلازم والارتباط يستدعي أحدهما الآخر، والسين والتاء في الكناية للمبالغة، وسمّاه الله استمتاعاً لأنه منفعة دنيوية، وجميع منافع الدنيا متاع، كما قال ـ تعالى ـ: ﴿ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا مَتَاعٌ ﴾ [5].

ولا تعني كناية التمتع النظر إلى الزوجة على أنها أداة للمتاع، واشباع الغريزة، ومن ثم ينظر إلى الزوجة من الناحية الانسانية نظرة هابطة، وإنما هو استمتاع حسن ينبثق عن استقرار العلاقة الزوجية بمعناها الانساني القائم على المودة والرحمة، والسكن والراحة، والأنس والاطمئنان، فهو استمتاع منظور فيه تلبية الحاجة الفطرية: نفسية وعقلية وجسدية، والمرتبطة بغاياتها الانسانية في امتدادها بالنسل الذي ينشأ عن هذا الاستمتاع الذي جعله الله لذة للاتصال بين الزوجين.

ومن ثمة نلحظ دقة الكناية في سياقها في التعبير عن المعنى المقصود، فالسياق يكمل سياق آية سابقة تتناول سائر المحرمات من النساء [6]، أي اللواتي يحرم الزواج منهنّ، وقد ذكر

---

(1) سورة النساء، الآية: 24.

(2) الكشاف: 1 / 519. وينظر: المنتخب من كنايات الأدباء واشارات البلغاء: ص 10.

(3) الجامع لأحكام القرآن: 5 / 129.

(4) أساليب المجاز في القرآن الكريم، ص 619.

(5) سورة الرعد، من الآية: 26. وينظر: تفسير التحرير والتنوير: 5 / 9.

(6) سورة النساء، الآية: 23.

من المحرمات في هذه الآية ﴿وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلنِّسَآءِ﴾ كناية عن ذوات الأزواج "من أحصنها زوجها إذا حفظها واستقل بها عن غيره"[1] واستثنى ما ملكت اليمين ﴿إِلَّا مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ﴾ كناية عن المملوكات بالسبي فإنه يحل وطؤهن إذا استبرأتموهن [2]، و ﴿وَأُحِلَّ لَكُم مَّا وَرَآءَ ذَٰلِكُمْ﴾ وهي كناية فيها تمثيل لحال المخاطبين بحال السائر يترك ما وراءه ويتجاوزه إلى غيره، والمعنى: احل لكم ما عدا أولكم المحرمات [3]. وهنّ اللاتي يحل الزواج منهنّ، وبهنّ تتحقق تلبية الحاجة الفطرية في الاستمتاع بعد دفع أجورهنّ ﴿فَـَٔاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ﴾ كناية عن المهور في مقابلة ذلك.

وبذلك تتجلى عظمة الخالق وحكمته في خلق النفوس، وفي جعل كل من الجنسين ملبياً لحاجات الفطرة نفساً وعقلاً وجسداً ـ في دائرة ما احلّ الله ـ وبالمعنى الانساني الكريم.

السرّ:

وورد (السر) كناية عن (النكاح) في قوله ـ تعالى ـ: ﴿وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا عَرَّضْتُم بِهِۦ مِنْ خِطْبَةِ ٱلنِّسَآءِ أَوْ أَكْنَنتُمْ فِىٓ أَنفُسِكُمْ ۚ عَلِمَ ٱللَّهُ أَنَّكُمْ سَتَذْكُرُونَهُنَّ وَلَٰكِن لَّا تُوَاعِدُوهُنَّ سِرًّا إِلَّآ أَن تَقُولُوا۟ قَوْلًا مَّعْرُوفًا ۚ وَلَا تَعْزِمُوا۟ عُقْدَةَ ٱلنِّكَاحِ حَتَّىٰ يَبْلُغَ ٱلْكِتَٰبُ أَجَلَهُۥ ۚ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ فَٱحْذَرُوهُ ۚ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ﴾ [4].

ذهب جمهور العلماء على أن (السر) هنا كناية عن (النكاح) [5]، اي: "لا تعقدوا معهن وعداً صريحاً على التزوج"[6]، وذلك لأن المواعدة السرية معها ـ أي مع المتوفى عنها زوجها في عدتها ـ وسيلة للفتنة، فضلاً عن عدم مراعاتها نفسياً بالتصريح على التزوج، لأنها ما تزال في عدتها عالقة النفس بذكرى زوجها المتوفى عنهافي التصريح إهانة لها ولكرامتها.. لذلك نهى القرآن عنه وحرّمه على خلاف التعريض الذي هو: "إمالة الكلام عن منهجه إلى عرض منه وهو الجانب ويقابله التصريح فهو أن تفهم المخاطب ما تريد بضرب من الإشارة والتلويح

(1) ينظر: تفسير التحرير والتنوير: 5 / 5.
(2) ينظر: تفسير القرآن العظيم: 1 / 448.
(3) ينظر: تفسير التحرير والتنوير: 5 / 8.
(4) سورة البقرة، الآية: 235.
(5) تفسير المنار: 2 / 423.
(6) المصدر نفسه: والمكان نفسه.

يحتمله الكلام على بعد بمعونة القرينة "[1]، كأن يقول لها مثلاً: إنـك لجميلـة ومـن يجـد مثلـك ورب راغب فيك، وهـذا التعريض وأمثاله هو القـول المعـروف ﴿إِلَّآ أَن تَقُولُواْ قَوْلًا مَّعْرُوفًا﴾ أي ما عرف شرعاً من التعريض[2].

فالسرّ كنايةً تشير إلى دلالتها المجازية المتمثلة بالنكاح وهو المعنى المكنى عنه، والذي يقوى هـذا المعنى الكنائي أن الكناية وقعت في مقابلة التعريـض أي التلويح بالنكاح وعدم التصريح به كما أفـاد معنى (السر)، فضلاً عن أنّ النكـاح المقصود بالكناية إنما يقع في السر ولـيس جهـراً وعلانية[3]. وبذلك تكون كناية (السر) قد ناسبت السياق مناسبة لطيفة، تنسجم بطبيعتها معـه من حيث التعبير عن المعنى، فالسياق يحث على التلويح بالمعنى وعدم التصريح بـه ﴿عَرَّضْتُم بِهِۦ﴾ و ﴿أَكْنَنتُمْ فِىٓ أَنفُسِكُمْ﴾ .... والكناية وإن كانت قريبة في معناها بمعونة السياق إلاّ أنها خفية، ونعني بالخفاء أن الانتقال فيها من المعنى الأصلي (ضد الجهـر والعلن) إلى المعنـى الكنـائي يـتم بلا وساطة، بل هي تحتاج إلى شيء من التأمل للوصول إلى المقصود.

ولا يخفى ما في الكناية من بعـد تهـذيبي في التعبيـر عـن المعنى المقـصود يربـي الأذواق والنفوس، وهو البعد الملحوظ مع الكناية الجنسية القرآنية.

تحت عبدين:

وردت هذه الكناية في قوله ـ تعالى ـ: ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱمْرَأَتَ نُوحٍ وَٱمْرَأَتَ لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَٰلِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا وَقِيلَ ٱدْخُلَا ٱلنَّارَ مَعَ ٱلدَّٰخِلِينَ﴾[4].

هذا مثل ضربه الله للكـافرين مثّـل بـه حـال الكـافرين في أنهـم يعـاقبون علـى كفـرهم وعداوتهم للمؤمنين معاقبة مثلهم من غير إبقاء ولا محاباة، ولا ينفعهم مـع عداوتهـم لهـم مـا كان بينهم من لحمة نسب أو صلة صهـر، لأن عداوتهم للمؤمنين وكفـرهم بـالله ورسـوله قطع العلائق، وإن كان المؤمن الذي يتصل به الكافر نبياً من أنبياء الله ـ بحال امرأة نوح وامـرأة لـوط: لّما نافقتا وخانتا الرسولين لم يغنِ الرسولان عنهما بحق ما بينهما من وصلة الزواج اغنـاءً مّـا مـن

(1) تفسير المنار: 2 / 422. وينظر: الكشاف: 1 / 373.

(2) ينظر: تفسير الجلالين، ص 51.

(3) ينظـر: الكـشـاف: 1 / 373. والبرهـان في علـوم القـرآن: 2 / 303. والاعجـاز البيـاني للقـرآن ومسائل ابن الأزرق، ص 472.

(4) سورة التحريم، الآية: 10.

عذاب الله ﴿وَقِيلَ﴾ لهما عند موتهما أو يوم القيامة: ﴿ٱدۡخُلَا ٱلنَّارَ مَعَ﴾ سائر ﴿ٱلدَّٰخِلِينَ﴾ الذين لا وصلة بينهم وبين الأنبياء، مع داخليها من أخوانكما من قوم نوح وقوم لوط"[1].

ففي خيانة امرأة نوح وامرأة لوط الدينية التي أحدثتاها انفصلت عرى الزوجية عن معناها الحقيقي، ولابد من القول أن الخيانة المقصودة هنا ليست (الخيانة الزوجية) فهذا مالا يليق بالأنبياء المعصومين، وإنما هي (الخيانة الدينية)، وهي عبارة عن "نفاقهما وأبطانهما الكفر، وتظاهرهما على الرسولين، فامرأة نوح قالت لقومه: إنه مجنون، وامرأة لوط دلّت على ضيفانه، ولا يجوز أن يُراد بالخيانة الفجور لأنه سمج في الطباع نقيصةٌ عن كل أحد.. وعن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ ما بغت امرأة نبي قط"[2] فهي الخيانة الدينية، والانحراف عن الهدى الإلهي، ولا شك في أنها أبلغ أنواع الخيانة، لأنها مقاومة للفطرة الانسانية[3].

والقرآن يستعمل كلمة ﴿ٱمۡرَأَتَ﴾ بدل (زوج) بالنسبة لامرأتي نوح ولوط، وهما زوجتان، وهذا الاستعمال الدقيق ذو دلالة اجتماعية واضحة، توضحه الدكتورة عائشة عبد الرحمن بقولها: "ونتدبر استعمال القرآن للكلمتين (امرأة وزوج)، فيهدينا إلى سر الدلالة: كلمة زوج تأتي حيث تكون الزوجية هي مناط الموقف: حكمة وآية، أو تشريعاً وحكماً: ﴿وَمِنۡ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنۡ خَلَقَ لَكُم مِّنۡ أَنفُسِكُمۡ أَزۡوَٰجٗا لِّتَسۡكُنُوٓاْ إِلَيۡهَا وَجَعَلَ بَيۡنَكُم مَّوَدَّةٗ وَرَحۡمَةً ...﴾[4] فإذا تعطلت آيتها من السكن والمودة والرحمة، بخيانة أو تباين في العقيدة، فامرأة لا زوج"[5]. وهذا بيّن بامرأتي نوح ولوط، فانبتت عرى الزوجية، وعاد كل زوج منهما امرأة فحسب، لا تربطهما رابطة من سكن، ولا صلة من مودة[6].

وفي ضوء هذه الحقيقة التي قررتها الآية نلحظ الكناية ﴿تَحۡتَ عَبۡدَيۡنِ﴾ وهي قائمة في بنيتها على الاستعارة ﴿تَحۡتَ﴾ "لأن وصف المرأة بأنها تحت الرجل ليس يراد به حقيقة الفوق والتحت، وإنما المراد أنّ منزلة المرأة منخفضة عن منزلة الرجل لقيامه عليها، وغلبته على أمرها، كما قالﷻ: ﴿ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ بِمَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بَعۡضَهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖ وَبِمَآ أَنفَقُواْ مِنۡ

(1) الكشاف: 4 / 457. وينظر: تفسير القرآن العظيم: 4 / 393.
(2) الكشاف: 4 / 458. وينظر: تفسير القرآن العظيم: 4 / 393.
(3) الصورة الفنية في المثل القرآني، ص 320 ـ321.
(4) سورة الروم، من الآية: 21.
(5) الإعجاز البياني للقرآن ومسائل ابن الأزرق، ص 212 ـ213.
(6) الصورة الفنية في المثل القرآني، ص 249. وينظر: ابن القيم وحسه البلاغي في تفسير القرآن، د. عبد الفتاح لاشين، ص 132.

﴿ أَمْوَالِهِمْ [1]... ﴾[2]. فالاستعارة تعبير عن تقاصر مكانة المرأة عن مكانة الرجل، لا التحتية في العرف واللغة وهي الجهة المعروفة بالحس في الموضع، فاستعارها وهي محسوسة لأمر معقول وهو المكانة والمنزلة"[3].

إلاّ أن التعبير ﴿ تَحْتَ عَبْدَيْنِ ﴾ ينطوي على معنيين مكنى عنهما هما:

- **الأول**: الفعل الجنسي (الجماع) بحكم قيامه عليها، وهو معنى بيّن واضح.

- **الثاني**: الدونية والتسفل لهاتين المرأتين في المكانة والمنزلة، وليس المقصود بها المكانة والمنزلة في حالتها الطبيعية التي أشارت إليها الاستعارة والآية آنفاً، وإنما مكانة ومنزلة أوحى بها التعبير الكنائي ﴿ تَحْتَ عَبْدَيْنِ ﴾ بمعونة سياق المثل القرآني - وهو إيحاء دقيق في سياقه - يشير إلى مكانة هاتين المرأتين ومنزلتهما دينياً واجتماعياً إزاء النبيين الكريمين (عليهما السلام) فهما امرأتان كافرتان منحرفتان عن الهدى الإلهي، وسلوكهما يجسد عملياً دونيتهما، لأنه سلوك منبثق عن الكفر والضلال.

ومن ثم نلاحظ دقة القرآن الكريم في اختيار التعبير ﴿ تَحْتَ عَبْدَيْنِ ﴾ كناية عن العلاقة الجنسية في سياق المثل القرآني، فليس المقصود التعبير عن هذه العلاقة كما عبّرت عنه الكنايات الجنسية السابقة في ظلّ تحقق الزوجية القائمة على المودة والرحمة اللّتين تجليان الجانب الانساني بين الزوجين، وإنما التعبير عن هذه العلاقة في ظلّ انعدام الزوجية بمعناها الحقيقي بسبب التباين والخيانة في العقيدة، وقد عبّرت الكناية بإيحاءاتها عن هذه الحالة خير تعبير.

الطّمث والفرش المرفوعة:

وردت الكناية ﴿ يَطْمِثْهُنَّ ﴾ في نساء أهل الجنة في موطنين، الأول في قوله - تعالى -: ﴿ فِيهِنَّ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَآنٌّ ﴾[4].

(1) سورة النساء، من الآية: 34.
(2) تلخيص البيان في مجازات القرآن، ص 338. وينظر: الكشاف: 3 / 139.
(3) الصورة الفنية في المثل القرآني، ص 207.
(4) سورة الرحمن: الآية 56. والآية: 74 من السورة نفسها.

ووردت الكناية ﴿ وَفُرُشٍ مَّرْفُوعَةٍ ﴾ فغني نساء أهل الجنة ـ أيضاً ـ في موطنين، في قوله ـ تعالى: ﴿ وَفُرُشٍ مَّرْفُوعَةٍ ۞ إِنَّا أَنشَأْنَاهُنَّ إِنشَاءً ۞ فَجَعَلْنَاهُنَّ أَبْكَارًا ۞ عُرُبًا أَتْرَابًا ۞ لِّأَصْحَابِ الْيَمِينِ ﴾(1).

نلحظ في الآية الأولى الكناية الجنسية ﴿ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ ﴾، وقد تواشجت معها الكناية ﴿ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ ﴾ وهي على الرغم من أنها كناية اخلاقية تصور بطريقة حسية مؤثرة سمة العفاف لنساء أهل الجنة والقناعة بأزواجهنّ، إلاّ أنها قد تواشجت من حيث المعنى والصورة مع الكناية الجنسية ﴿ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ ﴾ في وصف هذه الكناية لتكتمل الصورة الجمالية لهنّ التي قصد القرآن تقريبها إلى الأذهان.

﴿ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ ﴾ كناية عن العفاف على سبيل التوابع والأرداف، قال أبو هلال العسكري: "وقصور الطرف في الأصل موضوعة للعفاف على جهة التوابع والارداف، وذلك أن المرأة إذا عفّت قصرت طرفها على زوجها، فكان قصور الطرف ردفاً للعفاف، والعفاف ردف وتابع لقصور الطرف"(2) أي عدل عن المعنى الخاص إلى لفظ الارداف، وبذلك تحققت بالكناية صفة العفاف على نحو فريد" لأن كل من عفّ غضّ الطرف عن مطموح إليه، فقد يمتد نظر الانسان إلى شيء وتشتهيه نفسه، ويعف عنه مع القدرة عليه لأمر آمر، وقصر طرف المرأة على بعلها، أو قصر طرفها حياء وخفراً أمر زائد على العفة، لأن من لا يطمح طرفها لغير بعلها، أو لا يطمح حياءً وخفراً، فإنها ضرورة تكون عفيفة قاصرة الطرف"(3) فالكناية تصوير مؤثر للعفة ولو أنّ القرآن استخدم التعبير المباشر"عفيفات" لما اطلعنا على تلك الهيئة الراضية القانعة لنساء أهل الجنة اللاتي لا يطمحن فيها إلى غير أزواجهن، ولا يفكرن في غيرهم(4). وهذا الوصف بالصورة الكنائية يكاد يكون سمة جمالية خاصة بنساء أهل الجنة، وتتعمق هذه السمة بسمة جمالية أخرى تؤديها الكناية ﴿ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ ﴾ فهي كناية عن صفة (البكارة) أي (لم يجامعهن) أنس قبلهم ولا جان، وفيها دلالة الفعل الجنسي الأول (فض

(1) سورة الواقعة، الآيات: 34 ـ38. وينظر: سورة الغاشية، الآية: 13.

(2) كتاب الصناعتين، ص 35. وينظر: تلخيص البيان في مجازات القرآن، ص 277. وينظر: الاتقان في علوم القرآن: 3/ 146.

(3) إعجاز القرآن البياني، حفني محمد شرف، ص 347.

(4) ينظر: من بلاغة القرآن، ص 227.

البكارة) لأن الطمث هو "الجماع المؤدي إلى خروج دم البكر"[1] وقال الراغب: "طمث المرأة: إذا افتضها، ومنه استعير: ما طمث هذه الروضة أحد قبلنا ـ أي ما افتضها ـ"[2]. فالكناية دقيقة في سياقها وتجلّي إيحاءً خاصاً مناسباً في وصف نساء الجنة، وبسبب هذا الإيحاء الخاص ـ فيما يبدو ـ لم ترد هذه الكناية في القرآن إلاّ في هذين الموطنين في صفتهنّ وبوصفهنّ لوناً من ألوان النعيم في الجنة لعباده المتقين، ولتوحي الكناية بذلك ما أعده الله لأهل الجنة من نعيم هو أعظم رفعةً وجمالاً ومتعةً مما هو متعارف عليه في الحياة الدنيا.

كما أن الكناية ﴿ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ ﴾ الدالة على صفة البكارة تكتسب دلالة الديمومة لهذه الصفة من وصفهنّ بالآية الثانية بأنهنّ ﴿ أَتْرَابًا ﴾ قال الزمخشري: "﴿ أَتْرَابًا ﴾: على ميلاد واحد في الاستواء كلّما أتاهن أزواجهن وجدوهنّ أبكاراً"[3]، فالفعل الجنسي الأول (فض البكارة) دائم متكرر، وبذلك يتصاعد هذا النعيم، حتى يحقق في ذهن المتلقي معنى الخلود في الجنة وصورة ديمومته.

ثم تأتي الكناية ﴿ وَفُرُشٍ مَّرْفُوعَةٍ ﴾ في النص القرآني لتوحي بصفات جمالية جديدة تنهض من خلالها عناصر مادية محسوسة محببة إلى النفس بحيث تصعد من وصف العلاقة الزوجية والمتعة الجنسية إلى مستوى جمالي غير معهود في الحياة الدنيا.

﴿ وَفُرُشٍ مَّرْفُوعَةٍ ﴾ الفراش ملزوم وأريد به لازمه، وهي الزوجة في الجنة، لأن "المرأة يُكنى عنها بالفراش"[4]، وقال أبو هلال العسكري: "﴿ وَفُرُشٍ مَّرْفُوعَةٍ ﴾ كناية عن النساء"[5] وقد دلّ على ذلك قوله ـ تعالى ـ: ﴿ إِنَّا أَنشَأْنَاهُنَّ إِنشَاءً ۝ فَجَعَلْنَاهُنَّ أَبْكَارًا عُرُبًا أَتْرَابًا ﴾ و﴿ عُرُبًا ﴾ هنّ ـ كما قال ابن عباس ـ: "المتحببات إلى أزواجهن"[6]. وفضلاً عن الدلالة الحسية الذي أفادتها الكناية ﴿ وَفُرُشٍ مَّرْفُوعَةٍ ﴾

---

(1) صفوة البيان لمعاني القرآن، ص 691.

(2) المفردات: 457 ـ458. وينظر: أساس البلاغة، ص 284 (طمث).

(3) الكشاف: 4 / 38. وينظر: تفسير القرآن العظيم: 3 / 294.

(4) الكشاف: 4 / 367. وينظر: المنتخب من كنايات الأدباء واشارات البلغاء، ص 3.

(5) كتاب الصناعتين: 368.

(6) تفسير القرآن العظيم: 4 / 294.

(*) وصف الله ﷻ نساء أهل الجنة بصفات جمالية شتّى بالغة التأثير والتشويق. مثل قوله ـ تعالى ـ: ﴿ كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَّكْنُونٌ ﴾ [سورة الصافات، الآية 49]، وقوله: ﴿ وَحُورٌ عِينٌ ۝ كَأَمْثَالِ اللُّؤْلُؤِ الْمَكْنُونِ ﴾ [سورة الواقعة، الآيتان 22ـ23]، وقوله: ﴿ كَأَنَّهُنَّ الْيَاقُوتُ وَالْمَرْجَانُ ﴾ [سورة الرحمن، الآية 58]. ينظر: السور الآتية:

فإنها موحية بالرفعة والطهارة، وهي دلالة معنوية فوق الدلالة الحسية تستدعي أحداهما الأخرى، فهو نعيم تلتذ به الأجسام والنفوس (*).

ومما تقدم من كنايات جنسية تتجلى دقة القرآن الكريم في استخدامه الكناية بوصفها تعبيراً غير مباشر عن المعنى، إذ إنّ لكل كناية جنسية، فضلاً عن المعنى المكنى عنه الرئيس (الجماع) إيحاءات خاصة بها تنسجم مع السياق الذي تتشكل فيه،فهي موضوعة في موضعها اللائق بها وهو وجه من وجوه إعجاز القرآن. كما يتجلى من الكناية الجنسية البعد التهذيبي، فالقرآن بالكناية يتسامى ويترفع عن التصريح بالألفاظ البذيئة المفحشة التي تخدش الشعور وتحط من الذوق الإنساني، وهو يرتفع بالعلاقة الزوجية إلى أفق كريم ينأى بها عن الصورة الحيوانية الغليظة، ومن مجموع إيحاءات الكناية الجنسية نلحظ إيحاءً للانسان بالصورة 'الانسانية' في المباشرة والالتقاء.

الصافات، الآية: 49. والرحمن، الآية: 58 ، والواقعة، الآيتان: 22 ـ23 على التوالي. وكلها تشبيهات تقرب إلى الأذهان معاني جميلة متلونة، فهنّ مصونات كالدر في أصدافه، مع رقة ولطف ونعومة وصفاء، فهنّ نعيم خالد يُلتذ به بالأجسام والنفوس. ينظر: الكشاف: 4 / 23، 360. وتفسير القرآن العظيم: 4 / 293. وتفسير الجلالين، ص 592، 708، 710.

الفصل الثاني

الكناية اللونية

الفصل الثاني

الكناية اللونية

يعد اللون "وسيلة هامة من وسائل التعبير والفهم، وقد دلّت الأبحاث والتجارب على أنه لا يزال كنزاً مخبوأً لم يستطع الانسان أن يصل إلى قراره. وإنه قوة موجبة تؤثر في جهازنا العصبي"[1].

ونلحظ اللون ـ في الأغلب ـ من خلال ذكر الألفاظ الدالة عليه بوصفه مدركاً بصرياً، إذ يستثير ذكر اللون "حاسة البصر الخاصة المكلفة بتوصيل ذبذبات اللون الإيقاعية إلى المخ، وذلك من جراء استثارة المراكز العصبية وتحريكها بواسطة التخييل"[2].

كما نلحظ اللون من خلال ذكر مفردات ليست دالة على الألوان دلالة مباشرة، وإنما تدل عليها في صورة غير مباشرة، فهي تدعو المتلقي إلى إدراك اللون بعملية ذهنية اكثر منها عملية رصد لألوان مرئية كما في الألوان المباشرة.

وقيمة اللون في التعبير الأدبي ـ سواء كان محصلاً بصورة مباشرة من المفردات، أو يتداعى منها في صورة غير مباشرة ـ لا يقل أهمية عن العناصر الأساسية الأخرى في بنائه كالموسيقى والعاطفة والخيال لذلك كان لحضوره في الشعر أهمية في تلوين صوره، وفي تحريك أجوائه، منذ عصر ما قبل الاسلام وحتى اليوم[3].

وانطلاقاً من أهمية اللون في النص القرآني الكريم، يحاول هذا الفصل دراسة الكناية القرآنية اللونية، في حدود ما وردت فيه من نصوص كريمة، إذ نجد آيات قرآنية قد تشكلت فيها الكناية باللون بنوعيه، الأول: ذكر اللفظ الدال على اللون مباشرةً في التعبير عن المعاني والمشاهد والمواقف النفسية المتنوعة،كالكناية باللون الأبيض، والأسود، والأزرق، والأخضر، والأصفر. والثاني: التعبير عن اللون بصورة غير مباشرة إذ يدرك اللون فيها من خلال الصورة

---

(1) اللون، محمد يوسف همام، ص 10. وينظر: اللغة واللون، د. أحمد مختار عمر، ص 148.

(2) إيقاع اللون في القصيدة العربية الحديثة، د. علوي الهاشمي، ص 269. وينظر: جدل اللون في شعر خليل حاوي، د. بشرى البستاني، ص 165.

(3) ينظر: التعبير عن اللون في الشعر العربي القديم، د. وولف دتريش فيشر، 11 ـ12.

الكنائية التي يتغلغل فيها اللون فيتداعى للمتلقي بطريقة ذهنية، فيشير بذلك إلى المعاني والايحاءات المتنوعة، إذ إنّ الإيحاء بالمعاني سمة من سمات الكناية باللون لما فيها من قوة تعبيرية تتجاوز مدلولها الظاهر إلى جملة من المعاني الموحية فتتصل بالقلوب والنفوس فتلونهما بألوانها.

ولمّا كانت الكناية القرآنية باللون نوعين ارتأينا دراسة كل نوع على حدة انسجاماً مع طبيعة كل نوع في سلك أسلوبه. وجعلنا كل لون على حدة، أو لونين على سبيل التقابل لِما في ذلك من تصعيد الدلالة وتكثيفها.

الكناية باللون المباشر:

تتنوع الصور الكنائية بالألوان المباشرة في القرآن الكريم في مشاهدها وإيحاءاتها تبعاً للون المكنى به عن المعنى، من ذلك:

الكناية باللون الأبيض والأسود:

يأتي هذان اللونان على التقابل في مشهد من مشاهد يوم القيامة في قوله ـ تعالى ـ: ﴿ يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ ۞ وَأَمَّا الَّذِينَ ابْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ فَفِي رَحْمَةِ اللَّهِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾[1].

فكلٌ من اللون الأبيضِ واللون الأسود إشارة كنائية مكثفة وذلك لقلّة الوسائط بين اللون وما يشير إليه مع وضوح الدلالة، وتطوي هذه الاشارة الكنائية معاني وإيحاءات وهي تعلو على الوجوه، فتشير إليها دون وسائط بين المكني به (اللون الأبيض) والمكنى عنه (حال المؤمنين في ذلك المشهد)، والمكنى به (اللون الأسود) والمكنى عنه (حال الكافرين على التقابل)، وهذه هي الإشارة في المفهوم الكنائي[2] يتخذها القرآن وسيلة من وسائل التعبير الفني.

واعتمد تركيب الآية المذكورة ظواهر بلاغية متعددة في تصوير حال الفريقين في هذا المشهد، ومن شأن هذه الظواهر هو تصعيد دلالة الكناية باللون بطرفيها المتقابلين. والتقابل هو

(1) سورة آل عمران، الآيتان: 106 ـ 107.

(2) ينظر: مفتاح العلوم، ص 194. وينظر: علم البيان في الدراسات البلاغية، د. علي البدري، ص 280.

الأطار الفني الذي يشد أجزاء الصورة على سبيل التضاد، وهذه الأجزاء كما هو واضح للعين الراصدة هي:

﴿ يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ ﴾ يقابلها ﴿ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ ﴾ .

﴿ فَذُوقُوا الْعَذَابَ ﴾ يقابلها ﴿ فَفِي رَحْمَةِ اللَّهِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾ .

والتقابل بين الفريقين من شأنه "الكشف عن فنية الأسلوب وتجلي مستويات المعنى بأبعادها المختلفة"[1] لأنه يجمع بين متضادين متنافرين، وبالتضاد والتنافر تتبين الأشياء، وتجد النفس في ذكرهما مجموعين لذة، لأن اللذة في التقاء الضدين[2]. وبذلك فإن التضاد هوة مرتكز بنائي يتكئ عليه هذا المشهد في مكوناته وعلاقاته، لأنه يشيع في مفاصل النص حركة بين عناصر متضادة تجلي المعنى المقصود أجلى بيان[3].

المستوى القريب في المعنى نلحظه بالكناية اللونية الحسية في أسلوب خبري اعتمد (الاجمال): ﴿ يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ ﴾ ثم يتبعه التفصيل: ﴿ فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ ... ﴾ على سبيل الاطناب الفني تتجلّى بلاغته في تطويل المشهد في كل لقطاته وهو يعرضه للمتلقي لترسيخ المعنى في الذهن والوجدان.

وابيضاض الوجوه كناية عن (المسرّة)[4] وحمل بعضهم الكناية على الحقيقة كما يُفهم من قول الزمخشري: "والبياض من النور والسواد من الظلمة، فمن كان من أهل نور الحق وسم ببياض اللون وإسفاره، واشراقه وأبيضت صحيفته وأشرقت وسعى النور بين يديه وبيمينه، ومن كان من أهل ظلمة الباطل وسم بسواد اللون وكسوفه وكمده، وأسودت صحيفته وأظلمت واحاطت به الظلمة من كل جانب"[5]. والأرجح أن يفهم على الكناية كما ذهب إلى ذلك

---

(1) في البنية والدلالة، د. سعد أبو الرضا، ص 37.

(2) ينظر: الروض المريع في صناعة البديع، ابن البنّاء، ص 111.

(3) ينظر: في البنية والدلالة، ص 42. وينظر: البنى والدلالات في لغة القصص القرآني، د. عماد عبد يحيى، ص 284.

(4) المفردات، ص 359. وينظر: بصائر ذوي التمييز، للفيروز آبادي: 2 / 134.

(5) الكشاف: 1 / 453.

الراغب: "لأن ذلك حاصل لهم سوداً كانوا في الدنيا أو بيضاً"[1]، فهو "مشهد حسي، ولكنه منبعث عن تأثر نفسي، ألقى ظلّه على الوجوه فابيضت"[2].

كما أن بين اللون الأبيض والحالة النفسية للمؤمنين (المسرة) التي هم فيها في موقفهم ذاك تلازماً وارتباطاً، فإن هذا اللون قد اكتسب عرفياً كثيراً من التعلق بأجواء الصفاء والإشراق والسعادة[3]، ولما كان البياض أفضل لون عند العرب، فقد عبّر عن الفضل والكرم بالبياض حتى قيل لمن لم يتدنس بمعاب هو أبيض الوجه"[4] كنايةً عن الطهر والنقاء، والعرب تقول: "لِمَنْ نال بغيته وفاز بمطلوبه: ابيضّ وجهه، ومعناه: الاستبشار والتهلل، وعند التهنئة بالسرور يقولون: الحمد لله الذي بيّض وجهك، ويُقال لمن وصل إليه مكروه: اربدّ وجهه، واغبرّ لونه، وتبدلت صورته"[5].

ونقل الرازي قول أبي مسلم الأصفهاني (ت 322 هـ) في تفسير هذه الكناية: ﴿ يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ ... ﴾: "أن المؤمن يرد يوم القيامة على ما قدمت يداه، فإن كان ذلك من الحسنات ابْيَضَ وجهه، بمعنى: استبشر بنعم الله وفضله، وعلى ضد ذلك، إذا رأى الكافر أعماله القبيحة محصاة: اسودّ وجهه، بمعنى شدة الحزن والغم"[6].

ويتصاعد المعنى الكنائي للون الأبيض في الآية بقوله ـ تعالى ـ: ﴿ وَأَمَّا الَّذِينَ ابْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ فَفِي رَحْمَةِ اللَّهِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾، وهو المستوى الثاني البعيد في التعبير عن حالتهم النفسية المشرقة بالسرور، إذ تصور الرحمة على سبيل المجاز المرسل القائم على العلاقة الحالية،فالرحمة هي حال أهل الجنة، لذا استعملت في هذا الموضع بدلاً من المحل (الجنة)، وقوام بلاغة التعبير ﴿ فَفِي رَحْمَةِ اللَّهِ ﴾ أن الرحمة تغمرهم وتحتويهم، و"في" تدل على الظرفية

---

(1) المفردات، ص 359.

(2) مشاهد يوم القيامة في القرآن، سيد قطب، ص 204.

(3) ينظر: اللغة واللون، ص 69. وينظر: اللون في الأدب العربي القديم وملاحظات أخرى، علي الشوك، ص 26. وينظر: شاعرية الألوان عند امرئ القيس، محمد عبد المطلب، ص 59.

(4) المفردات، ص 66. وينظر: بصائر ذوي التمييز: 2 / 133.

(5) التفسير الكبير: 8 / 170.

(6) نفسه: 8 / 170.

والانغماس في الشيء"[1] فضلاً عن إيحائها بالاستقرار والاطمئنان. وهذه هي الذروة في تصوير حالهم وما هم عليه من سعادة ومسرة وإشراق.. وإزاء هذه الصورة الفائضة بالبشر والنور صورة الكافرين المشوهة وجوههم باللون الأسود، والمكروبة نفوسهم.

فاللون الأسود كناية عن (المساءة)[2] "فهو مشهد حسّي ألقى ظلّه على تلك الوجوه فاسودت للدلالة على ما يجيش في نفوسهم"[3] وبين هذا اللون والمساءة والحزن تلازم وارتباط، وقد ارتبط اللون الأسود عرفياً بأجواء الكآبة والحزن[4] ويتصاعد معنى الكناية بالاستفهام الإنكاري بالهمزة المتضمن معنى التوبيخ والتقريع مع التعجب من حالهم[5] ﴿أَكَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ فَذُوقُوا الْعَذَابَ﴾ فهو عذاب نفسي فوق عذابهم المادي، وهم يتحسسون هذين اللونين من العذاب على نحو عميق كما أوحت الاستعارة المكنية ﴿فَذُوقُوا الْعَذَابَ﴾، فالعذاب لا يُذاق وإنما يحسّ به،ولكن لما كان الذوق أعمق أثراً في الشعور بالعذاب استعاره، فشبّه العذاب بشيء محسوس يُذاق، ثم حذفه وأبقى شيئاً من لوازمه وهو (الذوق) على سبيل الاستعارة المكنية[6]. وبذلك فالآية تجمع بين التعنيف بالقول، وهو عذاب نفسي من جهة والعذاب المادي[7] الذي يعاينونه من جهة أخرى.

وهذا نلحظه في مشهد آخر من مشاهد يوم القيامة يُكنى فيه باللون الأسود عن العذاب قوله ـ تعالى ـ: ﴿وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ تَرَى الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى اللَّهِ وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ ۚ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ﴾[8].

---

(1) القرآن والصورة البيانية، د. عبد القادر حسين، ص 148. وينظر: القرآن إعجازه وبلاغته، د. عبد القادر حسين، ص 196.
(2) المفردات، ص 359. وينظر: بصائر ذوي التمييز: 2 / 134.
(3) ينظر: مشاهد القيامة في القرآن، ص 204.
(4) ينظر: اللغة واللون، ص 186. وينظر: شاعرية الألوان عند امرئ القيس، ص 58.
(5) ينظر: الكشاف: 1 / 453.
(6) ينظر: الاستعارة في القرآن الكريم، أحمد فتحي رمضان، ص 79.
(7) ينظر: البحر المحيط: 3 / 26. وينظر: ألفاظ الثواب في القرآن الكريم، عماد عبد يحيى، ص 196.
(8) سورة الزمر: الآية 60.

فهذه وجوه المشركين الذين كذبوا على الله بنسبة الشريك له والولد [1] تتحول بالكناية ﴿ مُّسْوَدَّةٌ ﴾ إلى خلق مشوه يثير الامتعاض والسخرية على المعنى الحقيقي القريب للكناية، أما المعنى البعيد المكنى عنه فهو تصوير للحالة النفسية التي هم فيها من حزن وكمد وكآبة، فالكناية تجسد ذلك على وجوههم كمداً من الحزن واسوداداً من الكآبة. والكناية التي صوّرت وجوههم مشوهة فيها ايحاء على أنهم قد شوّهوا فطرهم الصافية التي فطرها الله على التوحيد﴿ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ﴾ [2] شوهوها في حياتهم الدنيا باتخاذهم الشريك والولد، ويتصاعد عذابهم بتقريعهم بالاستفهام التقريري بالهمزة: ﴿ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ ﴾ ، وتتكثف دلالة السخرية بهم بلفظة ﴿ مَثْوًى ﴾ وهي من قبيل العكس في الكلام للسخرية منهم والتهكم بهم، لأن المثوى في الحقيقة المنزل والمأوى، يُقال: "ثوى بالمكان: نزل فيه، وبه سمي المنزل مثوى. والثوى: الموضع الذي يُقام به. ومثوى الرجل: منزله.. وأثواني الرجل: أضافني. يُقال: أنزلني الرجل فأثواني ثواء حسناً" [3]. فليس جهنم منزلاً للمتكبرين يجدون فيه الطمأنينة والراحة، وإنما هو العكسي في الكلام تهكماً بهم وسخرية [4] يصعد من عذاب المشركين الكاذبين بتنويعه المادي والنفسي فبئس المثوى وبئس العذاب.

ويصور القرآن بكناية اللون الأسود في موضع آخر حال الذي يبشر بولادة بنت له، يصوره لا مجرد حزين أو مغتم، وإنما يصوره وقد تحول بالكناية إلى صورة غير صورته، وذلك في قوله ـ تعالى ـ: ﴿ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِٱلْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ۝ يَتَوَٰرَىٰ مِنَ ٱلْقَوْمِ مِن سُوٓءِ مَا بُشِّرَ بِهِۦٓ ۚ أَيُمْسِكُهُۥ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُۥ فِى ٱلتُّرَابِ ۗ أَلَا سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴾ [5].

﴿ ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴾ وصورة الذي يبشر بولادة بنت بهذه المثابة مبنية على الكناية ﴿ ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا ﴾ وعلى الاستعارة التصريحية ﴿ كَظِيمٌ ﴾ فقد تواشجت الكناية والاستعارة في تصوير المعنى على نحو عميق. قال الطبري في ﴿ ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا ﴾: "كناية عن

---

(1) ينظر: الكشاف: 4/ 107. وينظر: صفوة التفاسير: 3/ 86.

(2) سورة الروم، من الآية: 30. والفطرة: الخلقة التي فطر الله الخلق عليها، فإنه تعالى فطر خلقه على معرفته وتوحيده وأنه لا إله غيره. ينظر: تفسير القرآن العظيم: 3/ 416.

(3) لسان العرب: 14/ 125 ـ126 (ثوا).

(4) ينظر: الاستعارة في القرآن الكريم، ص 96.

(5) سورة النحل، الآيتان: 58 ـ59. وينظر: سورة الزخرف، الآية 17.

الغم والحزن وليس يريد السواد، والعرب تقول لكل من لقي مكروهاً قد اسود وجهه"[1]، فهو يغالب ثورة من الحزن والضيق ﴿وَهُوَ كَظِيمٌ﴾ أي: "مملوء غيظاً وغماً"[2]. يكتمه ويداريه كما صوّرت الاستعارة ﴿كَظِيمٌ﴾ فقد شبّه امتلاء قلبه بالغم والحزن بامتلاء القربة بالماء،وشبّه كتمانه وضيقه بما يصر به فم القربة المملوءة بالماء حتى لا يخرج منها شيء[3]. ثم يصوره وقد شعر بخزي وهوان يجعلانه لا يستطيع مواجهة الناس فينزوي عنهم ويختفي ﴿يَتَوَارَىٰ مِنَ ٱلْقَوْمِ مِن سُوٓءِ مَا بُشِّرَ بِهِۦٓ﴾ ، فهو يعاني ذلك الصراع العنيف الذي يثور في نفسه، خوفاً من العار الذي يجلبه بسبب البنت، كأنها بلية وليست هبة إلهية[4].

فالكناية باللون الأسود تكثيف للحالة التنفسية للذي يُبَشّر بالأنثى. ولا شك في أن الكناية فيها سخرية لاذعة، وهي تصور هذا الشخص مسود الوجه، متوارياً عن الناس، مغالباً لصراع رهيب في نفسه من مجرد أن يبشر بولادة بنت له، فجعل هذه الكناية كل من تولد له بنت في هذا المجتمع، قبل أن يفكر في نسبتها إليه، وقبل أن يشعر بأثر ذلك في نفسه، يتمثل هذه الصورة المنفرة، التي لا يرضاها انسان لنفسه، ولا يرضى أن ينظر إليه الناس فيروه فيها"[5].

ونرى أن مجيء الكناية باللون الأسود في سياق وأد البنات خوف العار أو خوف الفقر كما حكى القرآن ذلك[6]، فضلاً عن أنها تجلّي هوان المرأة وما تلاقيه من تعسف وظلم في المجتمع، دلالة قوية على تبشيع هذه العادة الجاهلية وتفظيعها، إذ الملاحظ أن هذه الكناية اللونية لا ترد في القرآن إلاّ في وصف حال الكافرين والمشركين في مشاهد يوم القيامة، وهي مشاهد عصيبة مروعة.. ولا تشذ هذه الكناية إلاّ في مجيئها في سياق (وأد البنات) مكررة مرتين[7] فيعمل التكرار على تفظيع هذه الجريمة وتبشيعها على نحو مؤكد. ويتصاعد هذا المعنى بذكر ﴿ٱلْمَوْءُۥدَةُ﴾ في سياق الانقلاب الكوني الذي سيحدث يوم القيامة، ويحسن بنا إيراده، وهو قوله ـ تعالى ـ: ﴿إِذَا ٱلشَّمْسُ كُوِّرَتْ ۝ وَإِذَا ٱلنُّجُومُ ٱنكَدَرَتْ ۝ وَإِذَا ٱلْجِبَالُ سُيِّرَتْ ۝ وَإِذَا ٱلْعِشَارُ عُطِّلَتْ

(1) الجامع لأحكام القرآن: 10 / 116.
(2) صفوة البيان لمعاني القرآن، ص 621.
(3) ينظر في توجيه هذه الاستعارة: التفسير الكبير: 18 / 196. والقرآن والصورة البيانية، ص 152.
(4) ينظر: أسلوب السخرية في القرآن الكريم، د. عبد الحليم حفني، ص 171 ـ172.
(5) أسلوب السخرية في القرآن الكريم، ص 172.
(6) ينظر: سورة الأنعام، الآية: 151. وسورة الاسراء، الآية: 31.
(7) سورة النحل، الآية: 58. وسورة الزخرف، الآية: 17.

﴿ وَإِذَا ٱلْوُحُوشُ حُشِرَتْ ۞ وَإِذَا ٱلْبِحَارُ سُجِّرَتْ ۞ وَإِذَا ٱلنُّفُوسُ زُوِّجَتْ ۞ وَإِذَا ٱلْمَوْءُۥدَةُ سُئِلَتْ ۞ بِأَىِّ ذَنۢبٍ قُتِلَتْ ﴾ [1].

فذكر ﴿ ٱلْمَوْءُۥدَةُ ﴾ في هذا السياق يكتسب معنى التهويل والتعظيم لشأنها. وكأن السياق يعرضها حدثاً كونياً من هذه الأحداث العظام، وهي تسأل عن جريمة وأدها، فكيف بوائدها؟[2].

وفي ضوء ما سبق يتبين أن الكناية باللون الأسود تأتي في سياق مشهدين من مشاهد يوم القيامة، وفي سياق جريمة وأد البنات مكررة فتضفي على المعنى التعظيم والتهويل.

أما كناية اللون الأبيض فهي تأتي في سياق مشهد واحد من مشاهد يوم القيامة مقابلة للون الأسود وقد سبق ذكره.

الكناية باللون الأزرق:

وردت الكناية باللون الأزرق في القرآن الكريم مختصة بالتعبير عن حال المجرمين وما هم عليه من سوء حال في مشهد واحد من مشاهد يوم القيامة في قوله ـ تعالى ـ: ﴿ يَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ ۚ وَنَحْشُرُ ٱلْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا ۞ يَتَخَـٰفَتُونَ بَيْنَهُمْ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا عَشْرًا ۞ نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ إِذْ يَقُولُ أَمْثَلُهُمْ طَرِيقَةً إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا يَوْمًا ﴾ [3].

الكناية ﴿ زُرْقًا ﴾ رمز ينقلنا إلى المعنى المكنى عنه مباشرةً بما يرسمه من لون أزرق يميز المجرمين عند حشرهم، وهو يرتسم حول حدقات عيونهم، فتكون صورتهم مغايرة لحقيقتها ترمز على نحو مكثف إلى المعنى المكنى عنه، وهو صفة سوء حالهم وما هم فيه من كمد وكربة، قال الزمخشري: "في عينه زَرق وزُرقة، وزَرِقت عينه وازرقّت وازراقّت، وعين زرقاء وعيون زُرق"[4]. وقال في تفسيره: "قيل في الزرق قولان، أحدهما: أن الزرقة أبغض شيء من ألوان العيون إلى العرب، لأن الروم أعداؤهم وهم زرق العيون، ولذلك قالوا في صفة العدو: أسود الكبد، أصهب السبال، أزرق العين. والثاني: أن المراد المعمى، لأن حدقة من يذهب نور بصره تزراق"[5]. وجاء في لسان العرب في هذه الكناية: "إنما معناه أزرقت أعينهم من شدة العطش،

(1) سورة التكوير، الآيات: 1 ـ9.

(2) ينظر: في ظلال القرآن: 8 / 479 ـ480.

(3) سورة طه، الآيات: 102 ـ104.

(4) أساس البلاغة، ص 191 (زرق).

(5) الكشاف: 3 / 68 ـ69. وينظر: المفردات: 311. وينظر: اللغة واللون، ص 40.

وقيل: عمياً يخرجون من قبورهم بصراء كما خلقوا أول مرة ويعمون في المحشر، وإنما قيل ﴿زُرْقًا﴾ لأن السواد يزرق إذا ذهبت نواظرهم، ويقال: زرقاً طامعين فيها لا ينالونه "[1].

فالكناية تشير إلى إيحاءات متعددة تتجمع لوصف حال المجرمين عند حشرهم: إيحاء العطش من شدة ما هم فيه في ذلك الموقف، وإيحاء العمى لأنهم عطّلوا أبصارهم في حياتهم الدنيا عن النظر في آيات الله واتباع الهدى كما أخبر القرآن عن ذلك في مواضع أخرى [2]، وكرهوا ما أنزل الله وبغضوه. فها هم في صورتهم البغيضة كما تصورهم الكناية، فأبغض لون هو اللون الأزرق ـ ليس لذاته ـ وإنما يكون بغيضاً مستقبحاً عندما يرتسم حول حدقات أعينهم فيشوه خلقتهم فهي منفرة تبعث السخرية من هؤلاء المجرمين في مشهدهم، وهم يعانون الخزي والهوان، والكمد والكربة.

ويمكن أن نتصور اللون الأزرق وهو يرتسم على وجوههم دون تخصيص حول حدقات عيونهم كما قال بعض المفسرين، أي يحشر المجرمون زرق الوجوه من الغم والكربة [3]، وذلك لأن القرآن لم يخصص في رسم صورتهم، وبذلك يكون اللون الأزرق كناية فيها غرابة في التصوير تميز المجرمين في ساحة الحشر من غيرهم، لأنه لم يعهد عند البشر اللون الأزرق صفة لبشرتهم، وإنما هو معهود في ظواهر طبيعية كالسماء والماء.. وهو مصدر إثارة جمالية تتحسها النفس الإنسانية.. فعندما ينقله القرآن ويغرسه في هذا المغرس الجديد (وجوه المجرمين) في المحشر فإنه يحقق تلك الغرابة والجدة في التصوير إذ فيه إيحاء السخرية منهم، فضلاً عمّا أشار إليه من كمد وغم وكربة من شدة الموقف، ومن شدة موقفهم وكربه يتضاءل في حسهم الزمان، وتنطوي معه الحياة التي كانت مسرحاً لاجرامهم ﴿يَتَخَٰفَتُونَ بَيْنَهُمْ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا عَشْرًا ۝ نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ إِذْ يَقُولُ أَمْثَلُهُمْ طَرِيقَةً إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا يَوْمًا﴾.

ومن شأن هاتين الآيتين تصعيد معنى الكناية إذ تجلي عذابهم النفسي وحيرتهم فهم يتهامسون بينهم ويسر بعضهم إلى بعض ولا يرفعون صوتاً من الرعب والهول، فها هي الحقيقة تتكشف لهم، فليست تلك الحياة الدنيا التي أجرموا فيها، مطمئنين إليها إلاّ عشر ليال بل

---

(1) لسان العرب: 10 / 139 (زرق).

(2) ينظر: سورة طه، الآيتين 124 ـ125 مثلاً.

(3) ينظر: مشاهد القيامة في القرآن الكريم، ص 105. وينظر: التعابير القرآنية والبيئة العربية في مشاهد القيامة، ابتسام مرهون الصفار، ص 152.

هي يوم كما يقول أرشدهم وأصوبهم. قال الزمخشري: "تخافتهم لما يملأ صدورهم من الرعب والهول، يستقصرون مدة لبثهم في الدنيا. أما لما يعاينون من الشدائد التي تذكرهم أيام النعمة والسرور فيتأسفون عليها ويصفونها بالقصر، لأن أيام السرور قصار، وأما لأنها ذهبت عنهم وتقضت، والذاهب وإن طالت مدته قصير بالانتهاء.. وإما لاستطالتهم الآخرة وأنها أبد سرمد يستقصر إليها عمر الدنيا،ويتقالّ لبث أهلها فيها بالقياس إلى لبثهم في الآخرة، وقد استرجح الله قول من يكون أشد تقاؤلاً منهم في قوله ـ تعالى ـ: ﴿إِذْ يَقُولُ أَمْثَلُهُمْ طَرِيقَةً إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا يَوْمًا﴾ "[1]. وفي تخافتهم هذا وشعورهم تحس منهم الحسرة والندامة، فضلاً عن السخرية منهم جزاءً بما كانوا يجرمون.

وغالباً ما يخرج القرآن تصوير عذاب المجرمين على نحو مخصوص، تحس فيه الشدة في عذابهم، والتعنيف بهم بالقول حتى وهم يلقون في نار جهنم، من ذلك هذه الصورة الكنائية المتصلة بالكناية السابقة صورةً ومعنىً في قوله ـ تعالى ـ: ﴿يُعْرَفُ الْمُجْرِمُونَ بِسِيمَاهُمْ فَيُؤْخَذُ بِالنَّوَاصِي وَالْأَقْدَامِ ۝ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۝ هَٰذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي يُكَذِّبُ بِهَا الْمُجْرِمُونَ ۝ يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ آنٍ﴾ [2].

الصورة الكنائية: ﴿يُعْرَفُ الْمُجْرِمُونَ بِسِيمَاهُمْ﴾ فللمجرمين علامة لونية تميزهم يُعرفون بها، فقوله ﴿بِسِيمَاهُمْ﴾ فيه إشارة إلى الكناية باللون الأزرق، فضلاً عن الكناية باللون الأسود، فهما من علاماتهم، قال الزمخشري: "يعرفون بسيماهم وهي سواد الوجوه وزرقة العيون"[3]. أي: يُعرف يوم القيامة أهل الاجرام بعلامات تظهر عليهم.." قال الحسن: سواد الوجه وزرقة الأعين كقوله ـ تعالى ـ: ﴿وَنَحْشُرُ الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا﴾ "[4].

واجتماع هذين اللونين فيه دلالة عميقة على الكآبة والغم، فهما تجسيد لما يعتمل في نفوسهم من شدة الموقف وهوله وما يعاينون من العذاب المهين الذي صورته الكناية الأخرى ﴿فَيُؤْخَذُ بِالنَّوَاصِي وَالْأَقْدَامِ﴾: والاهانة واضحة في صورة العذاب التي يُؤخذ بها المجرم على انفراد لتهويل صورتها وتبشيعها وابرازها للعيان ﴿فَيُؤْخَذُ بِالنَّوَاصِي وَالْأَقْدَامِ﴾ فهي كناية عن شدة العذاب وعنفه، أي: "يجمع بين ناصيته وقدمه في سلسلة من وراء ظهره، وقيل تسحبهم

(1) الكشاف: 3 / 69.
(2) سورة الرحمن، الآيات: 41 ـ 44.
(3) الكشاف: 4 / 358.
(4) الجامع لأحكام القرآن: 17 / 175.

الملائكة: تارة تأخذ بالنواصي، وتارة تأخذ بالأقدام"[1]. وقال ابن عباس: "يُؤخذ بناصية المجرم وقدميه فيكسر كما يكسر الحطب ثم يُلقى في النار"[2].

وهم في هذه الحال من العذاب الشديد المروع المهين يُسألون سؤال التوبيخ والتقريع زيادةً في العذاب النفسي فوق عذابهم المادي ﴿هَٰذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي يُكَذِّبُ بِهَا الْمُجْرِمُونَ﴾ أي "يقال لهم تقريعاً وتوبيخاً هذه النار التي أخبرتم بها فكذبتم"[3]. قال ابن كثير: "هذه النار التي كنتم تكذبون بوجودها، ها هي حاضرة تشاهدونها عياناً"[4]. وهم: ﴿يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ آنٍ﴾ أي: "يترددون بين نار جهنم وبين ماء حار بلغ النهاية في الحرارة، قال قتادة: يطوفون مرة بين الحميم، ومرة بين الجحيم، والحميم الشراب الذي انتهى حرّه"[5].

وهكذا فإن الكناية باللون الأزرق التي تواشجت معها الكناية ﴿يُعْرَفُ الْمُجْرِمُونَ بِسِيمَاهُمْ﴾ بالمعنى والصورة، فضلاً عن الكناية التي صوّرت عذابهم في نار جهنم ﴿فَيُؤْخَذُ بِالنَّوَاصِي وَالْأَقْدَامِ﴾ تجلي على نحو مخصوص العذاب بنوعيه: المادي والنفسي، الذي يواجهه المجرمون يوم القيامة.

الكناية باللون الأخضر والأصفر:

يشير القرآن الكريم باللون الأخضر والأصفر في بعض آياته التي يمكن حملها على الكناية إلى دلالات متضادة، وذلك من خلال هذين اللونين في سياق عالم النبات ذي الخلق المعجز والمعاني المتدفقة. إذ تتمخض عنهما دلالات متضادة بين الموت والفناء، والانبعاث والحياة[6].

الكناية باللون الأخضر في معناها الحقيقي القريب تشير إلى الحياة المنبثقة من أعماق التربة الميتة. والكناية باللون الأصفر في معناها القريب تشير إلى الموت والتحطم بعد الحياة النامية الزاهية.

---

(1) الكشاف: 4 / 359.
(2) صفوة التفاسير: 3 / 298.
(3) المصدر نفسه: 3 / 298.
(4) تفسير القرآن العظيم: 4 / 277.
(5) صفوة التفاسير: 3 / 298 ـ299.
(6) ينظر: مع القرآن في عالمه الرحيب، د. عماد الدين خليل، ص 199.

ولا تقف الدلالة في هذا المجال، بل هي توحي بالعبرة البالغة التي تؤديها للانسان في رحلتها هذه بين الحياة والموت، عبرة تحمي الانسان من أن ينسى نفسه والمسافة التي يقطعها بين حياته وموته تؤدي به إلى الكفر والطغيان.

فعلى صعيد الكناية باللون الأخضر نقرأ هذه الآية الدالة على قدرة الله التي تحيي الأرض الميتة بالماء النازل من السماء، فتصبح الأرض مخضرة بالنبات والزرع وهي قوله ـ تعالى ـ: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَتُصْبِحُ الْأَرْضُ مُخْضَرَّةً إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ﴾ (1).

يتخذ القرآن من هذا المشهد الطبيعي الخلاّب دليلاً حسياً مشاهداً على قدرة الله في بعث الحياة من الموت في مشهد منظور تتملاه العين ويتحسسه الوجدان، وهو مشهد عجيب كما دلّ الاستفهام بالهمزة الذي تصدر الآية: ﴿أَلَمْ تَرَ ...﴾ وهو استفهام يفيد (التعجيب) من هذه الظاهرة المتكررة، ظاهرة بعث الحياة من أعماق التربة الميتة، فيلفت الأنتباه إليها بهذا الاستفهام، فهي تثير نوازع التأمل والتفكير في المشاهد.

وهذه الحياة المنبثقة من الموت تدل عليها الكناية باللون الأخضر التي تصبغ الأرض على امتداد البصر: ﴿فَتُصْبِحُ الْأَرْضُ مُخْضَرَّةً﴾، والمعنى القريب الذي تشير إليه الكناية هو: " فأصبحت الأرض منتعشة خضراء بعد يبسها ومحولها، وجاء المعنى بصيغة المضارع ﴿فَتُصْبِحُ﴾ لاستحضار الصورة وإفادة بقائها كذلك مدة من الزمن "(2). فهي قدرة الله العظيمة تتجلى ليس في بعث الحياة في الأرض الميتة فحسب، وإنما الحياة الهادفة المرتبطة بحياة الانسان ارتباطاً يثير فيه نوازع الخير وتحسس الجمال من خلال هذه الأرض المكسوة بالجمال المنظور.

أما المعنى الكنائي البعيد الذي تشير إليه، فهو اثبات البعث والنشور، أي بعث الموتى إلى الحياة لحسابهم وجزائهم، وقد لحظ ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ هذا المعنى والغرض الذي تهدف إليه هذه الكناية بقوله: "إقامة الدليل على كمال قدرته وعلى البعث والنشور،فمن قدر على هذا قدر على إعادة الحياة بعد الموت "(3). وهذا المعنى يتجلى من الكناية أولاً، ومن طبيعة القرآن ومنهجه في إثبات فكرة البعث والنشور ثانياً، فالقرآن على الأغلب "يتخذ من صور الطبيعة الحيّة، وسيلة لاثبات البعث والنشور، ولما كانت أحوال النبات حيّة ماثلة للعيان،

(1) سورة الحج، الآية: 63.
(2) صفوة التفاسير: 2 / 297. وينظر: الكشاف: 3 / 132.
(3) صفوة التفاسير: 2 / 297.

يشهدها الناس مراراً وتكراراً، فإن القرآن اهتم بها كثيراً. وبعض أحوال النبات والشجر، لها صورة مقاربة لعملية البعث والنشور نفسها، كما يدلنا عليها التعبير القرآني "[1]. وهذه المقاربة بين بعض أحوال النبات والشجر وعملية البعث والنشور تتضح من خلال مفهوم عملية البعث، فمفهومها هو: "أن الأجسام التي فقدت الحياة، لا تلبث أن تنبض بالحياة من جديد، وتخرج من باطن الأرض، فهذه هي صورة البعث، كما يستحضرها الخيال بدلالة القرآن؛ وخروج النبات من الأرض الهامدة الساكنة التي لا تبدو فيها حياة، شبيهة بهذا الاخراج "[2]. كما أنَّ الماء هو أنسب ما تمثل به الحياة، فقد اقترنت الحياة في كل أشكالها في القرآن بالماء، ويشير إلى ذلك كثير من آياته [3] فهو قوام الحياة، والعنصر الرئيس في بنيتها وتركيبها " فالحياة والماء كالشيء وظلّه، وما يطرأ على الشيء من تحول أو تبدل، يستتبع بالضرورة تغييراً مماثلاً في ظلّه، ومن هنا جيء بالماء، لأن المتحكم بالشيء متحكم بظلّه، فمن تعذر عليه فهم حقيقة الحياة وماهيتها، بوسعه أن ينظر إلى مصدرها، وما جعله الله سبباً لها "[4].

والمعنى المكنى عنه اثبات البعث والنشور الذي أشارت إليه الكناية يتناسق فنياً مع جو سورة الحج التي وردت فيه الآية [5]، فهي تعالج فكرة البعث بعد الموت معالجة كبيرة في شتى الصور، منها الصورة التي نحن بصددها في مشهد من مشاهد الطبيعة.

ولا يخفى ما في الكناية باللون الأخضر من بعد جمالي محسوس لأن هذا اللون "أكثر سحراً، وأبعد عمقاً في تقبله وتأثيره " [6] في المتلقي من أي لون آخر وهو يصبغ الأرض الممتدة على طول البصر.وفيه إيحاء كمال القدرة المطلقة التي تبعث الحياة في أزهى صورها تزين بها هذا الوجود ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ﴾ ختام للآية يتناسق مع ما أشارت إليه الكناية في معناها

---

(1) الطبيعة في القرآن الكريم، د. كاصد ياسر الزيدي، ص 346.

(2) المصدر نفسه: ص 346 ـ347.

(3) ينظر: سورة النحل، الآية: 65. وسورة الأنبياء، الآية: 30، وسورة الحج، الآية: 5. وسورة فصلت، الآية: 39.

(4) الأمثال في القرآن الكريم، د. محمد جابر الفياض، ص 319.

(5) ينظر: الآيتان: 5. 7، مثلاً.

(6) عالم عناصر الفن، ص 136. وينظر: اللغة واللون، ص 79. وينظر: التعابير القرآنية والبيئة العربية، ص 279.

القريب والبعيد، فدبيب الحياة في الأرض الميتة، وهي حياة هادفة فيها الخير والجمال، أو دبيب الحياة في الموتى لحسابهم وجزائهم يتجلى فيها لطف الله الخبير وقدرته.

والبعد الجمالي للون الأخضر يتجلى من خلال ارتباطه بالحقول والحدائق والأشجار، وهذا ارتباط يشير إلى الخصب والرزق [1]، ومن ثم فهو لون النعيم في الجنة، وقد ورد في القرآن الكريم وصف ملابس أهل الجنة بالخضرة كما في قولـه ـ تعالى ـ: ﴿ وَيَلْبَسُونَ ثِيَابًا خُضْرًا مِّن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ ﴾ [2]، وقوله ـ تعالى ـ: ﴿ عَالِيَهُمْ ثِيَابُ سُندُسٍ خُضْرٌ وَإِسْتَبْرَقٌ ﴾ [3]. لذلك يمكن عد اللون الأخضر في الجنة كناية تشير إلى معناها المكنى عنه البعيد ويتمثل في الخلود، أي خلودهم في جنات النعيم لكرامتهم على الله ﷻ الذي أخلصوا له فنعّمهم وأكرمهم بالنعيم الدائم، فهو لون يشير إلى النعيم المادي والروحي سواء.

وترد الكناية باللون الأخضر في سياق مثل قرآني في صورة حسية مشاهدة، يستدل بها القرآن علإمكان البعث والنشور لأدجل الحساب والجزاء، وذلك في قوله ـ تعالى ـ: ﴿ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ ۖ قَالَ مَن يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ ۞ قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ۞ الَّذِي جَعَلَ لَكُم مِّنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَا أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ ﴾ [4].

قوله ـ تعالى ـ: ﴿ الَّذِي جَعَلَ لَكُم مِّنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَا أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ ﴾ كناية جاءت في سياق انكار البعث بعد الموت والذي سوّغ لنا عدّ هذا التركيب كنايةً، طبيعية الأسلوب الكنائي الذي يجوز حمله على جانبي الحقيقة والمجاز، كما في هذا التعبير الذي جاء في هذا المثل القرآني، والمعنى القريب للكناية: "ابراز الشيء من ضده، وذلك أبدع شيء، وهو اقتداح النار من الشيء الأخضر، الا ترى الماء يطفيء النار ومع ذلك خرجت مما هو مشتمل على الماء" [5]. وقد أشار الطبري في تفسيره إلى المعنى القريب، والمعنى البعيد المكنى عنه، فقال:

(1) ينظر: اللغة واللون، ص 164.
(2) سورة الكهف، من الآية: 31.
(3) سورة الانسان، من الآية: 21. وينظر: سورة الرحمن، الآية 76.
(4) سورة يس، الآيات: 78 ـ80. وينظر: سورة الواقعة، الآيات: 71 ـ73.
(5) البحر المحيط: 7 / 348. وينظر: الكشاف: 4 / 24.

"أي الذي جعل لكم بقدرته من الشجر الأخضر ناراً تحرق الشجر، لا يمتنع عليه فعل ما أراد، ولا يعجز احياء العظام البالية واعادتها خلقاً جديداً"[1].

فالتعبير الكنائي: ﴿ جَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلشَّجَرِ ٱلْأَخْضَرِ نَارًا ... ﴾ قائم على التضاد في المعنى، والتضاد من شأنه أن يجلي المعنى المكنى عنه في أعمق صورة، فالشجر الأخضر بما فيه من رواء وماء هو نقيض (النار)، لأن الماء يطفيء النار، فتخرج ممّا هو مشتمل على النقيض، وهي حالة محسوسة مشاهدة في صورتها ومعناها تشير إلى المعنى المكنى عنه البعيد وهو اخراج الحياة من الموت "فالذي أخرج من الشجر ناراً، لم يكن يتوقع أن تخرج منه، قادر على أن يخرج الانسان ـ الذي يظن المشركون أنه لن يخرج ـ من مرقده الذي ثوى فيه، بعد أن غيبه البلى بين ظهرانيه"[2].

فالقرآن في هذه الصورة الكنائية يقرب إلى الأذهان حقيقة البعث والنشور، فهو يجعل من هذه المحسوسات في الطبيعة القريبة إلى الحس والوجدان دليلاً حسياً شاخصاً للعيان يستدل بها على أن الناس سيبعثون وأنهم سيحاسبون على ما يقترفون[3].

أما على صعيد الكناية باللون الأصفر التي تشير إلى الموت والفناء بعد الحياة، فإننا نلحظها في سياق عالم النبات أيضاً في تقلبه السريع بين الحياة والموت، نقرأ ذلك في قوله تعالى ـ: ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَلَكَهُۥ يَنَٰبِيعَ فِى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِۦ زَرْعًا مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَجْعَلُهُۥ حُطَٰمًا ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾[4].

تستهل الآية بالاستفهام بالهمزة الذي أفاد التعجيب فيلفت الانتباه إلى هذه الظاهرة الطبيعية المكرورة في كل زمان ومكان، وهي ظاهرة عجيبة دالة على قدرة الله ورحمته بالانسان.

قال الزمخشري: "فسلكه: فأدخله ونظمه ﴿ يَنَٰبِيعَ فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ عيوناً ومسالك ومجاري كالعروق في الأجساد ﴿ مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهُۥ ﴾ هيئاته من خضرة وحمرة وصفرة وبياض وغير ذلك، وأصنافه من برّ وشعير وسمسم ﴿ يَهِيجُ ﴾ يتم جفافه، عن الأصمعي: لأنه إذا تم جفافه حان

(1) جامع البيان في تفسير القرآن: 23 / 21 ـ22.
(2) الطبيعة في القرآن الكريم، ص 349.
(3) ينظر: المصدر نفسه، ص 350.
(4) سورة الزمر، الآية: 21. وينظر: سورة الحديد، الآية: 20.

له أن يثور عن منابته ويذهب ﴿ حُطَٰمًا ﴾ فتاتاً ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ ﴾ لتذكيراً وتنبيهاً، على أنه لابد من صانع حكيم، وأن ذلك كائن عن تقدير وتدبير، لا عن تعطيل واهمال "[1].

وقوله: ﴿ ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِۦ زَرْعًا مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَجْعَلُهُۥ حُطَٰمًا ﴾ على وجه الاجمال يمثل حقيقتي: الحياة المتجددة ﴿ ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِۦ زَرْعًا مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهُۥ ﴾ في أزهى صورها وبريقها، وحقيقة الموت والفناء ﴿ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَجْعَلُهُۥ حُطَٰمًا ﴾ في صورة حسية مشهودة تتملاها العين ويحسها الفكر والوجدان، ذلك في عالم النبات الذي يرتبط بالانسان ارتباطاً مصيرياً.

والذي يهمنا الكناية باللون الأصفر ﴿ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصْفَرًّا ... ﴾ التي أشارت إلى معناها القريب وهو (الموت) المرتبط بالزرع في كل هيئاته وأشكاله وألوانه بعد تحوله من ذروة الحياة في تشكيلها الجمالي في ألوانه وخضرته ونضرته إلى الموت في تيبسه وجفافه وزواله.

أما المعنى البعيد الذي تنطوي عليه الكناية، فقد أشار إليه عدد من المفسرين. قال ابن كثير: "هكذا الدنيا تكون خضرة نضرة حسناء، ثم تعود عجوزاً شوهاء، والشاب يعود شيخاً هرماً، كبيراً ضعيفاً، وبعد ذلك كله الموت "[2]. وقال القرطبي: "إنّ الحياة الدنيا كالزرع يعجب الناظرين إليه لخضرته بكثرة الأمطار، ثم لا يلبث أن يصير هشيماً كأن لم يكن "[3]. وقال الصابوني: "تمثيل لحياة الانسان بالحياة الدنيا، فمهما طال عمر الانسان فلابد من الانتهاء، إلى أن يصير مصفر اللون، متحطم الأعضاء، متكسراً كالزرع بعد نضرته، ثم يكون عاقبته الموت "[4].

فقصر الحياة الدنيا أو قصر حياة الانسان من المعاني التي أشار إليها القرآن في مواضع كثيرة[5]، وقد دلّت عليها الكناية باللون الأصفر وبخاصة قصر حياة الانسان المرتبطة بحياة النبات. وبلاغة الكناية أنها تمثل المعنى بالطريقة الحسية المألوفة للانسان ليكون المعنى الذهني مؤثراً في الحس والنفس وليحقق بذلك الاستجابة النفسية التي يهدف القرآن تحقيقها في المتلقي، فهذه الحياة الدنيا هي كالزرع في تقلبه وتحوله من الحياة إلى الموت، والانسان يشاهد هذا

---

(1) الكشاف: 4 / 94.
(2) تفسير القرآن العظيم: 4 / 50.
(3) الجامع لأحكام القرآن: 17 / 255.
(4) صفوة التفاسير: 3 / 76.
(5) ينظر السور الآتية يونس، الآية: 24، والكهف، الآية: 45، والحديد، الآية: 20 مثلاً.

التقلب ويتحسس هذا التحول في مشهده المكرور فلا يغتر بها ولا ينسى نفسه وهو يقطع رحلته بين الحياة والموت. وحياة الانسان، أو الحياة البشرية في نهاية المطاف لا تعدو أن تكون المعادل الانساني لعالم النبات، وذلك لأن الانسان يخرج من رحم أمه، لكن ما يلبث بعد رحلة تطول أو تقصر، أن يذبل ويتيبس ويغيب ثانيةً في قلب التراب [1]. فالموت هو النهاية التي ينتهي إليها كل حي بعد حياة زمنية قصيرة كما دلّت الكناية باللون الأصفر، بل أن القرآن يختزل هذا الزمن اختزالاً، فلا يبقى بين الحياة والموت أيما فاصل زمني. نقرأ ذلك في كناية لونية أخرى [*] في سياق النبات أيضاً، هي قوله ـ تعالى ـ: ﴿ وَٱلَّذِىٓ أَخۡرَجَ ٱلۡمَرۡعَىٰ ۞ فَجَعَلَهُۥ غُثَآءً أَحۡوَىٰ ﴾ [2].

والمعنى القريب: "أنبت ما ترعاه الدواب، من الحشائش والأعشاب، ﴿ فَجَعَلَهُۥ غُثَآءً أَحۡوَىٰ ﴾ أي فصيّره بعهد الخضرة أسود بالياً، بعد أن كان ناضراً زاهياً [3].

والبادي أن المعنى أشمل من هذا، وذلك لأن المرعى كل نبات، وما من نبات إلا وهو صالح لخلق مما خلق الله. فهو هنا أشمل مما نعهده من مرعى أنعامنا، فالله خلق هذه الأرض وقدّر فيها أقواتها لكل حي يدب فوق ظهرها، أو يختبيء في جوفها، أو يطير في جوّها [4].

والكناية باللون تتجلى في قوله ـ تعالى ـ: ﴿ فَجَعَلَهُۥ غُثَآءً أَحۡوَىٰ ﴾ والأحوى هو اللون الأسود الذي ينتهي إليه المرعى عند ذبوله وموته. جاء في أساس البلاغة: "وشعر أحوى: أسود، ورجل أحوى: شاب أسود الشعر" [5] والغثاء: ما يقذف به السيل على جانب الوادي من الحشائش والأوراق والنباتات [6] فهو الموت والبلى بعد الخضرة والحياة في تلك السرعة التي لا نلمح فيها فاصلة زمنية بين الحياة والموت كما أفاد ذلك حرف العطف الفاء الذي يفيد التعقيب،أي تعقيب الخروج بالذبول والموت، فلا يبقى في مدى الرؤية غير الموت الذي يكتسح الحياة.

---

(1) مع القرآن في عالمه الرحيب، ص 200.

(*) هذه الكناية تشير إلى اللون الأسود أرجأناها إلى هذا الموضع لأنها في سياق عالم النبات.

(2) سورة الأعلى، الأيتان: 4 ـ5.

(3) صفوة التفاسير: 3 / 548.

(4) ينظر: في ظلال القرآن: 8 / 549.

(5) مادة (حوى). وينظر: كتاب الملمع، للنمري، ص 69.

(6) ينظر: لسان العرب: 15 / 116 (غثا).

أما المعنى الكنائي البعيد لهذه الصورة الموحية فهو سرعة زوال الحياة الدنيا التي يغتر بها الانسان ويؤثرها على الحياة الباقية. وهذا المعنى المكنى عنه يتسق مع جو السورة والحديث عن الحياة الدنيا والحياة الأخرى: ﴿ بَلْ تُؤْثِرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ۞ وَٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ﴾ [1].

الكناية باللون غير المباشر:

في القرآن كنايات لونية، يدرك اللون فيها في صورة غير مباشرة فيشير اللون المتداعي إلى دلالته، وترد هذه الكنايات غير المباشرة في مشاهد يوم القيامة، نلحظها تعلو وجوه الفريقين: المؤمنين والكافرين على التقابل في تلك المشاهد، ألوان مشرقة تدل عليها هذه الكنايات ترتسم في وجوه المؤمنين الفائزين. وألوان قاتمة ترتسم على وجوه الكافرين الفاجرين على التقابل في الصورة والمعنى.

وبذلك فإن القرآن الكريم قد استعمل ألواناً عديدة تدل عليها هذه الكنايات منها: للدلالة على ثواب المؤمنين وفوزهم بما توحي به من إيحاءات الاشراق والتهلل والجمال والاستبشار، ومنها للدلالة على عقاب الكافرين وخسرانهم بما تحمل من ايحاءات الغم والحزن والتحسر والاكتئاب [2]، من ذلك:

الكناية بالأسفار والغبرة والقترة:

ترد هذه الكنايات في مشهد من مشاهد يوم القيامة في وصف حال الفريقين في قوله تعالى: ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ ۞ ضَاحِكَةٌ مُّسْتَبْشِرَةٌ ۞ وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ ۞ تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ ۞ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَفَرَةُ ٱلْفَجَرَةُ ﴾ [3].

التقابل القائم على التضاد بين حال الفريقين هو الأطار الفني الذي يبرز المشهد ويكشف عن عمق المعاني والايحاءات للكنايات المتضادة التي تجسد الحالة النفسية لكل من الفريقين بما يرتسم على الوجوه في صورة حيوية مؤثرة.

كناية الاسفار تصور المؤمنين في هذه الصورة المشرقة: ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ ﴾ إذ يتداعى لون مشرق من وجوههم، قال الزمخشري: "أسفر الصبح: أضاء. وخرجوا في السفر: في بياض

---

(1) سورة الأعلى، الآيتان: 16 ـ17.

(2) ينظر: الفاظ الثواب في القرآن الكريم، ص 198.

(3) سورة عبس، الآيات: 38 ـ42.

الفجر، ورُح بنا بسَفَر: ببياض قبل الليل.. ووجه مسفر: مشرق سروراً"[1] فالإسفار يختص باللون"[2]، فهي وجوه مضيئة مشرقة من البهجة والسرور. وجاءت الكناية ﴿ مُّسْفِرَةٌ ﴾ بصيغة اسم الفاعل لتوحي بتمكن هذا الوصف منهم.. ويعمق هذا المعنى ويعضده الآية ﴿ ضَاحِكَةٌ مُّسْتَبْشِرَةٌ ﴾ بصيغة اسم الفاعل أيضاً لتدل على الثبات والدوام [*]، أي: "فرحة مسرورة بما رأته من كرامة الله ورضوانه مستبشرة بذلك النعيم الدائم"[3].

واللون المتداعي من اشراق وجوههم واضاءتها في ذلك الموقف يمكن وصفه باللون الأبيض، وهو من الألوان الناصعة الخالصة[4] يعمل على تكثيف تلك الحالة النفسية المسرورة المبتهجة التي هم فيها ويشير إليها على نحو لا يمكن وصفها بالكلمات، بل يتخيلها المتلقي ويتملاها ليدرك معناها وتأثيرها في حسه ووجدانه في ذلك المشهد العصيب.

ويقابل هذه الصورة في إشراقها وسعادة أهلها الصورة الكنائية القاتمة التي ترتسم على وجوه الكافرين ﴿ وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ ۝ تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ ۝ أُولَٰئِكَ هُمُ الْكَفَرَةُ الْفَجَرَةُ ﴾. إذ تواشجت كنايتان لونيتان ﴿ غَبَرَةٌ ﴾ و ﴿ قَتَرَةٌ ﴾ في إخراج صورة الكافرين الفاجرين لتصعيد الدلالة في الصورة والمعنى. في الصورة بتشويه منظرهم بلونين منفّرين، فمن الكناية ﴿ غَبَرَةٌ ﴾ يتداعى لون الغبار وهو يُردُّ إلى الألوان غير الناصعة الخالصة [5] ومن الكناية ﴿ قَتَرَةٌ ﴾ يتداعى اللون الأسود. قال الراغب: "ومن الغبار أشتق الغبرة ـوهو ما يعلق بالشيء من الغبار، وما كان على لونه. قال ـتعالى ـ: ﴿ وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ ﴾ كناية عن تغير الوجه للغم"[6]. والقترة أصلها "من القتار والقتر، وهو الدخان الصادر من الشواء والعود ونحوهما. وقوله ـتعالى ـ: ﴿ تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ ﴾ نحو

---

(1) أساس البلاغة، ص 212 (سفر). وينظر: الكشاف: 4 / 564.

(2) المفردات، ص 341.

(*) الأصل في (اسم الفاعل) أنه أدوم وأثبت من الفعل في دلالته، ولكنه لا يرقى إلى ثبوت الصفة المشبهة. ينظر: معاني الأبنية في العربية، د. فاضل صالح السامرائي، ص 47 وما بعدها. أما هنا في الآية فقد أفاد اسم الفاعل المتكرر (الثبات والدوام) بالنظر إلى السياق فهو كالصفة المشبهة في ثباته ودوامه.

(3) صفوة التفاسير: 3 / 522.

(4) ينظر: كتاب الملمع، ص 8.

(5) ينظر: كتاب الملمع، ص 8.

(6) المفردات، ص 535. وينظر: صفوة البيان لمعاني القرآن، ص 785.

غبرة، وذلك شبه دخان يغشى الوجه من الكذب"[1]. وقال الزمخشري "غبرة: غبار يعلوها ﴿قَتَرَةٌ﴾: سواد كالدخان، ولا ترى أوحش من اجتماع الغبرة والسواد في الوجه، كما ترى من وجوه الزنوج إذا غبرت، وكأن الله ﷻ يجمع إلى سواد وجوههم الغبرة، كما جمعوا الفجور إلى الكفر"[2].

فالكنايتان في لونهما القاتم تشيران على نحو مكثف إلى تلك الحالة النفسية لهؤلاء في ذلك الموقف الذي يواجهونه، حالة نفسية مكروبة ملؤها الغم والحزن ومصيرها الخيبة والخسران. وهي الصورة التي تقف على التضاد إزاء صورة المؤمنين، وبالتضاد يترسخ المعنى في ذهن المتلقي لحال الفريقين.

ويتداعى اللون الأسود في صورة كثيفة إزاء صورة مشرقة على التقابل في مشهد آخر من مشاهد يوم القيامة في قوله ـ تعالى ـ: ﴿ ۞ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ ۖ وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌ ۚ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ ۖ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ۝ وَالَّذِينَ كَسَبُوا السَّيِّئَاتِ جَزَاءُ سَيِّئَةٍ بِمِثْلِهَا وَتَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ۖ مَّا لَهُم مِّنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ ۖ كَأَنَّمَا أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قِطَعًا مِّنَ اللَّيْلِ مُظْلِمًا ۚ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾[3].

فالصورة المشرقة للذين أحسنوا تتداعى من خلال نفي القتر والذلة عن وجوههم ﴿وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌ﴾ أي: "أي لايغشى وجوههم دخان ولا سواد كما يعتري وجوه أهل النار، ﴿وَلَا ذِلَّةٌ﴾ أي: هوان وصَغار"[4] ونفي القتر عنهم بلونه الأسود إثبات لإضاءة وجوههم وإشراقها كناية عن سعادتهم وحالتهم النفسية المسرورة المبتهجة. فهي كناية تشير إلى كناية (الاسفار) والاشراق السابقة، إلا أن الكناية هنا تبدو أكثر إشراقاً وإضاءةً، وذلك لأنها تقف على التضاد مع الذين كسبوا السيئات في صورتهم التشبيهية: ﴿كَأَنَّمَا أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قِطَعًا مِّنَ اللَّيْلِ مُظْلِمًا ...﴾ أي: "كأنما أُلبست وجوههم من فرط السواد والظلمة قطعاً من ظلام الليل"[5] والليل بطبيعته مظلم، فلا يحتاج إلى وصفه بالسواد وهو اللون المتداعي من ﴿مُظْلِمًا﴾، لكن التقابل في سياق المشهد يعمل على إبراز عنصر التضاد حاداً قوياً من خلال تكثيف اللون الأسود

---

(1) المفردات، ص 593. وينظر: أساس البلاغة، ص 354 (قتر).

(2) الكشاف: 4 / 564. وينظر: التعابير القرآنية والبيئة العربية، ص 140.

(3) سورة يونس، الآيتان: 26 ـ27.

(4) صفوة التفاسير: 1 / 581. وينظر: الكشاف: 2 / 269.

(5) صفوة التفاسير: 1 / 581.

ليجلي الصورة المقابلة في صورة بارزة قوية في اضاءتها واشراقها. قال الشريف الرضي في ﴿مُظۡلِمًا﴾: "وفيه زيادة معنى. لأن الليل قد سمي ليلاً وإن كان مقمراً، فإنما قال ﷺ: ﴿مُظۡلِمًا﴾، على أن التشبيه إنما وقع به أسود ما يكون جلباباً، وأبهم أثواباً "[1] فالذهن يستخلص صورة بالغة في السواد والقبح[2] وبذلك يشير اللون الأسود الكثيف الذي يعتري وجوههم إلى المعنى المكنى عنه بعمق وهو عظم الغم والحزن والاكتئاب الذي يصطرع في أنفسهم في ذلك الموقف الرهيب.

ناضرة وباسرة:

تصور هاتان الكنايتان اللونيتان حال الفريقين: (المؤمنين والكافرين) في مشهد من مشاهد يوم القيامة نلحظ فيه تصاعد اشراق وجوه المؤمنين إلى الذروة حيث تتطلع إلى النظر إلى جلال ربها والاستغراق فيه.. وبالمقابل نلحظ وجوه الكافرين وهي كالحة صفراء تترقب داهية وعذاباً يتزل بهم فيزدادون عذاباً فوق عذابهم. وذلك في قوله ـتعالى ـ: ﴿وُجُوهٞ يَوۡمَئِذٖ نَّاضِرَةٌ ۝ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٞ ۝ وَوُجُوهٞ يَوۡمَئِذِۭ بَاسِرَةٞ ۝ تَظُنُّ أَن يُفۡعَلَ بِهَا فَاقِرَةٞ﴾[3].

المؤمنون وما هم فيه من سعادة وسرور تصوره الكناية: ﴿وُجُوهٞ يَوۡمَئِذٖ نَّاضِرَةٌ﴾ جاء في لسان العرب: "النضرة: النعمة والعيش والغنى، وقيل: الحسن والرونق، وقد نضر الشجر والورق والوجه واللون، وكل شيء ينضر.. فهو ناضر أي حسن"[4]. وكلا المعنيين تشير إليهما الكناية ﴿نَّاضِرَةٌ﴾: النعمة والغنى، والحسن والرونق المرتسم على وجوههم، وأحدهما متصل بالآخر ويدل عليه. قال الفرّاء: "أنها مشرقة بالنعيم"[5] وقال الطبري: "حسنة جميلة من النعيم"[6]، ومثل هذا قول الزمخشري[7]. فوجوههم ناضرة مشرقة بنعيم الجنة، كما قال ـ تعالى ـ في مواضع أخرى: ﴿تَعۡرِفُ فِي وُجُوهِهِمۡ نَضۡرَةَ ٱلنَّعِيمِ﴾[8] ﴿وَلَقَّىٰهُمۡ نَضۡرَةٗ وَسُرُورٗا﴾[1] ﴿وُجُوهٞ يَوۡمَئِذٖ

---

(1) تلخيص البيان في مجازات القرآن، ص 155.
(2) ينظر: المشاهد في القرآن الكريم، د. حامد صادق قنيبي، ص 350.
(3) سورة القيامة، الآيات: 22 ـ25.
(4) 5 / 212. (نضر).
(5) معاني القرآن: 3 / 212.
(6) جامع البيان في تفسير القرآن: 29 / 119.
(7) الكشاف: 4 / 529.
(8) سورة المطففين، الآية: 24.

﴿نَّاعِمَةٌ﴾ [2] أي: 'إذا رأيتهم تعرف أنهم أصحاب نعمة لما ترى في وجوههم من النور والبياض والحسن، ومن بهجة السرور ورونقه '[3]، وقوله: ﴿وَلَقَّىٰهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا﴾ أي: 'وأعطاهم نضرة في الوجه، وسروراً في القلب، والتنكير في ﴿سُرُورًا﴾ للتعظيم والتفخيم '[4]، و ﴿نَّاعِمَةٌ﴾، أي: 'ذات بهجة وحسن '[5] فنعيم الجنة الذي هم فيه مغمورون يرتسم على وجوههم بريقه ونداه، لأن القرآن الكريم حينما يصف وجوه المؤمنين بالنضارة لا يعبر عن معنى الحسن فيها حسب، بل يحمل اللفظ الدلالة على الاشراق والبريق والخلوص [6] وبذلك تعكس هذه الكناية اللونية 'صورة حيّة في وصف وجوه المؤمنين، فقد اقترنت النضرة بأحب صورة إلى نفس العرب، ألا وهي صورة النبات الناضر، وذلك أن يكون شديد الخضرة مع اشراق ولمعان متأتٍ من طراوة الزرع ونمائه نمواً حسناً '[7].

فهذا اللون المشرق من النور والبياض والخضرة المتداعي من الكناية ﴿نَّاضِرَةٌ﴾ يشير إلى تلك الحالة النفسية التي ملؤها البهجة والسرور والسعادة بما يليق معها أو تمكنها من النظر إلى وجه الله الكريم: ﴿إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ أي: 'تنظر إلى جلال ربها، وتهيم في جماله، أعظم نعيم لأهل الجنة رؤية المولى ـ جلّ وعلا ـ والنظر إلى وجهه الكريم بلا حجاب '[8]، وقال الطبري: قال الحسن البصري: تنظر إلى الخالق، وحقّ لها أن تنضر وهي تنظر إلى الخالق '[9]. والجناس بين الكلمتين ﴿نَّاضِرَةٌ﴾ و ﴿نَاظِرَةٌ﴾ مبعث تأمل عميق ـ كما ذهب إلى ذلك أحد الدارسين ـ [10] في الصلة بين معنى النضرة، وما يترتب عليه، والنظر إلى الله وما يترتب عليه، من الاسترواح في جلال الله ورضاه.

---

(1) سورة الانسان، من الآية: 11.
(2) سورة الغاشية، الآية: 8.
(3) صفوة التفاسير: 3 / 533.
(4) المصدر نفسه: 3 / 493.
(5) الكشاف: 4 / 594.
(6) ألفاظ الثواب في القرآن الكريم، ص 190.
(7) التعابير القرآنية والبيئة العربية، ص 161.
(8) صفوة التفاسير: 3 / 486.
(9) جامع البيان في تفسير القرآن: 29 / 120.
(10) فتحي احمد عامر، المعاني الثاني في الأسلوب القرآني، ص 458.

أما الكافرون فكما تصورهم الكناية ﴿ بَاسِرَةٌ ﴾ فوجوههم: "شديدة الكلوحة والعبوس"[1] فهي مقطبة لما ينتظرها من العذاب، وفضلاً عن ذلك فهي وجوه صفراء كالحة كما أوحت الكناية، لأن البسارة لثمرة النخل قبل أن تصير رطباً "لأن أول التمر طَلْعٌ، ثم خَلال، ثم بَلَحٌ، بُسْرٌ، ثم رطَبٌ، ثم تمرٌ"[2]، فهي صفراء كالحة[3]، تشير إلى ما يصطرع في أنفسهم من الغم والحزن والاكتئاب،ويتصاعد هلعهم وعذابهم النفسي، بما يتوقعونه من العذاب الشديد القاصم الذي صورته ﴿ فَاقِرَةٌ ﴾: ﴿ تَظُنُّ أَن يُفْعَلَ بِهَا فَاقِرَةٌ ﴾ أي: "تتوقع أن يفعل بها فعل هو في شدته وفظاعته ﴿ فَاقِرَةٌ ﴾ داهية تقصم فقار الظهر"[4]. فهي صفة الموصوف المحذوف داهية التي تأتي بعذاب عظيم يحل بهم، فهو الخوف والرعب والهلع في مشهدهم العصيب، فهم يتوجسون أن تنزل بهم داهية تقصم الفقار. والتوجس شر من وقوع العذاب[5]. مشهد أرهقهم فغشى وجوههم ما غشيها من صفرة وكلاحة وعبوس وقطوب، من قبل أن تلقى هول العذاب الأكبر في نار جهنم[6].

وتتكرر الكناية ﴿ بَاسِرَةٌ ﴾ في القرآن بصيغة الفعل الماضي "بَسَرَ" في سياق يصور الوليد بن المغيرة المخزومي (*) في صورة شديدة الانكار تثير السخرية من حاله وهو يتهم القرآن بالسحر، وشدة الانكار مكتسبة من كون هذه الكناية قد وردت في سياق مشهد من مشاهد القيامة فتلقي ظلالها على هذا السياق الجديد وموحية بمصيرها المحتوم، وذلك في قوله ـ تعالى ـ: ﴿ إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ ۞ فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ۞ ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ۞ ثُمَّ نَظَرَ ۞ ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ ۞ ثُمَّ أَدْبَرَ وَاسْتَكْبَرَ ۞ فَقَالَ إِنْ هَٰذَا إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ ۞ إِنْ هَٰذَا إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ ﴾[7].

الكناية ﴿ وَبَسَرَ ﴾ تمثل لقطة تصويرية ضمن مجموعة لقطات يرسمها التعبير القرآني الموحي "لقطة وهو يفكر ويدبر ومعها دعوة هي قضاء ﴿ ثُمَّ قُتِلَ ﴾ واستنكار كله استهزاء

(1) صفوة التفاسير: 3 / 483.
(2) لسان العرب: 4 / 58 (بسر).
(3) الفاظ الثواب في القرآن الكريم، ص 197.
(4) الكشاف: 4 / 530.
(5) ينظر: مشاهد القيامة في القرآن، ص 69.
(6) ينظر: الإعجاز البياني للقرآن ومسائل ابن الأزرق، ص 461.
(*) قد وردت روايات المتعددة بأن المعنيّ هنا الوليد بن المغيرة المخزومي. ينظر: لباب النقول في أسباب النزول، ص 773.
(7) سورة المدثر، الآيات: 18 ـ25.

﴿كَيْفَ قَدَّرَ﴾ ثم تكرار الدعوة والاستنكار لزيادة الايحاء بالتكرار. ولقطة وهو ينظر هكذا وهكذا في جد مصطنع متكلف يُوحي بالسخرية منه والاستهزاء. ولقطة وهو يقطب حاجبيه عابساً، ويقبض ملامح وجهه باسراً، ليستجمع فكره في هيئة مضحكة ! ويعد هذا المخاض كلّه، وهذا الحزق كلّه لا يفتح عليه بشيء.. إنما يدبر عن النور ويستكبر عن الحق "[1] ويقول: ﴿إِنْ هَٰذَا إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ ۝ إِنْ هَٰذَا إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ﴾ ..

فالكناية رسمت تقطيب وجهه الكالح، فضلاً عمّا أوحت به من السحنة الصفراء التي تعلو وجهه وهو يتعجل بوصفه القرآن بالسحر، قال الراغب: "البسر: الاستعجال بالشيء قبل اوانه.. وقوله ﷻ: ﴿ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ﴾ أي أظهر العبوس قبل أوانه، وفي غير وقته "[2] فهو التقطيب المتكلف المصطنع ليخفي به الحقيقة التي يستشعرها بعدما ضاقت به الحِيَل ولم يدرِ ما يقول في حقيقة مصدر هذا القرآن.. ولكنه التكبر يصده عن قول الحقيقة، فيواجهه القرآن بالتهديد الحاسم، والسخرية اللاذعة كمال تصورها الكناية: ﴿ثُمَّ أَدْبَرَ وَاسْتَكْبَرَ﴾، أي: "أدبر عن الحق واستكبر عنه فقال ما قال "[3] والسخرية تتجلى بالكناية ﴿أَدْبَرَ﴾ إذ فيها إشارة إلى (استاه) وهو يتولى عن الحق للسخرية منه والاستهزاء، وقد قدّم السياق ادباره على استكباره ليوحي أن إدباره عن الحق ونفوره منه كامن في طبيعته التي لا تتطلع إلى سماع الحق أصلاً، فكأنه لم يسمعه فترتب عليه الاستكبار، فضلاً عن أن (الإدبار) حركة حسية مرئية تمهد لصفة عقلية

---

(1) في ظلال القرآن: 5 / 362 ـ363.

(2) المفردات، ص 60. وينظر: لسان العرب: 4 / 57 (بسر).

(3) الكشاف: 4 / 519.

(*) إنّ اللغة في القرآن الكريم تؤدي دوراً كبيراً في العطاء الموسيقي ذلك أنّ الموسيقى فيه لا تنبع من وزن شعري كالذي عرفناه في تفعيلات الشعر العربي، ولكنّها تنبع من اللغة نفسها، من ائتلاف الأصوات في اللفظة الواحدة وفي سياق الألفاظ وتناسقها وتناغمها وأدائها للمعنى ودلالته عليه، وقد بلغت هذه الخصيصة في القرآن الذروة في التكامل والوضوح. "الجرس والايقاع في تعبير القرآن، د. كاصد ياسر حسين، ص 342 ـ343. وينظر: فقه اللغة العربية، د. كاصد ياسر الزيدي، ص 136. وينظر: جرس الألفاظ ودلالتها في: البلاغي والنقدي عند العرب، د. ماهر هلال، ص 288 وما بعدها.

(الاستكبار) تقريراً في نفس المتلقي، ثم لا يغفل ايقاع السياق الموسيقي الذي اعتمد الفاصلة حرف الراء يتطلب هذا التقديم لإغناء المعنى (*).

ويتبين لنا من عرض أمثلة الكناية باللون المباشر وغير المباشر أنها كانت غنية بإيحاءاتها، فهي قيمة فنية في تصويرها للمعاني والمشاهد فيما ترسمه من ظلال حول المعنى فتوحي بأكثر من دلالتها الظاهرة.. وهي أكثر ما ترد في مشاهد يوم القيامة بوصفها أسلوباً ذا قوة تعبيرية في تجسيد المعاني العقلية والنفسية في حيوية وقوة تأثير وإمتاع.

الفصل الثالث

الكناية النفسية

الفصل الثالث

الكناية النفسية

تتحدد الغاية الأساسية من دراسة الكناية النفسية في الوقوف على الإشارات الوجدانية والمشاعر النفسية التي تجسدها الكناية بالتصوير الفني المؤثر.

والتصوير هو الأداة الشائعة في أسلوب القرآن، فهو يعبّر: "بالصورة المحسّة المتخيّلة عن المعنى الذهني، والحالة النفسية، وعن الحادث المحسوس، والمشهد المنظور، وعن النموذج الانساني والطبيعة البشرية،ثم يرتقي بالصورة التي يرسمها فيمنحها الحياة الشاخصة، أو الحركة المتجددة، فإذا المعنى الذهني هيئة أو حركة، وإذا الحالة النفسية مجسمة مرئية. أما الحوادث والمشاهد، والقصص والمناظر، فيوردها شاخصة حاضرة، فيها الحياة، وفيها الحركة، فإذا أضاف إليها الحوار، فقد استوت لها كل عناصر التخييل "[1].

والكناية القرآنية لا تقف في معانيها ودلالاتها عند التصوير الحسي، وإنما يوحي التصوير فيها بتضاعف دلالي معنوي ونفسي مؤثر يقرب الأفكار والمعاني إلى الحس والوجدان فتنفعل له النفس انفعالاً من شأنه أن يحدث استجابة نفسية معينة في المتلقي.

فالكناية القرآنية تخرج فيها المعنويات والمجردات والانفعالات النفسية باللباس الحسي الذي يكون تأثيره في النفس والذهن أعمق من المجردات، وفي ذلك يقول الرازي: "إلف النفس مع الحسيات أتم من إلفها مع العقليات فإذا ذكرت المعنى العقلي الجليّ ثم عقبته بالتمثيل الحسي فكأنه قد نقلت النفس من الغريب إلى القريب "[2].

فنقل المعاني في صورة حسية يزيدها قوةً وتأثيراً، وهذا ما نلحظه مع الكناية النفسية في القرآن الكريم إذ تظهر بالتصوير الحسي دخائل النفوس، والمشاعر الباطنة، والانفعالات النفسية والخلجات الشعورية في حركات حسية نابضة بالحياة ترسم نموذجاً جاء بشرياً بكل عواطفه ومشاعره وانفعالاته المختلفة من ندم وحسرة وغيظ وحقد وحسد، وجحود وإعراض وهزيمة،

---

(1) التصوير الفني في القرآن، ص 32.

(2) نهاية الإيجاز في دراسة الإعجاز، ص 108. وينظر: تفسير التحرير والتنوير: 9 / 268 ـالكتاب الثاني ـو: 10 / 25.

وخوف وهلع وفزع، واحتقار واستهانة، وفرح ومسرة وطمأنينة تعرض كل هذه المعاني النفسية في سياقات مختلفة وأحوال متباينة في الحياة الدنيا في مواقف متنوعة، وفي الآخرة في بعض مشاهد يوم القيامة المروعة..

فالكناية القرآنية أسلوب تصويري من أساليب التصوير الفني يعمل على إثارة الانفعالات الوجدانية، وتغذية الخيال بالصور والمعاني والظلال وهو يعرض تلك المشاهد المتنوعة في طريقة لا نجدها بالأسلوب الذهني التجريدي، إذ إنّ الأسلوب الذهني يعرض المعاني والأفكار في طريقة "تخاطب الذهن والوعي، وتصل إليهما مجردة من ظلالها الجميلة، وفي الطريقة التصويرية يخاطب الحس والوجدان،وتصل إلى النفس من منافذ شتى: من الحس عن طريق الحواس، ومن الوجدان المنفعل بالأصداء والأضواء. ويكون الذهن منفذاً واحداً من منافذها الكثيرة إلى النفس لا منفذها المفرد الوحيد"[1].

لذلك سيعنى هذا الفصل ببيان الأثر النفسي الكامن في الكناية القرآنية في سياقاتها وموضوعاتها التي صوّرتها.

وسنعمد إلى تناول الكنايات القرآنية النفسية كل كناية على انفراد، ومن ثم نحاول إبراز الآثار النفسية التي انطوت عليها بوصفها أحد الأساليب الفنية البارزة في القرآن.

عض الأنامل:

وردت هذه الكناية في سياق توبيخ المؤمنين على موالاتهم لمنافقي أهل الكتاب الذين يضمرون الحنق والبغضاء لهم، كما يجسده التعبير القرآني بالتصوير الكنائي في قوله ـ تعالى ـ: ﴿ هَٰٓأَنتُمۡ أُوْلَآءِ تُحِبُّونَهُمۡ وَلَا يُحِبُّونَكُمۡ وَتُؤۡمِنُونَ بِٱلۡكِتَٰبِ كُلِّهِۦ وَإِذَا لَقُوكُمۡ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوۡاْ عَضُّواْ عَلَيۡكُمُ ٱلۡأَنَامِلَ مِنَ ٱلۡغَيۡظِۚ قُلۡ مُوتُواْ بِغَيۡظِكُمۡۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴾[2].

الكناية: ﴿ عَضُّواْ عَلَيۡكُمُ ٱلۡأَنَامِلَ ﴾ تعبير موح موجز يجسد تلك الانفعالات النفسية لهؤلاء المنافقين بهذه الحركة المادية المنفعلة، وهي عضّ أطراف الأصابع (الأنامل) إذا خلا بعضهم إلى

(1) مشاهد القيامة في القرآن، ص 8 ـ9.

(2) سورة آل عمران، الآية: 119.

(*) نقصد بالحركة الكنائية، الحركة المادية المرئية في التعبير الكنائي سواء أكانت باليد أم بالرأس أم بالعين أم غير ذلك من أعضاء جسم الانسان، وهي كناية لأنها تنطوي على معنى مكنى عنه هو المقصود.

بعض، وهو المعنى الظاهر الذي تدل عليه هذه الحركة الكنائية (*)، إلاّ أن هذا المعنى ليس هو المقصود لذاته،وإنما المقصود ما يرتبط بهذه الحركة ويلازمها من مشاعر وانفعالات هؤلاء المنافقين تجاه المؤمنين وهو المعنى المكنى عنه بهذه الحركة.قال أبو حيان: "يوصف المغتاظ والنادم بعض الأنامل"[1]،وسياق الكناية في الآية يدل على الحنق والغيظ: ﴿عَضُّوا۟ عَلَيْكُمُ ٱلْأَنَامِلَ مِنَ ٱلْغَيْظِ﴾ فالكناية تعبير عن ذلك الانفعال النفسي وهو شدة الغيظ، فضلاً عن التأسف والندم عمّا يفوتهم من إيذاء المؤمنين. وشدة الغيظ التي تنتابهم حنقاً وحسداً يعمقه التعبير ﴿قُلْ مُوتُوا۟ بِغَيْظِكُمْ﴾ لأن فعل الأمر ﴿مُوتُوا۟﴾ هو مجاز في دلالته يراد منه الدعاء وهو موتهم بغيظهم. قال الزمخشري: "دعاء عليهم بأن يزداد غيظهم حتى يهلكوا به والمراد بزيادة الغيظ زيادة ما يغيظهم من قوة الاسلام وعزّ أهله وما لهم في ذلك من الذل والخزي والتبار"[2]. وهذا إيحاء بشدة الغيظ الذي يعتمل في نفوسهم فيسلمهم إلى الهلاك والموت، وفي هذا تطييب لنفوس المؤمنين وبعث الرجاء فيها والاستبشار بوعد الله أن يهلك المنافقون غيظاً بإعزاز الاسلام وإذلالهم به [3].

وإذا كان الله ﷻ يكشف غيظهم وحقدهم وحسدهم بتلك الكناية الحركية فهي ظاهرة لعين المؤمنين، فإن الكناية التي انتهت بها الآية: ﴿بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ هي مكشوفة لله ﷻ كتلك. وذات الصدور كناية عن الأسرار الخفية المصاحبة للصدور اللازمة لها لا تبارحها. وهي كناية تتكرر في مواضع أخرى من القرآن (**) وهي هنا تشير إلى معانٍ تتناسب مع السياق فيكشفها في النور يطلع عليها المؤمنون. جاء في تفسيرها: "فهو يعلم ما تضم صدوركم من شعور الغيظ والبغضاء وموجدة الحقد والحسد فكيف يخفى عليه ما تقولون في خلواتكم وما يبديه بعضكم لبعض من ذلك. ويعلم كذلك كما تنطوي عليه صدورنا معشر المؤمنين من حبّ الخير والنصح لكم"[4].

---

(1) البحر المحيط: 3 / 41. وينظر: الكشاف: 1 / 459.

(2) الكشاف: 1 / 459.

(3) ينظر: الكشاف: 1 / 459.

(**) ينظر: سورة آل عمران، الآية: 154، والمائدة، الآية: 7، والأنفال، الآية 43، وهود، الآية: 5، ولقمان، الآية: 23، وفاطر، الآية: 38، والزمر، الآية: 77، والشورى، الآية: 24، والحديد، الآية 6، والتغابن، الآية: 4، والملك: الآية: 13.

(4) تفسير المنار: 4 / 91.

وبذلك تصور هذه الكناية، فضلاً عن كناية (عض الأنامل) مشاعرهم الباطنة، وانفعالاتهم الظاهرة بتلك الحركة المنفعلة فتزيدهم المأ وغيظاً، وهي تتكشف في النور يطلع عليها عباد الله المؤمنون فيزدادوا استبشاراً بوعد الله باعزازهم واهلاك أعدائهم غيظاً وذلاً.

عضّ اليدين:

ترد هذه الكناية في مشهد من مشاهد يوم القيامة في قوله تعالى: ﴿ ٱلْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ لِلرَّحْمَٰنِ ۚ وَكَانَ يَوْمًا عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ عَسِيرًا ۞ وَيَوْمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَٰلَيْتَنِى ٱتَّخَذْتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلًا ۞ يَٰوَيْلَتَىٰ لَيْتَنِى لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا ﴾[1].

الصورة الكنائية: ﴿ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ ﴾ تكشف عن الحالة النفسية المنفعلة للكافر الظالم في يوم القيامة حتى يعاين عذابه ومصيره. وبين معنى هذه الكناية الذي تدل عليه ظاهرياً في حركتها المنفعلة (عضّ اليدين)، وبين المعنى المكنى عنه المراد وهو ندم الظالم وتحسره علاقة تلازم وارتباط. قال الزمخشري: "عضّ اليدين والأنامل، والسقوط في اليد كنايات عن الغيظ والحسرة، لأنها من روادفها، فيذكر الرادفة ويدل بها على المردوف، فيرتفع الكلام به في طبقة الفصاحة ويجد السامع عنده في نفسه من الروعة والاستحسان مالا يجده عند لفظ المكنى عنه"[2].

والكناية في سياقها الذي وردت فيه أنسب وأدق في تصوير الحالة النفسية التي فيها الظالم في موقفه العسير من أي كناية أخرى مما ذكره الزمخشري كعض الأنامل مثلاً التي تشترك في إيحائها عن الندم في حركتها وصورتها مع كناية (عضّ اليدين)، وذلك لأن موقف الظالم هنا في مشهد من مشاهد يوم القيامة، وهو موقف مروّع عصيب يعاين فيه الظالم عقابه ويستيقن بما كذّب من قبل.. فالتعبير عن حالته النفسية وتجسيدها بكناية عض اليدين توحي بذلك الانفعال الشديد المضطرب وهذا يناسبه الحركة الغليظة المصورة للمعنى النفسي المقصود، فهو لا تكفيه يد واحدة يعض عليها، إنما هو يداول بين هذه وتلك، أو يجمع بينهما لشدة ما يعانيه من الندم المتمثل في عضّه على اليدين فتكون رمزاً مناسباً لحالته النفسية فتجسمها تجسيماً[3] وهو معنى يتعمّق بأسلوب التمني الذي يصاحبه: ﴿ يَٰلَيْتَنِى ٱتَّخَذْتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلًا ﴾ إذ تحس اللهفة المكروبة في هذا التمني وكيف تتعلق نفس الظالم بما فات، وكيف هيأ لهذه الصرخة الملتهبة بهذا الصوت

(1) سورة الفرقان، الآيات: 26 ـ28.

(2) الكشاف: 3 / 218.

(3) ينظر: في ظلال القرآن: 6 / 156.

المنبه بقوله (يا) وهي دعوة البعيد الذي لا يتحقق فيصبح حلماً يتمناه. ثم تتصاعد هذه الصرخة في حدتها وألمها بقوله: ﴿ يَٰوَيۡلَتَىٰ لَيۡتَنِي لَمۡ أَتَّخِذۡ فُلَانًا خَلِيلٗا ﴾ وذلك لأن الندم هناك على أنه لم يتخذ سبيل الذين آمنوا مساراً له، والندم هنا على أنه اتخذ سبيل المضلين، وهو ليس رفضاً لسبيل الذين آمنوا فحسب وإنما هو فوق ذلك معاندة له وذهاب في الوجه المقابل [1] وقوله ﴿ يَٰوَيۡلَتَىٰ ﴾ ينادي فيه ويلته يعني هلكته كما قال الزمخشري يقول لها تعالى فهذا أوانك [2]. وفلان كناية عن "كل من أطيع بمعصية وارضي بإسخاط الله" [3] وقال الزمخشري: "فكل من اتخذ من المضلين خليلاً كان لخليله اسم علم لا محالة، فجعله كناية عنه" [4]. فهي تشمل كل صاحب سوء يصد عن سبيل الرسول ويضل عن ذكر الله.

وبذلك يتجلى من خلال هذا المشهد القرآني فضلاً عن الكناية "عض اليدين" صورة نفسية بالغة التأثير تجسدها الانفعالات الظاهرة بحركاتها المضطربة الصادرة من الظالم في ذلك الموقف العصيب.

ويلحظ على هذا المشهد، مشهد الظالم يعض على يديه من الندم التطويل في عرضه حتى يخيّل للسامع أنه لن ينتهي، وذلك زيادةً في عذاب الظالم ندماً وتحسراً من جهة، ولزيادة تأثير المشهد في المتلقي [5] من جهة أخرى.

تقليب الكفّين:

وردت هذه الكناية في سياق قصة الرجلين، جعل الله لأحدهما جنتين فتكبر على الآخر واغتر بما عنده من الخير والنعيم ولم يؤمن بربه الذي وهبه هذه النعمة، فدمر الله جنتيه، وعصف بزروعها وثمارها، فأصبحت أثراً بعد عين، وذلك في قوله ـ تعالى ـ: ﴿ وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِۦ فَأَصۡبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيۡهِ عَلَىٰ مَآ أَنفَقَ فِيهَا وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَٰلَيۡتَنِي لَمۡ أُشۡرِكۡ بِرَبِّيٓ أَحَدٗا صَاحِبُهُۥ ﴾ [6].

---

(1) ينظر: دلالات التراكيب، د. محمد أبو موسى، ص 209.
(2) ينظر: الكشاف: 3 / 218.
(3) تأويل مشكل القرآن، ص 262.
(4) الكشاف: 3 / 218.
(5) ينظر: مشاهد القيامة في القرآن، ص 99.
(6) سورة الكهف، الآية: 42.

الصورة الكنائية: ﴿فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ﴾ منبثقة في معناها عن الاستعارة المكنية ﴿وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِ﴾ ومتصلة بها، لأنها تجسيد بالحركة للحالة النفسية المتأثرة بتدمير الجنتين الذي صوّرته الاستعارة بقوتها التعبيرية، فقد استعار الاحاطة "وأصله من أحاط به العدو، لأنه إذا أحاط به فقد ملكه واستولى عليه"[1] ثم حذف المستعار منه (العدو) وأبقى شيئاً من لوازمه وهي الاحاطة على سبيل الاستعارة وفي ذلك تعميق لمعنى تدمير الجنتين لأنها احاطة أتت على ثمرها وهو أنفس ما يكون في الجنتين. ثم يتصاعد مشهد الموت في تأثيره بالكناية ﴿وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا﴾ (*)، أي: "مهشمة محطمة قد سقطت السقوف على الجدران فأصبحت خراباً يباباً"[2] فهي صورة كنائية توحي بالتحطيم والموت. وصاحبها يقلب كفيه ظهراً لبطن إشارة لذلك الاحساس النفسي الذي انتابه بعد البطر والاستكبار وهو الندم والتحسر على ضياع ما أنفقه فيها من مال وجهد، فعبّر باللازم وهو تقليب الكفين وأراد الملزوم وهو الندم والحسرة[3] فتقليب الكفين أصبح عنواناً ورمزاً لهذا المعنى النفسي، وفي الكناية إيحاء لطيف يناسب السياق والحالة النفسية يتمثل في حركتها التي توحي بفراغ الكفين بعد قبضهما على شيء، أي غياب الشيء بعد حضوره، وكأن تقليبهما إعلان عن هذا، فضلاً عن الندم والتحسر عليه. كما تكشف هذه الصورة الكنائية من الجانب النفسي الضعيف في شخصية هذا النمط من البشر المشحونة بالقيم المادية باعتماده على غير الله، وترسم التحول الداخلي في هذه الشخصية من غرور النجاح إلى الشقاء والافلاس والضعة[4].

---

(1) الكشاف: 2 / 565. وينظر: الاستعارة في القرآن الكريم، ص 125.

(*) تكرر هذه الكناية في موضعين آخرين في القرآن، ينظر: سورة البقرة، الآية: 259. وسورة الحج، الآية: 345.

(2) صفوة التفاسير: 2 / 193.

(3) ينظر: القرآن والصورة البيانية، ص 169. وينظر: القرآن اعجازه وبلاغته، ص 220.

(4) ينظر: التصوير الفني في القرآن، ص 47. وينظر: البنى والدلالات في القصص القرآني، ص 325.

السقوط في اليد:

وردت هذه الكناية في سياق عبادة بني اسرائيل للعجل، قال تعالى: ﴿ وَاتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَىٰ مِن بَعْدِهِۦ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلًا جَسَدًا لَّهُۥ خُوَارٌ ۚ أَلَمْ يَرَوْا أَنَّهُۥ لَا يُكَلِّمُهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا ۘ اتَّخَذُوهُ وَكَانُوا ظَالِمِينَ ۞ وَلَمَّا سُقِطَ فِىٓ أَيْدِيهِمْ وَرَأَوْا أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّوا قَالُوا لَئِن لَّمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا وَيَغْفِرْ لَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾ [1].

﴿ سُقِطَ فِىٓ أَيْدِيهِمْ ﴾ صورة كنائية حركية تشير إلى شدة الندم والحسرة على عبادتهم العجل. قال الزمخشري: ﴿ وَلَمَّا سُقِطَ فِىٓ أَيْدِيهِمْ ﴾ ولما اشتد ندمهم وحسرتهم على عبادة العجل، لأن من شأن من اشتد ندمه وحسرته أن يعضّ يده غمّاً، فتصير يده مسقوطاً فيها لأن فاه قد وقع فيها. و ﴿ سُقِطَ ﴾ مسند إلى ﴿ فِىٓ أَيْدِيهِمْ ﴾ وهو باب من الكناية" [2] أي ندموا أشدّ الندم فسقوط الأيدي لازم له، فعبّر باللازم وأراد الملزوم.

فالكناية تصوير لتلك الحالة النفسية النادمة المتحسرة، يخرجها في صورة تتملاها العين ويتأثر بها الحس، وكأن الندم يسقط في أيديهم انعكاساً للنفس الممتلئة منه، وهذه الكناية وإن كانت تشترك مع غيرها من الكنايات التصويرية التي تشير إلى الندم والتحسّر، إلاّ أن فيها إيحاءً لطيفاً يناسب سياقها، لا تعبر عنه كناية أخرى. فالسياق سياق عبادة العجل والاشراك به، ومادة الكناية ﴿ سُقِطَ ﴾ توحي بمعناها الأصلي، وهو السقوط من أعلى إلى أسفل، جاء في أساس البلاغة: "سقط من الجبل، وسقط الشيء من يده. وهذا مسقط السوط. وهذه مساقط الغيث ومواقعه" [3]. فالكناية وإن كانت تعني في دلالتها الرئيسة السقوط النفسي المتمثل في الندم والتحسر والذي يتجسد في صورة حسية إلاّ أنّ فيها إيحاء السقوط لالههم المزعوم (العجل) من أعلى إلى أسفل في نفوسهم وفي واقعهم، وفي ذلك تتجلى السخرية منهم ومن الههم الذي لا يملك حياة ولا هداية.

وبذلك فإن الكناية تؤدي المعنى المراد خير أداء في موضعها الذي تشكلت فيه وتوحي بمعان إضافية مع السياق والهدف الذي يقصد إليه القرآن.

(1) سورة الأعراف، الآيتان: 148ـ149.

(2) الكشاف: 2 / 126. وينظر: القرآن إعجازه وبلاغته، ص 200 ـ221. وينظر: المعجزة الكبرى القرآن، محمد أبو زهرة، ص 241.

(3) ص 213 (سَقط) .

ردّ الأيدي في الأفواه:

وردت هذه الكناية في قوله ـ تعالى: ﴿ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَؤُا الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا اللَّهُ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَرَدُّوا أَيْدِيَهُمْ فِي أَفْوَاهِهِمْ وَقَالُوا إِنَّا كَفَرْنَا بِمَا أُرْسِلْتُم بِهِ وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَنَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ ﴾ (1).

الكناية المصوِّرة للمعنى في حركتها المادية الغليظة ﴿ فَرَدُّوا أَيْدِيَهُمْ فِي أَفْوَاهِهِمْ ﴾ فيها معانٍ وإيحاءات متعددة. ومن هذه المعاني ما يورده الزمخشري في تفسير: ﴿ فَرَدُّوا أَيْدِيَهُمْ فِي أَفْوَاهِهِمْ ﴾ نعضوها غيظاً وضجراً مّا جاءت به الرسل، كقوله: ﴿ إِنَّا كَفَرْنَا بِمَا أُرْسِلْتُم بِهِ ﴾ (2) أو ضحكاً واستهزاءً كمن غلبه الضحك فوضع يده على فيه، أو أشاروا بأيديهم إلى ألسنتهم وما نطقت به من قولهم: ﴿إنا كفرنا﴾ أي هذا جوابنا لكم ليس عندنا غيره، اقناطاً لهم من التصديق أو وضعوها على أفواههم يسكتونهم ولا يدرونهم يتكلمون، وقيل: الأيدي، جمع يد وهي النعمة بمعنى الأيادي، أي: ردّوا نعم الأنبياء التي هي أجل النعم من مواعظهم ونصائحهم وما أوحي إليهم من الشرائع والآيات في أفواههم، لأنهم إذا كذّبوها ولم يقبلوها، فكأنهم ردّوها في أفواههم ورجعوها إلى حيث جاءت منه على طريق المثل" (3). وقد يجوز أيضاً أن يكون المراد بهذه الكناية كما يقول الشريف الرضي: "أن الكفار كانوا إذا بدأ عليهم الرسل بالكلام سدّوا بأيديهم أسماعهم دفعةً، وأفواههم دفعة، إظهاراً منهم لقلّة الرغبة في سماع كلامهم وجواب مقالهم، ليدلّوهم ـ بهذا الفعل ـ على أنهم لا يصغون لهم إلى مقال، ولا يجيبونهم عن سؤال، إذ قد أبهموا طريق السماع والجواب، وهما الأذان والأفواه" (4). وقال بعض المحدثين "ردّوا أيديهم في أفواههم كما يفعل من يريد تمويج الصوت ليسمع عن بُعد، بتحريك كفه أمام فمه وهو يرفع صوته ذهاباً وإياباً فيتموج الصوت ويُسمع. يرسم السياق هذه الحركة التي تدل على جهرهم بالتكذيب والشك وافحاشهم في هذا الجهر، وإتيانهم بهذه الحركة الغليظة التي لا أدب فيها ولا ذوق، إمعاناً منهم في الجهر بالكفر" (5).

---

(1) سورة ابراهيم، الآية: 9.
(2) سورة آل عمران، من الآية: 119.
(3) الكشاف: 2 / 422. وينظر: المفردات، ص 280.
(4) تلخيص البيان في مجازات القرآن، ص 182.
(5) في ظلال القرآن: 5 / 141.

وكل هذه المعاني تُوحي بها الكناية وتتجمع فيها لتشير إلى إمعان هؤلاء بالتكذيب والكفر وإصرارهم وتصميمهم على مجابهة رسل الله ـ صلوات الله وسلامه عليهم ـ بالإيذاء والسخرية منهم، وهذا الإصرار منهم على الكفر والتكذيب تُوحي به الكناية فتصوره على أنه سلوك منهم دائم متكرر لأنه حركة كنائية متكررة، فالفعل (ردّ) الذي بُنيت عليه يُوحي بهذا التكرار، جاء في أساس البلاغة: "ردّد القول: كرّره، ولا خير في القول المردد. ورادّه القول راجعه إياه"[1] وقال الراغب في هذه الكناية: "واستعمال الرد في ذلك تنبيهاً أنهم فعلوا ذلك مرة بعد أخرى"[2] فيتعمق بتكرار هذا الفعل الكنائي ويتأكد المعنى المكنى عنه الذي يصمهم بالتكذيب والجهر بالكفر وإصرارهم عليه، فنفوسهم غليظة كافرة يناسبها التصوير بتلك الحركة الكنائية الغليظة.

جعل الأصابع في الآذان واستغشاء الثياب:

وردت هاتان الكنايتان في آية واحدة وصفاً لقوم نوح عليه السلام وهي قوله تعالى: ﴿ وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوٓا۟ أَصَٰبِعَهُمْ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَٱسْتَغْشَوْا۟ ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّوا۟ وَٱسْتَكْبَرُوا۟ ٱسْتِكْبَارًا ﴾[3].

ثمة تلحظ تواشج الكنايتين بحركتيهما: ﴿ جَعَلُوٓا۟ أَصَٰبِعَهُمْ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ ﴾، ﴿ وَٱسْتَغْشَوْا۟ ثِيَابَهُمْ ﴾ في تأدية المعنى النفسي المقصود على نحو فني مؤثر.

الكناية الأولى: ﴿ جَعَلُوٓا۟ أَصَٰبِعَهُمْ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ ﴾ تعبير موح يجسد حالة نفسية لقوم نوح عليه السلام بهذه الحركة المادية وهي سد آذانهم بأصابعهم كيلا يسمعوا رسولهم وما يدعوهم إليه من الهدى والنور والمغفرة. وهذا هو المعنى الظاهر الذي تدل عليه هذه الحركة الكنائية البغيضة التي تشي بسوء أدبهم وتصرفهم مع نبي الله واستهزائهم به. إلا أن هذا المعنى ليس هو المراد فحسب،وإنما المراد المعنى المكنى عنه الذي يرتبط بهذه الحركة ويلازمها وهو الحالة النفسية لقومه تجاه الداعي والدعوة ؛ وهذه الحالة النفسية تتمثل في تصميمهم على الإعراض وعدم الاستماع إلى ما يدعوهم إليه البتة. وهذا التصميم في الإعراض عن الاستماع والشدة في مكابرتهم، تُوحي به بنية الكناية، فهو لم يقُل: (يجعلون أناملهم في آذانهم) كما يقتضي التعبير في

(1) ص 159. (ردد).

(2) المفردات، ص 280.

(3) سورة نوح، الآية: 7. وينظر: سورة البقرة، الآية: 19. حيث تتكرر كناية (جعل الأصابع في الآذان). وينظر: سورة هود، الآية: 5. حيث تتكرر كناية (استغشاء الثياب).

الظاهر، لأن الأنامل (أطراف الأصابع) هي التي تُجعل في الآذان وليس الأصابع كلها، قال الزمخشري: "فهلاّ قيل أناملهم. قلت: هذا من الاتساعات في اللغة التي لا يكاد الحاصر يحصرها وأيضاً ففي ذكر الأصابع من ذكر المبالغة ما ليس في ذكر الأنامل"[1]، وهذه المبالغة تتمثل في الضغط الشديد بالأصابع على الآذان تُوحي بذلك الإعراض الشديد وصدودهم وبغضهم للدعوة وكراهتهم لها. وهم إذ قد عطّلوا سمعهم، فإنهم يعمدون إلى تغطية أنفسهم بثيابهم حتى لا يروا الداعي، فضلاً عن عدم سماعه إمعاناً في الإعراض والإستكبار، كما تصور ذلك الكناية الثانية ﴿وَٱسْتَغْشَوْاْ ثِيَابَهُمْ﴾، قال الزمخشري: ﴿وَٱسْتَغْشَوْاْ ثِيَابَهُمْ﴾ وتغطّوا بها، كأنهم طلبوا أن تغشاهم ثيابهم أو تغشيهم لئلاّ يبصروه كراهةَ النظر إلى وجه من ينصحهم في دين الله"[2]. فهم كارهون للداعي والدعوة سواء، وهم لم يكتفوا بتعطيل أسماعهم،فإنهم قد عطّلوا أبصارهم كما أوحت الكناية،ليس إبصارهم النبي نوح ﷺ ورؤيتهم في أثناء دعوتهم لهم فحسب، وإنما الكناية رامزة ودالة على تعطيل أبصارهم في المعنى الشامل للداعي والدعوة والتفكر فيما يدعوهم إليه، فهم بمنزلة من منع بصره بوصفه وسيلة للادراك والمعرفة. وبذلك تتضافر الكنايتان في التعبير فتصورهم مسلوبي وسائل الإدراك (السمع والبصر) الهادية إلى التفكير والإيمان، قال أبو حيان: "ذلك كناية عن المبالغة في إعراضهم عمّا دعاهم إليه، فهم بمنزلة من سدّ سمعه، ومنع بصره"[3] ﴿وَأَصَرُّواْ وَٱسْتَكْبَرُواْ ٱسْتِكْبَارًا﴾ أي واستمروا على الكفر والطغيان، واستكبروا عن الإيمان استكباراً عظيماً، وفيه إشارة إلى فرط عنادهم، وغلوهم في الضلال[4].

وإعراض قوم نوح ﷺ وصدودهم الذي صوّرته الكنايتان بقوتهما التعبيرية في التصوير الموحي يتعمق بالاستعارة: ﴿وَأَصَرُّواْ﴾ ؛ إذ إنّ الإصرار على الذنب من إصرار الحمار على العانة كما قال الزمخشري[5]، فقال في تفسير قوله ﷺ ﴿وَأَصَرُّواْ﴾: "الإصرار: من أصرّ الحمار على العانة إذا صرّ أذنيه وأقبل عليها يكدمها ويطردها، استعير للإقبال على المعاصي والاكباب

(1) الكشاف: 1 / 217.
(2) نفسه: 4 / 493.
(3) البحر المحيط: 8 / 338.
(4) ينظر: الكشاف: 4 / 493.
(5) أساس البلاغة، ص 252 (صرر).

عليها "[1]" والاستعارة موحية بأن قوم نـوح ﷺ كالحمير لأنهم عطّلوا وسـائل المعرفـة، ويقـوى هذا أنّ الله ﷻ شبّه أهل النار من الجن والإنس الـذين عطّلـوا وسـائل المعرفـة القلـب والعـين والأذن، فضلّوا وظلموا بالأنعام، فقال: ﴿ ...أُوْلَٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ ﴾[2].

فدلالة الاستعارة تُوحي بأن قوم نوح أشبه بالحمير الذين يركضون وراء الأنثى لطرقهـا، فاكبابهم على المعاصي كإكباب الحمار على العانة[3].

وإزاء حال قوم نوح بوصفهم الذي صوّره التصوير الكنائي والاستعاري، فـإنّ الكنـايتين فيهما إيحاء يلمح من طرف خفي، هـو تصميم النبي نوح ﷺ ومجاهدته في تبليغه الـدعوة لقومـه في كل فرصة سانحة ووقت،ليوصلها إلى أسماعهم ويواجههم مواجهة تقع عليـه أنظـارهم رغـم إصرارهم الدائم واستكبارهم الثابت.

النبذ وراء الظهور:

وردت هـذه الكناية في موطنين مـن القـرآن مختصة بـشأن اليهـود مـصوّرة لحقيقـتهم في اهمالهم البلاغ المبين وطرحه وراء ظهورهم، كما نقرأ مـن قولـه ـ تعـالى ـ: ﴿ وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُۥ فَنَبَذُوهُ وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ وَٱشْتَرَوْاْ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ ﴾[4].

التعبير ﴿ فَنَبَذُوهُ وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ ﴾ يصورهم بحـال من يطرح الشيء وراء ظهـره، وهـذا التعبير في حقيقته قائم في بنيته على الاستعارة(النبـذ) وعلـى الكنايـة ﴿ وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ ﴾ فقـد تواشجت الاستعارة والكناية في أداء الدلالة التي يهـدف إليهـا القـرآن في حركـة مـصوّرة. قـال الشريف الرضي: "والمراد: أنهم غفلوا عـن ذكـره، وتـشاغلوا عـن فهمـه، يعـني الكتـاب المنـزل عليهم، فكـان كالشيء الملقى خلف ظهر الانسان، لا يراه فيذكـره، ولا يلتفت إليـه فينظـره "[5]. والطرح والترك للشيء ليس فيه معنى (النبذ)، لأنـه لا ينبـذ إلاّ الـشيء الحقـير التافـه الـذي لا

(1) الكشاف: 4 / 493.

(2) سورة الأعراف، من الآية: 179.

(3) البُنى والدلالات في لغة القصص القرآني، ص 263.

(4) سورة آل عمران، الآية: 187. وينظر: سورة البقرة، الآية: 101.

(5) تلخيص البيان في مجازات القرآن، ص 126.

يُبالي به [1]، فالنبذ يدل على احتقارهم وسخريتهم وغفلتهم المتعمَّدة التي فيها استغناء وكراهية لكتاب الله.

فالاستعارة (النبذ) التي عدل إليها القرآن بدلاً من (الترك أو الطرح) مثلاً،هي استعارة تصريحية فيها تشبيه من يترك أو يطرح كتاب الله وراء ظهره احتقاراً له واستهانةً بمن معه شيء فنبذه وراء ظهره، فاستُعير المشبه به (المستعار منه) وحذف المشبه (المستعار له) على سبيل الاستعارة التصريحية.

فالاستعارة التي أخرجت المعنى في حركة تصويرية، موحية للنفس أشد الإيحاء ببغض اليهود وكرههم لكتاب الله، ويتصاعد هذا الإيحاء ويتعمق بالكناية ﴿وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ﴾ ، قال الزمخشري: "وراء ظهورهم مثل لتركهم وإعراضهم عنه مثل بما يرمي به وراء الظهر استغناءً عنه وقلّة التفات إليه [2]" وتقول العرب: "جعل هذا الأمر وراء ظهره أي تولى عنه معرضاً لأن ما يجعل وراء الظهر لا ينظر إليه، فهو كناية عن الإعراض عن التوراة بالكلية" [3].

فالكناية تمثيل حسي للإعراض لأن من أعرض عن شيء تجاوزه فخلفه وراء ظهره، وفي إضافة الوراء إلى الظهر تأكيد لبعد المتروك بحيث لا يلقاه بعد ذلك،فالظهر تأكيد لمعنى وراء كقول القائل: من وراءِ وراء [4] وهذا التصوير الكنائي يدع الخيال يتملى هذه الحالة الزرية الموحية بحماقتهم وغلظتهم وبشاعة تصرفهم، فضلاً عن جحودهم لكتاب الله وحجبه عن الناس.

والكناية فضلاً عن الاستعارة تنمّي إحساساً نفسياً في المتلقي وانفعالاً بغيضاً ينتاب شعوره ووجدانه تجاه اليهود، لأن الدلالة الإيحائية النفسية فيهما ترتبط بكتاب الله وهو يُنبذ وراء الظهور، ويعمق هذا الاحساس الاستعارة التصريحية ﴿وَاشْتَرَوْا بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ التي انتهت بها الآية. بالاستعارة ﴿وَاشْتَرَوْا﴾ بدلاً من (استبدلوا) تُوحي بأن هؤلاء اليهود لا يكتفون بنبذ كتاب الله وراء ظهورهم سخريةً واحتقاراً، وإنما لا يتورعون كذلك على عقد الصفقات التجارية بآيات الله عن عمد وقصد وتبجح على الله والناس لينالوا (الثمن القليل) طغياناً منهم

---

(1) ينظر: الفروق اللغوية، ص 245. وينظر: أساس البلاغة، ص 443 (نبذ).

(2) الكشاف: 1 / 300، 486.

(3) صفوة التفاسير: 1 / 84.

(4) ينظر: تفسير التحرير والتنوير: 1 / 626 ـالكتاب الثاني...

وكفراً وزيادةً في السخرية وإمعاناً في الاعتداء،فضلاً عن أن التعبير القرآني يُوحي بأن هؤلاء اليهود يرون في كتابهم شيئاً لا قيمة له في حياتهم فيستغنون عنه بالبيع وبأقل ثمن، ولا ريب أن هذه الأفعال تثير أحاسيس وانفعالات في النفس المؤمنة، فهم ينبذون العهود في كل مرة، وينبذون كتاب الله وراء ظهورهم، ويشترون به ثمناً قليلاً فبئس ما يفعلون وبئس ما يشترون.

الانقلاب على الأعقاب:

وردت هذه الكناية في سياق يُوحي بالتغليظ على المؤمنين فيما كان منهم من الفرار والانصراف عن رسول الله ﷺ من أرض المعركة في أُحُد، وذلك في قوله ـ تعالى ـ: ﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ انقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ اللَّهَ شَيْـًٔا وَسَيَجْزِى اللَّهُ الشَّٰكِرِينَ ﴾ [1].

الكناية التصويرية: ﴿ انقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ ﴾ تصور المعنى النفسي في صورة حسية مؤثرة في النفس، وهي تتمثل في هذا المشهد الحسي المنظور المتمثل في هذه الحركة العنيفة السريعة في أرض المعركة. والمعنى القريب للكناية هو: الانصراف عن رسول ﷺ والانكشاف عنه في المعركة [2]. قال الراغب: "قلب الشيء: تصريفه وصرفه عن وجه إلى وجه. كقلب الثوب، وقلب الانسان، أي صرفه عن طريقته. والانقلاب: الانصراف" [3]. إلاّ أنّ الكناية تدعنا نتخيل حركة عنيفة تتمثل في الانقلاب على الأعقاب في حركة نصف دائرية يميناً وشمالاً فتشير إلى المعنى المُكنى عنه بحيوية وقوة تأثير: وهو الحركة النفسية العنيفة في أرض المعركة التي انتابت نفوس المؤمنين وقلوبهم فزلزلتها خوفاً وهلعاً فانقلبوا منهزمين. ويتبدى جمال الكناية فنياً في اتساقها بحركتها العنيفة الغليظة المصورة للهزيمة النفسية مع جو معركة أُحُد الذي جاءت فيه والتي كان وقعها عنيفاً شديداً على قلوب المؤمنين ونفوسهم.

والكناية ذات بعد شامل في معناها يتجاوز الهزيمة في أرض المعركة إلى معنى الارتداد عن الدين. جاء في التفسير: ﴿ انقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ ﴾ من قبيل المثل تضرب لمن رجع عن الشيء بعد الاقبال عليه والأحسن أن تكون عامة تشمل الارتداد عن الدين الذي جاهر بالدعوة إليه بعض

(1) سورة آل عمران، الآية: 144. وينظر: سورة البقرة، الآية: 143.

(2) ينظر: الكشاف: 1 / 468. والمفردات، ص 620.

(3) المفردات، ص 620.

المنافقين، والارتداد عن العمل كالجهاد ومكافحة الأعداء وتأييد الحق "[1]" ويتأكد هذا البُعد الشامل للكناية حين أحسّ عدد من المسلمين في معركة أُحُد أنْ لا جدوى من قتال المشركين، حين هتف الهاتف: أنّ محمداً قد قُتِلَ، وظنّوا أن بموته نهاية أمر هذا الدين، ونهاية أمر الجهاد للمشركين. وهذا الهاتف، وما أطلق من أراجيف في أرض المعركة كانت من قول المنافقين.. وارتياب المؤمنين وحركتهم النفسية تجسمها الكناية، فتصورها حركة ارتداد على الأعقاب، كارتدادهم في المعركة على الأعقاب [2].

تنكيس الرؤوس:

تأتي هذه الكناية في موضعين، أحدهما في مشهد من مشاهد يوم القيامة وصفاً لحال المجرمين وهم ناكسو رؤوسهم عند ربهم ﷺ في قوله ـ تعالى ـ: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلْمُجْرِمُونَ نَاكِسُوا۟ رُءُوسِهِمْ عِندَ رَبِّهِمْ رَبَّنَآ أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَٱرْجِعْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ﴾ [3].

الصورة الكنائية الحركة ﴿نَاكِسُوا۟ رُءُوسِهِمْ﴾ ينطوي تحتها معانٍ وإيحاءات فهي تشير إلى خزي المجرمين واعترافهم بالخطيئة والإقرار بالحق الذي جحدوه في حياتهم الدنيا [4] هي تجسيد للحالة النفسية العصيبة في موقفهم هذا، وهي دالة على الذل والانكسار، والندم والخجل مّما أجرموا، فيطلبون العودة إلى الأرض لإصلاح ما فات في الحياة الأولى وقد فات الأوان، وهذا الموقف النفسي للمجرمين يعظمه المشهد ويعمقه بحذف جواب (لو)، وذلك ليترك لخيال المتلقي أن يتصوره، ولتذهب فيه نفسه كل مذهب في تقديره، قال الزمخشري: "لو الامتناعية قد حذف جوابها، وهو: لرأيت أمراً فظيعاً. أو: لرأيت أسوأ حال ترى" [5]، فحذفه أبلغ من ذكره في وصف حال المجرمين في هذا الموقف العظيم عند ربهم، لأن في ذكر الجواب تضييقاً له وتحديداً، فهو موقف مروّع عصيب على المجرمين الذين كانت رؤوسهم شامخة في الدنيا لا تسمع قول الحق ولا تبصر طريق الهدى، فهاهم منكسة رؤوسهم ذلاً وانكساراً، وهم الآن فقط يسمعون

---

(1) المنار: 4/ 161.

(2) ينظر: في ظلال القرآن: 2/ 94. وينظر: الكشاف: 1/ 468.

(3) سورة السجدة، الآية 12. وينظر الموضع الآخر: سورة النساء، الآية 65 في سياق قصة سيدنا ابراهيم ﷺ مع قومه.

(4) ينظر: في ظلال القرآن: 6/ 516.

(5) الكشاف: 3/ 403.

ويبصرون في موقف العذاب والخزي والهوان، والآن يدعون ويستغيثون ـ حين لا ينفع الدعاء ولا تنجي الاستغاثة ﴿ رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَارْجِعْنَا ... ﴾ أي: "أبصرنا صدق وعدك ووعيدك وسمعنا منك تصديق رسلك أو كنّا عمياً وصماً فأبصرنا وسمعنا ﴿ فَارْجِعْنَا ﴾ إلى الدنيا"[1].

فهم كانوا عمياً وصماً في الحياة الدنيا كما يشهدون على أنفسهم، فيشمخون برؤوسهم ويتكبرون، لأنهم عطّلوا وسائل المعرفة الدّالة إلى الحق والنور والهُدى، فمالوا برؤوسهم عن الحق تكبراً وخيلاء، فجاءت الصورة الكنائية لتصور تلك الرؤوس مطأطأة خاضعة مطرقة ولتدل على جزائهم من جنس عملهم.

ويقدم لنا القرآن نمطاً من هؤلاء بالمادة الكنائية نفسها، تصور موقفهم في الحياة الدنيا من الإيمان والهدى بعد لزوم الحجة والبيان في قصة سيدنا ابراهيم ﷺ مع قومه بعد تكسيره الأصنام، فجادلوه بالباطل ليدحضوا به الحق، وذلك في قوله ـ تعالى ـ: ﴿ قَالُوٓا۟ ءَأَنتَ فَعَلْتَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَا يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ۞ قَالَ بَلْ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا فَسْـَٔلُوهُمْ إِن كَانُوا۟ يَنطِقُونَ ۞ فَرَجَعُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ فَقَالُوٓا۟ إِنَّكُمْ أَنتُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ۞ ثُمَّ نُكِسُوا۟ عَلَىٰ رُءُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَٰٓؤُلَآءِ يَنطِقُونَ ﴾[2].

فالكناية ﴿ نُكِسُوا۟ عَلَىٰ رُءُوسِهِمْ ﴾ صورة حركية عنيفة، إذ الانقلاب على الرؤوس، قال الزمخشري: "نكسته: قلبته فجعلت أسفله أعلاه. وانتكس: انقلب"[3] فهم قد قلبوا على رؤوسهم حقيقةً بما بهتهم به ابراهيم ﷺ"فما أحاروا جواباً إلاّ ما هو حجة عليهم"[4]، فتشير هذه الحركة إلى ما أنتاب نفوسهم من خجل وانكسار عند لزوم الحجة،فالحركة الكنائية تصوير لانتكاسهم النفسي بعد أن أذعنوا، "استقاموا حين رجعوا إلى أنفسهم وجاءوا بالفكرة الصالحة، ثم انتكسوا وانقلبوا عن تلك الحالة، فأخذوا في المجادلة بالباطل والمكابرة،أو انتكسوا عن كونهم مجادلين لإبراهيم ﷺ مجادلين عنه، حين نفوا عن أصنامهم القدرة على النطق"[5]. واستقامتهم حين رجعوا إلى أنفسهم تصوره الآية: ﴿ فَرَجَعُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ فَقَالُوٓا۟ إِنَّكُمْ أَنتُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾ فهم يشهدون على أنفسهم بالظلم بعبادة هذه الأصنام، وهي رجعة إلى الفطرة والاستقامة فيلحقهم

(1) نفسه: 3/ 403.
(2) سورة الأنبياء، الآيات: 62 ـ65.
(3) الكشاف: 3/ 98. وينظر: أساس البلاغة، ص 472 ـ473 (نكس).
(4) الكشاف: 3/ 98. وينظر: تلخيص البيان في مجازات القرآن، ص 231.
(5) الكشاف: 3/ 98.

من الخضوع والاستكانة والاطراق للحق والمنطق الذي مع نبيهم ابراهيم ﷺ ولكنهـا رجعـة لا تدوم،فانقلبوا متكسين يجـادلون ويكـابرون بتلـك القـوة والـشدة الـتي أوحـت بهـا الكنايـة في صورتها الحركية القوية العنيفة.

تسوية الأرض بالكافرين:

تجلّي هذه الكناية حالة نفسية للكافرين في مشـهد مـن مشاهد يـوم القيامة وهـو في قولـه ـ تعالى ـ: ﴿ يَوْمَئِذٍ يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَعَصَوُا الرَّسُولَ لَوْ تُسَوَّىٰ بِهِمُ الْأَرْضُ وَلَا يَكْتُمُونَ اللَّهَ حَدِيثًا ﴾ [1].

﴿ لَوْ تُسَوَّىٰ بِهِمُ الْأَرْضُ ﴾ كناية جاءت بأسلوب التمني بـ ﴿ لَوْ ﴾ الـتي يـزداد بهـا المُتَمَنّى بُعداً تُبْرِز شعور اللهفة اليائس [2] للكافرين في موقفهم العصيب الذين يتمنون فيه لما يرون مـن أهواله أن تسوى بهم الأرض فيختفوا عـن الأنظار،قـال الزمخـشري: "﴿ لَوْ تُسَوَّىٰ بِهِمُ الْأَرْضُ ﴾ لـو يدفنون فتسوى بهـم الأرض كمـا تُـسوى بـالموتى، وقيـل يـودون أنهـم لم يبعثـوا وأنهـم كـانوا والأرض سواء، وقول تصير البهائم تراباً فيودون حالها"[3].

هذا هو المعنى القريب الذي تدل عليه الكناية، أما المعنى المُكنى عنه الـذي أشـارت إليـه فضلاً عن شدة الأمر عليهم وهوله فإنه تصوير لحالتهم النفسية المتلبثة خجـلاً وندامـةً، وخزيـاً ومهانةً في ساحة العرض بمشهدها العظيم الذي تشهده الرسل والأمم، كما أخبر قبـل الكنايـة: ﴿ فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰؤُلَاءِ شَهِيدًا ﴾ [4] فهـم مكـشوفون في ساحة العرض لا تخفى منهم خافية، والشهيد حاضر يشهد عليهم بما فعلوا وهـو نبـيهم [5] فمـا يصنع هؤلاء الكافرون في هذا الموقف الذي كانوا به لا يؤمنون؟. إنّ جمال التعبير الكنـائي هنـا يتمثل في عمق الظلال النفسية والشعورية التي يجلّيها، والجمال الذي يفتحه لتأمل بواطن الـنفس، وخلجات الحس، في هذا الموقف الذي يقفه الكافرون، والهول النفسي الذي يعانون مـن خجـل وخزي وندامة[6].

---

(1) سورة النساء، الآية: 42.
(2) ينظر: دلالات التراكيب، ص 211.
(3) الكشاف: 1/ 528. وينظر: صفوة التفاسير: 1/ 276. وينظر: تفسير التحرير والتنوير: 5 / 59.
(4) سورة النساء، من الآية: 41.
(5) ينظر: الكشاف: 1 / 527.
(6) ينظر: مشاهد القيامة في القرآن، ص 207 ـ208.

خضوع الأعناق:

وردت هذه الكناية في قوله ـ تعالى ـ خطاباً للرسول ﷺ: ﴿ لَعَلَّكَ بَٰخِعٞ نَّفۡسَكَ أَلَّا يَكُونُواْ مُؤۡمِنِينَ ۞ إِن نَّشَأۡ نُنَزِّلۡ عَلَيۡهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ءَايَةٗ فَظَلَّتۡ أَعۡنَٰقُهُمۡ لَهَا خَٰضِعِينَ ﴾ (1).

جاء في التفسير: "... لعل: للاشفاق، يعني أشفق على نفسك أن تقتلها حسرةً على ما فاتك من اسلام قومك ﴿أَلَّا يَكُونُواْ مُؤۡمِنِينَ﴾ لئلا يؤمنوا، أو لامتناع إيمانهم، أو خيفة أن لا يؤمنوا، (آية) أراد: آية ملجئة إلى الإيمان قاصرة عليه.." (2).

والكناية ﴿فَظَلَّتۡ أَعۡنَٰقُهُمۡ لَهَا خَٰضِعِينَ﴾ ذات تشكيل فني في التعبير عن المعنى المقصود. وقد لحظ الزمخشري ذلك فقال: "فإن قلت: كيف صحّ مجيء خاضعين خبراً عن الأعناق قلت: أصل الكلام: فظلّوا لها خاضعين، فاقحمت الأعناق لبيان موضع الخضوع" (3) وهذا الاقحام للأعناق في الصورة ومجيء ﴿خَٰضِعِينَ﴾ خبراً عنها، أعطى الصورة الكنائية حيويتها وقوة تأثيرها صورةً ومعنىً لتأكيد دلالة القسر والقهر في خضوع أعناقهم كرهاً بآية تقسرهم على الإيمان قسراً فيتجلى منها المعنى المكنى عنه المتمثل في ذلّهم وهوانهم، لأن أعناقهم خاضعة لا تستطيع حركة في هيئتها التي رسمتها الكناية، فهم عليها مقيمون ثابتون.

ولا يخفى ما في هذه الصورة الكنائية من تسلية للرسول ﷺ وتسرية عنه ممّا كان يعانيه من تكذيب قومه، وهو يحرص على إيمانهم وهداهم.

بلوغ القلوب الحناجر:

وردت هذه الكناية في موضعين من القرآن، الأول في سياق معركة (الأحزاب) في قوله ـ تعالى ـ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَةَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ إِذۡ جَآءَتۡكُمۡ جُنُودٞ فَأَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمۡ رِيحٗا وَجُنُودٗا لَّمۡ تَرَوۡهَاۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرًا ۞ إِذۡ جَآءُوكُم مِّن فَوۡقِكُمۡ وَمِنۡ أَسۡفَلَ مِنكُمۡ وَإِذۡ زَاغَتِ ٱلۡأَبۡصَٰرُ وَبَلَغَتِ ٱلۡقُلُوبُ ٱلۡحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا۠ ﴾ (4).

---

(1) سورة الشعراء، الآيتان: 3 ـ4.

(2) الكشاف: 3 / 235.

(3) نفسه: 3 / 235.

(4) سورة الأحزاب، الآيتان: 9 ـ10.

والموضع الثاني في مشهد من مشاهد يوم القيامة في قوله ـ تعالى ـ: ﴿ وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ الْآزِفَةِ إِذِ الْقُلُوبُ لَدَى الْحَنَاجِرِ كَاظِمِينَ مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ ﴾[1].

في الآية الأولى مهّدت كنايتان متلازمتان في معناهما لمعنى الكناية ﴿ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ ﴾ هما: ﴿ إِذْ جَاءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ ﴾ و ﴿ وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ ﴾، ﴿ إِذْ جَاءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ ﴾ كناية عن إحاطة جيش الأحزاب للمسلمين من كل جانب، وتمكنهم منهم كلّ تمكن، وكأن جيش الأحزاب بالتصوير الكنائي يتحدرون من فوق رؤوس المسلمين، وكأن الأرض تنفجر عنهم من تحت أقدامهم [2] فالكناية تصوِّر كثرتهم، فهم كالهول يحيط بالمسلمين فيكربهم فيملأ نفوسهم خوفاً ورعباً، وهو المعنى النفسي الذي تصوره الكناية الثانية في حركة عيونهم وميلانها حيرةً ودهشةً ﴿ وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ ﴾ قال الزمخشري: "﴿ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ ﴾ مالت عن سننها ومستوى نظرها حيرةً وشخوصاً. وقيل: عدلت عن كل شيء فلم تلتفت إلاّ إلى عدوّها لشدة الروع"[3]. فالتصوير الكنائي يتدرج في وصف الحالة النفسية للمسلمين فزيغ الأبصار يمثل أوّل أحوال الشدة، فالمكروب المفاجأ يرسل بصره، ويقلب محاجره، يلتفت هنا وهناك دَهِشاً حائراً، والكناية ﴿ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ ﴾ معبرة عن هذه المعاني، لأن الحيرة والدهش لازمة من لوازمها [4]. ثم تتصاعد معاني الخوف والاضطراب والفزع التي انتابت نفوسهم بالكناية ﴿ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ ﴾ فهي كناية عن شدة الخوف والفزع، حتى لكأن الخوف يتصاعد بالقلب فيعلو به إلى حيث يقذف كما تصوره الكناية، قال الزمخشري: "قالوا: إذا انتفخت الرئة من شدة الفزع أو الغضب أو الغم الشديد ربت وارتفع القلب بارتفاعها إلى رأس الحنجرة"[5]، فالكناية من لوازم هذه الأحوال النفسية.

---

(1) سورة غافر، الآية: 18.

(2) ينظر: من أسرار التعبير القرآني ـ دراسة تحليلية لسورة الأحزاب ـ، د. محمد أبو موسى، ص 47.

(3) الكشاف: 3 / 416.

(4) ينظر: من أسرار التعبير القرآني، ص 48.

(5) الكشاف: 3 / 417. وينظر: الألفاظ النفسية في القرآن الكريم ـ دراسة دلالية ـ، ص 23.

وبذلك يجسّد التعبير الكنائي المصور الحالة النفسية الفزعة المكروبة للمسلمين في مشهد من مشاهد المواجهة مع أعداء الله والمسلمين.

وممّا يصوّر شدّة الخوف والفزع التي انتابت المسلمين في هذه المعركة ويعظمها أن الكناية ترد في مشهد مشاهد القيامة، وهي مشاهد عصيبة مروّعة: ﴿ وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ الْآزِفَةِ إِذِ الْقُلُوبُ لَدَى الْحَنَاجِرِ كَاظِمِينَ مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ ﴾.

ثم نلحظ القلوب كأنما تفارق مواضعها وتبلغ الحناجر حقاً من شدة الضيق [1] والكرب بالتصوير الكنائي ﴿ إِذِ الْقُلُوبُ لَدَى الْحَنَاجِرِ ﴾ الذي يشير إلى الحالة النفسية للظالمين وما ينتابها من هلع وخوف من شدة الموقف وهوله. إلاّ أننا نلحظ تبايناً في التعبير عن المشاهد النفسية وتصويرها على الرغم من استعمال الكناية نفسها مع اختلاف في تركيبها، حيث قال هناك: ﴿ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ ﴾ وقال هنا: ﴿ إِذِ الْقُلُوبُ لَدَى الْحَنَاجِرِ ﴾، وكل من التركيبين يناسب المشهد الذي جاء فيه في إيحائه رغم اشتراكهما من حيث الدلالة العامة المكنى عنها والمتمثلة في شدة الخوف والفزع.

فشدة الموقف وهوله في مشهد القيامة أعظم على النفوس والقلوب، إذ نلحظ الظالمين في أول أهوال الآزفة قلوبهم لدى الحناجر، ثم هم ﴿ كَاظِمِينَ ﴾ أي كاظمين على قلوبهم لدى الحناجر، أو قلوبهم كاظمة على غم وكرب فيها مع بلوغها الحناجر، كلا المعنيين يحتمله حالهم ﴿ كَاظِمِينَ ﴾ [2]، فالقلوب المكروبة تضغط على الحناجر، وهم كاظمون عاجزون عن الكلام ليتروحوا، لأن الكظم هو الامساك والحبس[3]، وفي ذلك تصعيد للعذاب والغم والضيق، فليس لهم صديق يبثون له، وينفسون عن صدورهم بالبث ما تضيق به، وليس لهم من شفيع ذي كلمة مسموعة، يسعى لهم في تفريج الكرب، ورفع الحرج، وهم هنالك بين الضيق والانفراد والاهمال [4].

(1) المشاهد في القرآن الكريم، ص 383.
(2) ينظر: الكشاف: 4 / 122.
(3) ينظر: لسان العرب: 12 / 519 ـ520 (كظم).
(4) مشاهد القيامة في القرآن، ص 141.

شخوص الأبصار والاهطاع وإقناع الرؤوس:

كانت الرؤوس منكّسة إلى أسفل في الكناية السابقة، أما هنا فإن رؤوس الظالمين مرفوعة إلى أعلى قصراً كما تُصورها الكنايات الثلاث المتتابعة في هذا المشهد من مشاهد يوم القيامة في قوله ـ تعالى ـ: ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ غَٰفِلًا عَمَّا يَعْمَلُ ٱلظَّٰلِمُونَ ۚ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ ٱلْأَبْصَٰرُ ۞ مُهْطِعِينَ مُقْنِعِى رُءُوسِهِمْ لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ ۖ وَأَفْـِٔدَتُهُمْ هَوَآءٌ ﴾ [1].

تضافرت ثلاث كنايات في تصوير الحالة النفسية للظالمين في هذا الموقف العصيب،ويمكن تتبع حالهم مشهداً مشهداً حتى تكتمل الصورة الكلية في أداء المعنى المقصود.

الظالمون مؤخرون إلى اليوم الذي هم فيه موعودون: ﴿إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ ٱلْأَبْصَٰرُ ﴾ فهو يوم رهيب تكون فيه أبصار الظالمين شاخصة، أي: "تظل مفتوحة مبهوتة لا تطرف ولا تتحرك"[2]، وذلك كناية عن شدة الخوف والهلع الذي يأخذ أنفسهم فهم ذاهلون، ويتعمق هذا الذهول من الخوف بكنايتي (الاهطاع واقناع الرؤوس): ﴿مُهْطِعِينَ مُقْنِعِى رُءُوسِهِمْ ﴾ مهطعين: أي ماشين سريعاً مادي أعناقهم، وهي مشية المذعور غير ملتفتين إلى شيء[3] وقال الراغب: "هطع الرجل ببصره إذا صوّبه. وبعير مهطع: إذا صوّب عنقه"[4] فهم قد مدّوا أعناقهم إلى الداعي مسرعين يقادون كما تُقاد الدواب من أعناقها، ورؤوسهم مرفوعة إلى أعلى كما دلّت الكناية ﴿مُقْنِعِى رُءُوسِهِمْ ﴾ أي: "رافعيها"[5] في معناها الظاهر، ومن وراء الكنايتين (الاهطاع واقناع الرؤوس) نلمح المعنى المكنى عنه في مشهد الخوف والهلع هو السخرية من هؤلاء الظالمين،فهم كالدواب يُقادون لا كرامة لهم، وهم مرفوعة رؤوسهم على أعلى قسراً ومهانةً، فهم كانوا في حياتهم الدنيا لا ينقادون للحق ولا يستجيبون، وعطّلوا احساسهم ووعيهم بالنور والهدى، وهم في مشهدهم هذا كما تعمقه الآية وتؤكده: ﴿لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ ﴾ أي: "لا يرجع إليهم أن يطرفوا بعيونهم، أي: لا يطرفون، ولكن عيونهم مفتوحة ممدودة من غير تحريك

(1) سورة ابراهيم، الآيتان: 42 ـ43. وينظر: سورة الأنبياء، الآية 97، في كناية (شخوص الأبصار). وسورة القمر: 8، وسورة المعارج، الآية: 36. في كناية ﴿ مُهْطِعِينَ ﴾.

(2) صفوة التفاسير: 2 / 101.

(3) ينظر: تفسير التحرير والتنوير: 7 / 177. وينظر: الكشاف: 2 / 438.

(4) المفردات، ص 791.

(5) الكشاف: 2 / 438.

للأجفان أو لا يرجع إليهم نظرهم فينظروا إلى أنفسهم"[1] فهم لا حسّ لهم ولا وعي ﴿ وَأَفْـِٔدَتُهُمْ هَوَآءٌ ﴾ بهذه الصورة التشبيهية البليغة حيث شبّه قلوبهم بالهواء لفراغها، قال الشريف الرضي: "أفئدتهم لا تعي شيئاً، للرعب الذي دخلها، والهول الذي استولى عليها"[2] قلوبهم خالية من العقل لشدة الفزع[3] فهي هواء خواء.

والآية بمجملها بما فيها من ظواهر بلاغية كناية وتشبيه توصل إلى الحس مشهد الفزع والخوف والهلع الذي يأخذ الظالمين، فهم خاوون من كل وعي وإدراك، فضلاً عن السخرية بهم والذل الذي يصيبهم، فهم مرفوعو الرؤوس قسراً، يُقادون كالدواب المشدودة لا تلتفت أعينهم إلى شيء ولا تنطرف من هول ما يرون فهم ذاهلون.

خشوع الأبصار:

ترد هذه الكناية في مشاهد يوم القيامة وصفاً لحال الكافرين من ذلك قوله ـ تعالى ـ: ﴿ خُشَّعًا أَبْصَٰرُهُمْ يَخْرُجُونَ مِنَ ٱلْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُّنتَشِرٌ ۝ مُّهْطِعِينَ إِلَى ٱلدَّاعِ يَقُولُ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا يَوْمٌ عَسِرٌ ﴾[4].

الكناية: ﴿ خُشَّعًا أَبْصَٰرُهُمْ ﴾ تصور حال الكافرين عند بعثهم من قبورهم. جاء في أساس البلاغة: "وخشعت دونه الأبصار، وخشع بصره: غضّه"[5] فهم يغضون أبصارهم عند خروجهم من الأجداث لا يرفعونها إلى شيء، وذلك كنايةٌ عن ذلهم وهوانهم، قال الزمخشري: "وخشوع الأبصار: كنايةٌ عن الذلة والانخزال. لأن ذلة الذليل وعزة العزيز تظهران في عيونهما"[6] فالحالة النفسية لهم تتجسد في عيونهم فهي خاشعة ذليلة، ثم تأتي الصورة التشبيهية لتضيف ملمحاً جديداً وتزيد الصورة توضيحاً وتقريباً إلى الأذهان، فقد شبّه خروجهم من القبور بالجراد المنتشر، وفي هذا إيحاء الكثرة، فهم يخرجون جوعاً منتشرة هنا وهناك، قال الزمخشري: "الجراد مثل في الكثرة والتموج. يُقال في الجيش الكثير المائج بعضه في بعض: جاءوا كالجراد منتشر في

(1) الكشاف: 2/ 438. وينظر: التعابير القرآنية والبيئة العربية، ص 133.

(2) تلخيص البيان في مجازات القرآن، ص 185.

(3) صفوة التفاسير: 2/ 101.

(4) سورة القمر، الآيتان: 7 ـ8. وينظر: سورة القلم، الآية 43. وسورة المعارج، الآية: 44. وسورة النازعات، الآية: 9.

(5) ص، 111، مادة (خشع).

(6) الكشاف: 4/ 344. وينظر: تفسير التحرير والتنوير: 27/ 177.

كل مكان لكثرته "[1]، وهم على كثرتهم وتماوجهم وانتشارهم في كل مكان حيارى فزعين [2]، يستتر بعضهم ببعض من شدة الخوف، مسرعين مادّي أعناقهم إلى الداعي ﴿مُّهْطِعِينَ إِلَى الدَّاعِ﴾ في صورتهم الذليلة الخاشعة،يدعوهم لأمر غريب شديد ﴿يَقُولُ الْكَافِرُونَ هَٰذَا يَوْمٌ عَسِرٌ﴾ ولا يوصف اليوم بالعسر، وإنما هم أنفسهم في عسر وضيق وكرب، فهو قولٌ من أثر ما في نفوسهم من خوف وشدة، فهو مجاز عقلي باعتبار كونه يوماً لأمور عسرة شديدة من شدة الحساب وانتظار العذاب [3].

الزلق بالأبصار:

نقرأ هذه الكناية في قوله ـ تعالى ـ: ﴿وَإِن يَكَادُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَارِهِمْ لَمَّا سَمِعُوا الذِّكْرَ وَيَقُولُونَ إِنَّهُ لَمَجْنُونٌ ۞ وَمَا هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ﴾ [4].

الكناية: ﴿لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَارِهِمْ﴾ تعبير عن الحالة النفسية للكافرين تجاه الرسول ﷺ تنبعث من خلال حركة العين المحدّقة في نظرها شزراً عداوةً وبغضاء، وهي نظرات في شدتها وقوة تأثيرها تكاد تزل قدم الرسول ﷺ منها كما تصوره الكناية، قال الزمخشري: "يعني: أنهم من شدة تحديقهم ونظرهم إليك شزراً بعيون العداوة والبغضاء، يكادون يزلون قدمك أو يهلكونك، من قولهم: نظر إليّ نظراً يكاد يصرعني، ويكاد يأكلني، أي: لو أمكنه بنظره الصرع أو الأكل لفعله"[5]، وذلك لا يكون إلا نظر المقت والابغاض، وعند النزاع والخصام [6].

فالكناية تجسد الحالة النفسية للكافرين من خلال حركة عيونهم بتحديق النظر بشدة، وهي حركة قبيحة تشير إلى تلك النفوس الممتلئة عداوةً وبغضاءً وحقداً وحسداً. ولا تكفيهم تلك النظرات المسمومة في التعبير عن مشاعرهم وانفعالاتهم، بل يرافقها السب والشتم البذيء

(1) نفسه: 4/ 344.
(2) ينظر: التشبيهات القرآنية والبيئة العربية، واجدة مجيد الأطرقجي، ص 203. وينظر: التعابير القرآنية والبيئة العربية، ص 111.
(3) ينظر: تفسير التحرير والتنوير: 27/ 177 ـ178.
(4) سورة القلم، الآية: 51 ـ52.
(5) الكشاف: 4/ 478. وينظر: تلخيص البيان في مجازات القرآن، ص 343.
(6) تلخيص البيان في مجازات القرآن، ص 343.

للنيل من الرسول ﷺ ﴿ وَيَقُولُونَ إِنَّهُ لَمَجْنُونٌ ﴾ يقولون ذلك "حيرة في أمره وتنفيراً، وإلاّ فقد علموا أنه أعقلهم"[1]؛ لأن الذكر الحكيم لا يقوله مجنون، ولا يحمله مجنون[2].

فهي نفوس معاندة وقلوب متكبرة، فضلاً عن العداوة والبغضاء والحقد والحسد.

الازدراء بالأعين:

تتنوع الدلالات النفسية التي تجسدها الكناية المبنية على حركة العين، فإذا كانت الكناية السابقة جسّدت بحركتها مشاعر العداوة والبغضاء والحقد والحسد.. فإن هذه الكناية (الأزدراء بالأعين) تجسد مشاعر نفسية جديدة تنبعث من قلوب الكافرين ونفوسهم تجاه الذين آمنوا بالله ورسوله نوح ﷺ وذلك في قوله - تعالى - على لسان نوح مخاطباً قومه: ﴿ وَلَآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِى خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ وَلَآ أَقُولُ إِنِّى مَلَكٌ وَلَآ أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِىٓ أَعْيُنُكُمْ لَن يُؤْتِيَهُمُ ٱللَّهُ خَيْرًا ۖ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِىٓ أَنفُسِهِمْ ۖ إِنِّىٓ إِذًا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾[3].

الكناية: ﴿ تَزْدَرِىٓ أَعْيُنُكُمْ ﴾ "والازدراء: افتعال من زرى عليه إذا عابه، وأزرى به: قصر به، يُقال: أزدرته عينه، وأقتحمته عينه"[4]، وقال الشريف الرضي في هذه الكناية: "كما يقول القائل: أقتحمت فلاناً عيني، واحتقره طرفي. إذا قبح في منظر عينه خلقة، وصغر دمامه"[5].

فالكناية حركة عين ذميمة تجسد الحالة النفسية للكافرين تجاه المؤمنين تتمثل في احتقارهم واستصغارهم والاستهانة بهم، في حالة نفسية تسترذل المؤمنين على نحو قبيح فهي نفوس تزن الأمور بمقاييس الكفر والضلال.

قرّة العين:

تكشف هذه الكناية الحالة النفسية الراضية المطمئنة خلاف ما أدته الكنايتان السابقتان من مشاعر وانفعالات تجاه المؤمنين.. وبذلك تكون الكناية بحركة العين وسيلة تعبيرية مهمة في

---

(1) الكشاف: 4 / 478.
(2) ينظر: في ظلال القرآن: 8 / 243.
(3) سورة هود، الآية: 31.
(4) الكشاف: 2 / 305. وينظر: أساس البلاغة، ص 190 (زرى).
(5) تلخيص البيان في مجازات القرآن، ص 160.

التعبير عن الحالات النفسية المتباينة.. وقد وردت هذه الكناية في عدة مواضع، منها قوله ـ تعالى ـ: ﴿ وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا ﴾ (1).

الكناية: ﴿ قُرَّةَ أَعْيُنٍ ﴾ في سياق دعاء عباد الرحمن ربهم أن يكون أزواجهم وذرياتهم طائعين لله تقرّ بهم أعينهم، كما صوّرت الكنائية بحركتها الجميلة الوادعة ﴿ قُرَّةَ أَعْيُنٍ ﴾ أي "أجعل لنا في الأزواج والبنين مسرّة وفرحاً بالتمسك بطاعتك والعمل بمرضاتك "(2) فالكناية تعبير عن حالتهم الشعورية المتمثلة في الفرحة والمسرة (3) وفي الكناية إيحاء القرار النفسي، قال الراغب في هذه الكناية: "وقيل هو من القرار. والمعنى اعطاه الله ما تسكن به عينه فلا يطمح إلى غيره "(4) فنفوسهم مطمئنة مستقرة وهم يرون القدوة الطيبة من أصلابهم يتقون الله ويخافونه فهي الأمنية التي يطمح إليها عباد الرحمن، فالكناية تعبير عن هذا الشعور الفطري الإيماني العميق الذي يستقر في نفوس المتقين وقلوبهم، شعور الرغبة أن نعقبهم ذرية تسير على نهجهم، وأن تكون لهم أزواج من نوعهم، فتقر بهم النفوس، وتطمئن بهم القلوب.. والرغبة في أن يحس المؤمن أنه قدوة للخير، يأتمّ به الراغبون في الله المتقون ﴿ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا ﴾ وليس في هذا من أثرة ولا استعلاء فالركب كله يحدوه الإيمان والتقوى (5).

ومما سبق من كنايات نفسية يتبين أنها تعتمد على حركات حسية متباينة في تجسيد الحالات النفسية، إذ تظهر بالتصوير الحسي الحركي دخائل النفوس والمشاعر الباطنة والانفعالات النفسية المتباينة، سواء كانت الحركة الكنائية باليد أم القدم أم العين أم الرأس أم غير ذلك من أعضاء جسم الانسان، وهذه الحركة الكنائية ليست مقصودة لذاتها، وإنما هي وسيلة تعبيرية نابضة بالحياة تشير إلى دلالاتها النفسية المتباينة فتجسدها في صور حركية مرئية يتملاها الحس والوجدان، ومن ثمّ يكون تأثيرها في النفس والذهن أعمق ممّا لو جاءت في تعبيرات ذهنية مجردة.

---

(1) سورة الفرقان، الآية 74. وينظر: السور الآتية: مريم، الآية: 26. طه، الآية: 40. القصص، الآيتان: 9، 13. السجدة، الآية: 17. الأحزاب، الآية: 51.

(2) صفوة التفاسير: 2 / 372.

(3) ينظر: المصدر نفسه: 2 / 371.

(4) المفردات، ص 601.

(5) ينظر: في ظلال القرآن: 6 / 187.

الفصل الرابع

الكناية الخُلُقية

الفصل الرابع

الكناية الخُلُقية

نقصد بالكناية الخُلُقية: الكناية التي تتناول موضوعاً يتعلق بقيمة خُلُقية إيجابية كانت أم سلبية في حدود ما ورد من كنايات قرآنية احتضنت تلك الموضوعات ومنها: الغيبة والنميمة، والبخل والتبذير، والشجاعة والجبن، والتكبر والتواضع، والعفة والصبر على مغريات الحياة الدنيا.. وما إلى ذلك من موضوعات تتعلق بأخلاق الانسان وسلوكه وهو يتحرك ضمن المجتمع الذي يعيش فيه.

والقرآن حين يعرض هذه الموضوعات المهمة، فإنه غالباً لا يعرضها بتعابير ذهنية مجردة وبتقريرية مباشرة،وإنما يعرضها بالأسلوب الكنائي المصوِّر للمعنى فيكون أكثر حيوية وتأثيراً، من شأنه أن يحدث الاستجابة الشعورية والوجدانية في القارئ أو السامع وهو يتلقى هذه الموضوعات التي يهدف القرآن تثبيتها في ذهنه ونفسه أو تنفيره منها.

وقد حاولنا توزيع الكنايات الخُلُقية الى موضوعاتها التي عالجتها، فاستقلت كل كنايتين أو أكثر بموضوع خُلُقي واحد يصل إلى المُتلقي عبر فن الكناية الذي يقوم بنصيبه الفني الكامل في أداء المعاني وتصويرها خير أداء فينقل المعنى الكبير في اللفظ القليل في طريقة يعجز التعبير الحقيقي المباشر أن يؤديه كما تؤديه الكناية في المواضع التي وردت فيها، وهذا من خصائص الكناية القرآنية [1].

وهذه الخصائص الفنية للكناية القرآنية ستتجلى عند عرض الكنايات التي يتكون منها هذا الفصل بالطريقة التي عرضنا فيها الكنايات في الفصول السابقة.

أكل لحم الأخ الميت:

يعرض القرآن بالتصوير الكنائي (الغيبة) بوصفها مرضاً اجتماعياً فتّاكاً يعمل على هدم الأواصر والروابط داخل المجتمع، تلك الأواصر التي يحرص القرآن على قوتها وتماسكها، ويدل

(1) ينظر: من بلاغة القرآن، ص 226. وينظر: التعبير الفني في القرآن، د. بكري شيخ أمين، ص 201.

على بشاعة (الغيبة) وخطورتها التصوير الكنائي الذي عرضها، فهو يعرضها في صورة غاية في البشاعة والتنفير، ليحدث الاستجابة الشعورية المقصودة، وهي (الامتناع) عن الغيبة، وقد جاء المنع بصيغة النهي الحقيقي (لا يغتب) ثمّ تلتها في المعنى ذاته صورة كنائية تظل عالقة مؤثرة في ذهن المتلقي وحسّه وهو يتملّى صورتها البشعة المنفرة، وذلك في قوله ـ تعالى ـ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱجۡتَنِبُواْ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعۡضَ ٱلظَّنِّ إِثۡمٞۖ وَلَا تَجَسَّسُواْ وَلَا يَغۡتَب بَّعۡضُكُم بَعۡضًاۚ أَيُحِبُّ أَحَدُكُمۡ أَن يَأۡكُلَ لَحۡمَ أَخِيهِ مَيۡتٗا فَكَرِهۡتُمُوهُۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٞ رَّحِيمٞ ﴾ [1].

الكناية في قوله ـ تعالى ـ: ﴿ أَيُحِبُّ أَحَدُكُمۡ أَن يَأۡكُلَ لَحۡمَ أَخِيهِ مَيۡتٗا فَكَرِهۡتُمُوهُۚ ﴾ عرض للغيبة في صورة تثير الاشمئزاز والخوف في النفس[2] قلّما يصوِّر القرآن موضوعاً آخر كهذا التصوير.

وبناء الكناية قائم على التشبيه التمثيلي الضمني ومن ورائه يفهم المعنى المكنى عنه (الغيبة)، حيث شبّه المغتاب أخاه بشخص يعمد إلى أكل لحم آدمي،وليس الآدمي سوى أخيه الميت، ولم يكن الأكل عن ضرورة أو إكراه، وإنما هو أكل عن اختيار ورغبة وشهية، ووجه الشبه بين المشبه (المغتاب أخاه) وبين المشبه به (صورة الذي يأكل لحم أخيه ميتاً) واضح بيّن وهو جملة صفات أولاها الكراهية في الاثنين (الغيبة وأكل الأخ الميت)، ومن الطبيعي أن تكون الكراهية أشد في المشبه به (الأكل) لتبرز صفة المشبه بها وتتأكد، وثانية صفات وجه الشبه عدم الحضور في الاثنين (الشخص الذي وقعت عليه الغيبة، والميت)، وثالثة الصفات (النهش والتمزيق) في الاثنين، ولكن النهش في الغيبة لمعنى ذهني هو (سيرة الناس وأعراضهم) أما النهش في الأكل فهو لمادة محسوسة، ولابد أن يكون المشبه به حسياً في هذه الحالة ليخلع على المشبه العقلي ثوبه المحسوس فيحقق حضوره وفاعليته في ذهن المتلقي ونفسه.

فالتشابه واضح قريب بين الصورتين.إلاّ أن التصوير بالتشبيه له وقعه المؤثر في النفس، فمن يستطع أن يقبل على أكل لحم انسان، أخ، ميت، متفسخ للدود منه نصيب [3] فهو التبشيع والتنفير، قال ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: "الغيبة أدام كلاب الناس"[4] ويقول

(1) سورة الحجرات، الآية: 12.

(2) ينظر: البلاغة العربية ـ المعاني والبيان والبديع ـ د. أحمد مطلوب، ص 229.

(3) ينظر: التعبير الفني في القرآن، ص 201.

(4) الكشاف: 4 / 296 ـ297.

الزمخشري في هذا التصوير القرآني: "تمثيل وتصوير لما يناله المغتاب من عرض الغائب على أفظع وجه وأفحشه، وفيه مبالغات شتى: منها الاستفهام الذي معناه التقرير (*)، ومنها جعل ما هو في الغاية من الكراهة موصولاً بالمحبة. ومنها اسناد الفعل إلى أحدكم والاشعار بأن أحداً من الأحدين لا يحب ذلك. ومنها أن لم يقتصر على تمثيل الاغتياب بأكل لحم الانسان، حتى جعل الانسان أخاً. ومنها ان لم يقتصر على أكل لحم الأخ حتى جعل ميتاً، وعن قتادة: كما تكره أن وجدت جيفة مدوّدة أن تأكل منها كذلك فاكره لحم أخيك وهو حي"(1).

هذه الصورة التشبيهية تداخلت مع الصورة الكنائية في نسيج فني بديع من التعبير القرآني الكريم لتجسيد المعنى وتحصيل الاستجابة المطلوبة إذ جعلت صورة المشبه به كناية عن صفة الغيبة من نوع الاشارة المباشرة إلى الصفة المنهي عنها فيما سبق الكناية.

وبهذا التصوير القرآني للغيبة يتجلى البعد الاجتماعي، وهو بعد يحرص عليه القرآن كل الحرص، ليس في هذه الصورة الكنائية فحسب، وإنما في السورة التي انتظمت فيها، وقراءة الآية التالية للكناية نرى فيها الربط بين الغيبة والبعد الاجتماعي العام،وهي قوله ـ تعالى ـ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ وَجَعَلۡنَٰكُمۡ شُعُوبٗا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْۚ إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٞ ﴾(2).

فالآية تحصر الغرض من اختلاف النوع البشري من الذكر والأنثى، واختلاف الأماكن والشعوب والقبائل في غاية واحدة هي (التعارف) وربط الصلات الاجتماعية ـ التي تعمل الغيبة على تمزيقها ـ على كل طبقاتها ومراحلها بين الأفراد والجماعات والأمم، والجزء الأخير من الآية يشير إلى الأساس الذي ينبغي أن تقوم عليه هذه الروابط والصلات، وهو (التقوى) بكل ما تعنيه كلمة التقوى من معانٍ روحية ومعانٍ اجتماعية، إذ الميزان الوحيد للتفاضل بين الناس هو (التقوى) فالله ﷻ لا ينظرُ إلى الناس ولا يعاملهم إلاّ بهذا الميزان، وهي دعوة صريحة

(*) والبادي أن الاستفهام في الآية هو للنفي والانكار وليس للتقرير.

(1) الكشاف: 4 / 297. وينظر:: المثل السائر: 3 / 62، ومن بلاغة القرآن، ص 226.

(2) سورة الحجرات، الآية: 13. يلاحظ أن الموضوع الرئيس للسورة هو تنقية المجتمع وتنظيفه من الأمراض الاجتماعية وفي مقدمتها الغيبة.

إلى التقوى لتكون خلقاً لكل فرد، وحيث يكون الأفراد اتقياء، فستكون صلاتهم بالضرورة قائمة على التقوى، وهو الهدف الأخير في هذا المقام [1].

ومن ثم يتضح بجلاء لماذا يشدد القرآن في النهي عن (الغيبة) بذلك الأسلوب الكنائي المصوِّر لمعناها في أبشع صورة وأفحشها لينفّر النفوس منها والقلوب ولتظلّ حاضرة في الذهن والحس يتقيها الانسان المؤمن وينفرّ عنها، فإنها(ادام كلاب الناس) كما قال ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ وقد قدّم القرآن الكريم نموذجاً من هـؤلاء في صورة كنائية أخرى بالغة التأثير، نلحظ فيها (الغيبة) وهي أدام للمجرمين يقتاتون عليها أو يتلذذون بها، فتكشف عن طبيعة المجرمين الآثمين الذين اعتادوا أدام الغيبة للنيل من المؤمنين، وذلك في قوله ـ تعالى ـ: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ أَجْرَمُوا كَانُوا مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا يَضْحَكُونَ ۞ وَإِذَا مَرُّوا بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ ۞ وَإِذَا انْقَلَبُوا إِلَى أَهْلِهِمُ انْقَلَبُوا فَكِهِينَ ﴾ [2].

فقد تواشجت كنايتان في تصوير غيبة المجرمين للمؤمنين، الكناية الأولى: ﴿ يَتَغَامَزُونَ ﴾ وأصل الغمز: "الإشارة بالجفن أو اليد طلباً إلى ما فيه مُعَاب" [3] ومطعن، وغالباً ما تكون بالعين والحاجب [4]، وهي حركة كنائية لئيمة تنمّ عمّا وراءها من معنى مُكنى عنه يتمثل في (السخرية والاستهزاء) من المؤمنين لايقاع الأذى في قلوبهم، وهي في الوقت نفسه تكشف عن سوء أدب المجرمين وتجردهم من التهذيب.

ويتصاعد سوء أدبهم بالكناية الثانية ﴿ وَإِذَا انْقَلَبُوا إِلَى أَهْلِهِمُ انْقَلَبُوا فَكِهِينَ ﴾ أي مستمتعين مبتهجين، وأصل الكناية ﴿ فَكِهِينَ ﴾ من: "تفكّه القوم: أكلوا الفاكهة، وفكهتهم أنا. ومن المجاز: تفكه بكذا إذا تلذّذ به، وتركتهم يتفكهون بعرض فلان أي يتلذّذون باغتيابه، وفلانٌ فَكِهٌ بأعراض الناس" [5]. وهذا هو المعنى المُكنى عنه: اغتياب المؤمنين والاستخفاف بهم.

ونلحظ عمق الكناية في دلالتها التي تكشف عن نفوس المجرمين ومشاعرهم تجاه المؤمنين وذلك من خلال بنية الكناية على مهاد حسي هو النهم في أكل الفاكهة والتلذذ به والسعي إلى

(1) ينظر: أسلوب السخرية في القرآن الكريم، ص 178.
(2) سورة المطففين، الآيات: 29 ـ31.
(3) المفردات، ص 548.
(4) ينظر: أساس البلاغة، ص 328 (غمز). وينظر: لسان العرب: 5 / 388 (غمز).
(5) أساس البلاغة، ص 346 (فكه).

معاودته. وفي ذلك إيحاء بان نفوس المجرمين قد أصبح شغلها الشاغل هو غيبة المؤمنين، فهي الهدف الذي يحرص عليه المجرمون فيتلذذون به، ولا تتفكه النفس ولا تتلذذ إلاّ بشيء قد اعتادته ولازمته. وصورة انقلاب المجرمين على أهليهم بهذا الهدف الحقير الذي اعتادوه يصوِّر منتهى ما تصل إليه النفس من ضعف واسفاف في السلوك والأخلاق.

ومن وراء الكنايتين ﴿ يَتَغَامَزُونَ ﴾ و ﴿ فَكِهِينَ ﴾ لحس إيحاء يتمثل في قوة الشخصية المؤمنة المتزنة وهي تلقي الأذى(الغيبة) والسخرية والاستهزاء بصبر يغيظ قلوب المجرمين ونفوسهم.

حمّالة الحطب:

يرد هذا التعبير الذي يمكن حمله على الكناية، فيفهم أولاً على المعنى الحقيقي القريب، ومن ثم فهمه على المعنى الكنائي البعيد، وذلك استناداً إلى طبيعة الفن الكنائي الذي يجوز فيه ارادة المعنى الحقيقي، فضلاً عن إرادة لازم معناه مجازاً. والبادي في هذا التعبير القرآني من سورة اللهب الذي يسخر من أم جميل زوج أبي لهب سخرية لاذعة، وهو قوله ـ تعالى ـ: ﴿ وَٱمْرَأَتُهُۥ حَمَّالَةَ ٱلْحَطَبِ ۞ فِى جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍۭ ﴾[1].

البادي إرادة المعنيين الحقيقي القريب والمجازي البعيد لاتصال أحدهما بالآخر اتصالاً يُكمِّل الصورة بمعانيها وإيحاءاتها التي يهدف القرآن تأديتها في إخراج وصف أم جميل التي كانت شديدة العداوة والإيذاء للرسول ﷺ كما أخبر القرآن.

والمعنى القريب لقوله ـ تعالى ـ: ﴿ وَٱمْرَأَتُهُۥ حَمَّالَةَ ٱلْحَطَبِ ﴾ كما أشار المفسرون أن زوج أبي لهب "كانت تحمل حزمة من الشوك والحسك فتنثرها بالليل في طريق النبي ﷺ"[2] لإيذائه. ولكن صورة (حمل الحطب) تشير إلى معنى مُكنى عنه آخر هو

---

(1) سورة المسد، الآيتان: 4 ـ5.

(2) تفسير أبي السعود: 9/ 211. وينظر: الكشاف: 4/ 651. وينظر: مواهب الرحمن في تفسير القرآن: 7/ 576.

(●) النميمة: مرض اجتماعي يعمل على إثارة الفتن والعداوة والبغضاء بين أفراده. والنميمة: هي تزيين الكلام بالكذب، ونقله من قوم إلى قوم على جهة الافساد والشر. (ينظر: لسان العرب، مادة "نمم") وقد حارب القرآن هذا المرض الاجتماعي وأشار إلى خطورته، وسخر من كل همّاز مشّاء نميم. ينظر: سورة القلم، الآية: 11.

(النميمة) (*)، ويورد ابن قتيبة هذا المعنى عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ بقوله: "قال ابن عباس: الحطب: النميمة وكانت تنمُّ وتؤرِّش بين الناس. ومن هذا قيل: (فلان يحطب عليّ) إذا أغرى به، شبّهوا النميمة بالحطب، والعداوة والشحناء بالنار، لأنهما يقعان بالنميمة، كما تلتهب النار بالحطب"[1]. وقال الزمخشري: "وقيل: كانت تمشي بالنميمة. ويُقال للمشّاء بالنمائم المفسد بين الناس يحمل الحطب بينهم، أي: يوقد بينهم النائرة ويورّث الشر"[2].

وفي كِلا المعنيين القريب والمُكنى عنه البعيد الذي تُوحي به الصورة الكنائية ﴿حَمَّالَةَ الْحَطَبِ﴾ تتجلى سخرية القرآن من أم جميل بجلاء، لأن صورة حمل الحطب على الحقيقة فيها مهانة وسخرية، فالذي يجمع الحطب ويحمله عند العرب ـ عادة ـ أما العبيد الأرقاء أو الفقراء المعدمون، فجامعو الحطب ليسو من السادة، بل ليسو من أوساط الناس، وإنما هم في درجة من صغر الشأن قد يُضرب بها المثل في هذا الشأن الهيّن الصغير "وسخرية القرآن تختار هذه الصورة من الهوان الاجتماعي في نظرهم، لا لتشوه بها رجلاً، فالعمل الحلال أيّاً كان نوعه في الاسلام شرف ونوع من الجهاد، وإنما اختارت سخرية القرآن هذه الصورة لتكسر بها من شموخ أنف امرأة متعالية طاغية، تحتمي بمجد الآباء والأجداد، وتتدرع بثراء الزوج والأولاد، فتبغي على المسلمين، وتصد عن سبيل الله ودينه الحنيف، ومن الواضح أن امرأة بهذه المنزلة في قومها، وبهذه العزة في أنفها، يبلغ منها أيّما مبلغ أن تصور في صورة جامع الحطب"[3].

فصورتها مجرد حمالة حطب صورة مضحكة، فضلاً عمّا تشير إليه من خلق (النميمة) التي كانت تسعى فيها بين الناس لتأليبهم على عداوة رسول الله ﷺ وإيذائه.

وتتعمق دلالة السخرية منها بالكناية التالية: ﴿فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ﴾ أي: "في عنقها حبل من ليف قد فتل فتلاً شديداً، تُعذّب به يوم القيامة، قال مجاهد: هو طوق من حديد، وقال ابن المسيب: كانت لها قلادة فاخرة من جوهر، فقالت: واللاّت والعُزّى لأنفقنّها في عداوة محمد، فأعقبها الله منها حبلاً في جيدها من مسد النار"[4]، وهذا هو المعنى القريب الذي أشار إليه المفسرون، ولكن الآية تشير إلى معنى مُكنى عنه بعيد هو صفة الانقياد الأعمى إلى الأذى

(1) تأويل مشكل القرآن، ص 159 ـ160. وينظر: روح المعاني: 9 / 480.
(2) الكشاف: 4 / 651. وينظر: المنتخب من كنايات الأدباء وإشارات البلغاء، ص 8.
(3) أسلوب السخرية في القرآن الكريم، ص 154.
(4) صفوة التفاسير: 3 / 619. وينظر: الجامع لأحكام القرآن: 20 / 242.

والانتقام من الرسول ﷺ والمسلمين وهذا المعنى قد وصف القرآن به المشركين في مواضع أخرى [1]. والكناية جسّدت هذه الصفة بالتعبير عنها بحبل من مسد المرئي والملموس فعله ليترسخ المعنى في نفس المتلقي ويتجنب المسلم هذه الصفة.

وبالنظر إلى سورة المسد أو اللهب يتجلى ملحظ فني وجمالي للكنايتين فيها، ويحسن بنا إيرادها ليتضح ذلك: ﴿ تَبَّتْ يَدَآ أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ۞ مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُۥ وَمَا كَسَبَ ۞ سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ ۞ وَٱمْرَأَتُهُۥ حَمَّالَةَ ٱلْحَطَبِ ۞ فِى جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍۭ ﴾ إذ أنّ الكنايتين تتناسقان مع الأداء التعبيري للسورة في موضوعها وإيحاءاتها، فالسورة تجترح لعبد العُزّى زوج أم جميل اسماً جديداً على سبيل الكنية (أبو لهب)، وهي كنية يكسوها لهب ونار، وهو ﴿ سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ ﴾ ﴿ وَٱمْرَأَتُهُۥ حَمَّالَةَ ٱلْحَطَبِ ﴾ ، والحطب وقود النار. وهي ستصلاها وفي عنقها حبل من مسد، وبذلك يتجلى "تناسق في اللفظ، وتناسق في الصورة. فجهنم هنا نار ذات لهب. يصلاها أبو لهب ! وامرأته تحمل الحطب وتلقيه في طريق محمد لإيذائه (بمعناه الحقيقي أو المجازي).. والحطب مما يوقد به اللهب. وهي تحزم الحطب. فعذابها في النار ذات اللهب أن تغل بحبل من مسد. ليتم الجزاء من جنس العمل، وتتم الصورة بمحتوياتها: الحطب والحبل. والنار واللهب. يصلى به أبو لهب وامرأته حمالة الحطب" [2]. وترتسم في ذهن القارئ أو السامع صورة هذه المرأة وهي في حركة آلية دائبة تحمل الحطب وتضرم النار وتغذيها بالوقود ليستعر أوارها من دون أن تدري بأن زوجها هو الذي سيصلاها وأنها ستلحق به.

غل اليد إلى العنق وبسطها كلّ البسط :

من الكنايات المصوّرة الموحية قوله ـ تعالى ـ: ﴿ وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ ٱلْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا ﴾ [3].

حيث ينهى القرآن عن (البخل والتبذير)، ويحث على التوازن في الانفاق، والتوازن هو القاعدة الكبيرة في القرآن الكريم.قال ـ تعالى ـ: ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا ... ﴾ [4]، لذلك

---

(1) ينظر: سورة الأعراف، الآية: 179. وسورة الفرقان، الآية: 44.

(2) في ظلال القرآن: 8 / 699.

(3) سورة الإسراء، الآية: 29. وترد صورة (غل اليد) في موضع آخر من القرآن في سورة المائدة، الآية: 64، كناية عن بخل اليهود.

(4) سورة البقرة، من الآية: 143.

فكل غلوّ أو تفريط يخلّ بهذا التوازن منهيٌّ عنه. فالبخل هو تفريط. والتبذير إفراط وإسراف، وكلاهما ليس من الفضائل التي يحثّ عليها القرآن.

ويعرف الفلاسفة الفضيلة بأنها وسط بين رذيلتين [1]. فالجود يُعد فضيلة، ولكن الجموح فيه يعد رذيلة، كما أن الاقتصاد والتدبير محمود ولكن المغالاة فيه مذمومة.

وحين ينهى القرآن عن (البخل والتبذير)، فإنه لا يسلك في ذلك التعبير الذهني المجرد، وإنما ينهى عنهما قوياً مؤثراً، وهذه سمة من سمات الكناية عامة،فهي وسيلة تعبيرية محسوسة تعلق بالنفس وتثيرها لأنها تُبدي المعنى في صورة حسيّة، والصورة الحسية أكثر تأثيراً من المجردة لأنها أقرب إلى التصور وأدعى إلى التمثل في الخيال، وبذلك تكون أسرع إلى الفهم وآكد في احداث ردّ الفعل،قال عبد القاهر الجرجاني: "إنّ اثبات الصفة باثبات دليلها، وإيجابها بما هو شاهد في وجودها، آكد وأبلغ في الدعوى من أن تجيء إليها فتثبتها ساذجاً غفلاً"[2].

فالكناية ﴿ وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ ٱلْبَسْطِ ﴾ هي صورة تمثيلية حركية، مركبة من صورتين على سبيل التضاد والطباق ﴿ وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ ﴾ إزاء ﴿ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ ٱلْبَسْطِ ﴾ على سبيل(اللف والنشر)[*] المرتّب، أي عاد لفظ ﴿ مَلُومًا ﴾ إلى صورة غل اليد إلى العنق، وعاد لفظ ﴿ مَّحْسُورًا ﴾ إلى صورة بسط اليد كل البسط على الترتيب، وذلك لبيان عاقبة كل صورة تباعاً.

ولكون اليد آلة العطاء يوظفها القرآن في التعبير عن صفتي التقتير والتبذير في صورة قريبة إلى الذهن والحس. فنلحظ اليد مغلولة إلى العنق ﴿ وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ ﴾ كناية عن (البخل) [3]، إلاّ انّ هذا المعنى المكنى عنه يصل إلى المتلقي في صورة طريفة. فالبخيل في

---

(1) ينظر: الفلسفة الخُلقية نشأتها وتطورها، د. توفيق الطويل، ص 58. وينظر: تهذيب الأخلاق، يحيى بن عدي، ص 24. وينظر: المذاهب الأخلاقية الكبرى، افرانسوا غريغوا، ص 42.

(2) دلائل الإعجاز، ص 110 ـ111.

(*) اللف والنشر: أن يذكر متعدد، ثم يذكر ما لكل منهما شيئاً من غير تعيين اعتماداً على تصرف السامع في تمييز ما لكل واحد منهما، وردّه إلى ما هو له. وهو نوعان: النشر فيه على ترتيب اللّف، والنشر على خلاف ترتيب اللّف. ينظر: خزانة الأدب، ص 66. وجواهر البلاغة في المعاني والبيان والبديع، ص 376 ـ377.

(3) ينظر: من بلاغة القرآن، ص 226. وينظر: التعبير الفني في القرآن، ص 201. وينظر: البلاغة العربية ـ المعاني والبيان والبديع ـ، ص 229.

هذه الصورة الكنائية ليس هو مجرد بخيل يمنع عطاءه عن الناس في كل حين، ويكتنز ما عنده، شحيحاً على نفسه.. وإنما هو إنسان مغلول اليدين في صورة غريبة، لأن يديه ليست مغلولتين إلى أمام كما هو مألوف، وإنما يداه مغلولتان إلى عنقه فلا يستطيع حركة..إنها صورة تناسب موضوع البخل بما فيها من قوة تصوير وغرابة،وذلك لأن البخل ـ فيما يبدو ـ هو أشد ضرراً من ضدّه (التبذير)، وأكثر كرهاً إلى النفس، لذلك نجد القرآن في عدة مواضع يصف الذين يقون أنفسهم الشح بالفلاح[1]، وذلك لتجذّره في النفس والتمكّن منها، والبخل أقرب إلى الشر من(التبذير) الذي كنّي عنه بهذه الصورة ﴿وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ ٱلْبَسْطِ﴾ وهي صورة تخفّ قوتها في التصوير إزاء كناية (البخل)، وذلك لأن التبذير ـ وإن كان مذموماً ـ هو قريب في طبيعته من الخير والمنفعة.

وصورة غل اليد إلى العنق توحي بالقيد المانع من الحركة، وفي هذا إمساك عن العطاء، كما أنّ بسط اليد يُوحي بالخلو التام، وفي هذا دلالة على العطاء الكثير الذي لم يُبق شيئاً ويمكن أن نعد ذلك تلويحاً.

ثم تصور الآية ما تنتهي إليه الصورتان الكنائيتان بذلك التعقيب الموحي: ﴿فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا﴾. واللافت للنظر في هذا التعقيب قوله ﴿مَّحْسُورًا﴾ فضلاً عن ﴿فَتَقْعُدَ﴾. فمن معاني الحسير: الدابة تعجز عن السير فتقف من الإعياء والتعب، قال ابن منظور: "حَسَرت الدابة والناقة حَسْراً واستَحسَرَت: أعْيَتْ وكَلّتْ.. والعرب تقول: حَسَرْتُ الدابة إذا سيَّرْتها حتى ينقطع سَيْرُها"[2]،وهكذا(البخيل والمسرف) كلّ منهما يحسر نفسه فيقف عاجزاً متعباً، فضلاً عن أن في التعبير القرآني دلالة ساخرة من البخيل والمسرف، فكلاهما بالتصوير (قاعد): فالبخيل قاعد وكأنه ملازم للأرض كشخص مقعد، ولكنه يتلقى اللوم الذي ينهال عليه من كل جانب، والمبذر أيضاً قعيد الأرض بعد أن نفذ ماله، ويمكن أن نتمثله جالساً مطرقاً إلى الأرض، شارد الذهن، يفيض أسى وحسرةً وألماً، فلم يجد من ماله شيئاً، ولم يجد من الذين أحسن إليهم حتى المواساة،ولم يجد ممّا كان يهدف إليه من إبراز ذاته بين الناس شيئاً، بل وجدها

---

(1) ينظر: سورة الحشر، الآية: 9. وسورة التغابن، الآية: 16. وكلا الموضعين في سياق الحث على الإنفاق. أما الموضع الآخر الذي ورد فيه لفظ (الشح) فهو في سورة النساء، الآية: 128. يشمل معنى البخل في الإنفاق ومعنى آخر في سياقه (سياق الصلح بين الزوجين).

(2) لسان العرب: 4 / 188 (حسر).

أمعنت في الانزواء من حيث أراد لها الظهور"[1]. وهكذا تظل صورة البخل وصورة التبذير عالقة في الحس والوجدان تفعل فعلها، وما كان أي تعبير آخر ان يبلغ إلى الحس ما يبلغه هذا الأسلوب الكنائي.

قبض اليد:

ويصوِّر القرآن (البخل) بكناية (قبض اليد) في سياق وصف المنافقين والمنافقات، ممّا يُوحي بأن (البخل) من مقومات الشخصية المنافقة،وذلك في قوله ـ تعالى ـ: ﴿ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ بَعْضُهُم مِّنۢ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِٱلْمُنكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ نَسُوا۟ ٱللَّهَ فَنَسِيَهُمْ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴾[2].

الكناية: ﴿ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ ﴾ تضيف صفة جديدة للمنافقين تتمثل في (البخل). قال ابن قتيبة: "يمسكون عن العطية، وأصل هذا: أن المعطي بيده يمدها ويبسطها بالعطاء، فقيل لكل من بخل ومنع: قد قبض يده"[3].

والتصوير الكنائي يُوحي بقوة هذه الصفة في شخصية المنافقين وتمكنها في أنفسهم، وذلك لأن "القبض تناول الشيء بجميع الكف، نحو قبض السيف وغيره. وقبضها عن الشيء جمعها قبل تناوله، وذلك إمساك عنه، ومنه قيل لإمساك اليد عن البذل: قبض"[4] فهي حركة تشير إلى الإمساك النفسي للمنافقين (البخل) عن الإنفاق، والقبض على الشيء فيه إيحاء القوة في الإمساك،وهو إيحاء يناسب دلالة البخل المقترنة بالمنافقين، لأن النفوس المنافقة هدفها المنفعة الذاتية،لا تعرف البذل والتضحية، بل البخل من المقومات الأساس فيها، ويؤكد هذا الإيحاء ويقويه صيغة الكناية بالفعل المضارع الذي يدل على التجدد والحدوث[5] فهي صفة متجددة للمنافقين في كل وقت.

---

(1) أسلوب السخرية في القرآن الكريم، ص 184.

(2) سورة التوبة، الآية: 67.

(3) تاويل مشكل القرآن، ص 167.

(4) المفردات، ص 590.

(5) ينظر: معاني الأبنية في العربية، ص 9.

فالكناية تجسد الحالة النفسية للمنافقين المطبوعة على الشح والبخل في صورة حيّة تتمثل بحركية اليد في وضع يشي بالحرص على الشيء والامتناع عن إعطائه فضلاً عمّا قررته الآية من صفاتهم الأخرى.

النقير:

ويصوِّر القرآن بخل اليهود بكناية (النقير) في قوله ـ تعالى ـ: ﴿أَمْ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّنَ ٱلْمُلْكِ فَإِذًا لَّا يُؤْتُونَ ٱلنَّاسَ نَقِيرًا﴾ [1].

الكناية: ﴿نَقِيرًا﴾ تجلي جانباً من شخصية اليهود التي عرضها القرآن في مواضع شتى، وهنا تتجلى صفة الأثرة البغيضة، والبخل الشديد بوصفه طبيعة أصيلة دائمة، كما توحي الكناية، فالنقير أصله: "النُّكْتَةُ في ظهر النواة" [2] والنقير يُضرب به المثل في الشيء الطفيف [3] فهو رمز عن الشيء التافه الحقير الذي تضنُّ به نفسية اليهودي. فالكناية تجسد بخلهم على نحو مخصوص [*]، فهل هناك أحقر من نكتة أو نقرة في ظهر نواة تشحُّ بها النفس وتأبى أن تعطيها للناس، فالكناية على بساطتها التعبيرية تجسد المبالغة في المعنى إلى أقصى ما تكون عليه النفس من أثرة وبخل. فكيف الحال لو كان لهم نصيب من الملك؟ إذن لهلك الناس جميعاً من دون أن يعطوهم الشيء الحقير التافه ﴿نَقِيرًا﴾.

والكناية وإن كانت تقرر حقيقة الشخصية اليهودية في جانب من جوانبها، إلاّ أنها تجلي سخرية القرآن منهم في أجلى صورة وهي تدمغهم بصفة البخل، وتكشف عن حرصهم على حياة في أحقر صورة، وأن نفوسهم قد نضبت من أي باعث إنساني يحركها لإيتاء الناس شيئاً ولو كان ﴿نَقِيرًا﴾.

---

(1) سورة النساء، الآية: 53.
(2) أساس البلاغة، ص 470 (نقر).
(3) المفردات، ص 677.
(*) الملاحظ على كناية ﴿نَقِيرًا﴾ أنها لم تأتِ في القرآن كنايةً عن البخل إلاّ في هذا الموضع وصفاً لليهود فهي تختص بهم.

بل هم لا يتحرجون حتى مع الله ﷻ من قولهم الاثم في أبشع صوره كما يحكي عنهم القرآن في موضع آخر يتصل بمعنى الكناية ويقويها، وذلك في قوله ـ تعالى ـ: ﴿ وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ يَدُ ٱللَّهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا۟ بِمَا قَالُوا۟ بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَآءُ ... ﴾[1].

﴿ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ ﴾ دعاء عليهم بالبخل وإثبات هذه الصفة لديهم، لذلك فهم أبخل خلق الله لأن الدعاء من الله قضاء نافذ. قال الزمخشري: "معناه الدعاء عليهم بالبخل والنكد، ومن ثم كانوا أبخل خلق الله وأنكدهم فإن قلت: كيف جاز أن يدعو الله عليهم بما هو قبيح وهو البخل والنكد؟ قلت: المراد به الدعاء بالخذلان الذي تقسو به قلوبهم فيزيدون بخلاً إلى بخلهم ونكداً إلى نكدهم"[2]. فهي طبيعة ثابتة فيهم، إلاّ أن الكناية في تصويرها القوي بغلّ أيديهم دالة على بخلهم الشديد المتأصل في أنفسهم، فهي لا تتحرك إلى عطاء ولو كان ﴿ نَقِيرًا ﴾، وبذلك تتواشج الكنايتان في التصوير والتعبير.

منع الماعون:

ويعرض القرآن كناية أخرى عن (البخل) الذي ينشأ بسبب السهو عن الصلاة ومراءاة الناس، وذلك في قوله ـ تعالى ـ: ﴿ فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ ۝ ٱلَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ۝ ٱلَّذِينَ هُمْ يُرَآءُونَ ۝ وَيَمْنَعُونَ ٱلْمَاعُونَ ﴾[3].

﴿ وَيَمْنَعُونَ ٱلْمَاعُونَ ﴾ كناية توحي بمعان كثيرة، ومن معاني هذه الكناية ما ذكره بعض المفسرين: "الماعون: الزكاة. وعن ابن مسعود: ما يتعاون في العادة من الفأس والقدر والدلو والمقدحة. وعن عائشة: الماء والنار والملح"[4]، والكناية شاملة لهذه المعاني ودالة أيضاً على كل برٍّ يمنعه الانسان في كل صوره وأشكاله بدافع (البخل) الذي تشير إليه عبر الواسطة (منع الماعون) التي تمثل حركة حسية مجسمة يسببها البخل. وهذا البخل ناشيء كما يقرر التعبير القرآني من السهو عن الصلاة ﴿ ٱلَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ﴾ فهم لم يقيموا الصلاة على وجهها، ولو أنهم أقاموها حقاً لظهرت آثارها في السلوك والواقع، ومن هذه الآثار مد يد العون للناس.. وبذلك فإن إقامة الصلاة على وجهها الصحيح تنشيء آثارها العملية الخُلُقية الإيجابية

(1) سورة المائدة، من الآية: 64.
(2) الكشاف: 1 / 627ـ 628.
(3) سورة الماعون، الآيات: 4، 7.
(4) الكشاف: 4 / 643. وينظر: صفوة التفاسير: 3 / 609.

من خلال تنميتها بغرائز الخير وتهذيبها لغرائز الشر، التي تمثلت هنا في الكناية بصفة (البخل) بوصفه قيمة خُلُقية سلبية يُحَذِّرُ القرآن منها المؤمنين، ويشتد التحذير من هذه الصفة عندما يُكنى القرآن عنها بالفحشاء، وذلك في قوله ـ تعالى ـ في سياق حث المؤمنين على الإنفاق من طيبات ما يكسبون: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنفِقُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّآ أَخْرَجْنَا لَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَلَا تَيَمَّمُواْ ٱلْخَبِيثَ مِنْهُ تُنفِقُونَ وَلَسْتُم بِـَٔاخِذِيهِ إِلَّآ أَن تُغْمِضُواْ فِيهِ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ ۞ ٱلشَّيْطَٰنُ يَعِدُكُمُ ٱلْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِٱلْفَحْشَآءِ وَٱللَّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِّنْهُ وَفَضْلًا وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴾[1].

الآية نداء عام للمؤمنين تحثهم على الإنفاق من جميع أنواع المال الحلال الطيّب في كل صوره وأشكاله.. ويُكنى عن (البخل) بالفحشاء ﴿ ٱلشَّيْطَٰنُ يَعِدُكُمُ ٱلْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِٱلْفَحْشَآءِ ﴾. جاء في أساس البلاغة: "فلان فاحش أي بخيل، ومنه: ﴿ وَيَأْمُرُكُم بِٱلْفَحْشَآءِ ﴾"[2]. وجاء في لسان العرب: "الفحش والفحشاء والفاحشة القبيح من القول والفعل، وجمعها الفواحش.. وهو كل ما يشتد قبحه من الذنوب والمعاصي.. وكثيراً ما ترد الفاحشة بمعنى الزنا ويسمى الزنا فاحشة.. وأما قول الله ﷻ: ﴿ ٱلشَّيْطَٰنُ يَعِدُكُمُ ٱلْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِٱلْفَحْشَآءِ ﴾ قال المفسرون: معناه يأمركم بأن لا تتصدقوا، قيل: الفحشاء ههنا البخل، والعرب تُسمي البخيل فاحشاً"[3]. وجاء في التفسير: "﴿ ٱلشَّيْطَٰنُ يَعِدُكُمُ ٱلْفَقْرَ ﴾: أن السر في بخلكم بصرف الطيّب واقدامكم على صرف الردئ هو مخافة الفقر الذي أنذركم الشيطان به حيث وسوس في صدوركم أنكم إذا صرفتم الجيّد يبقى لكم الردئ.. ويأمركم بالخصلة الفحشاء، أي البخل واللّوم ومحبة الأمور العاجلة التي تكون سبباً لمباشرة المعاصي الفاحشة، ولذلك تصرفون ما لا خير فيه"[4].

فالفحشاء كناية عن (البخل) ولكنها تخرجه بظلال بشعة موحية مكتسبة من إيحاءات الكناية الدالة على ما يشتد قبحه من الذنوب والمعاصي، فيتجلى التهذيب الخُلُقي الذي تبعثه في نفوس المؤمنين فتنفّرهم أشد ما يكون التنفير من البخل والشح بوصفه معصية تفحش فتتجاوز الحد، لأنها تمنعهم من الانفاق في سبيل الله، وتبعث في نفوسهم الخوف من الفقر، أو انفاق الردئ الخبيث بدلاً من الحلال الطيّب، الخبيث الذي تعافه النفس فلا تقبله إلا على نحو

(1) سورة البقرة، الآيتان: 267 ـ268.

(2) ص 335 (فحش). وينظر: الكشاف: 1 / 396.

(3) 6 / 325 ـ326 (فحش).

(4) مواهب الرحمن في تفسير القرآن: 2 / 106 ـ107.

من التغافل والتساهل والامتعاض كما تصور الكناية هذا المعنى النفسي من خلال حركة اغماض العين [1] التي تشير إليه: ﴿وَلَسْتُم بِآخِذِيهِ إِلَّآ أَن تُغْمِضُوا۟ فِيهِ﴾.

ثم يكشف السياق القرآني عن الباعث الحقيقي الآمر بكل هذه المعاني: بخل النفس وامساكها عن الانفاق، أو انفاق الردئ الخبيث، والخوف من الفقر، يكشف عن باعثه وهو الشيطان: ﴿ٱلشَّيْطَـٰنُ يَعِدُكُمُ ٱلْفَقْرَ ...﴾، فهو الآمر بكل فحشاء.. ويتصاعد التنفير في النفوس والقلوب مّما يأمر به الشيطان ويَعِدُ.

فتحقق الكناية (الفحشاء) في سياقها الاستجابة النفسية التي يهدف القرآن إلى بعثها في قلوب المؤمنين والتي تمثلت في تجنب (البخل) بوصفه قيمة خُلُقية سلبية لا تليق بحياة المؤمنين.

تصعير الخد:

ينهى القرآن الكريم عن التكبر بوصفه سلوكاً خُلُقياً مذموماً، قال عنه علماء النفس بأنه " شعور خفي بالحاجة إلى أن تتفوق الشخصية على الآخرين، أو أن تبسط نفوذها عليهم، أو تصبح متميزة منهم بشكل أو بآخرويأتي شعور المرء بالتكبر أو العلو نتيجة إحساسه الداخلي أو الذل فيقوم بتعويض ذلك بتكلف التعالي على الآخرين " [2] ويعلل أحد المفسرين سبب ذم التكبر قائلاً: لأن المتكبر هو الذي يظهر من نفسه الكِبْر،وذلك نقص في حق الخلق، لأنه ليس له كِبْر ولا عُلُوّ، بل ليس له إلاّ الذِلّة والمسكنة، فإذا أظهر العلو كان كاذباً فكان مذموماً في حق الناس " [3].

وحين ينهى القرآن عن هذه الصفة النفسية المذمومة، فإنه يُوظِّف الأسلوب الكنائي المصوِّر للمعنى فيبرز تلك المشاعر النفسية المريضة ويجسدها في وضع ظاهر للعيان من خلال تلك الحركات المادية التي يصطنعها المتكبرون.

---

(1) ينظر: المفردات، ص 548. وينظر: الكشاف: 1 / 396.

(2) دراسات في علم النفس الاسلامي، د. محمود البستاني: 1 / 235. وينظر: الألفاظ النفسية في القرآن الكريم، ص 152.

(3) التفسير الكبير: 29 / 294.

منها كناية (تصعير الخد) الواردة في قوله ـ تعالى ـ على لسان لقمان الحكيم يعظ ابنه بالتواضع للناس ولين الجانب لهم، وينهاه عن التكبر: ﴿ وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴾ [1].

قوله ـ تعالى ـ: ﴿ وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ ﴾ كناية عن صفة التكبر، وهي تصوُّر المتكبر في صورة فنية بالغة التأثير، إذ يرتسم فيها المتكبر شخصاً مريضاً، وذلك لأن (الصعَر): "داء يأخذ البعير فيلوي منه عنقه ويُميله" [2] فهو مرض يصيب الإبل فيلوي أعناقها فتمشي معوجة العنق منقلبة الوجه إلى أحد الشقين، فهو منظر يثير العطف في المشاهد.

يعمد القرآن بهذا التصوير الكنائي إلى هذا المرض فيصم به المكتبر المتعالي المعرض بوجهه عن الناس، وهو يحسب بذلك الباعث النفسي المريض أنّ له هيبةً ومكانةً، وأن ذلك يزيده ترفعاً وجاهاً. وهو في حقيقته كما تخرجه الكناية شخص مريض، وبدلاً من أن يثير الرهبة والخوف في نفوس الآخرين يثير السخرية والإزدراء لأنه اصطنع في مظهره صورة منكرة شديد النكر.

وبذلك تكشف الكناية دلالة التنفير من هذا السلوك الاجتماعي (التكبر)، فإن النفس السوية لا ترضى أن ترتسم في هذه الصورة الزرية وهي تمشي بين الناس، كما تجلي الكناية سمة فنية للقرآن في رسم صوره، وهي توظيفه لعناصر بيئية، وذلك ليكون المشهد أقرب إلى أنفسهم، وأكثر تأثيراً في حسهم [3] كما في هذه الكناية التي يعرفها العرب في بيئتهم.

ليّ الرؤوس:

ويصور القرآن بهذه الكناية إعراض المنافقين واستكبارهم على نحو مخصوص، وذلك في قوله ـ تعالى ـ: ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ اللَّهِ لَوَّوْا رُءُوسَهُمْ وَرَأَيْتَهُمْ يَصُدُّونَ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ ﴾ [4].

---

(1) سورة لقمان، الآية: 18.
(2) لسان العرب: 4 / 456 (صعر).
(3) ينظر: التشبيهات القرآنية والبيئة العربية، ص 173.
(4) سورة المنافقون، الآية: 5.

الكناية: ﴿ لَوَّوْا رُءُوسَهُمْ ﴾ حركة مادية تجسد حالة نفسية خاصة بالمنافقين، يُقال: "الـوي الرجلُ برأسه ولَوَى رأسه: أمال وأعرض. والـوى رأسـه ولَـوّى برأسـه: أمالـه مـن جانـب إلى جانب"[1]. وقـال الزمخشري: "عطفوها وأمالوها إعراضاً عن ذلك واستكباراً.

والتشديد للتكثير"[2] والمبالغة. فهي كناية عن استكبارهم وإعراضهم عن دعـوة الرسـول ﷺ للاستغفار لهم. والكناية تـدل بالتشديد على أنهم قد اعتادوا هذه الحركة بكثرة، لأن تضعيف العين في الفعل يدل على تضعيف الفعل، أي أنهم قد كرروا هز رؤوسـهم وتحريكهـا ممـا يؤكـد دلالة استكبار المنافقين وإعراضهم فضلاً عن استهزائهم، وقد يكون المُراد تكثير محالّ الهز- وهـي الرؤوس - أي لوى جمع كثير منهم رؤوسهم استهزاءً واستكباراً[3].

التمطي:

وردت هذه الكناية في موضع واحد من القرآن في قوله ـ تعالى ـ: ﴿ وَلَٰكِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ۝ ثُمَّ ذَهَبَ إِلَىٰ أَهْلِهِ يَتَمَطَّىٰ ۝ أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰ ﴾[4].

تصوِّر الكناية مشية الإنسان الكافر الموصوف في هذا النص القرآني[*] لأن المطُّ: المدُّ، يقال: مَطَوْتُ بالقـوم مَطواً إذا مَدَدْت بهم في السـير، وتمطّى النهـار: امتدّ وطـال. وتمطّـى بهـم السفرُ: امتد وطال، وكـل شيء مَدَدْتَه فقد مَطَوْتَه، والمطيّة من الدواب: التي تمطُّ في سيرها، وهو مأخوذ من المَطْو أي المدّ: (ومن دلالة المطّ على المد جاء "التمطي" ليدل على التبختر ومد اليدين في المشي)[5]. وأصل ﴿ يَتَمَطَّىٰ ﴾: يتمطط، فقلبت الطاء فيه حرف علة كراهةَ اجتمـاع الأمثـال. ومعنى يتمطط: يتمدد لأن المتبختر يمد خطاه،وهي مشية المُعْجب بنفسه، وقيل المعنى: يمـد مطـاه

(1) لسان العرب، مادة (لوى):15 / 264.

(2) الكشاف: 4، 433.

(3) ينظـر: لغـة المنـافقين في القـرآن، د. عبـد الفتـاح لا شـين: 2 / 234. وينظـر: تفسـير التحريـر والتنوير: 28 / 244.

(4) سورة القيامة: 32ـ33.

(*) قيل أنها نزلت في أبي جهـل. ينظر: صـفوة التفاسـير: 3 / 488. ولبـاب النقـول في اسـباب النـزول / ، ص 776.

(5) ينظر: لسان العرب: 15 / 284ـ285 (مطا).

أي ظهره ويلويه من التبختر[1]. والتكلف والتصنع واضح في مشية هذا الانسان الكافر المغرور يدل على ذلك صيغة (تفعّل) التي تفيد هذا المعنى[2].

فالكناية تصوِّر التكبر المنبعث من الاعجاب بالنفس من خلال حركة الجسد كله وليس من خلال الرأس وهزه أو تصعير الخد كما في الكنايتين السابقتين، وبذلك تتعاظم دلالة كراهية هذه المشية والسخرية اللاذعة بهذا الذي يتمطى، فضلاً عن أن هذا المشهد يأتي مباشرةً بعد مشهد الاحتضار المتصل بمشهد من مشاهد يوم القيامة: ﴿ كَلَّا بَلْ تُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ ۝ وَتَذَرُونَ الْآخِرَةَ ۝ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ ۝ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ۝ وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ بَاسِرَةٌ ۝ تَظُنُّ أَنْ يُفْعَلَ بِهَا فَاقِرَةٌ ۝ كَلَّا إِذَا بَلَغَتِ التَّرَاقِيَ ۝ وَقِيلَ مَنْ رَاقٍ ۝ وَظَنَّ أَنَّهُ الْفِرَاقُ ۝ وَالْتَفَّتِ السَّاقُ بِالسَّاقِ ۝ إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمَسَاقُ ۝ فَلَا صَدَّقَ وَلَا صَلَّىٰ ۝ وَلَٰكِنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ۝ ثُمَّ ذَهَبَ إِلَىٰ أَهْلِهِ يَتَمَطَّىٰ ﴾[3].

وهذا تصوير على نسق خاص كأن ليس بينهما فاصل زمني، ذلك أنه "عرض مشهد الاحتضار المقبل، كأنه حاضر الآن! ثم جعل الحياة الحاضرة، كأنها من ذكريات الماضي ! ليرى هذا الذي التفّت منه الساق بالساق من الهول والرعب،أو من الداء والألم،وبلغت روحه التراقي، وتساءل من تساءل: ألا من راق يرقيه ويرفع عنه هذه الحال، وتوقع هو أنه مفارق هذه الدنيا وما فيها.. ليرى صورته هذه، ويستحضر في خياله صورته الأخرى. وهو يكذّب ويتولّى، ويذهب إلى أهله يتمطى، تيهاً وكبراً"[4]، فمن شأن هذا النسق الخاص للسياق القاء الضوء على هذه الشخصية المغرورة الغافلة في تبخترها واعجابها بنفسها فتتكبر وينتظرها هذا المصير الذي سيفاجئها بسرعة فهو التيه والضلال والغفلة.

ثَني العطف:

ولون آخر من ألوان التكبر في الحركة والشعور تجسده الكناية (ثني العطف) في قوله ـ تعالى ـ: ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُنِيرٍ ۝ ثَانِيَ عِطْفِهِ لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ ۖ لَهُ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ ۖ وَنُذِيقُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَذَابَ الْحَرِيقِ ﴾[5].

(1) ينظر: الكشاف: 4 / 531. والتفسير الكبير: 30 / 233.
(2) ينظر: الألفاظ النفسية في القرآن الكريم، ص 166.
(3) سورة القيامة، الآيات: 20 ـ33.
(4) مشاهد القيامة في القرآن، ص 69.
(5) سورة الحج، الآيتان: 8 ـ9.

الكناية التصويرية قوله ـ تعالى ـ: ﴿ ثَانِيَ عِطْفِهِۦ ﴾ تجسد حالة نفسية متعالية متعجرفة وذلك من خلال حركة ثني العطف. والعِطفُ: المَنْكِبُ وعِطفا الرجل: جانباه عن يمين وشمال وشِقّاه من لدن رأسه إلى وركه "[1] وهي حركة تشير إلى معنى "الكبر والخيلاء، كتصعير الخد وليّ الجيد. وقيل: الإعراض عن الذكر "[2]. وقال الراغب: "ثاني عطفه: عبارة عن التنكر والإعراض، نحو: لوى شدقه، ونأى بجانبه "[3]. فهو (التكبر) المنبعث عن الإعراض عن آيات الله، وهذا المعنى المكنى عنه هو أقرب إلى السياق.. وهو صورة من التكبر شديدة الكراهية لكونها تتعلق بآيات الله والجدال فيها بغير علم بهذا الباعث النفسي الممقوت، ولكون الثاني عطفه يجادل ﴿ يُجَٰدِلُ فِي ٱللَّهِ بِغَيۡرِ عِلۡمٖ وَلَا هُدٗى وَلَا كِتَٰبٖ مُّنِيرٖ ﴾ أي لا يستند إلى حقيقة يركن إليها، ولا حق يجادل عنه، فإنه يعوّض عن فراغه النفسي والعقلي بتلك الحركة الدالة على تكبره وإعراضه، فضلاً عن أنه مضلّ لغيره عن الهدى والكتاب المنير.

إنغاض الرؤوس:

يقدّم القرآن بهذه الكناية لوناً آخر من ألوان التكبر عن الإيمان باعثه التعجب والاستهزاء من فكرة إعادة الحياة بعد الموت وذلك في قوله ـ تعالى ـ: ﴿ وَقَالُوٓاْ أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمٗا وَرُفَٰتًا أَءِنَّا لَمَبۡعُوثُونَ خَلۡقٗا جَدِيدٗا ۞ ۞ قُلۡ كُونُواْ حِجَارَةً أَوۡ حَدِيدًا ۞ أَوۡ خَلۡقٗا مِّمَّا يَكۡبُرُ فِي صُدُورِكُمۡۚ فَسَيَقُولُونَ مَن يُعِيدُنَاۖ قُلِ ٱلَّذِي فَطَرَكُمۡ أَوَّلَ مَرَّةٖۚ فَسَيُنۡغِضُونَ إِلَيۡكَ رُءُوسَهُمۡ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هُوَۖ قُلۡ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ قَرِيبٗا ﴾[4].

في النص الكريم كنايتان، الأولى: قوله: ﴿ ۞ قُلۡ كُونُواْ حِجَارَةً أَوۡ حَدِيدًا ﴾ والثانية: ﴿ فَسَيُنۡغِضُونَ إِلَيۡكَ رُءُوسَهُمۡ ﴾ قال الزمخشري: "لما قالوا: أئذا كنا عظاماً قيل لهم ﴿ كُونُواْ حِجَارَةً أَوۡ حَدِيدًا ﴾ فردّ قوله: كونوا، على قولهم: كنّا، كأنه قيل: كونوا حجارةً أو حديداً ولا تكونوا عظاماً، فإنه يقدر على إحيائكم والمعنى: أنكم تستبعدون أن يجدّد الله خلقكم، ويردّه إلى حال الحياة وإلى رطوبة الحس وغضاضته بعدما كنتم عظاماً يابسة، مع أن العظام بعض أجزاء الحي، بل هو عمود خلقه الذي يُبنى عليه سائره، فليس ببدع أن يردّها الله بقدرته إلى حالتها الأولى، ولكن لو كنتم أبعد شيء من الحياة ورطوبة الحي ومن جنس ما ركب منه البشر، ــ وهو أن

(1) لسان العرب، مادة (عطف): 9 / 250. وينظر: المفردات، ص 506.

(2) الكشاف: 3 / 115.

(3) المفردات، ص 111.

(4) سورة الإسراء، الآيات: 49 ـ 51.

تكونوا حجارةً يابسة أو حديداً مع أن طباعها الجسارة والصلابة ـ لكان قادراً على أن يردكم إلى حال الحياة ﴿ أَوْ خَلْقًا مِّمَّا يَكْبُرُ فِي صُدُورِكُمْ ﴾ يعني أو خلقاً ممّا يكبر عندكم عن قبول الحياة ويعظم في زعمكم على الخالق احياؤه فإنه يحييه "[1]. وهؤلاء الكافرون لا يملكون أن يكونوا حجارة أو حديداً، ولكنها كناية تشير إلى معنى التحدي والتعجيز لهم، فضلاً عن توبيخهم وتقريعهم، لأن الكناية بالحجارة والحديد وهما من الجماد الذي لا يحس ولا يشعر فيهما إيحاء إلى ما في انكارهم للحياة بعد الموت كما أفاد الاستفهام الإنكاري بالهمزة: ﴿ أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمًا وَرُفَٰتًا ... ﴾ من جمود أو تحجر، أو أكبر من هذا الإيحاء وأعمق كما أفاد التعبير بعد الكناية ﴿ أَوْ خَلْقًا مِّمَّا يَكْبُرُ فِي صُدُورِكُمْ ﴾ والذي يُوحي بتطاولهم واستهزائهم وتكبرهم كما تجسده الكناية ﴿ فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُءُوسَهُمْ ﴾ وهي كناية حركية بتلك الرؤوس المتعجبة المستهزئة والتي تحمل ذلك التصوّر المتحجّر الجامد، قال الفرّاء: "يُقال أنغض فلان رأسه إذا حركه إلى فوق وإلى أسفل[2] كالمتعجب من الشيء"، وقال الزمخشري: ﴿ فَسَيُنْغِضُونَ ﴾ فسيحركونها نحوك تعجباً واستهزاءً"[3]. فالمكنى عنه هو: التعجب والاستهزاء المنبعث عن تلك الحالة النفسية المتكبرة عن الإيمان المستكبرة، وتتصاعد دلالة الانكار وتتعمق بالاستفهام بالأداة متى ﴿ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هُوَ ﴾ الذي أفاد الانكار والاستبعاد لليوم الذي يُبعث فيه الموتى للحياة والحساب والجزاء.

الإعراض والنأي بالجانب:

تصوّر هذه الكناية تكبر الانسان حين النعمة والرخاء، ويأسه وقنوطه حين الشدة، نقرأ ذلك في قوله ـ تعالى ـ: ﴿ وَإِذَآ أَنْعَمْنَا عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ أَعْرَضَ وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦ ۖ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ كَانَ يَـُٔوسًا ﴾ [4].

الكناية في ـ تعالى ـ: ﴿ أَعْرَضَ وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦ ﴾ والإعراض والنأي بالجانب حركة يُراد منها ما تشير إليه من معنى الاستكبار وباعثه الطغيان. وفي الكناية تأكيد لهذا المعنى المكنى عنه، لأن ﴿ وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦ ﴾ تأكيد للإعراض، قال الزمخشري: "الإعراض عن الشيء أن يوليه عرض وجهه. والنأي بالجانب: أن يلوي عنه عطفه ويوليه، وأراد الاستكبار، لأن ذلك من عادة المستكبرين"

---

(1) الكشاف: 2 / 524. وينظر: صفوة التفاسير: 2 / 163 ـ164.

(2) التفسير الكبير: 20 / 226.

(3) الكشاف: 2 / 524. وينظر: صفوة التفاسير: 2 / 164.

(4) سورة الاسراء، الآية: 83.

[1]، فالكناية تكشف عن صفة من صفات النفس المستكبرة في حين النعمة من صحة وسعة في الرزق.. فتتصور هذه النفس أنها مستغنية عن الله مستبدة بنفسها، فهي نفس معرضة لا تذكر ولا تشكر، بل هي تطغى وتبطر وتستكبر.. والجزء الأخير من الآية يكشف عن الجانب الآخر المضاد لهذه الحالة النفسية: ﴿وَإِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ كَانَ يَـُٔوسًا﴾ حين الشدة من فقر أو مرض أو نازلة من النوازل ﴿كَانَ يَـُٔوسًا﴾ شديد اليأس من روح الله [2].

ونلمح في حالة يائسة حين الشدة والبلاء حركة خفية تقابل حركته عند تكبره وبطره، حركة نلمحه فيها مطأطأ الرأس مخفوض الجانب من شدة اليأس والقنوط. فهذا الإنسان في الحالتين: حالة الاستكبار، وحالة اليأس والقنوط مجانب لطريق الله، طريق الهدى.

وبذلك تلمح الآية بمجملها إلى قيمة الإيمان بالله والاتصال به في الحالتين، فهو رحمة في السراء والضراء على حد سواء.

ونلحظ في الحالتين النفسيتين المتقابلتين على التضاد في هذا النمط من البشر، أن التأكيد والقوة في التعبير تجلّى في التعبير الكنائي عن حالة الاستكبار المنبعثة عن طغيان الإنسان حين النعمة والرخاء أكثر من الحالة الثانية في التعبيرعن اليأس والقنوط حين الشدة والابتلاء، فالقوة التعبيرية في الكناية تمثلت في:

1 ـ تصوير المعنى المكنى عنه بحركة مادية حسية، والتصوير الحسي للمعنى أكثر تأثيراً من التعبير الذهني المجرد، شأنه شأن من يأتي ببيّنة على ما ادعى.

2 ـ تأكيد حركة الاعراض بقوله: ﴿وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦ﴾. مما دلّ على تغلغل هذه الحالة الشعورية وتمكنها من النفس. وهذا لا نجده في الحالة المقابلة لها.

وبذلك تتجلى دقة التعبير القرآني في الكشف عن أسرار النفس الإنسانية في تأثراتها وتقلباتها واظهارها بشكل محسوس، فالله الذي خلق النفس الإنسانية هو أعلم بها من حاملها، ويعلم أي الأشياء ترغبها وتنجذب إليها، وأيها مدعاة للنفور والرهبة.. ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِۦ نَفْسُهُۥ ۖ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ﴾ [3].

(1) الكشاف: 3 / 538.
(2) ينظر: المصدر نفسه: 2 / 538.
(3) سورة ق، الآية: 16.

المشي على الأرض هوناً:

يقدم القرآن بهذه الكناية صورة وضيئة في معانيها وإيحاءاتها تقف على التضاد من الصور الكنائية السابقة التي أشارت إلى ألوان من التكبر على الناس والاستكبار والإعراض عن آيات الله.

هذه الكناية تصوِّر خُلُقاً إيجابياً من أخلاق المؤمنين وهم يمشون بين الناس كما يصفهم بقوله ـ تعالى ـ: ﴿ وَعِبَادُ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمۡشُونَ عَلَى ٱلۡأَرۡضِ هَوۡنٗا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلۡجَٰهِلُونَ قَالُواْ سَلَٰمٗا ﴾ (1).

والكناية ﴿ يَمۡشُونَ عَلَى ٱلۡأَرۡضِ هَوۡنٗا ﴾ تتكثف الدلالة فيها بالصفة ﴿ هَوۡنٗا ﴾ فهي تشير إلى معنى الرفق الذي يتحلى به هؤلاء الموصوفون بأنهم ﴿ وَعِبَادُ ٱلرَّحۡمَٰنِ ﴾ بهذه الإضافة التي ترفعهم وتخصصهم. قال الزمخشري: "﴿ هَوۡنٗا ﴾ حال، أوصفه للمشي، بمعنى: هينين. أو: مشياً هيِّناً، إلاّ أن وضع المصدر موضع الصفة مبالغة. والهون: الرفق واللين" (2). والمعنى المكنى عنه: السكينة والوقار والتواضع (3) فهم لا يضربون الأرض بأقدامهم ولا يثنون أعطافهم ويلوون رؤوسهم.. وإنما هو اللين والتواضع يتجسد في مشيتهم على الأرض برفق، فهم عباد الرحمن وإليه ينتسبون، تفيض من نفوسهم الرحمة بالناس والمغفرة لهم ﴿ وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلۡجَٰهِلُونَ قَالُواْ سَلَٰمٗا ﴾ أي: "قالوا سداداً من القول يسلمون فيه من الإيذاء والاثم. والمراد بالجهل: السفه وقلّة الأدب" (4) فهو الحلم والأدب والصفح الجميل الذي يتصف به عباد الرحمن.

تثبيت الأقدام:

يصوِّر القرآن بهذه الكناية الصمود والنصر الذي يمنحه الله لعباده المؤمنين الذين ينصرون الله ﷻ وذلك في قوله ـ تعالى ـ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرۡكُمۡ وَيُثَبِّتۡ أَقۡدَامَكُمۡ ﴾ (5).

(1) سورة الفرقان، الآية: 63.
(2) الكشاف: 3 / 229.
(3) ينظر: المصدر نفسه: 3 / 203.
(4) الكشاف: 3 / 230.
(5) سورة محمد، الآية 7. وينظر: سورة البقرة، الآية: 25. وسورة آل عمران، الآية: 147. وسورة النحل، الآية: 94.

الكناية التصويرية ﴿ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ ﴾ أي: "أن تنصروا دينه ينصركم على أعدائكم ﴿ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ ﴾ أي ويثبتكم في مواطن الحرب "[1] وجسّدت الكناية المعنى بالأقدام لأنها آلة الوقوف والمشي و "الثبات والتزلزل يظهران فيها "[2] فهي التي يرتكز عليها الجسد فإذا زلّت انهار، وإذا ثبتت استقام وثبت فهو التصوير الحسي الذي يشير إلى المعنى المُكنى عنه الذي يتمثل في الصمود في أرض المعركة والثبات عند مواجهة الكافرين الذي يجلب النصر عليهم.

والبادي أنّ المعنى المُكنى عنه لا يتقيد بالصمود والنصر في مواطن الحرب حسب، وإنما هو النصر في كل مجالات الحياة، ومنه الصمود والثبات في مجاهدة العدو والانتصار عليهم، ولا يتم ذلك إلاّ حينما يكون الثبات على الدين [3] والاستقامة عليه والعمل على رفعته، ومجاهدة العدو، ودفعه بكل قوة وقدرةوهي من صور نصرة المؤمنين ربهم الله ﷻ[4]. وقال الزمخشري في الكناية نفسها الواردة في موضع آخر في قوله ـ تعالى ـ: ﴿ وَلَا تَتَّخِذُوٓا۟ أَيْمَـٰنَكُمْ دَخَلًۢا بَيْنَكُمْ فَتَزِلَّ قَدَمٌۢ بَعْدَ ثُبُوتِهَا وَتَذُوقُوا۟ ٱلسُّوٓءَ بِمَا صَدَدتُّمْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ وَلَكُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ [5] قال: "﴿ فَتَزِلَّ قَدَمٌۢ بَعْدَ ثُبُوتِهَا ﴾ فتزل أقدامكم عن حجة الاسلام بعد ثبوتها عليها: ﴿ وَتَذُوقُوا۟ ٱلسُّوٓءَ ﴾ في الدنيا بصدودكم ﴿ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾ وخروجكم من الدين، أو بصدّكم غيركم، لأنهم لو نقضوا أيمان البيعة وارتدّوا، لاتخذوا نقضها سنّة لغيرهم يستنون بها "[6].

فالكناية تصوير حسي لحقيقة النصر في مواطن الحرب بوصفها نتيجة من الثبات على محجة الاسلام أو دين الله الذي بايع المؤمنون ربهم عليه، فثباتهم عليه وإخلاصهم فيه يترتب عليه النصر ليس فقط في مواطن الحرب وإنما في كل جوانب الحياة.

---

(1) صفوة التفاسير: 3 / 207.

(2) صفوة التفاسير: 3 / 215.

(3) ينظر: جامع البيان في تفسير القرآن: 2 / 396. وينظر: "ألفاظ النصر والتمكين في القرآن الكريم ـ دراسة دلالية ـ"د. عبد الوهاب محمد علي العدواني وعماد عبد يحيى، ص 141. (مجلة آداب الرافدين، العدد: 23، 1992).

(4) ينظر: "مقومات النصر في القرآن الكريم"، د. كاصد ياسر الزيدي، ص 18. (مجلة آداب الرافدين، العدد 23، 1992).

(5) سورة النحل، الآية: 94.

(6) الكشاف: 2 / 492.

القتال في قرىً محصَّنة أو من وراء جُدُر:

يكثف القرآن من خلال هذه الصورة الكنائية الموحية دلالة خُلُقية لليهود وإخوانهم المنافقين تتمثل في جبنهم وخوفهم من مواجهة المؤمنين في ميدان القتال، بل توحي الكناية بأسلوب القصر بطريق النفي والاستثناء بأن (الجبن) صفة ملازمة ثابتة في شخصيتهم، وذلك في قوله ـ تعالى ـ: ﴿ لَا يُقَٰتِلُونَكُمْ جَمِيعًا إِلَّا فِى قُرًى مُّحَصَّنَةٍ أَوْ مِن وَرَآءِ جُدُرٍۭ ۚ بَأْسُهُم بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ ۚ تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّىٰ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ ﴾ [1].

قال الزمخشري في هذه الآية: ﴿ لَا يُقَٰتِلُونَكُمْ ﴾ لا يقدرون على مقاتلتكم ﴿ جَمِيعًا ﴾ مجتمعين متساندين، يعني: اليهود والمنافقين ﴿ إِلَّا ﴾ كائنين ﴿ فِى قُرًى مُّحَصَّنَةٍ ﴾ بالخنادق والدروب ﴿ أَوْ مِن وَرَآءِ جُدُرٍۭ ﴾ دون أن يصحروا لكم ويبارزوكم ﴿ بَأْسُهُم بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ ﴾ يعني: أنّ البأس الشديد الذي يوصفون به إنما هو بينهم إذا اقتتلوا: ولو قاتلوكم لم يبقَ لهم ذلك البأس والشدة. لأن الشجاع يجبن والعزيز يذل عنه عند محاربة الله ورسوله ﴿ تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا ﴾ مجتمعين ذوي ألفة واتحاد ﴿ وَقُلُوبُهُمْ شَتَّىٰ ﴾ متفرقة لا ألفة بينها، يعني أن بينهم إحناً وعداوات، فلا يتعاضدون حق التعاضد،ولا يرمون عن قوس واحدة" [2]. وقوله ﷺ: ﴿ لَا يُقَٰتِلُونَكُمْ جَمِيعًا إِلَّا فِى قُرًى مُّحَصَّنَةٍ أَوْ مِن وَرَآءِ جُدُرٍۭ ﴾ الذي أعددناه كنايةً، وإن كان يشير في ظاهره إلى اتخاذ اليهود والمنافقين أسباب القوة والحيطة والحذر عند مواجهة جنود الله المؤمنين في ساحة القتال، إلا أن بناءه جاء في أسلوب القصر الذي أفاد قصر قتالهم على صورة التحصن بالقرى أو التحصن بالجُدُر لا ينصرف إلى صورة غيرها، والمراد به الجبن الذي يتصف به اليهود وحلفاؤهم من المنافقين حيثما التقى المؤمنون بهم، فالكناية تقرر حالة قائمة في نفوسهم، وحيثما انكشف اليهود والمنافقون في أرض المعركة فإنهم يولّون الأدبار جبناً وخوفاً من المؤمنين.

وتوحي الكناية من طرف خفي ببعث المؤمنين وتشجيعهم على مقاتلتهم لكسر شوكتهم.. وذلك لأن المؤمنين خلاف هؤلاء بملامحهم النفسية التي جلّتها الآية الكريمة ﴿ بَأْسُهُم بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ ﴾ و ﴿ تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّىٰ ﴾، فالمؤمنون متضامنون متعاونون يجمعهم

(1) سورة الحشر، الآية: 14.

(2) الكشاف: 4 / 504 ـ405.

ويقويهم الإيمان بالله، فهم قلب واحد، وقوة واحدة في ألفتهم وتعاضدهم، فهم يرمون عن قوس واحدة.

الإصعادُ والليّ:

وردت هذه الكناية في مشهد من مشاهد معركة أُحُد تجسد حالة الضعف والهزيمة النفسية للفارّين من جيش المسلمين المرتدين عن ارض المعركة لِما أصابهم من دهش وذعر، ترد هذه الكناية إزاء صورة كنائية أخرى على التقابل تجلّي ثبات الرسول ﷺ وشجاعته في أعلى صورها، وذلك في قوله -تعالى-: ﴿ ۞ إِذْ تُصْعِدُونَ وَلَا تَلْوُونَ عَلَىٰٓ أَحَدٍ وَٱلرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِىٓ أُخْرَىٰكُمْ فَأَثَٰبَكُمْ غَمًّۢا بِغَمٍّ لِّكَيْلَا تَحْزَنُوا۟ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا مَآ أَصَٰبَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾ [1].

فالآية تقابلت فيها كنايتان على التضاد تجلّي حالتين خُلُقيتين في صورة حسية حركية، الأولى: ﴿ ۞ إِذْ تُصْعِدُونَ وَلَا تَلْوُونَ عَلَىٰٓ أَحَدٍ ﴾ في وصف المسلمين المقاتلين الذين ارتدوا على أدبارهم من أرض المعركة. والثانية: ﴿ وَٱلرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِىٓ أُخْرَىٰكُمْ ﴾ الثابت يدعو إليه المؤمنين الفارين فيمن تأخر معه في أرض المعركة.

والحركة الحسية في الكناية الأولى تمثلت في الاصعاد واللّي، والاصعاد: الذهاب في الأرض والابعاد فيه، يُقال: صعد في الجبل وأصعد في الأرض [2] ﴿ وَلَا تَلْوُونَ ﴾ ولا تقيمون ولا تعطفون ولا تميلون ﴿ عَلَىٰٓ أَحَدٍ ﴾ لأن من مال إلى شيء يلوي عنقه إليه [3]. والكناية الثانية: ﴿ وَٱلرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ ﴾ كان يقول: ((إليّ عباد الله إليّ عباد الله أنا رسول الله من يكرّ فله الجنة)) ﴿ فِىٓ أُخْرَىٰكُمْ ﴾ في ساقتكم وجماعتكم الأخرى وهي المتأخرة" [4].

فالكناية الأولى في حركتها الحسية، القوية تصور ذلك الانفعال الحسي القوي المتمثل في الخوف والذعر، فلا ينظرون إلى ورائهم لشدة الدهشة ولا يعطفون على أحد ولا مدافعة.. وإزاء هذه الصورة الكنائية التي جسّدت حالتهم النفسية المكروبة، تجلّي الكناية المقابلة ﴿ وَٱلرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِىٓ أُخْرَىٰكُمْ ﴾ معناها المكنى عنه المتمثل في ثبات الرسول ﷺ

(1) سورة آل عمران، الآية: 153.

(2) الكشاف: 1 / 471.

(3) مواهب الرحمن في تفسير القرآن: 2 / 274.

(4) الكشاف: 1 / 471.

وشجاعته في ذلك الموقف العصيب، فهو الثبات في الصورة والمعنى في أحلك المواقف كما تعمل هذه الكناية على تعميق معنى الهزيمة وتصعيدها في حس الفارين من أرض المعركة وذلك من خلال التضاد في المعنى، فكان يجب عليهم أن يكون لهم أسوة حسنة في الرسول ﷺ في ثباته وصبره وشجاعته، فما يكون لهم أن يفروا ويتركوا رسول الله راغبين بأنفسهم عن نفسه.

ولا يخفى ما في ذلك من ابتلاء للمؤمنين: ﴿فَأَثَٰبَكُمۡ غَمَّۢا بِغَمّٖ﴾ أي: "فجازاكم الله ﴿غَمَّۢا﴾ حين صرفكم عنهم وابتلاكم ﴿بِغَمّٖ﴾ بسبب غم أذقتموه رسول الله ﷺ بعصيانكم له أو غماً مضاعفاً غماً بعد غم وغماً متصلاً بغم من الاغتمام ﴿لِّكَيۡلَا تَحۡزَنُواْ﴾ لتتمرنوا على تجرع الغموم وتضروا باحتمال الشدائد، فلا تحزنوا فيما بعد على فائت من المنافع ولا على مصيب من المضار"[1]. فهو الابتلاء الذي يعمل على إثارة النفوس والقلوب لإزالة الضعف الذي حل ضمن المنهج التربوي للقرآن الكريم في معالجة النفوس والقلوب ولا سيّما وهي تواجه الأحداث العظام.

غضُّ الأبصار والضّربُ بالأرجُل:

يُعلم القرآن المؤمنين والمؤمنات القيم الخُلقية الإيجابية ويأمرهم بالالتزام بها، لما لها من دور فاعل في بناء المجتمع الذي يهدف إليه القرآن، وبالمقابل ينهاهم عن الأخلاق السلبية التي تعمل على هدم هذا المجتمع وتحطيمه.. وهو إذ يُعلم المؤمنين والمؤمنات ويأمرهم وينهاهم، فإنه يخاطبهم بالأسلوب البياني المؤثر الذي يؤدي المعنى في حيوية وقوة تأثير يظل معها عالقاً في الذهن يحدث الاستجابة الوجدانية التي يبتغيها القرآن.

ومن ذلك الكنايتان الواردتان في قوله - تعالى - خطاباً للمؤمنين والمؤمنات: ﴿قُل لِّلۡمُؤۡمِنِينَ يَغُضُّواْ مِنۡ أَبۡصَٰرِهِمۡ وَيَحۡفَظُواْ فُرُوجَهُمۡۚ ذَٰلِكَ أَزۡكَىٰ لَهُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرُۢ بِمَا يَصۡنَعُونَ ۞ وَقُل لِّلۡمُؤۡمِنَٰتِ يَغۡضُضۡنَ مِنۡ أَبۡصَٰرِهِنَّ وَيَحۡفَظۡنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبۡدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنۡهَاۖ وَلۡيَضۡرِبۡنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّۖ وَلَا يُبۡدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوۡ ءَابَآئِهِنَّ أَوۡ ءَابَآءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوۡ أَبۡنَآئِهِنَّ أَوۡ أَبۡنَآءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوۡ إِخۡوَٰنِهِنَّ أَوۡ بَنِيٓ إِخۡوَٰنِهِنَّ أَوۡ بَنِيٓ أَخَوَٰتِهِنَّ أَوۡ نِسَآئِهِنَّ أَوۡ مَا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُهُنَّ أَوِ

(1) نفسه: 1 / 471.

﴿التَّـٰبِعِينَ غَيۡرِ أُوْلِي ٱلۡإِرۡبَةِ مِنَ ٱلرِّجَالِ أَوِ ٱلطِّفۡلِ ٱلَّذِينَ لَمۡ يَظۡهَرُواْ عَلَىٰ عَوۡرَٰتِ ٱلنِّسَآءِۖ وَلَا يَضۡرِبۡنَ بِأَرۡجُلِهِنَّ لِيُعۡلَمَ مَا يُخۡفِينَ مِن زِينَتِهِنَّۚ وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ﴾ [1].

ثمـة نلحـظ كنـايتين، الأولى: ﴿يَغُضُّواْ مِنۡ أَبۡصَٰرِهِمۡ﴾ في مخاطبة المؤمنين و ﴿يَغۡضُضۡنَ مِنۡ أَبۡصَٰرِهِنَّ﴾ في مخاطبة المؤمنات. والثانية: ﴿وَلَا يَضۡرِبۡنَ بِأَرۡجُلِهِنَّ لِيُعۡلَمَ مَا يُخۡفِينَ مِن زِينَتِهِنَّۚ﴾ في نهي المؤمنات عن الضرب بالأرجلوالكناية الأولى تشير إلى المعنى المكنى عنه عن طريق حركة في العين هي غضها. والغضُّ "النقصان من الطرف" [2] وهي حركة يُراد منها ملزومها وهو (العفة) عن النظر في المحارم. ففي الكناية أدب أخلاقي ومحاولة للاستعلاء على الرغبة في الاطلاع على المحاسن والمفاتن في الوجوه والأجسام، كما أنّ فيها إغلاقاً للنافذة الأولى من نوافذ الفتنة والغواية [3] لذلك تقدمت الكناية (غض البصر) على حفظ الفروج لأن "النظر بريد الزنا ورائد الفجور، وهو مقدمة في الوقوع في الخطر" [4] وأن حفظ الفروج هو الثمرة الطبيعية لغض البصر (العفة)، ومن ثم يجمع بينهما في سياق واحد، بوصفهما سبباً ونتيجةً،أو باعتبارهما خطوتين متواليتين في عالم الضمير وعالم الواقع [5].

ثم تتكرر خطاباً للمؤمنات يأمرهنّ بغض أبصارهنّ كما أمر الرجال فلا يرسلن بنظراتهن الهاتفة المثيرة،تستثير كوامن الفتنة في صدور الرجال [6]،وبذلك يتحقق التوازن في الاستجابة والطاعة من المؤمنين المخاطبين جميعاً فتشيع العفة والطهارة في المجتمع التي تعمل على عدم تلوثه بالانفعالات الشهوية وعدم ارتكاسه إلى الدرك الحيواني الهابط.

ثم تأتي الكناية الحركية الثانية تنهي المؤمنات عن الحركات التي تعلن عن الزينة المستورة، وتهيج الشهوات الكامنة زيادةً في الوقاية والحذر مما يكون سبباً في الوقوع في الفاحشة ﴿وَلَا يَضۡرِبۡنَ بِأَرۡجُلِهِنَّ لِيُعۡلَمَ مَا يُخۡفِينَ مِن زِينَتِهِنَّۚ﴾ فالمكنى عنه هو رغبة النساء في إظهار زينتهن جاء في تفسيرها: "أي لا يضربن بأرجلهن الأرض لئلا يسمع الرجال صوت الخلخال فيطمع

(1) سورة النور، الآيتان: 30ـ31.
(2) المفردات، ص 542.
(3) في ظلال القرآن: 6 / 94.
(4) صفوة التفاسير: 2 / 339.
(5) ينظر: في ظلال القرآن: 6 / 94.
(6) ينظر: في ظلال القرآن: 6 / 94.

الذي في قلبه مرض،قال ابن عباس: كانت المرأة تمر بالناس وتضرب برجلها ليسمع صوت خلخالها، فنهى الله تعالى عن ذلك لأنه من عمل الشيطان "[1].

وبذلك تتجلى عناية القرآن الكريم بالمجتمع وحفظه، وذلك من خلال تضييق فرص الغواية والفتنة، وسد الطريق أمام الأسباب التي تُؤدي إلى الفاحشة من نظرة أو حركة مقصودة تثير في النفس الشهوة وتزرع في القلب الفتنة.. وبذلك تُصان الأعراض والمجتمعات من الجرائم والفواحش، ويشيع الأمن والطمأنينة في المجتمع وفي القلوب والنفوس.

مدّ العين:

يدعو القرآن بالأسلوب الكنائي إلى الاعتزاز بالقيم الأصيلة الباقية، وإلى الصلة بالله ﷺ والرضى به، كي تحسّ النفس بالاستعلاء على زخارف الدنيا الفانية وهي تبهر الأنظار وتجذب النفوس إليها. نلحظ ذلك في قوله ـ تعالى ـ: ﴿ وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ ۚ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ ﴾ [2].

الكناية التصويرية ﴿ وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ ﴾ فالعين لا تمتد، إنما يمتد النظر، ولكن الكناية تصور المعنى فتجعل العين ذاتها ممتدة إلى المنظور إليه بهذا الاسناد المجازي التصويري، أي إسناد الفعل ﴿ تَمُدَّنَّ ﴾ إلى العينين فتشير الكناية إلى المعنى المكنى عنه وهو استحسان المنظور إليه والإعجاب به، وتأثيره في النفس يكاد النظر معه لا يرد. قال الزمخشري: " ﴿ وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ ﴾ أي نظر عينيك، ومد النظر: تطويله، وأن لا يكاد يردّه، استحساناً للمنظور إليه وإعجاباً به، وتمنياً أن يكون له.. ولمّا كان النظر إلى الزخارف كالمركوز في الطباع وأن من أبصر منها شيئاً أحب أن يمد إليه نظره ويملأ منه عينيه: قيل ﴿ وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ ﴾ أي لا تفعل ما أنت معتاد له وضاربه.. ﴿ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ ﴾ أصنافاً من الكفرة "[3].

ثم تأتي الاستعارة التصريحية لتجسد ذلك الشيء الذي تمتد إليه العين تجسده غاية في الزينة والبهجة ﴿ زَهْرَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ﴾ فاستعار الزهرة وهي جذّابة بألوانها وتناسقها لزخرف الدنيا وزينتها، وذلك ليكون المعنى مصوراً غاية في الفتنة والتأثير.

---

(1) صفوة التفاسير: 2 / 336 ـ337.

(2) سورة طه، الآية: 131. وينظر: سورة الحجر، الآية: 88.

(3) الكشاف: 3 / 77.

ورغم جمال الصورة التي اخرجتها الاستعارة والذي تمتد إليه العين ـ كما أشارت الكناية استحساناً وإعجاباً ـ فإنه جمال متاع زائل سريع، كما لمحت الاستعارة إلى ذلك لأن الزهرة رغم جمالها وتأثيرها في النفس سرعان ما تذبل وتزول.. وفوق ذلاك فهو للفتنة ﴿ لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ ﴾ على خلاف ﴿ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ ﴾ فهو رزق للنعمة لا للفتنة، وهو طيّب لأنه باقٍ لا يخدع ولا يزول..

والكناية ـ وإن كانت خطاباً للرسول ـ ﷺ فإنها تخاطب المؤمنين فلا تمتد أنظارهم ولا تتهاوى نفوسهم أمام زينة الحياة الدنيا وزخرفها، ولا تنخدع بما يتقلب فيه الكافرون من نعم الدنيا وزينتها كما تصور ذلك كناية (التقلّب) في موضع آخر في قوله ـ تعالى ـ: ﴿ لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلَادِ ﴾ [(1)] اي: "لا يخدعنك تنقل الذين كفروا في البلاد طلباً لكسب الأموال والجاه والرتب"[(2)].

فالكناية ﴿ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ فيها تصوير حركة على نحو من الكثرة والمبالغة كما أفاد التشديد فيها فتشير إلى المعنى المكنى عنه وهو فيض النعم والمكاسب التي فيها يتقلّبون، فهم يتقلبون من لون من النعيم إلى آخر، وكأن هذا طابعهم وديدنهم على الحد الذي يُغري المؤمن ويخدعه، فينهى القرآن عن عدم التأثر ممّا هم فيه لأنها نعم زائلة لا تستند إلى القاعدة الأصيلة(الإيمان)،فلا تلبث أن تزول ـ وإن أغرّت وخَدَعَت ـ قال الزمخشري: "لمّا كانوا مشهوداً عليهم من قبل الله بالكفر، والكافر لا أحد أشقى منه عند الله، وجب على من تحقق ذلك أن لا ترجح أحوالهم في عينه، ولا يغرّه اقبالهم في دنياهم وتقلبهم في البلاد بالتجارات النافعة والمكاسب المربحة، وكانت قريش كذلك يتقلبون في بلاد الشام واليمن، ولهم الأموال يتجرون فيها ويتربحون، فإن مصير ذلك وعاقبته إلى الزوال، ووراءه شقاوة الأبد"[(3)].

ومن وراء الكناية نلمح القيم الأصيلة التي يحتكم إليها القرآن، القيم الباقية المتصلة بالله ﷻ قيماً لا تغترّ بمظاهر الحياة الدنيا وزخارفها الزائلة والتي لا تعني شيئاً إذا ما كانت وسيلة للفساد والإفساد.

---

(1) سورة آل عمران، الآية: 196. وينظر: سورة غافر، الآية: 4.

(2) صفوة التفاسير: 1 / 253.

(3) الكشاف: 4 / 117.

التجافي عن المضاجع:

القيمة الأصيلة هي الاتصال بالله والخوف منه والرجاء فيه، فهي القيمة الباقية، والأمل الذي لا ينقطع، وهي الصورة الوضيئة التي يقدمها القرآن الكريم بالأسلوب الكنائي وصفاً لنماذج من المؤمنين في قوله ـ تعالى ـ: ﴿ تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ۞ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ [1].

الكناية: ﴿ تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ ﴾ أي: "تتنحى وتتباعد أطرافهم عن الفرش ومواضع النوم، والغرض أن نومهم بالليل قليل لانقطاعهم للعبادة.. قال مجاهد: يعني بذلك قيام الليل" [2]، فهي تشير إلى كثرة العبادة والتبتل إلى الله ﷻ في ظاهرها، ولكنها تجسد تلك الحالة الخُلُقية التي يستشعرها هؤلاء المؤمنون المتقون في معناها البعيد والتي تتمثل في شدة خوفهم من الله وعذابه، وشدة طمعهم ورجائهم في ثواب الله ومغفرته. وهم في خوفهم ورجائهم مخلصون لله بعيدون عن الرياء يدعون ربهم في الأوقات التي يعزُّ فيها النوم لا يراهم فيها أحد من الناس،لذلك فالسياق يبرز جزاءهم الذي أخفاه الله لهم عن جميع خلائقه، ولا يعلمه إلاّ هو مما تقرّ به عيونهم التي لم تنم إلاّ قليلاً، فيتناسق الجزاء مع العمل: ﴿ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ ﴾ أي: "لا تعلم النفوس أي نوع عظيم من الثواب ادّخر الله لأولئك وأخفاه عن جميع خلائقه، لا يعلمه إلاّ هو مّا تقرّ به عيونهم، ولا مزيد على هذه العدّة ولا مطمع وراءها، وعن النبي ﷺ: يقول الله ـ تعالى ـ: ((أعْدَدْتُ لعبادي الصالحين مالا عينٌ رأتْ وَلا أذُنٌ سَمِعَتْ وَلا خَطَرَ على قَلْبِ بَشَر، بَلْهَ ما أطلعتهم عليه، إقرؤا إنْ شِئتُمْ: فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ))" [3].

والكناية ﴿ قُرَّةِ أَعْيُنٍ ﴾ تجسد حالتهم النفسية المطمئنة الراضية غاية الرضا [*] والسرور بالجزاء فلا تطمع إلى غيره. وهي حالة نفسية تقابل حالتهم النفسية الخائفة من الله الراجية رحمته التي صوّرتها كناية التجافي عن المضاجع في حياتهم الدنيا.

---

(1) سورة السجدة، الآيتان: 16 ـ17.

(2) صفوة التفاسير: 2 / 504.

(3) الكشاف: 3 / 405.

(*) ينظر هذه الكناية في فصل: (الكناية النفسية) من:، ص 140.

ومن خلال عرض الكنايات الخُلُقية يتبين وظيفة الكناية التعبيرية والتصويرية في أداء الأفكار والمعاني التي يهدف القرآن تثبيتها في ذهن المتلقي ونفسه، فالقرآن لا يعرض تلك المعاني والأفكار بتعابير ذهنية مجردة، وإنما يوظف الكناية بوصفها أسلوباً حيوياً مؤثراً إذ يقوم بنصيبه الفني الكامل في أداء المعاني وتصويرها بطريقة من شأنها أن تحدث الاستجابة الوجدانية المناسبة في القارئ أو السامع وهو يتلقى هذه الموضوعات التي يهدف القرآن إلى تثبيتها في نفسه وقلبه أو تنفيره منها.

الفصل الخامس

الكناية الساخرة

الفصل الخامس

الكناية الساخرة

السخرية في مدلولها العرفي واضحة محددة لا تلتبس بمعنى آخر، ويدور في معناها، بل يؤدي معناها عدة ألفاظ أوضحها: التهكم والاستهزاء، ولا شك في أن السخرية أسلوب وسلاح عدائي، مهما كانت دوافعها، ومهما كان مقامها، ومهما صغرت درجتها في العداء أو كبرت، ويتميز هذا الأسلوب من غيره من أساليب العداء بأنه مصوغ بروح الفكاهة وأسلوبها [1].

وعلماء النفس حينما يبحثون في طبيعة السخرية فإنما يبحثونها كجزء من ظاهرة عامة في الطبيعة البشرية، فيقولون مثلاً: الابتسام والضحك والمرح والفكاهة والمزاح والدعابة والهزل والنكتة والملحة والنادرة والكوميديا أن هي إلاّ ظواهر نفسية من فصيلة واحدة، وكلها إنما تصدر عن تلك الطبيعة البشرية المتناقضة، التي سرعان ما تمل حياة الجد والصرامة والعبوس، فتلتمس في اللهو ترويحاً عن نفسها، وتبحث في الفكاهة عن منفذ للتنفيس عن آلامها، وتسعى عن طريق النكتة لحو التهرب من الواقع الذي كثيراً ما يثقل كاهلها [2]، وبناءً على هذا يجمل علماء النفس هذه الأنواع وما يشابهها ويجعلونها ظاهرة واحدة،ويجعلون الضحك عنواناً لها، لأن الضحك هو النتيجة المباشرة لكل هذه الأنواع، وهو جزء أساس من هدف كل هذه الأنواع، وقد حفزت هذه الظاهرة اهتمام الفلاسفة والباحثين، فعنوا ببحثها ودراستها منذ أفلاطون وأرسطو حتى الباحثين المعاصرين [3]. فهم يرون أن الضحك ـ الذي جعلوه عنواناً للظاهرة من حيث هي ـ ناشيء في الأصل عن الشعور بالانتصار في معركة جسمية بدائية [4] وحينما يقسم علماء النفس هذه الظاهرة إلى أكثر من نوع، فإن الشعور بالانتصار أو التفوق يلابس كل نوع، فيقولون: "الضحك نوعان: إيجابي وهو الضحك المنعش ينبعث عن شعور المرء

(1) ينظر: أسلوب السخرية في القرآن الكريم، ص 13.
(2) سيكولوجية الفكاهة والضحك، د. زكريا ابراهيم، ص 8.
(3) المصدر نفسه، ص 8. وينظر: أسلوب السخرية في القرآن الكريم، ص 13 ـ14.
(4) سيكولوجية الفكاهة والضحك، ص 123.

بتفوقه على خصمه، عن شعور المرء بتفوقه على خصمهوسلبي وهو ضحك حزين متجهم، وهو المتولد عن الشعور بنقص الآخر أو ضعفه أو ضعته. أعني أنه ضحك الاحتقار والأزدراء "[1]، وواضح أن النوع الثاني مقصود به (السخرية) لأن "ضحك الاحتقار والأزدراء" هو معنى السخرية.

وكذلك يفعل الباحثون الذين يقسمون هذه الظاهرة باعتبار مصدرها الانفعالي، فيرون أن نوع الفكاهة يخضع لنوع الانفعال الذي أثارها،ومن ذلك أن "انفعال الغضب يولد الفكاهات العدوانية والسخرية "[2] فالسخرية إذن نابعة من انفعال عدواني بين خصمين ولكن الخصم الأقوى والأقدر منهما هو الذي يستطيع أن يسخر من الآخر، وهذا أيضاً تأييد لأن الضحك ـ عنوان السخرية ـ مظهر من مظاهر الانتصار والتفوق[3].

فالسخرية في ضوء ذلك أسلوب عدائي مصوغ بروح الفكاهة، إلاّ أن هذا الأسلوب لا يُتاح نفسياً ولا واقعياً إلاّ لمن كان بيده زمام الموقف والذي يشعر بأنه القويّ القادر على الانتصار[4].

أما السخرية في القرآن الكريم فقد ينظر إليها بعضهم على أنها لا تتفق وجلالة القرآن من حيث إنه كلام الله، لذلك لا يسوغون نسبة السخرية بمعناها المفهوم إلى الله ﷻ، لكن يجب القول: إن القرآن بصفته ناطقاً بلسان المسلمين يجعل الصور الساخرة التي ساقها، ومنها (الكنايات الساخرة) يجعلها كأنها صادرة من المسلمين أو ممثلة لموقفهم، وذلك لأن القرآن في كل اتجاهاته يحشد كل أسلحته وطاقاته ليعزز مركز المسلمين ويدفعهم إلى النصر، وفي الوقت نفسه يحطم مركز أعداء الاسلام ويدفع بهم إلى الهزيمة أو الشعور بها أو توقعها[5]. وبذلك يقدم القرآن بصور السخرية من أعداء المسلمين حوافز معنوية وروحية للمسلمين وهم يدافعون عن الاسلام متحملين ضروباً شتى من المشقة والبلاء والإيذاء، فضلاً عن ذلك اتخذ أعداء المسلمين من السخرية سلاحاً نفسياً مؤثراً يريدون به تحطيم عزم المسلمين والنيل من ثقتهم في أنفسهم

(1) م. ن، ص 123.
(2) سيكولوجية الفكاهة والضحك، ص 191.
(3) اسلوب السخرية في القرآن الكريم، ص 15.
(4) ينظر: المصدر نفسه، ص 15.
(5) ينظر: المصدر نفسه، ص 11 ـ12.

بدينهم.. إلاّ أن القرآن يتصدى لهم بسخرية أبلغ وقعاً، وأشد تحطيماً، وأنفذ سهماً [1]، كما سنلحظ في صور الكنايات الساخرة التي تمثل جانباً ملحوظاً من أسلوب السخرية في القرآن.

على أنه ليس هناك ما يمنع من نسبة السخرية إلى الله سبحانه، يقول الزمخشري: "فإن قلت لا يجوز الاستهزاء على الله لأنه متعال عن القبيح والسخرية من باب العيب.. فما معنى استهزائه بهم؟ قلت معناه إنزال الهوان والحقارة بهم، لأن المستهزئ غرضه الذي يرميه هو طلب الخفة والزراية بمن يهزأ به وإدخال الهوان والحقارة.. وقد كثر التهكم في كلام الله تعالى بالكفرة، والمراد به تحقير شأنهم وازدراء أمرهم، والدلالة على أن مذاهبهم حقيقةً بأن يسخر منها الساخرون ويضحك الضاحكون [2]، ثم يقول عقب ذلك: "وفيه أن الله ﷻ هو الذي يستهزئ بهم الاستهزاء الأبلغ، الذي ليس استهزاؤهم إليه باستهزاء ولا يؤبه به في مقابلته، لما ينزل بهم من النكال ويحل بهم من الهوان والذل، وفيه أن الله هو الذي يتولى الاستهزاء بهم، انتقاماً للمؤمنين ولا يحوج المؤمنين أن يعارضوهم باستهزاء مثله" [3].

والسخرية في القرآن الكريم ليست مجرد تهجم أو هجاء أو تهوين شأن، وهي ليست مجرد أسلوب فكه يثير النفوس أو يبعث على الضحك، وإنما هي وسيلة لتحقيق أهداف على جانب كبير من الأهمية سواء من الناحية النفسية، أو من الناحية الاجتماعية، ومن ثم فإن القرآن الكريم لم يختر اسلوب السخرية من أعدائه ليكون مجرد تهكم أو استهزاء أو تحقير، وإنما اختاره لأهداف أبعد، وأغراض أعمق.. كما أنّ القرآن نقل اتباعه فيما يشبه الطفرة من السخرية البدائية أو القريبة من البداوة التي يحصرها علماء النفس في التهكم من العيوب الجسمية أو النقائص الشكلية والمادية إلى السخرية الحضارية المتطورة التي تختفي وراء مظهرها البسيط أغراضاً هادفة إلى نواحٍ معينة تنحصر في الاصلاح ومحاربة الرذيلة، والدعوة إلى المثل العليا والمبادئ القومية والسلوك الصحيح، وبهذا يكون القرآن قد سما باتباعه من اتخاذ السخرية مجرد سلاح للتحطيم والهدم كما كانوا يألفون في الهجاء [4] إلى جعلها وسيلة إصلاح وتهذيب.

---

(1) ينظر: المصدر نفسه، ص 12.
(2) الكشاف: 1 / 186 ـ187.
(3) الكشاف: 1 / 187 ـ188.
(4) ينظر: أسلوب السخرية في القرآن الكريم، ص 25 ـ26.

وكذلك حينما نظر إلى الكنايات الساخرة في القرآن الكريم نجدها في طبيعتها سلاحاً يستخدمه القرآن ضد أعداء المسلمين المتنوعي الألوان والوجوه.. وهي ـ في الأعم الأغلب ـ تستهدف أئمة الكفر والشرك الذين يسددون العداء للاسلام والمسلمين بكل ما أوتوا من قوة وتفكير وتدبير، لذلك ميّزهم القرآن بتعابير كناية ساخرة تنال منهم نيلاً عظيماً بوصفهم خطراً يهدد المسلمين. وقد عرض القرآن الكريم طرفاً من خطرهم وسخريتهم، من ذلك ـ مثلاً ـ سخريتهم بالرسول ﷺ بكل ما تحمل هذه السخرية من تهكم لاذع واستهانة بشخصه ﷺ، كما يقول الزمخشري في تفسير قوله ـ تعالى ـ: ﴿ وَقَالُوا۟ مَالِ هَٰذَا ٱلرَّسُولِ يَأْكُلُ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشِى فِى ٱلْأَسْوَاقِ لَوْلَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُۥ نَذِيرًا ﴾[1]: "وفي هذا استهانة وتصغير، وتسميته بالرسول سخرية منه وطنز [*] كأنهم قالوا: ما لهذا الزاعم أنه رسول.. أي إن صحّ أنه رسول الله فما باله مثل حالنا يأكل الطعام كما نأكل، ويتردد في الأسواق لطلب المعاش كما نتردّد"[2].

وسنحاول في هذا الفصل عرض فكرة السخرية في حدود ما وردت في إطار الفن الكنائي بوصفه وسيلة حيوية في التعبير والتصوير تحقق أهدافها ومقاصدها التي يبتغيها القرآن.

الوسم على الخرطوم:

وردت هذه الكناية التصويرية الساخرة وصفاً للوليد بن المغيرة المخزومي وهو من ألّد أعداء الاسلام وأكثرهم خطورة، وقد بلغ من السيادة والمجد في قومه مرتبة لم يبلغها شخص آخر، وكان له عشرة بنين، فكان يقول لهم وللحمته: من أسلم منكم منعته رفدي[3] وقد شهد القرآن نفسه للوليد بعمق التفكير، وبعد التدبير، وشهد له بأهم مقومات القوة والسيادة في المجتمع حينذاك منها: كثرة الأموال، ووفرة البنين، وذلك في قوله ـ تعالى: ﴿ ذَرْنِى وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا ۞ وَجَعَلْتُ لَهُۥ مَالًا مَّمْدُودًا ۞ وَبَنِينَ شُهُودًا ۞ وَمَهَّدتُّ لَهُۥ تَمْهِيدًا ۞ ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ ۞ كَلَّآ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ لِءَايَٰتِنَا عَنِيدًا ۞ سَأُرْهِقُهُۥ صَعُودًا ۞ إِنَّهُۥ فَكَّرَ وَقَدَّرَ ۞ فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ۞ ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ۞ ثُمَّ نَظَرَ ۞ ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ

---

(1) سورة الفرقان، الآية: 7. وينظر: (الآيتين: 8 ـ9)، من السورة نفسها، مثلاً.

(*) الطَّنْز: السخرية. ينظر: لسان العرب: 5 / 369 (طنز).

(2) الكشاف: 3 / 209.

(3) ينظر: الكشاف: 4 / 470. وتفسير الجلالين، ص 752. وينظر: لباب النقول في أسباب النزول، ص 753.

﴿ ثُمَّ أَدْبَرَ وَاسْتَكْبَرَ ۞ فَقَالَ إِنْ هَٰذَا إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ ۞ إِنْ هَٰذَا إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ ۞ سَأُصْلِيهِ سَقَرَ ۞ وَمَا أَدْرَاكَ مَا سَقَرُ ۞ لَا تُبْقِي وَلَا تَذَرُ ۞ لَوَّاحَةٌ لِّلْبَشَرِ ﴾ (1).

وقد استخدم الوليد بن المغيرة سيادته ومجده وقوته وسلطانه في حربه للاسلام والمسلمين، لذلك فالقرآن يهاجمه مهاجمةً عنيفةً شديدةً، تشوه كل مقومات مجده وسيادته، ثم تنصب السخرية اللاذعة على شخصه، فهذا الشخص القوي المتسلّط صاحب المال والبنين والفكر والتقدير، الذي يملأ قلوب أتباعه إعجاباً وإكباراً بمظهره وجلاله، تمسخ الكناية الساخرة هذا المظهر، لتصور مكانه صورة ساخرة، تشوه منظره، وتثير الضحك والسخرية منه بما يشبه الرسم الكاريكاتيري (2)، وذلك في قوله ـ تعالى ـ: ﴿ وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَّهِينٍ ۞ هَمَّازٍ مَّشَّاءٍ بِنَمِيمٍ ۞ مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ ۞ عُتُلٍّ بَعْدَ ذَٰلِكَ زَنِيمٍ ۞ أَن كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ ۞ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ آيَاتُنَا قَالَ أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ۞ سَنَسِمُهُ عَلَى الْخُرْطُومِ ﴾ (3).

الكناية التصويرية ﴿ سَنَسِمُهُ عَلَى الْخُرْطُومِ ﴾ (*) تُخرج لنا الوليد وقد شُوِّه منه أبرز موضع في أكرم عضو من الانسان يشير إلى العز والحمية، قال الزمخشري: "الوجه: أكرم موضع والأنف أكرم موضع من الوجه لتقدمه له، ولذلك جعلوه مكان العز والحمية، واشتقوا منه الأنفة، وقالوا: الأنفُ في الأنفِ، وحمى أنفه، وفلان شامخ العرنين، وقالوا في الذليل: جدع أنفه، ورغم أنفه، فعبّر بالوسم على الخرطوم عن غاية الإذلال والإهانة، لأن السمة على الوجه شين وإذالة، فكيف بها على أكرم موضع منه" (4).

فالكناية تكثف دلالة السخرية،فضلاً عن الإذلال والإهانة، بعد أن نال من مقومات اختياله وفخره بالمال والبنين، ومكانته ونسبه..، فقد تحول بالكناية إلى صورة أشبه بحيوان ذي خرطوم قد وسم بعلامة بشعة منفرة تثير الضحك والسخرية منه.

---

(1) سورة المدثر، الآيات: 11 ـ29.
(2) ينظر: أسلوب السخرية في القرآن الكريم، ص 131.
(3) سورة القلم، الآيات: 10 ـ16. حلاّف: كثير الحلف بالباطل. همّاز: عيّاب، أي مغتاب. مشّاء بنميم: ساعٍ بالكلام بين الناس على وجه الإفساد بينهم. عُتُلٍ: غليظ جاف. زنيم: دعي في قريش. ينظر: تفسير الجلالين، ص 752.
(*) الخرطوم: الأنف. تفسير الجلالين، ص 753.
(4) الكشاف: 4 / 471. وينظر: التفسير الكبير: 30 / 86.

والكناية توحي بنوعين من الإذلال والإهانة، أولها: الوسم فهو يوسم كما يوسم الحيوان والعبد، فهو عار لا ينمحي عنه، فهو ملازم له، والثاني: جعل أنفه خرطوماً كخرطوم الفيل في ضخامته وذلك لتشويه ضخامته المهيبة في نفوس اتباعه. ولتكون صورة مثيرة للتفكير العميق حين نرى شخصية عظيمة في عين أتباعها، يرن ذكرها وجلالها في نفوس الأتباع وقلوبهم، فقد سلّت هذه الشخصية من مجدها وهالتها، لتوضع في هذا المنظر المضحك المزري، وليتمثل أتباع الوليد حين تتحول صورته الضخمة المهيبة في نفوسهم إلى ضخامة فيل مثلاً مشوّه الخرطوم، ولتخيل الفارق بين نظرة الإكبار والإجلال التي ينظرون بها إليه، ويتملئونه بها في نفوسهم، وبين نظرة الضحك والسخرية التي ينظرون بها إلى صورته هذه التي رسمتها سخرية القرآن"[1].

وبذلك تنال الكناية في تصويرها الساخر من عدو الاسلام والمسلمين على نحو تجعله سخرية الساخرين أبد الدهر تتملى صورته الزرية المضحكة العقول والنفوس.

السَّفْعُ بالنّاصية:

وردت هذه الكناية الساخرة والتي تحمل في طياتها غاية الإهانة والتحقير والسخرية، في شخص لا يقل عداوةً وطغياناً عن الوليد بن المغيرة هو عمرو بن هشام (أبو جهل)[2] ومن عداوته للمسلمين أنه كان يتعرض بالسخرية لمن يصلي من المسلمين ومنهم الرسول ﷺ فيسخر منهم وينهاهم عن الصلاة. ولكن القرآن الكريم يسخر من مصدر قوته ويتهكم به ويهدده ويتوعد به.. ثم تصوره الكناية مقبوضاً من ناصية رأسه الكاذبة الخاطئة طالباً منه أن يدعو ناديه بما فيه من أئمة الكفر والشرك من ملئه الذين يركن إليهم ويعتز بهم ويكابر لينقذوه ممّا هو فيه من هوان: ﴿ كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ۞ أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ ۞ إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلرُّجْعَىٰٓ ۞ أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يَنْهَىٰ ۞ عَبْدًا إِذَا صَلَّىٰٓ ۞ أَرَءَيْتَ إِن كَانَ عَلَى ٱلْهُدَىٰٓ ۞ أَوْ أَمَرَ بِٱلتَّقْوَىٰٓ ۞ أَرَءَيْتَ إِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰٓ ۞ أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ ٱللَّهَ يَرَىٰ ۞ كَلَّا لَئِن لَّمْ يَنتَهِ لَنَسْفَعًۢا بِٱلنَّاصِيَةِ ۞ نَاصِيَةٍ كَٰذِبَةٍ خَاطِئَةٍ ۞ فَلْيَدْعُ نَادِيَهُۥ ۞ سَنَدْعُ ٱلزَّبَانِيَةَ ۞ كَلَّا لَا تُطِعْهُ وَٱسْجُدْ وَٱقْتَرِب ۩ ﴾[3].

---

(1) أسلوب السخرية في القرآن الكريم، ص 131.

(2) ينظر: لباب النقول في أسباب النزول، ص 807.

(3) سورة العلق، الآيات: 6 ـ19.

قال الزمخشري: "﴿ كَلَّا ﴾ ردع لأبي جهل وخسوء له عن نهيه عن عبادة الله تعالى وأمر بعبادة اللات، ثم قال ﴿ لَئِن لَّمْ يَنتَهِ ﴾ عمّا هو فيه ﴿ لَنَسْفَعًا بِالنَّاصِيَةِ ﴾ لنأخذنّ بناصيته ولنسحبنّه بها إلى النار "[1] والسَّفع: القبض على الشيء وجذبه بشدة.. ﴿ نَاصِيَةٍ كَاذِبَةٍ خَاطِئَةٍ ﴾ وصفها بالكذب والخطأ على سبيل المجاز المرسل لعلاقة الجزئية، إذ ذكر الجزء (الناصية) وأُريد الكل. فالكذب والخطأ في الحقيقة لصاحب الناصية وفيه من الحسن والجزالة والحيوية ما ليس في قولك: ناصية كاذب خاطيء. ﴿ فَلْيَدْعُ نَادِيَهُ ﴾ والنادي: المجلس الذي ينتدي فيه القوم، والمُراد: أهل النادي [2].

وفي الكناية: ﴿ لَنَسْفَعًا بِالنَّاصِيَةِ ﴾ تبلغ السخرية من أبي جهل مبلغها في الصورة والمعنى، في الصورة نرى أبا جهل وقد قُبِض على ناصيته بقوة وشدة جذب، ثم يُجرّ ويُجذب بقوة وعنف، وهذه الصورة التي عليها أبو جهل تمثل صورة من العذاب لها وقعها وتأثيرها البالغ في مجتمع كالمجتمع العربي، إذ إنّ أي صورة من صور العذاب أو الهوان أخف وأيسر في وقعها من هذه الصورة التي رسمتها الكناية فتصويره مكبّلاً بالأغلال، أو معذباً في جهنم، أو أي شيء من ذلك، لا يبلغ منه ولا يحط من منزلته في المجتمع ما يبلغه التصوير الكنائي هذا، وهو يتناول شخصاً يملأه الغرور، ويسيطر عليه الشعور بالعزة التي لا تُمس، والقوة التي لا تُقهر كأبي جهل [3].

أما المعنى المُكنى عنه الذي تشير إليه هذه الصورة الزرية فإنه يتمثل في غاية الإهانة والتحقير والسخرية من قوته وجبروته، فضلاً عن ذلته واستكانته واستسلامه.

ولا يخفى ما في استخدام أسلوب المجاز المرسل المتصل بالكناية في موضعين من السياق: ﴿ نَاصِيَةٍ كَاذِبَةٍ خَاطِئَةٍ ﴾ و ﴿ فَلْيَدْعُ نَادِيَهُ ﴾ من زيادة المعنى قوة وتأكيداً، إذ إنّ إسناد الكذب والخطأ للناصية دون صاحبها يُوحي على نحو من التوكيد بتكبره واختياله وغيّه وضلاله، كما يُوحي بقوة التهديد والوعيد وشدة العذاب الذي ينتظره، ولا يعصمه من هذا العذاب قوته التي يُفاخر بها ويكابر كما دلّ المجاز المرسل الآخر ﴿ فَلْيَدْعُ نَادِيَهُ ﴾ إذ ذكر المحل وأراد الذي يحِلّ فيه، وهي القوة التي يركن إليها من أئمة الكفر والشرك من ملئه، وفي هذا المجاز إيحاء بشدة القوة التي يركن إليها ويفاخر بها، ولكن فيه من جانب آخر إيحاء بشدة عذابه وسوء مصيره، وقد صوّرت الكناية الساخرة جانباً منه.

(1) الكشاف: 4 / 620.

(2) ينظر: الكشاف: 4 / 620.

(3) ينظر: أسلوب السخرية في القرآن الكريم، ص 208.

ذُقْ إنك أنت العزيز الكريم:

إذا كانت الكناية السابقة سخرت من أبي جهل غاية السخرية وتوعدته بأشد العذاب وأفظعه، فإننا في هذه الكناية التي قيل أنها نزلت في أبي جهل أيضاً [*]، تطلعنا على العذاب المادي والمعنوي الذي ينتظره هناك في نار جهنم، العذاب المادي الشديد كما يصوره السياق، والعذاب المعنوي من تأنيب وسخرية وترذيل كما تصوره الكناية التي تشكلت في هذا السياق الشديد الإيحاء والتركيز في تصوير عذاب أبي جهل بنوعيه. نقرأ ذلك في قوله ـ تعالى ـ: ﴿ خُذُوهُ فَاعْتِلُوهُ إِلَىٰ سَوَاءِ الْجَحِيمِ ۞ ثُمَّ صُبُّوا فَوْقَ رَأْسِهِ مِنْ عَذَابِ الْحَمِيمِ ۞ ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ ﴾ [1].

فالشدة والعنف تتجلى من إيحاء الألفاظ التي تكوّن صورة العذاب، من ذلك لفظ ﴿ خُذُوهُ ﴾ فإنه يُوحي فوق أخذ الكافر إلى جهنم، فإن فيه تهويناً من شأنه وذلك بسلب كل ارادة أو كيان معنوي منه،الكافر ـ كما يُوحي اللفظ ـ مجرد شيء ينقل من مكان إلى مكان، ثم كلمة ﴿ سَوَاءِ ﴾ بما تبرزه في النفس من تصور لوسط الجحيم او قعره او تلظيه، ثـم كلمة ﴿ صُبُّوا ﴾ وما فيها من سخرية وشدة بتصوير الصب فوق رأسه من العذاب كما يُصب الماء، فـ ﴿ صُبُّوا ﴾ استعارة مكنية تصور شدة العذاب الأليم الذي هو فيه، حيث شبّه العذاب بالحميم الآني الشديد الحرارة، ثم حذف المستعار منه ودلّ عليه رادفه الفعل ﴿ صُبُّوا ﴾، فالاستعارة تُوحي بلذع العذاب الشديد الأليم [2].

وفي ذلك مفارقة في تصور المقابلة بين صب الماء وصبّ العذاب، والحرف ﴿ مِنْ ﴾ الذي يُوحي بالتجرع البطيء للعذاب [3] ويتركز إيحاء شديد بالعذاب والإهانة باللفظ ﴿ فَاعْتِلُوهُ ﴾ يُقال: "عتلهُ جرّه جراً عنيفاً وجَذَبهُ.. وقيل: العَتْلُ: أن تأخذ بتَلْبيب الرجل فتعتله أي تجرّه إليك وتذهب به إلى حبس أو بليّة.. ويقال: لا أتعتّل معك شبراً أي لا أبرح مكاني، والعتلة: المَدَرة الكبيرة تتقلّع من الأرض، والعصا الضخمة من حديد لها رأس مُفَلْطَح تكون مع البنّاء يهدم

(*) ينظر: لباب النقول في أسباب النزول، ص 659.

(1) سورة الدخان، الآيات: 47 ـ49.

(2) ينظر: الاستعارة في القرآن الكريم، ص 116.

(3) ينظر: أسلوب السخرية في القرآن الكريم، ص 440.

بها الحيطان، والهراوة الغليظة"[1]. فمادة اللفظ تدور حول الشدة والعنف، وتُوحي بصورة من العذاب مخيفة مفزعة يُؤخذ بها الكافر.

وفوق هذا العذاب المفزع المخيف تأتي الكناية: ﴿ ذُقۡ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡكَرِيمُ ﴾ وفيها سخرية بالغة وتهوين من شأنه وتأنيب وترذيل، قال الزمخشري: "على سبيل الهزؤ والتهكم بمن كان يتعزّز ويتكرّم على قومه. وروي أن أبا جهل قال لرسول الله ﷺ: ما بين جبليها أعز ولا أكرم مني، فو الله ما تستطيع أنت ولا ربُّك أن تفعلا بي شيئاً"[2].

والسخرية البالغة بأبي جهل تتكشف من بنية الكناية القائمة على عكس ما يؤلف استعمال الألفاظ فيها، وذلك بأن يستعمل اللفظ الدال على معنى على ضده ونقيضه، وقد ورد مثال هذا الاستعمال الكنائي كثيراً في القرآن كما في قوله ـ تعالى ـ: ﴿ بَشِّرِ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ بِأَنَّ لَهُمۡ عَذَابًا أَلِيمًا ﴾[3] وقوله: ﴿وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾[4] وقوله: ﴿ فَبَشِّرۡهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾[5] ومنه قوله ـ تعالى ـ على لسان الذين كفروا من قوم شعيب ﷺ: ﴿ ...إِنَّكَ لَأَنتَ ٱلۡحَلِيمُ ٱلرَّشِيدُ ﴾[6]. ومن شأن هذا الأسلوب القرآني تحقيق دلالته البليغة المؤثرة في المتلقي، إذ إنّ التضاد الحاصل عن طريق العكس في الكلام يحقق إيصال معنى الآية على نحو أشد وقعاً، وأكثر إيغالاً في النفس المتلقية لِما فيه من الابدال التهكمي والسخرية اللاذعة، لأن "البشارة يصح التعبير بها في مواطن الخير والكرامة، لا في مظاهر الشدة والعناء، وليس العذاب من مواطن الخير، حتى يبشّر به العاصي، ولكنه تعالى أطلقه عليه تجوزاً من باب اطلاق اسم الضدين على الآخر للنكاية والتشفي، أو السخرية والتهكم"[7].

(1) لسان العرب: 11 / 423 ـ424 (عتل).
(2) الكشاف: 4 / 223.
(3) سورة النساء، الآية: 138.
(4) سورة التوبة، من الآية: 3.
(5) سورة آل عمران، الآية: 24. وينظر: سورة التوبة، الآية 34. وسورة لقمان، الآية: 7. وسورة الجاثية، الآية: 8. وسورة الانشقاق، الآية: 24.
(6) سورة هود، من الآية: 87.
(7) مجاز القرآن خصائصه الفنية وبلاغته العربية، د. محمد علي الصغير، ص 147.

ودلالــة الــسخرية في الكنايــة ﴿ ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْكَرِيمُ ﴾ تتـصاعد أيـضاً بالاستعارة المكنية ﴿ ذُقْ ﴾ ، فالذوق هو فعل الحاسة المعروفة، وتستعمل عادةً فيما يُوكـل مـن المطاعم والمشارب، ولكن القرآن يستعيره لغرض تقريب المعنى بإلباسه ثوباً حسياً في تـذوق نـار شديدة التوهج والاتقاد،وربما وظّف القرآن هذه الحاسة (الذوق) من دون الحواس الأخرى لأن حس الذائق لإدراك ما يذوقه قوي[1] فهي أشد الحواس وأقواها إدراكاً في تـذوق الأشـياء عنـد الإنسان والله أعلم.

ولَمّا كانت نار جهنم ليس لها طعم ليتذوقه الكافر حينئذٍ تتجلى السخرية منه على نحـو جلي، فالاستعارة فيها قائمة على تشبيه العذاب بشيء يُذاق ثم حذفه وأبقى شيئاً مـن لوازمـه وهو الفعل ﴿ ذُقْ ﴾ على سبيل الاستعارة المكنية وذلك ليعمق درجة الاحساس بالعذاب وألمه ومن ثم تأثيره في النفس.

ومن وراء هذا التركيب الكنائي الـذي أشـار إلى الـسخرية اللاذعـة، فـضلاً عـن شـدة العذاب وعنفه الذي يُلاقيه عدو الاسلام والمسلمين أبو جهل، فإن التركيب الكنائي أبعـد مـدى من فرد نزلت فيه الآية،فالعبرة بعموم اللفظ لا بخصوص الـسبب كمـا يقـول المفـسرون وأهـل الأصول[2] فالصورة تعم دلالتها فتـشمل كـل مـن يعـادي الله ورسـوله والمـسلمين علـى مـدار الزمان.

الضَّرْبُ على وجوه الكافرين وأدبارهم:

تصوّر هذه الكناية ما ينتظر الكافرين من عـذاب عنـد مـوتهم، وهـو نـوع مـن العـذاب تتكثف فيه السخرية والإهانة والإذلال، نقرأ ذلك في قوله ـ تعالى ـ: ﴿ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ يَتَوَفَّى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَـٰرَهُمْ وَذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ﴾ [3].

---

(1) ينظر: كتاب الصناعتين، ص 275.

(2) ينظـر: التبيـان في تفـسير القـرآن، للطوسـي: 3/ 93. وينظـر: البرهـان في علـوم القـرآن: 1/ 32. والاتقـان في علـوم القـرآن: 1/ 110. انظـر: مـنهج الطوسـي في تفـسير القـرآن الكـريم، ص 192 ـ 193.

(3) سورة الأنفال، الآية: 50. ينظر: سورة محمد، الآية: 27.

الكناية الساخرة هي: ﴿يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ﴾، قال الزمخشري: "وعن مجاهد: وأدبارهم: أستاههم، ولكن الله كريم يكني، وإنما خصوهما بالضرب لأن الخزي والنكال في ضربهما أشد"[1].

ومشهد ضرب الكافرين على وجوههم وأدبارهم من قبل الملائكة الذين يتوفونهم كما تصوره الكناية مشهد يصوّر نوعاً من العذاب المهين، لذلك فالآية تلفت انتباه المُتلقي إلى أنّ يتصوّره ويتأمله ويدل على ذلك استهلال الآية بالأسلوب الخبري اللافت للنظر: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ..﴾ فهو توجيه خطاب لكل من يرى هذا المشهد البارز وكأنه حالة دائمة كلّما توفّت الملائكة الكافرين، وهو مشهد مروّع يدل على ذلك حذف جواب (لو) وتقديره: "لرأيت أمراً فظيعاً منكراً"[2]،حيث يترك لخيال المُتلقي أن يتخيله فتذهب نفسه كل مذهب في تصوره، ثم يتحول الأسلوب في الآية على سبيل (الالتفات) من الغيبة في الإخبار عن الكافرين إلى خطابهم في أسلوب إنشائي في ختامها: ﴿وَذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ﴾ ليرد المشهد حاضراً مؤثراً في النفوس، فضلاً عن تصعيد دلالة السخرية في الكناية بالاستعارة المكنية ﴿وَذُوقُوا۟﴾ أي "ذوقوا عذاب الحريق أي مقدمة عذاب النار، أو ذوقوا عذاب الآخرة بشارة لهم به"[3] فالاستعارة الحسية تعمق تمثلهم للعذاب، فضلاً عن إردافها هذا النوع من العذاب بالسخرية والتهكم بهم.

ودلالة الكناية فيما هو ظاهر لا تهدف إلى بيان شدة العذاب البدني الذي يلاقيه الكافرون عند الموت فحسب، وإنما تهدف أيضاً إلى التمهيد لعذاب أشد في الآخرة مجسّد في تصوير حسّي حي يشي بالسخرية ذلك أنه اختير مكانان للعذاب عليهما، وهما الوجه الذي يعد الضرب عليه من أقسى وسائل الإهانة والإذلال، والدبر الذي لا يلجأ إلى الضرب عليه إلاّ في الحالات النادرة وفي أقصى حالات الهوان والاحتقار،فهذا المعنى المتمثل في تحقير الكافرين والسخرية منهم هو الهدف البارز الذي تؤديه الكناية في الآية[4] وهو المعنى الذي يتعمق باستعارة الذوق،وكأن عذاب السخرية والإهانة بالضرب على الوجوه والأدبار هو تمهيد لعذابهم بالنار.

(1) الكشاف: 2 / 179.
(2) نفسه: 2 / 179.
(3) نفسه: 2 / 179.
(4) ينظر: أسلوب السخرية في القرآن الكريم، ص 370.

تولية الأدبار:

ويسخر القرآن بهذه الكناية في مواضع كثيرة من الكافرين كلما واجهوا المؤمنين في أرض المعركة. ففي كناية "تولية الأدبار" سخرية بالغة من الكافرين وتحقير لهم، فضلاً عن تصوير خوفهم وذعرهم وهزيمتهم النفسية بحركة تولية الأدبار المادية المشاهدة كلما التقوا بالمؤمنين. وهذه سنة الله لا تتغير ولا تتبدل كما يُخبرنا القرآن بذلك: ﴿ وَلَوْ قَٰتَلَكُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوَلَّوُا۟ ٱلْأَدْبَٰرَ ثُمَّ لَا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ۝ سُنَّةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلُ ۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ﴾[1].

الكناية: ﴿ لَوَلَّوُا۟ ٱلْأَدْبَٰرَ ﴾. والدُّبُر: "نقيض القُبُل. ودُبُرُ كلِّ شيء: عَقِبُهُ ومؤخرهوالأدبار لذوات الحوافر والظِّلْف والمِخْلَب: ما يجمع الأست والحياء،والحياءُ من كلّ ذلك وحده دُبُر"[2]. فالأدبار كنايةٌ عن (الأستاه)[3]، فهي تشير إلى معنيين هما:

1 ـ الهزيمة والفرار من مواجهة المؤمنين.

2 ـ السخرية اللاذعة منهم بانكشاف أدبارهم للمؤمنين.

وفضلاً عن ذلك فإن الكناية تقرر هذه الحقيقة الكبيرة، حقيقة نصر المؤمنين المخلصين على أعدائهم الكافرين حيثما التقوا، وإن أبدى الكافرون شدةً وضراوةً في بعض المعارك، إلاّ أن مصيرهم التخاذل والهزيمة والانتكاس بالمعنى الذي يلازم الصفات المذكورة، فضلاً عن أنه يفضحهم ويسخر منهم كمما صوّرته الكناية.

وما ذلك إلاّ لأن الكافرين محجوبون لا يفقهون ولا يعلمون، قلوبهم خاوية لا تستمد القوة من مصدر القوة الحقيقية التي يعتمد عليها المؤمنون ويتطلعون، وقد صوّرت الكناية نفسها حقيقة الكافرين هذه في موضع آخر في قوله ـ تعالى ـ: ﴿ وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا ۚ وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِى ٱلْقُرْءَانِ وَحْدَهُۥ وَلَّوْا۟ عَلَىٰٓ أَدْبَٰرِهِمْ نُفُورًا ﴾[4].

---

(1) سورة الفتح، الآيتان: 22 ـ23. وينظر: السور الآتية: آل عمران، الآية: 111. المائدة، الآية: 21. والأحزاب، الآية: 15. والقمر، الآية: 45. والحشر، الآية: 12.

(2) لسان العرب: 4 / 268 (دبر).

(3) ينظر: الكشاف: 2 / 179.

(4) سورة الإسراء، الآية: 46. وينظر في هذه الكناية: الادبار عن آيات القرآن السور الآتية: النمل، الآية 80. والروم، الآية: 52. ومحمد، الآية: 25. والمعارج، الآية: 17. والمدثر، الآية: 23. والنازعات، الآية: 22.

﴿ وَلَّوْاْ عَلَىٰٓ أَدْبَٰرِهِمْ نُفُورًا ﴾ كناية عن فرارهم وهزيمتهم، وهم لا يفرون من عدو يطاردهم في أرض المعركة، وإنما هي الهزيمة الروحية والنفسية من استماع آيات القرآن التي تدعوهم إلى التوحيد والهدى والحقيقة التي هم عنها غافلون، لذلك يسخر منهم بهذه الكناية من جبهم واعتزازهم بآلهتهم المزعومة التي بها يشركون، فإذا سمعوا بالتوحيد نفروا على أدبارهم نفوراً [1] كاشفين عن أدبارهم التي تفضحهم وتثير السخرية منهم.

خَرْقُ الأرض وبلوغُ الجبال طولاً:

ترد هذه الكناية الساخرة لتصوّر تلك المشية الخاصة التي يصطنعها بعض الناس والتي تُعد مظهراً من مظاهر الانفصال النفسي في المجتمع، والكناية تطبع هذه المشية بطابع التكلف والتصنع وتنبئ عن ترفع صاحبها عن عامة الناس زهواً وخيلاء، نقرأ ذلك في قوله ـ تعالى ـ: ﴿ وَلَا تَمْشِ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَحًا ۖ إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ ٱلْأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ ٱلْجِبَالَ طُولًا ﴾ [2].

فالسخرية والتهكم بمن اعتاد هذه المشية تتجلى من هذا التعبير الكنائي، والمرح: شدة فرح ونشاط [3] ﴿ لَن تَخْرِقَ ٱلْأَرْضَ ﴾ لن تجعل فيها خرقاً بدوسك لها وشدة وطأتك ﴿ وَلَن تَبْلُغَ ٱلْجِبَالَ طُولًا ﴾ بتطاولك، وهو تهكم بالمختال" [4].

والسخرية والتهكم تتضح في هذه الصورة الكنائية الساخرة من خلال ضعف هذا الانسان الموصوف بهذه المشية التي ترسمها له كأنه يخرق الأرض بدكه إياها، وكأنه يطاول الجبال بشموخ أنفه ورفع هامته إلى السماء، وليس أحد يظنّ أن هذا المتعالي المترفع أنه سيخرق الأرض بمشيته، ولا أن يبلغ الجبال بطوله، ولكنها الكناية التصويرية التي تقرن هذه المشية بهذه الصورة الشديدة السخرية، سواء في نفس من يريد أن يمشيها، أو في نفس من ينظر إليه [5].

وبهذا التصوير الساخر المؤثر يحقق القرآن هدفه في النهي عن هذه المشية التي تخالف مبادئ الاسلام بقدر لا يحققه النهي المجرد الضعيف الأثر في الحس والوجدان، فالنهي بالكناية يظل

(1) ينظر: الكشاف: 2 / 523.

(2) سورة الإسراء، الآية: 37.

(3) أساس البلاغة، ص 424 (مرح).

(4) الكشاف: 2 / 522.

(5) ينظر: أسلوب السخرية في القرآن الكريم، ص 181.

عالقاً في الذهن والنفس بما يتلبسه من مظاهر مادية في صورته المتهكمة المثيرة للضحك والتحقير من كل من تراوده نفسه أن يصطنع هذه المشية ويتكلّفها.

ولا يخفى ما في الكناية من إيحاء يدعو إليه القرآن بها يتمثل هذا الإيحاء بالتعاطف النفسي بين أفراد المجتمع جميعاً، حيث يجعلهم يقفون على قدم متساوية، وصف متكافيء لا يترفع بعضهم على بعض وذلك من خلال سخرية القرآن سخرية شديدة من كل وضع يخالف مبادئ الاسلام كهذه المشية التي حاربها بالكناية الساخرة.

الصَّدَف عن آيات الله :

ويسخر القرآن بالتصوير الكنائي من المكذبين بآيات الله المتكبرين عنها سخرية بالغة، وذلك في قوله ـ تعالى ـ: ﴿ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَّبَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَصَدَفَ عَنْهَا سَنَجْزِي الَّذِينَ يَصْدِفُونَ عَنْ آيَاتِنَا سُوءَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يَصْدِفُونَ ﴾ (1).

الكناية الساخرة ﴿ يَصْدِفُونَ ﴾ قائمة في بنيتها على الاستعارة المكنية حيث شبّه المتكبر عن آيات الله المعرض عنها ببعير مصاب بداء الصدف،ثم حذف المشبه به (المستعار منه) وأبقى شيئاً من لوازمه وهو الصدف، وفي هذاالتصوير الاستعاري يرتسم الذي يصدف عن آيات الله بصورة البعير الذي يميل في مشيته، جاء في أساس البلاغة: "صدف عن الشيء صُدوفاً: أعرض عنه ومن الكناية: رجل صدوف: أبخر لأنه كلما حدّث صدف بوجهه لئلا يوجد بخره "(2)،وقال الراغب: " صدف عنه: كصدف الجبل أي جانبه "(3). والإعراض الشديد ملحوظ في الصدف، لأن المكذب بآيات الله المعرض عنها قد عرف صحة الآيات وصدّقها ثم صدف عنها، قال الزمخشري: "﴿ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَّبَ بِآيَاتِ اللَّهِ ﴾ بعدما عرف صحتها وصدّقها، أو تمكن من معرفة ذلك ﴿ وَصَدَفَ عَنْهَا ﴾ الناس فضلّ وأضلّ ﴿ سَنَجْزِي الَّذِينَ يَصْدِفُونَ عَنْ آيَاتِنَا سُوءَ الْعَذَابِ ﴾ كقوله: ﴿ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ زِدْنَاهُمْ عَذَابًا فَوْقَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يُفْسِدُونَ (*) ﴾ (4).

---

(1) سورة الأنعام، من الآية: 157.

(2) مادة (صدف)، ص 251.

(3) المفردات، ص 408.

(*) سورة النحل، من الآية: 88.

(4) الكشاف: 2 / 64.

ومن وراء هذه الصورة القائمة على الاستعارة يتوارى خلف سجفها معنى مُكنى عنه يثير السخرية من هذا المكتبر عن آيات الله المعرض عنها يتمثل في حَيْوَانية هذا النمط من البشر في تلك الصورة التي أخرجتها الاستعارة وهي ميل البعير في مشيته المثيرة للضحك.

شرُّ الدوابّ:

يتصل هذا التعبير الكنائي بالكناية السابقة من حيث المعنى المتمثل في حيوانية نمط من البشر يعمل على إثارة سخرية المتلقي وازدرائه، نلحظ ذلك في قوله ـ تعالى ـ: ﴿إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ (1).

فهؤلاء الكافرين المصرّون على الكفر وقد لجّوا فيه فلا يُرجى منهم إيمان، هؤلاء شرُّ من يدبّ على وجه الأرض.

إذن ﴿شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ﴾ كناية ساخرة عن حيوانية الكافرين على الرغم من أن لفظ ﴿ٱلدَّوَآبِّ﴾ يشمل كل ما دبّ على وجه الأرض (2)،لكنه قد غلب على ما يركب من الدواب (3) في عرف العامة، فإطلاقه في هذا السياق يُلقي ظل البهيمة على الذين كفروا، فهم قد حرموا أنفسهم من الإيمان لأنهم عطّلوا أجهزتهم التي وهبهم الله إياها، وهي وسائل الإدراك والتعقّل كما وصفهم القرآنفي موضع آخر: ﴿إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلصُّمُّ ٱلْبُكْمُ ٱلَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ﴾ (4)، قال الزمخشري: "﴿إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ﴾ أي أن شر من يدب على وجه الأرض. أو أن شر البهائم الذين هم صم عن الحق لا يعقلونه جعلهم من جنس البهائم، ثم جعلهم شرها" (5). فالتعبير كناية عن بهيميتهم، بل هم شر من البهائم (*) لأنهم مسلوبو العقل والوعي كما جسّد التصوير الاستعاري ﴿ٱلصُّمُّ ٱلْبُكْمُ﴾ حالهم وحقيقتهم وهم ليسوا صمّاً وبُكماً في الحقيقة، ولكنه التصوير المطابق لواقعهم وحالهم عند انتفاء كل تفكير أو وعي عنهم، فهم لا يسمعون سماع هدى

(1) سورة الأنفال، الآية: 55. وينظر: الآية: 22 من السورة نفسها.

(2) ينظر: لسان العرب: 1 / 369 (دبب).

(3) المصدر نفسه: 1 / 370 (المادة نفسها).

(4) سورة الأنفال، الآية: 22.

(5) الكشاف: 2 / 163.

(*) ينظر: السور الآتية: الأعراف، الآية 179. والفرقان، الآية: 44.

وإيمان ولا ينطقون بالحق،كما يشير هذا التصوير إلى إصرارهم على الكفر وتصميمهم عليه فلا يُرجى منهم إيمان ولا يُتوقع.

ولا يخفى ما وراء الكناية ﴿شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ﴾ التي أخرجتهم في صورة الحيوان من اثارة للسخرية والضحك منهم وهم يدبّون على الأرض.

لو يَجِدونَ مَلْجأً أو مَغاراتٍ أوْ مُدَّخَلاً لوَلّوا إليه وهم يَجْمَحُون:

ويرسم القرآن صورة كاريكتارية كنائية تتضمن دلالة ساخرة من المنافقين تصوِّر بحركتهم المادية المضطربة حالتهم النفسية المذعورة الخائفة،وذلك في قوله ـ تعالى ـ: ﴿وَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ إِنَّهُمْ لَمِنكُمْ وَمَا هُم مِّنكُمْ وَلَٰكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرَقُونَ ۞ لَوْ يَجِدُونَ مَلْجَـًٔا أَوْ مَغَٰرَٰتٍ أَوْ مُدَّخَلًا لَّوَلَّوْاْ إِلَيْهِ وَهُمْ يَجْمَحُونَ﴾ [1].

الآية: ﴿لَوْ يَجِدُونَ مَلْجَـًٔا أَوْ مَغَٰرَٰتٍ أَوْ مُدَّخَلًا لَّوَلَّوْاْ إِلَيْهِ وَهُمْ يَجْمَحُونَ﴾ تعبير كنائي يشير إلى الخوف الشديد الذي يميّز المنافقين من غيرهم، فهمز يتطلعون دائماً إلى مكان يلتجئون إليه وذلك لشعورهم الدائم بالمطاردة لأنهم يخفون جريمة كُبرى أجرموها وهي (النفاق) فيدور في نفوسهم دائماً: عن ملجأ أو مغارة أو نفق، أو اي مكان يحتمون به ويستترون فيه [2]. قال الزمخشري: "﴿مَلْجَـًٔا﴾ مكاناً يلتجئون إليه متحصنين به من رأس جبل أو قلعة أو جزيرة ﴿أَوْ مَغَٰرَٰتٍ﴾ أو غيراناً أو ﴿مُدَّخَلًا﴾ أو نفقاً يندسون فيه وينجحرون" [3] فالخوف الشديد من طبيعتهم يسيطر عليهم سيطرةً تفقدهم الأتزان، ويصوّر شدة خوفهم الخاص بهم، ويعمقه الاستعارة المكنية ﴿يَجْمَحُونَ﴾ حيث شبههم في خوفهم الذي يدفعهم إلى الهروب بالفرس الجموح ثم حذف المشبه به (المستعار منه) وأبقى شيئاً من لوازمه عليه وهو(الجموح) على سبيل الاستعارة المكنية، قال الزمخشري: "﴿يَجْمَحُونَ﴾ يسرعون إسراعاً لا يردُّهم شيء،من الفرس الجموح، وهو الذي إذا حمل لم يردُّه اللجام" [4]. ففي الاستعارة تصوير لتلك الاحالة النفسية المذعورة الخائفة التي تحس بالمطاردة تملك عليهم كل حواسهم فيسرعون إسراعاً إلى مخبأ

(1) سورة التوبة، الآيتان: 56 ـ57.
(2) ينظر: أسلوب السخرية في القرآن الكريم، ص 320.
(3) الكشاف: 2 / 220.
(4) نفسه: 2 / 220.

يحتمـون به من حصن أو مغـارة أو نفق.. فهم يتسابقون لا إلى خير أو طاعة، وإنما يتسابقون من فزعهم الداخلي ورعبهم لالتماس المهرب والاختفاء.

ولا يخفى ما في هـذا التصوير في الآية من سـخرية بالغـة وهـي ترصـد حركـاتهم المـادة (الجموح) تجسيداً لما يعتري المنافقين مـن الخـوف الـشديد بوصفه طبيعـة نابعـة مـن دخيلـة نفوسهم فهي ملازمة لهم.

دوران الأعين:

تختص هـذه الكناية الساخرة بتصوير الحالة النفسية للمنافقين، كما اختصت بهم الكنايـة السابقة، إلا أننا نلحظ في هذه الكناية أثر الخوف والرعب أكثر بـروزاً ووضـوحاً وهـو يرتـسم بحركة دوران أعينهم، وذلـك حينمـا يتعرّض المنافقـون لموقـف مخيـف تـضطرب لـه نفوسـهم وقلوبهم خوفاً ورعباً. نقرأ هذه الكناية في قوله ـ تعالى: ﴿ قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الْمُعَوِّقِينَ مِنكُمْ وَالْقَائِلِينَ لِإِخْوَانِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا وَلَا يَأْتُونَ الْبَأْسَ إِلَّا قَلِيلًا ۞ أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ فَإِذَا جَاءَ الْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَالَّذِي يُغْشَىٰ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ فَإِذَا ذَهَبَ الْخَوْفُ سَلَقُوكُم بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ أَشِحَّةً عَلَى الْخَيْرِ أُولَٰئِكَ لَمْ يُؤْمِنُوا فَأَحْبَطَ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا ﴾ (1).

﴿ رَأَيْتَهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَالَّذِي يُغْشَىٰ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ ﴾ هذا التعـبير القـرآني يجـسد حالة نفسية واضحة المعالم،تلك الحالة التي تعتري المنافقين عنـد الـشعور بـالخطر، حالـة الخـوف والرعب وهو يواجهون (القتال) ولكـن القـرآن يـسميه (الخـوف): ﴿ فَإِذَا جَاءَ الْخَوْفُ ﴾ وذلـك لتصوير القتال في صورة الخوف الذي تكون منه حركة ومجيء، وفي ذلك يتجلى وقـع القتـال في النفوس المنافقة الفزعة الخاوية (2) وتأثيره الذي يرتسم في أعينهم في صـورة بـارزة كـما تـصوّره الكناية ﴿ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ ﴾ المتواشجة مع التشبيه ﴿ كَالَّذِي يُغْشَىٰ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ ﴾ في إخراج المعنى.

والكناية ﴿ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ ﴾ متواشجة مع المجاز العقلي تصوّر أعينهم كلها تدور، والحقيقـة: تدور أحداقهم في أعينهم باسناد الفعل ﴿ تَدُورُ ﴾ إلى المكـان ﴿ أَعْيُنُهُمْ ﴾ ولكـن شـدة الـدوران وسرعة تقلّبها خيّل أن العيون كلها تـدور، فلـيس الـدوران دوران المحـاجر والأحـداق، ولكنـه

---

(1) سورة الأحزاب، الآيتان: 18 ـ19. وينظر: سورة محمد، الآية: 20.

(2) ينظر: من أسرار التعبير القرآني، د. محمد أبو موسى، ص 78.

دوران العيون حتى الجفون والأهداب، وفي كل ذلك تصوير لقـوة أعينـهم الدائبـة [1] وبـذلك تشير هذه الصورة الكنائية بقوتها التعبيرية المحسوسة إلى مقدار صفة خوفهم ورعبهم، فضلاً عن ضعفهم وتخاذلهم وفتورهم، وهي المعاني التي صوّرها المشبه بـه ﴿ كَٱلَّذِى يُغْشَىٰ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْمَوْتِ ﴾ فهي مظهر الموت والاستسلام.. فالصورة التشبيهية ترسم عيني المنافق حيث يشعر بـالخطر على حياته، بأنهما أشبه بعيني شخص يغشاه الموت فتشل منه كل حركة، ويسكن منه كـل عـضو،إلاّ عينيه فإنهما يدوران، دوران الضعف والاستكانة والرعب والفـزع، ومـشاعر وانفعـالات كـثيرة تُوحي بها الصورة التشبيهية، حين تُصَوِّر حالة شخص يعاني سكرات الموت، ولكـن البـارز في نظرة المنافقين هو تعلّقها بشخص الرسول ﷺ، كأنهم يتشبثون به مستغيثين مستجيرين من شـدة ما يراودهم من فزع [2] فهو الصراع النفسي الرهيب في نفس المنافق بين حرصه على إظهار غير حقيقته، وحرصه على حياته يكشفها القرآن ويجليها من خلال عيني المنافق التي منهما يطـل كـل ما يدور في نفسه من انفعالات ومشاعر.

ولا شك في أن الصورة الكنائية فضلاً عن الصورة التشبيهية اللتين جسدتا تلك المـشاعر النفسية والانفعـالات تثير السخرية مـن المنافقين بوصـفها هـدفاً مـن أهـداف هـذا التعبير التصويري الهادف إلى ردع النفوس عن هذا التصرف بهذه الصيغة المحسوسة التي يمكن أن يتابعها الخيال يتملاّها، وتتصاعـد دلالة السخرية منهم عندما ينقلب خوفهم إلى خلافـه حينمـا يحـسّون بالأمن ﴿ فَإِذَا ذَهَبَ ٱلْخَوْفُ سَلَقُوكُم بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ ﴾ وهـو تعبير يقـف على التـضاد في الـصورة والمعنى مع ﴿ فَإِذَا جَآءَ ٱلْخَوْفُ ﴾ فيكشف التعبيران عن حالتين متباينتين أشد التباين. فبعـد ذلـك الخوف والفزع والموت والاستسلام إذا هـم حين مجيء الأمـن يتـسلّطون على المـؤمنين إيـذاءاً بالسنتهم سبّاً وشتماً بالصورة التي تعبر عنهـا الاستعارة ﴿ سَلَقُوكُم ﴾ ، والسَّلْق: "الـضرب. وسَلَقَه بالسَّوْط وملَقه أي نزع جلده.. وسَلَق الشيء بالماء الحار يَسْلُقه سَلْقاً: ضـربه. وسـلق البيض والبقل وغيره بالنار: أغـلاه.. ويقـال: سَلَقْت اللحـم عـن العظم إذا انتَحَيْتَـه عنـه" [3] فاستعير السلق في الآية للإيذاء والعيب والإهانة بالقول، فشبّه الإيذاء والعيـب بالـسلق. بجـامع قوة التأثير والإيذاء، وفي ضوء ذلك يكون وصف الألسنة بالحداد من قبيـل الترشـيح لاسـتعارة

---

(1) ينظر: من أسرار التعبير القرآني، ص 79.

(2) ينظر: أسلوب السخرية في القرآن الكريم، ص 111، 322، 391. وينظر: الكشاف: 3 / 419.

(3) لسان العرب: 10 / 160 وما بعدها (سلق).

السلق [1] فتجلي الاستعارة شدة إيذائهم للمؤمنين بعد ذهاب الخوف، وارتفاع أصواتهم بعد الارتعاش، وانتفاخ أوداجهم بالعظمة، وانتفاشهم بعد انزوائهم، وادعائهم في غير حياء، ما شاء لهم الادعاء، من البلاء في القتال والفضل في الأعمال، والشجاعة، والاستبسال [2] بعد ذلك الخوف والموت والاستسلام المثير للسخرية منهم حين تُصوّر هذه المفارقة الضاحكة.

الخوالف:

تستهدف هذه الكناية الساخرة المنافقين أيضاً فتثير الضحك والسخرية منهم، وتجسد حالتهم النفسية المستكينة الخائفة من القتال والتي تجعلهم يختلقون المعاذير ليتخلّفوا عن مشاركة الرسول ﷺ والمسلمين في الجهاد، فتتكشف دخيلتهم في ضوء النهار في صورة بالغة السخرية، وذلك في قوله ـ تعالى ـ: ﴿إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ عَلَى ٱلَّذِينَ يَسْتَـْٔذِنُونَكَ وَهُمْ أَغْنِيَآءُ ۚ رَضُوا۟ بِأَن يَكُونُوا۟ مَعَ ٱلْخَوَالِفِ وَطَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [3].

قال الزمخشري: "فإن قلت: ﴿رَضُوا۟﴾ ما موقعه؟ قلت: هو استئناف كأنه قيل: ما بالهم استأذنوا وهم أغنياء؟ فقيل: رضوا بالدناءة والضعة والانتظام في جملة الخوالف ﴿وَطَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾ يعني أن السبب في استئذانهم رضاهم بالدناءة وخذلان الله تعالى إياهم" [4].

والكناية الساخرة تتمثل في قوله ـ تعالى ـ: ﴿رَضُوا۟ بِأَن يَكُونُوا۟ مَعَ ٱلْخَوَالِفِ﴾ وهي قائمة في بنيتها على الاستعارة التصريحية حيث عنّى بالخوالف وهي ـ الأعمدة التي تكون في أواخر بيوت الحي ـ النساء، فشبههن لكثرة لزوم البيوت بالخوالف التي تكون في البيوت [5] وفي ذلك توبيخ للمنافقين وتقريع، فقد اختاروا بأن يكونوا مع النساء ومع المرضى والعجزة المتخلّفين عن الجهاد بعذر، فمن ضعفهم واستكانتهم يحتمون بالنساء الخوالف مؤثرين الراحة والدعة على المشقة والجهاد، والاستعارة ليست غاية بذاتها وإنما هي وسيلة فاعلة في تقريب صورة الكناية وإبراز دلالتها الساخرة في الكشف عن جبنهم وخوفهم

(1) ينظر: من أسرار التعبير القرآني، ص 80.
(2) في ظلال القرآن: 6 / 557.
(3) سورة التوبة، الآية: 93. وينظر: الآية 87 من السورة نفسها.
(4) الكشاف: 2 / 236.
(5) ينظر: تلخيص البيان في مجازات القرآن، ص 148. وينظر: صفوة التفاسير: 1 / 556.

من القتال الذي يدفعهم إلى الاحتماء والاستتار خلف النساء والمرضى والعجزة،وبذلك تتجلى السخرية منهم، لأن أصور المنافقين وهـم يحتمون بهؤلاء هـو تصوّر طريف يثير السخرية منهم.

أكل الطعام:

يسخر القرآن من الذين يعتقدون ألوهية المسيح ﷺ بكناية ساخرة مهذبة سامية تتجافى عمّا تنفر منه النفوس، والتسامي في التعبير هو أحـد خـصائص الكنايـة القرآنيـة حيـث تتجنب دائماً نبو الألفاظ وقبح المعنى فتسمو باللفظ والمعنى وتحقق هدفها في صورة مؤثرة، نلحظ ذلك في قوله ـ تعالى ـ: ﴿ مَّا ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ وَأُمُّهُۥ صِدِّيقَةٌ ۖ كَانَا يَأْكُلَانِ ٱلطَّعَامَ ۗ ٱنظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ ٱلْءَايَٰتِ ثُمَّ ٱنظُرْ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴾ [1].

الكناية الساخرة ﴿ كَانَا يَأْكُلَانِ ٱلطَّعَامَ ﴾ وهي كناية سامية تترفع عن التصريح [2] عن المعنى المقصود، فترسم بظاهرهـا المسيح وأمه ـ عليهمـا السلام ـ وهمـا يـأكلان الطعام بوصفه حاجة ضرورية للبشر. فالمسيح وأمه لا علاقة لهما بالألوهيـة قـط، وأنهمـا مـن البـشر، يجري عليهمـا، ويصدر منهما سـائر ما يجري وما يصدر مـن البـشر، وبخاصـة في أشـد الأمـور التي لا يمكن تصورهـا مع الألوهية ـ كما أوحت الكناية في لازم معناها المقصود وهـو ((قـضاء الحاجة))[3] كالبول والغائط وسائر السلوك والغرائـز البـشرية الـتي كنّى عنها بـ ﴿ يَأْكُلَانِ ٱلطَّعَامَ ﴾ ترفّعاً وتسامياً بسخرية القرآن ـأن تنزل إلى مستوى سخرية البشر، فـالقرآن يرمـز لذلك بشيء واحد ﴿ كَانَا يَأْكُلَانِ ٱلطَّعَامَ ﴾ لأن أكل الطعام تتبعه أشياء كـثيرة، يتسامى القرآن عن ذكرها، ويكتفي الإشارة إليها [4]. فالقرآن يسمو في لفظه ومعناه عمّا تجفوه النفـوس، ولو جـاءت الآية الكريمة مصرّحة بالتعبير عن قضاء الحاجة لتولّد في نفس المتلقي انفعـال منفّـر ومقزّز، للانطباعات المرتكزة في ذهنه عنهـا، إذ ستنقله إلى تلك الـصورة الـتي اختزنهـا في مخيلتـه عنها [5]، في حين إنّ الكناية في دلالتها الإيحائية، فضلاً عمّا ولذتـه مـن انفعـال ايجـابي محبّـب في

---

(1) سورة المائدة، الآية: 75.

(2) ينظر: الأسس النفسية لأساليب البلاغة العربية، ص 233.

(3) ينظر: المنتخب مـن كنايـات الأدبـاء واشـارات البلغـاء، ص 6. والعمـدة: 1 / 268. وينظـر: الاتقـان في علوم القرآن: 3 / 144.

(4) ينظر: الكشاف: 1 / 517 ـ5187. ومن بلاغة القرآن، ص 227.

(5) الأسس النفسية لأساليب البلاغة العربية، ص 233 ـ234.

المتلقي وملائم لتقبّل الصورة [1] فإنها ركّزت على المضمون وعلى الهدف،والتركيز على المضمون هنا واضح رغم بساطة التعبير في ظاهره، لأن القضية هي ادعاء بعض الناس نسبة المسيح إلى الألوهية،وغاية السخرية ممّن يدّعون ذلك ويعتقدونه، أن يُقال لهم تصوروا أن إلهاً يأكل الطعام، ثم يأتي الغائط، وسائر ما يأتيه الناس، ومجرد رسم هذه الصورة في مقام ادّعاء الألوهية بالغ الردّ والتهكمّ بقائلي هذا القول والهدف واضح، وهو ردّهم إلى المنطق السليم والتفكير القويم [2] ويتجلى الهدف في التعليق على الصورة: ﴿ٱنظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ ٱلْآيَـٰتِ ثُمَّ ٱنظُرْ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾.

ففي الكناية تحشد تلك المعاني والإيحاءات على بساطتها وإيجازها في تفنيد اعتقادهم الفاسد في صورة تثير السخرية منهم والضحك.

الأخذ بالنواصي:

وفي سياق قصة عاد قوم هود ﷺ يقدم القرآن كناية تصويرية تسخر من عاد الجبارين الظالمين، وذلك في قوله ـ تعالى ـ على لسان نبيهم مخاطباً لهم: ﴿إِنِّى تَوَكَّلْتُ عَلَى ٱللَّهِ رَبِّى وَرَبِّكُم مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذٌۢ بِنَاصِيَتِهَآ إِنَّ رَبِّى عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [3].

جاء في تفسير هذه الآية: "ولما ذكر توكلّه على الله وثقته بحفظه، وكلاءته من كيدهم، وصفه بما يوجب التوكل عليه من اشتمال ربوبيته عليه وعليهم، من كون كل دابة في قبضته وملكته وتحت قهره وسلطانه، والأخذ بنواصيها، تمثيل لذلك ﴿إِنَّ رَبِّى عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ يريد أنه على طريق الحق والعدل في ملكه، لا يفوته ظالم، ولا يضيع عنده معتصم به" [4].

الكناية قوله تعالى: ﴿مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذٌۢ بِنَاصِيَتِهَآ﴾ وهي صورة حسية تُوحي بمعناها المكنى عنه المتمثل في قدرة الله العظيمة التي تقهر كل شيء، فهو في قبضتها مقهوراً، وسلطانه الشامل في ملكه لا يند عنه شيء، كما تُوحي الكناية بعدالة الله المطلقة في ملكه القائم على الحق.

---

(1) المصدر نفسه، ص 233. وينظر: التعبير الفني في القرآن، ص 202.

(2) أسلوب السخرية في القرآن الكريم، ص 127.

(3) سورة هود، الآية: 56.

(4) الكشاف: 2 / 316.

وإيحاء العدالة والحق في الكناية، فضلاً عن القدرة القاهرة التي تأخذ بناصية كل دابة ـ بما فيهم قوم عاد ـ تتجلى في صورة واضحة وعلى نحو حسي غليظ وهو ما يُناسب السياق مع قوم عاد في غلظتهم وشدتهم، وتناسب غلظ حسهم ومشاعرهم كما أخبر عنهم القرآن: ﴿ فَأَمَّا عَادٌ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ ﴾ (1).

كما أنّ لفظ دابة في الكناية ـ وإن كان يشكل كل ما يدب على وجه الأرض ـ إلاّ أنها في هذا السياق تلقي ظلها، ظل البهيمة على قوم عاد، فهم كالبهائم بل أضلّ سبيلاً، فهم قد عطّلوا ما وهبهم الله من وسائل للهداية والإيمان من سمع وأبصار وأفئدة، كما أخبر عنهم القرآن في موضع آخر ﴿ ... وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَارًا وَأَفْئِدَةً فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَا أَبْصَارُهُمْ وَلَا أَفْئِدَتُهُم مِّن شَيْءٍ إِذْ كَانُوا يَجْحَدُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴾ (2).

ومن وراء هذه الصورة الكنائية التي تصوّر ـ من ضمن ما تُصوّر ـ قوم عاد الغلاظ الشداد دواب من تلك الدواب المأخوذ كل منها بناصيتها فهي مقهورة مغلوبة، نلحظ إيحاء السخرية والتهكم بهم، تسخر منهم ومن قوتهم.. والكناية تسخر كذلك من كل متجبّر عاتٍ غليظ وهو مأخوذ بهذه الصورة القاهرة الساخرة. وهذه هي سنّة الله في الكافرين الظالمين ﴿إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ (3).

وبذلك يتجلى من خلال الكنايات الساخرة التي عرضها الفصل أن الكناية الساخرة هي ليست مجرد أسلوب تعبيري وتصويري يبعث على الضحك أو مجرد تهجم أو هجاء أو تهوين شأن من الخصم فحسب، وإنما هي ـ أيضاً ـ وسيلة حيوية لتحقيق أهداف على جانب كبير من الأهمية، سواء من الناحية النفسية أو من الناحية الاجتماعية.. وهي (الكناية الساخرة) في طبيعتها سلاح يستخدمه القرآن ضد أعداء المسلمين.. وهي ـ في الأعم الأغلب ـ تستهدف أئمة الكفر والشرك الذين يسددون العداء للإسلام والمسلمين بكل ما أوتوا من قوة.. لذلك ميّزهم القرآن بتعابير كنائية ساخرة تنال منهم نيلاً مؤلماً، إذ قامت الكناية بوصفها أسلوباً تعبيرياً وتصويرياً حيوياً بنصيبها الفني في أداء المعاني والأفكار التي قصد القرآن إليها، ولو أن تعابير حقيقية أخرى غير الكناية لما استطاعت أن تنهض بما نهضت به الكناية تعبيراً وتصويراً في مواضعها التي اختارها القرآن.

---

(1) سورة فصلت، الآية: 15.
(2) سورة الأحقاف، من الآية: 26.
(3) سورة هود، من الآية: 56.

الفصل السادس

الكنايات المعرفيّة

الفصل السادس

الكنايات المعرفيّة

نقصد بالكناية المعرفية تلك التراكيب الكنائية المتعلقة بالحواس من سمع وبصر وفؤاد، والتي بها يتم تحصيل العلم والمعرفة بوصفها أداة هادية إلى الإيمان بالله ﷻ فيتماز الانسان بها من المخلوقات الأخرى.

وقد حثّ القرآن الكريم حثاً كبيراً على استخدام هذه الحواس بوصفها وسائل لتحصيل المعرفة في كثير من آياته الكريمة، وأعطى لهذه الحواس مسؤوليتها الكبرى عن كل خطوة يخطوها الانسان المسلم في مجال: والنظر والتامل والمعرفة والتجريب [1]، فقال له: ﴿ وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۚ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُو۟لَـٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا ﴾ [2]. بل القرآن يخطو خطوة أعمق في حث الناس على استخدام بصائرهم وهي تستقبل في كل لحظة مدركات حسية، سمعية، وبصرية، ولمسية، لا حصر لها، وذلك من أجل الوصول إلى الحق الذي تقوم عليه وحدة نواميس الكون والخليقة [3].

وتطالعنا في القرآن آيات كثيرة تحث على تحريك العقل الذي منحه الله لبني آدم [4]، وآيات تدعو الانسان إلى التفكير العميق بكل ما يحيط به من موجودات [5]، وما يُقال عن التفكر يمكن أن يُقال عن (التفقه) [6]. والتفقه: "خطوة (عقلية) أبعد مدى من التفكير، إذ هي الحصيلة

---

(1) ينظر: مدخل إلى موقف القرآن الكريم من العلم، د. عماد الدين خليل، ص 71. وينظر: نصوص قرآنية في النفس الانسانية، د. عز الدين اسماعيل، ص 151 وما بعدها. وينظر: المعرفة الصوفية ـدراسة فلسفية في مشكلات المعرفة ـ ناجي حسين جودة، ص 92.

(2) سورة الاسراء، الآية: 36.

(3) ينظر: مدخل إلى موقف القرآن الكريم من العلم، ص 76. وينظر: السور الآتية: الأنعام، الآية: 194. والقصص، الآية: 72. والذاريات، الآية: 21.

(4) ينظر: السور الآتية: البقرة، الآية: 171 و 242. والعنكبوت، الآية: 43.

(5) ينظر: السور الآتية: البقرة، الآية: 266. والأنعام، الآية: 50. والروم، الآية: 87.

(6) ينظر: السور الآتية: النساء، الآية: 78. وهود، الآية: 91. وطه، الآية: 28.

التي تنتج عملية التفكير، وتجعل الانسان أكثر وعياً لما يحيط به وأعمق إدراكاً لأبعاد وجوده وعلاقاته في الكون، كما تجعله متفتح البصيرة دوماً، مستعداً للتحاور المسؤول عن كل ما يعرض عليه من أسئلة وعلامات "[1].

والحواس بوصفها منافذ للتعقل والتفكر والتفقه ومن ثم المعرفة هي التي تعطي الانسان قيمته وتفرده، وتبوّئه مركزه المسؤول سيداً على العالمين وخليفة لله في الأرض [2].

وبالمقابل نعى القرآن على الذين لا يستخدمون حواسهم وعقولهم وبصائرهم، الذين ينساقون الانسياق الأعمى وراء أي شيء، لذلك كان القرآن المعجزة العقلية الكبرى، يقول السيوطي: "وأكثر معجزات بني اسرائيل كانت حسية.. وأكثر معجزات هذه الأمة عقلية.. لأن هذه الشريعة لمّا كانت باقية على صفحات الدهر إلى يوم القيامة خصّت بالمعجزة العقلية الباقية (القرآن) ليراها ذوو البصائر "[3].

ومن ثم كانت للمعرفة مكانةً عظيمةً في الاسلام الذي يدعو إلى التفكير لتحصيلها ومعاناتها، ونعى على الذين لا يحاولون التفكير والتأمل ولا يستخدمون حواسهم وطاقاتهم لما خلقت له فهي معطلة لا تؤدي وظيفتها المرجوة التي يهدف إليها القرآن بوصفها وسائل هادية إلى الإيمان، فإذا ما تعطلت تؤدي بالانسان إلى الضلال والكفر، فهم على هذه الحال بمنزلة البهائم والأنعام بل أضل ﴿ وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ ۖ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَا ۚ أُولَٰئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ۚ أُولَٰئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ ﴾ [4].

وقد صوّر القرآن بالأسلوب الكنائي الموحي حال الذين عطّلوا حواسهم وعقولهم وبصائرهم من الكافرين والمنافقين والمشركين فهم يزرحون في ضلال وعمى وكأنهم قد سُلبوا هذه الوسائل، وسائل الإدراك والمعرفة، فيتمتّعون ويأكلون كما تأكل الأنعام [5].

---

(1) مدخل إلى موقف القرآن الكريم من العلم، ص 84.

(2) ينظر: المصدر نفسه، ص 80.

(3) الاتقان في علوم القرآن: 4 / 3. وينظر: المعرفة الصوفية -دراسة فلسفية في مشكلات المعرفة-، ص 24 وما بعدها.

(4) سورة الأعراف، الآية: 179. وينظر: سورة الفرقان، الآية: 44. وسورة الزخرف، الآية: 40. وسورة هود، الآية: 20. وسورة الجاثية، الآية: 23.

(5) ينظر: سورة محمد، الآية: 12. وسورة المرسلات، الآية: 46.

وبذلك تجلي هذه الكنايات التصويرية عالم الكفر والضلال أجلى بيان، وبالمقابل تجلي كنايات تصويرية أخرى عالم الإيمان والهدى، فيتقابل أمام الفكر والنفس عالمان متناقضان في دلالاتهما في صورة بيانية كاشفة تفصل كل عالم من هذين العالمين بصفات حسية تشخص رموزاً لا ينقطع إيحاؤها.

وسنحاول توزيع هذه الكنايات كل على انفراد ثم نحاول بيان دلالاتها وإيحاءاتها التي تهدف إليها.

الأكنّةُ والوقْرُ والحجاب:

ترد هذه الكنايات الثلاث في سياق إعراض الكافرين وعلى لسانهم خطاباً منهم للرسول ﷺ وذلك في قوله ـ تعالى ـ: ﴿ وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ وَفِي آذَانِنَا وَقْرٌ وَمِن بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ فَاعْمَلْ إِنَّنَا عَامِلُونَ ﴾ (1).

نلحظ في الآية الكريمة ثلاث كنايات وصفية متواشجة في إخراج المعنى المكنى عنه الذي يجلّي العالم الداخلي والنفسي وللكافرين، ويكشف عن موقفهم وسفاهتهم إزاء ما يدعوهم إليه الرسول ﷺ: فهم يصمون أنفسهم بقولهم: ﴿ قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ ﴾ و﴿ وَفِي آذَانِنَا وَقْرٌ ﴾ و ﴿ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ ﴾، بهذا الترتيب الذي يدل على تصميمهم على الكفر وإصرارهم عليه، إذ جعلوا قلوبهم في أكنة ابتداءً فعطلوها عن الإدراك، وإذا ما تعطلت القلوب فمن البدهي، أن تكون الآذان معطلة عن السمع، فضلاً عن حاسة البصر التي دلّت عليها الكناية ﴿ وَمِن بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ ﴾ وبذلك يتجلى إصرارهم على الكفر وتصميمهم عليه.

والأكنة: الأغطية جمع كنان (2) وهي كناية تصور المعنى المراد بأسلوب مجازي، فليس ثمة أغطية محسوسة على قلوبهم أو عقولهم، وكذلك الكناية ﴿ وَفِي آذَانِنَا وَقْرٌ ﴾ فليس ثمة في آذانهم على الحقيقة، والوقر: الثقل في السمع، يُقال: "باذنه وَقْرٌ: ثِقَلٌ، وأذن وَقِرَةٌ وموقورة، وقد وُقِرَت أذني، وَوَقَرَت عن استماع كلامه" (3) فهو التصوير الذي يشع بدلالاته إذ يجعلنا نتخيل

(1) سورة فصلت، الآية: 5. وينظر: سورة الأنعام، الآية: 25. وسورة الاسراء، الآية: 46. وسورة الكهف، الآية: 57، في كناية الأكنة. وينظر: كناية (الوقر) سورة لقمان، الآية 7. وسورة فصلت، الآية: 44.

(2) ينظر: لسان العرب: 13 / 361. (كنن)، وينظر: المفردات، ص 664.

(3) أساس البلاغة، ص 506 (وقر).

قلوبهم وهي مغلقة بأغطية محكمة لا ينفذ إليها شيء مما يقوله الرسول ﷺ ويدعوهم إليه، فيكون التصوير كنايةً عن نبو قلوبهم وإعراضهم عن تقبّل الحق الذي يدعوهم إليه، وإصرارهم على الكفر إصراراً كبيراً لا سبيل للإيمان إليه كما تُوحي الكناية به.

وفوق الأكنة التي غطّت قلوبهم تغطية ساترة لها، في آذانهم صمم فهي لا تسمع ﴿وَفِيٓ ءَاذَانِنَا وَقۡرٞ﴾ لا تسمع سماعاً يؤدي بهم إلى تفكير وتفقه ينتهي بهم إلى الهدى والإيمان، فضلاً عن ذلك فإن في هذه الكناية إيحاء السخرية منهم، وهو إيحاء يأتي من استعمالات المادة ﴿وَقۡرٞ﴾، فالأصل في استعمالها في الدواب ـ بكسر الواو ـ ﴿وِقۡرٗا﴾، ثم استعملت في ثقل السمع ـ بفتح الواو ﴿وَقۡرٞ﴾ "والوِقر: هو الحمل الذي يُحمل على الدابة، ويقال: أوقر البغلَ أو الحمارَ.. واستوقرتِ الإبلُ شحماً: أثقلها السِّمن.. ووُقِرت الدابةُ، ووقِرَت فهي موقورة وَوَقِرَة في حافرها هَزْمة"(1) فهو إيحاء مقصود يجري على ألسنتهم صفة لهم، فضلاً عن أنه يملأ نفس المتلقي سخرية منهم وازدراء.

تكتمل الصورة التي تبين حالهم بالكناية الثالثة التي يدعمون بها أنفسهم بالعمى فأعينهم لا ترى، فبينهم وبين الداعي محمد ﷺ حجاب كثيف مانع من الرؤية ﴿وَمِنۢ بَيۡنِنَا وَبَيۡنِكَ حِجَابٞ﴾ قال الزمخشري: "كأن بينهم وما هم عليه، وبين رسول الله ﷺ وما هو عليه: حجاباً ساتراً وحاجزاً منيعاً من جبل أو نحوه، فلا تلاقي ولا ترائي"(2) وهو حجاب كثيف كما أفاد الحرف (من): "فإن قلت: هل لزيادة (من) في قوله: ﴿وَمِنۢ بَيۡنِنَا وَبَيۡنِكَ حِجَابٞ﴾ فائدة؟ قلت: نعم، لأنه لو قيل: وبيننا وبينك حجاب، لكان المعنى: أن حجاباً حاصل وسط الجهتين، وأما بزيادة (من) فالمعنى: أن حجاباً ابتدأ منّا وابتدأ منك، فالمسافة المتوسطة لجهتنا وجهتك مستوعبة بالحجاب لا فراغ فيها"(3) فهم يسخرون من أنفسهم، إذ الكناية تجعلنا نتخيل فيها الكافرين وقد أقاموا بينهم وبين الرسول ﷺ الذي يدعوهم إلى سماع الخير ورؤيته حجاباً كثيفاً مانعاً خوفاً من أن يصل كلامه إلى آذانهم وقلوبهم.

وبذلك تتعطل لديهم وسائل المعرفة والعلم بهذه الحجب الثلاثة التي صوّرتها الكنايات: حجاب الأغطية التي تلف قلوبهم وتغطيها بإحكام، وحجاب الصمم في أسماعهم،

---

(1) أساس البلاغة، ص 506 (وقر). وينظر: أسلوب السخرية في القرآن الكريم، ص 442 ـ443.
(2) الكشاف: 4/ 144.
(3) م.ن: 4/ 144 ـ145.

وحجاب العمى في أبصارهم.وباجتماعها تتعمق دلالة المعنى المُكنى عنه:عنادهم وتصميمهم على الكفر وإصرارهم عليه، ويتصاعد هذا المعنى تمكناً من قلوبهم بما انتهت به الآية الكريمة ﴿ فَٱعْمَلْ إِنَّنَا عَٰمِلُونَ ﴾ فهو الاصرار على ما هم عليه من كفر وعناد، أي: "اعمل أنت على طريقتك، ونحن على طريقتنا، واستمر على دينك فإننا مستمرون على ديننا"[1]. فهو الإمعان في العناد يُراد منه تيئيس الرسول ﷺ من استجابتهم له ولما يدعوهم إليه.

ولا يخفى ما في الآية من إيحاء قوي دال على صبر الرسول ﷺ على ما كان يلقاه من معاناة وآلام وهو يدعو هذه النفوس الكافرة الكارهة للخير والهدى والإيمان.

ولا يخفى أيضاً أثر هذه الصور الكنائية المتتابعة في نفس المتلقي من حيث ترسيخ المعاني والصفات بإكسائها ثوب الماديات المحسوسة،وكأنه وقف على القضية مشفوعة بدليلها، وعلى الدعوى في طي برهانها.

غُلْف:

تختص هذه الكناية التصويرية بوصف حال اليهود، وقد وردت في موطنين من القرآن ـ وعلى لسانهم ـ منهما قوله ـ تعالى ـ: ﴿ وَقَالُوا۟ قُلُوبُنَا غُلْفٌۢ ۚ بَل لَّعَنَهُمُ ٱللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَقَلِيلًا مَّا يُؤْمِنُونَ ﴾ [2].

﴿ قُلُوبُنَا غُلْفٌ ﴾ كناية تصويرية تجسّد فعل اليهود إزاء دعوة الرسول ﷺ بهذا القول الغليظ الذي يتبجحون به.

وهذه الكناية قائمة في بنيتها على الاستعارة وفيها تشبيه قلوبهم بشيء مغلّف ثم حذف المشبه به وأبقى شيئاً من لوازمه (الغلاف) على سبيل الاستعارة المكنية، وذلك لتعميق دلالة عدم استجابتهم،لأن قلوبهم لا تعي شيئاً فهي مغشاة بغلاف لا ينفذ إليها شيء فهي لا تعي الحق ولا تقبله. والاستعارة هنا ليست غاية في حد ذاتها وإنما هي وسيلة تعبير تقودنا إلى معنى مكنى عنه آخر يتوارى خلفها، ويتمثل هنا في عنادهم وإصرارهم على ما هم عليه من ضلال وكفر وتصميمهم عليه، فضلاً عن تيئيس للرسول ﷺ من إيمانهم بما يدعوهم إليه.

وقد أورد الراغب لهذا التعبير الكنائي القائم على الاستعارة معاني أخرى، يتجلى فيها جانب من شخصية اليهود التي تمتاز بالتكبر والتبجح والاستهزاء والتكذيب. قال الراغب: "

---

(1) صفوة التفاسير: 3 / 116.

(2) سورة البقرة، الآية: 88. وينظر: سورة النساء، الآية: 155.

قيل: هو جمع أَغْلَفَ كقولهم سيف أَغْلَفُ ـ أي هو في غلاف. وقيل معناه: قلوبنا أوعية للعلم. وقيل معناه: قلوبنا مغطاة. وقيل: قلوبنا غُلُف، هي جمع غلاف.. أي هي أوعية للعلم تنبيهاً أنّا لا نحتاج أن نتعلم منك فلنا غنية بما عندنا "[1].

فقلوبهم أوعية للعلم ـ كما يزعمون ـ يوحي بتكبرهم وتكذيبهم، فهم لا يرضون أن يدعوهم إلى خير وهدى أحد، فهم شعب الله المختار وأحباؤه كما يزعمون [*].

وقلوبهم أوعية للعلم فلا يحتاجون أن يتعلموا من الرسول ﷺ غنية بما عندهم يوحي ـ أيضاً ـ بالتبجح والإدعاء، فضلاً عن الاستهزاء بمن يدعوهم وتيئيسه من اسلامهم.

وكلها معان وإيحاءات تشع من هذا التعبير التصويري تتجمع فتجلي صفات تميّز اليهود من غيرهم كفراً وتكبراً وتكذيباً ﴿بَل لَّعَنَهُمُ ٱللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَقَلِيلًا مَّا يُؤْمِنُونَ﴾ فلا يقع الإيمان إلاّ لقلّة قليلة منهم،ليس لقصور في إفهامهم كما زعموا بقولهم ـ قلوبنا غلف ـ ولكن لأنهم كفروا فلعنهم الله بكفرهم وحجبهم عن الإيمان وأسبابه.

الختم:

ورد الختم في القرآن في عدة مواضع من ذلك قوله ـ تعالى ـ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ۝ خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ ۖ وَعَلَىٰٓ أَبْصَٰرِهِمْ غِشَٰوَةٌ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [2].

ثمة نلحظ كنايتين تصويريتين، الأولى: ﴿خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ ۖ﴾ وهي قائمة في بنيتها على الاستعارة، حيث شبّهت قلوب الكافرين التي لا تستجيب للحق، وأسماعهم التي لا تسمع داعي الحق، شبّهت بالوعاء المختوم عليه فلا يصل إليه شيء [3] فهي قلوب وأسماع معطلة كما جسدتها الاستعارة على حقيقتها فهي لا تنتفع بالخير، نقول على حقيقتها ـ وإن كانت في واقعها غير ذلك ـ ولمّا كانت لا تنتفع بهذه القلوب انتفاع الخير الذي يؤدي بها إلى

(1) المفردات، ص 546. وينظر: لسان العرب: 9 / 270 (غلف).
(*) ينظر: سورة المائدة، الآية: 18. وسورة الجمعة، الآية: 6 مثلاً.

(2) سورة البقرة، الآيتان: 6 ـ7. وينظر: سورة الأنعام، الآية: 46. وسورة يس، الآية: 65. وسورة الشورى، الآية: 24. وسورة الجاثية، الآية: 23.
(3) ينظر: البحر المحيط: 1 / 51، وصفوة التفاسير: 1 / 33.

الإيمان ولا تنتفع بأسماعها سماع الهدى والحق، كانت في حقيقتها كما صوّرتها الاستعارة،فكأنهم بها مسلوبو وسائل الادراك والمعرفة،ويزداد حالهم ظلاماً بالتعبير الاستعاري الآخر ﴿ وَعَلَىٰٓ أَبْصَـٰرِهِمْ غِشَـٰوَةٌ ﴾ وفي الاستعارة تشبيه أبصارهم لعدم رؤيتها نور الهداية بشيء مغطّى بغشاء يمنع الرؤية، فهي في ظلام لا ترى شيئاً ولا تبصر. وبذلك تتعطّل وسائل المعرفة عند الكافرين بالختم على القلوب والأسماع، والتغشية على الأبصار.

وحالتهم هذه التي أخرجتها الاستعارتان تمثل صورة من صور العذاب المعنوي، إذ لا يتمتّعون بقلوبهم وأسماعهم وأبصارهم لما خلقت له، فهم في غمرة من جهل وضلال نتيجة الكفر، وفوق عذابهم هذا العذاب الذي أخبرت به الآية ﴿ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ الذي يناسب طبيعتهم التي استوى عندها الانذار وعدم الانذار.

والآية بما فيها من تصوير استعاري ﴿ خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ ﴾ و﴿ وَعَلَىٰٓ أَبْصَـٰرِهِمْ غِشَـٰوَةٌ ﴾ يختفي وراءه معنى مكنى عنه، فضلاً عمّا أوحى به من معانٍ تصويرية، أي يكون التعبير الاستعاري هنا وسيلة تعبيرية وتصويرية تقودنا إلى المعنى المكنى عنه، وبذلك يكون التعبير الاستعاري بمجمله كناية عن صفة تتمثل في تصميم هؤلاء على الكفر والإصرار عليه [1] يتناسب في قوته مع قوة التصوير الاستعاري الذي صوّر قلوبهم الذي استوى عندها الانذار وعدم الانذار.

الطبع:

ورد الطبع في القرآن الكريم في عدّة مواطن، من ذلك قوله ـ تعالى ـ في وصف المنافقين: ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ ءَامَنُوا۟ ثُمَّ كَفَرُوا۟ فَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ ﴾ [2].

﴿ فَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ ﴾ كناية قائمة في بنيتها على الاستعارة كالختم، حيث شبّه ﷺ قلوب المنافقين التي آمنت بالوعاء المطبوع عليه فلا يدخل إليه شيء، فقلوبهم مغلقة عن الإيمان، فاقدة أي استعداد له.

---

(1) ينظر: التبيان في البيان، للطيبي، ص 227.

(2) سورة المنافقون، الآية: 3. وينظر: السور الآتية: النساء، الآية: 155. والأعراف، الآيتان: 100 ـ 101. والتوبة، الآيتان 87، 93. ويونس، الآية: 74. والنحل، الآية: 108. والروم، الآية: 59. وغافر، الآية: 35. ومحمد، الآية: 16.

وفي استعارة (الطبع) إيحاءات تناسب طبيعة المنافقين. قال ابن منظور: "الطَّبْع، بالسكون: الختم،وبالتحريك: الدَّنَسُ، وأصلهُ من الوسَخ والدَّنس يغشيان السيف، ثم استعير فيما يشبه ذلك من الأوزار والآثام وغيرهما من المقابح.. والطَّبَع مَلْؤُكَ السِّقاءَ حتى لا مزيد فيه من شدّة مَلْئِه"[1]. فالطبع ذو إيحاءات أوسع من الختم، لذلك قال الراغب: "الطبع هو أعمّ من الختم"[2] فقلوب المنافقين تناسبها استعارة (الطبع) دون الختم (*)، فهي قلوب قد ملئت بالأوزار والآثام وغيرهما من المقابح، وقد أشار إليها القرآن في تعبير استعاري آخر وهو (المرض) في مواضع شتى لبيان حال المنافقين كما في قوله ـ تعالى ـ: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ ۞ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ۞ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضًا ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْذِبُونَ ﴾ [3]. فقوله: ﴿ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ ﴾ استعارة تصريحية بدلاً من "في قلوبهم نفاق"[4]، وذلك لأن "المرض في الأجسام حقيقة وفي القلوب استعارة، لأنه فساد في القلوب، كما أنه فساد في الحقيقة، وإن اختلفت جهة الفساد في الموضعين"[5].

وذهب الزمخشري إلى جواز استعمال المرض في القلوب حقيقةً ومجازاً، يقول في قوله ـ تعالى ـ: ﴿ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ ﴾ واستعمال المرض يجوز أن يكون حقيقةً ومجازاً، فالحقيقة أن يُراد الألم، كما تقول: في جوفه مرض، والمجاز أن يُستعار لبعض أعراض القلب كسوء الاعتقاد، والغل، والحسد، والميل إلى المعاصي، والعزم عليها، واستشعار الهوى، والجبن، والضعف، وغير ذلك مّما هو فساد وآفة شبيهة بالمرض كما استعيرت الصحة والسلامة في نقائض ذلك"[6].

(1) لسان العرب: 8 / 232 ـ 233 (طبع).
(2) المفردات، ص 449.
(*) لعل لذلك لم يستخدم القرآن (الختم) مع المنافقين.
(3) سورة البقرة، الآيات: 8 ـ 10. وينظر السور الآتية: المائدة، الآية 55. والأنفال، الآية: 50. والتوبة، الآية: 126. والحج، الآية: 53. والنور، الآية: 50. والأحزاب، الآيات: 12، 32، 60. والمدثر، الآية: 31.
(4) وقد تأتي استعارة (المرض) تعبيراً عن الكفر أو الشرك كما في قوله ـ تعالى ـ من سورة الأنفال: ﴿ إِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ غَرَّ هَٰٓؤُلَآءِ دِينُهُمْ ﴾ من الآية 49. وكذلك في سورة الأحزاب، الآيتان: 12، 60.
(5) تلخيص البيان في مجازات القرآن، ص 113.
(6) الكشاف: 1 / 175 ـ 176.

وتوجيه (المرض) على التصوير الاستعاري أولى لِما في الإيحاء بالمعاني التي ذكرها الزمخشري، ولعلها المقصود من الاستعارة، فضلاً عن تواشجها مع استعارة (الطبع)، كما أن تشبيه الحالة النفسية المريضة للمنافقين بالمرض الذي يعتري الأجسام فيه تصوير حسّي يجسّد حقيقة قلوبهم المعطلة وظيفتها المطبوع عليها أمام العين والفكر ليتملّى المعاني. فالمرض الجسدي يعني التلف والفساد وتعطيل القوى، فضلاً عمّا ينطوي عليه من بعد نفسي يلّم بالمبتلى بهذا المرض الجسدي، فإن المرض القلبي الاستعاري كذلك يحقق لنا هذه الدلالة ولكن على نحو أعمق وأشمل وذلك لاقتران المرض بالقلب دون سائر الأعضاء الجسدية، إذ إنّ القلب هو العضو الرئيس في البدن، ومرضه وفساده يعني مرض الجسد كله وفساده، ونستأنس في هذه الدلالة الشاملة بما روي عن الرسول ﷺ: ((الا وإنّ في الجسد مضغةً إذا صلحت صلح الجسد كلّه وإذا فسدت فسد الجسد كلّه الا وهي القلب)) (1).

وفساد الجسد بفساد القلب الإستعاري يعني تعطيل حواسه السمعية والبصرية فهي لا تؤدي وظيفتها الحقيقية، فهي معطلة ميتة (2)، ولعل في هذا تفسيراً لاستعارة الطبع على قلوبهم، فهي قلوب مريضة لا يُرجى منها إيمان.

واستعارة (الطبع) التي صوّرت قلوب المنافقين المريضة التي ملؤها الآثام والأوزار وغيرهما من المقابح فهي مريضة فاسدة يتوارى خلف سجفها معنى مُكنى عنه فتكون الاستعارة كناية عنه ويتمثل في فقدان نفوس المنافقين وقلوبهم الاستعداد للإيمان والهدى، وهذا المعنى راجع أساساً إلى طبيعة النفس المنافقة التي تتردد بين الإيمان والكفر، لا اعتقاداً فيهما، ولا اعتناقاً لهما، وإنما تخفّياً بهما عن أعين الناس وعقولهم، وكل منا يظهره المنافقون ويتمثلون فيه من الإيمان والكفر إنما هو تلوّن يكتسونه ليبلغوا بيه أهدافهم كما يقول ﷻ عنهم: ﴿ مُّذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذَٰلِكَ لَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ وَلَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ ۚ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ سَبِيلًا ﴾ (3) ويقول الزمخشري في تفسير ذبذبة المنافقين: "ومعنى مذبذبين ذبذبهم الشيطان والهوى بين الإيمان والكفر فهم مترددون بينهما متحيرون، وحقيقة المذبذب الذي يذبّ عن كلا الجانبين: أي يذاد ويدفع فلا يقرّ في جانب واحد،إلاّ أن الذبذبة فيها تكرير ليس في الذبّ، كأن المعنى: كلما مال إلى جانب ذبّ

(1) صحيح البخاري: 1 / 21.
(2) ينظر: الاستعارة في القرآن الكريم، ص 87 ـ88.
(3) سورة النساء، من الآية: 143.

عنه(ذلك) إشارة إلى الكفر والإيمان ﴿لَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ﴾ لا منسوبين إلى هؤلاء فيكونون مؤمنين ﴿وَلَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ﴾ ولا منسوبين إلى هؤلاء فيسمون مشركين"[1]،وفي هذا تصريح بمعنى فقدان المنافقين لمبدأ الاعتقاد سواء أكان اعتقاداً صحيحاً وهو الإيمان، أم خاطئاً وهو الشرك، فالنفاق شذوذ على الطبع السوي، ولذلك اختار القرآن لفظ ﴿مُّذَبْذَبِينَ﴾ المشتق من الذب بمعنى الذود والدفع، وحيث كان المنافقون في صيغة اسم المفعول ﴿مُّذَبْذَبِينَ﴾ فهم الذين وقع عليهم الذود من جانب المؤمنين والمشركين كليهما[2]. فقلوبهم مطبوع عليها لأنها خارجة على الطبع السوي، فلن يصل إليها ايمان ﴿فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ﴾[3] بهذا الاطلاق كما أفاد حذف المفعول به، أي لا يفقهون أي شيء قط نتيجة الطبع على قلوبهم.

الأقفال:

وردت (الأقفال) في موطن واحد من القرآن الكريم، وهو قوله ـ تعالى ـ: ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ ﴾[4].

﴿أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ﴾ كناية قائمة في بنيتها على الاستعارة المكنية، حيث شُبِّهت قلوب الكافرين بالأبواب المقفلة فلا يدخل إليها شيء من معاني القرآن، وأكد معنى الاستعارة الاستفهام بالهمزة الذي أفاد تقرير النفي والانكار وفيه بيان حال قلوبهم وتصويرها بالصورة التي أخرجتها الاستعارة وتسجيلها عليهم، قال الزمخشري: "﴿أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ﴾ وأم بمعنى بل وهمزة التقرير، للتسجيل عليهم بأن قلوبهم مقفلة لا يتوصل إليها ذكر"[5] وقال في تنكير القلوب واضافة الأقفال إليها في الصورة: "أما التنكير: أن يُراد على قلوب قاسية مبهم أمرها في ذلكوأما إضافة الأقفال، فلأنه يريد الأقفال المختصة بها، وهي أقفال الكفر التي استغلقت فلا تفتح"[6]. والاستعارة تجعل المتلقي يتخيل هذه الصورة الغريبة المختصة بتصوير قلوب الكافرين التي ضُربت عليها الأقفال فهي مغلقة. فالكفر في الآية يتجسد في صورة الأقفال التي

(1) الكشاف: 1 / 574.
(2) ينظر: أسلوب السخرية في القرآن الكريم، ص 259.
(3) سورة التوبة، من الآية 87. وسورة المنافقون، من الآية 3.
(4) سورة محمد، الآية: 24.
(5) الكشاف: 4 / 258.
(6) المصدر نفسه: 4 / 258.

تغلق القلوب الكافرة فلا يدخل إليها شيء فهي معطلة عن تدبر آيات القرآن، لذلك تبدأ الآية بالاستفهام الإنكاري التوبيخي ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ ﴾ فهو انكار لوقوع التدبر من هذه القلوب، لذلك ينتقل الحديث بأم التي تفيد الاضراب يقرر حقيقتهم وحالهم، والاضراب هو: الانتقال من أمر إلى أمر هو أشد منه [1] أي: الانتقال من حالة إلى حالة أشد منها وأدعى للتوبيخ والتقريع، وهي الحالة التي رسمتها الصورة الاستعارية المتخيّلة التي تشي بقسوة تلك القلوب التي لا تضيء المعرفة جوانبها ولا ينوّر الإيمان طريق وظائفها قال الرازي: "إنّ القلب خُلق للمعرفة فإذا لم تكن فيه المعرفة فكأنه لا يعرف، وهذا كما يقول القائل في الانسان المؤذي: هذا ليس بإنسان هذا وحش، وهذا ليس بقلب هذا حجر" [2].

ومن وراء سجف الاستعارة نلمح معنى مكنى عنه ويتمثل في إصرار هؤلاء على الكفر وتصميمهم عليه وإعراضهم عن تدبر آيات القرآن المعجز المبين.

الأغلال:

ويقدم القرآن صورة حسيّة غليظة تخرج المشركين في صورة غريبة: أيديهم قد شُدّت إلى أعناقهم وموضوعة تحت أذقانهم، فبقيت رؤوسهم مرفوعة إلى أعلى لا يخفضونها وضُرب من أمامهم سدّ ومن ورائهم سدّ، فجُعلت أعينهم مغطاة فهم لا يبصرون. نقرأ ذلك في قوله ـ تعالى ـ: ﴿ إِنَّا جَعَلْنَا فِي أَعْنَاقِهِمْ أَغْلَالًا فَهِيَ إِلَى الْأَذْقَانِ فَهُم مُّقْمَحُونَ ۞ وَجَعَلْنَا مِن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ﴾ [3].

ومعنى الآية كما قال ابن كثير: "إنا جعلنا هؤلاء المحتوم عليهم بالشقاء كمن جُعل في عنقه غل وجمعت يداه مع عنقه تحت ذقنه [4] فارتفع رأسه مقمحاً" [5]. وقال أهل اللغة: الإقماح: رفع الرأس وغض البصر، يُقال: أقمح البعير إذا رفع رأسه عند الحوض وامتنع من الشرب [6] يقال: قمح البعير فهو قامح، إذا روى فرفع رأسه، ومنه شهراً قماح، لأن الابل

(1) ينظر: البلاغة فنونها وأفنانها ـعلم المعاني ـ، د. فضل حسن عباس، ص 127.

(2) التفسير الكبير: 28 / 66.

(3) سورة يس، الآيتان: 8 ـ9.

(4) اللذقن: مفرد الأذقان وهو مجمع اللحيين، ينظر: لسان العرب: 13 / 172.

(5) تفسير القرآن العظيم: 3 / 542.

(6) ينظر: لسان العرب: 2 / 566 ـ567 (قمح).

ترفع رؤوسها عن الماء لبرده فيهما، وهما الكانونان"[1]. وتكتمل صورة الكافرين بقولـــه: ﴿ وَجَعَلْنَا مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَٰهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ﴾ قال أبو السعود: "وهذا تتمة للتمثيل وتكميل له، أي: وجعلنا من أمامهم سداً عظيماً، ومن ورائهم سداً كـــذلك ﴿ فَأَغْشَيْنَٰهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ﴾ أي فغطينا بهما أبصارهم فهم بسبب ذلك لا يبصرون شيئاً أصلاً، لأنهم أصبحوا بين سدّين هائلين،وهذا بيان لكمال فظاعة حالهم وكونهم محبوسين في مطمورة الغيّ والجهالات، محرومين عن النظر في الأدلة والآيات"[2].

وهذا التصوير الذي رسمته الآيتان صورة بالغة السخرية والتهكم بالمشركين، ويتجلى ذلك من خلال تصويرهم مغلولين في أعناقهم بأطواق من حديد، تجعلهم لا يستطيعون أن يلتفتوا يمنةً ولا يسرةً، ولا يستطيعون أن يومئوا إلى أسفل، وإنما تظل أعناقهم ووجوههم مرفوعة إلى أعلى، لا يتحرك منها إلاّ عيونهم التي لا تُبصر شيئاً[3] فضلاً عن تشبيههم بالإبل حين تُروى من الماء فترفع أعناقها ورؤوسها إلى أعلى فهم في تصويرهم هذا ممنوعون عن النظر والرؤية للاهتداء بالدلائل والآيات بسبب تلك الأغلال والحواجز والسدود التي غشيت أبصارهم وهذه العوائق الحسيّة تشير إلى الأغلال النفسية والفكرية والعقلية التي كبّلوا بها أنفسهم فهم لا يهتدون.

والتصوير بمجمله يتحول إلى كناية موحية بالمعنى المكنى عنه الذي يتوارى خلف سجفه، وقد أشار الزمخشري إليه بقوله: "تصميم على الكفر، وأنه لا سبيل إلى ارعوائهمفي أنهم لا يلتفتون إلى الحق ولا يعطفون أعناقهم نحوه، ولا يطأطئون رؤوسهم له.. في أن لا تأمل لهم ولا تبصر، وأنهم متعامون عن النظر في آيات الله "[4] فهو الإعراض والإمعان في الكفر عن إرادة وتصميم يؤديان إلى إغلاق منافذ المعرفة ومن ثم فما لهداهم وإيمانهم من سبيل، وأيّ صورة يمكن لها أن تجلّي هذه الصفات وتجسّد هذه المعاني غير صورة الكناية القرآنية المعجزة بلفظها الوجيز ونظمها المحكم ورسمها الراسخ في أعماق النفس المتلقية.

(1) الكشاف: 4 / 4.
(2) تفسير أبي السعود: 7 / 160.
(3) ينظر: أسلوب السخرية في القرآن الكريم، ص 360.
(4) الكشاف: 4 / 3ـ4.

وفي كناية الأغلال تسلية للنبي محمد ﷺ وتسرية عن نفسه فهو لم يقصّر في إنذارهم، فهم المانعون أنفسهم من الإيمان، فقد جعلهم الله حطباً للنار [1] بسبب إعراضهم وإصرارهم على الكفر.

الغطاء:

يرد الغطاء في موطنين من القرآن وفي سياق مشهدين من مشاهد يوم القيامة، والذي يهمنا قوله ـ تعالى ـ: ﴿ وَعَرَضْنَا جَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لِّلْكَافِرِينَ عَرْضًا ۝ الَّذِينَ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِي غِطَاءٍ عَن ذِكْرِي وَكَانُوا لَا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعًا ﴾ [2].

نلحظ التعبير الكنائي التصويري ﴿ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِي غِطَاءٍ عَن ذِكْرِي وَكَانُوا لَا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعًا ﴾ يخرج الكافرين عمياً عن النظر في آيات الله الدالة على قدرته ووحدانيته، سواء المقصود بها النظر في آيات القرآن وتأمل معانيها وتبصرها ـ أو الآيات التي ينبّه عليها القرآن والمبثوثة في السموات والأرض والكون التي إذا ما نُظر فيها دلّت على قدرته ﷻ ووحدانيته فيذكر بالتعظيم [3]. فأعينهم محجوبة عن النظر في آيات الله بهذا الغطاء المانع فهي معطلة، وفوق هذا العمى لا يستطيعون السمع ﴿ وَكَانُوا لَا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعًا ﴾ يعني: "وكانوا صمّاً عنه، إلا أنه أبلغ، لأن الأصمّ قد يستطيع السمع إذا صيح به، وهؤلاء كأنهم أصميت أسماعهم فلا استطاعة بهم للسمع" [4]. فهم عميٌ صمٌ كما وصفهم في موضع بقوله ـ تعالى ـ: ﴿ صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ ﴾ [5] وغيرها من الآيات الكريمة التي تلفت الانتباه إلى عطب حواس الكافرين وموتها من سمع وبصر وأفئدة [6]، وكلها تعابير استعارية تجسّد حالهم، حيث يُسلبون البصر والسمع، وهم في حقيقتهم يبصرون ويسمعون، لكنهم لا يبصرون بصر هداية بآيات الله، ولا يسمعون صوت

---

(1) ينظر: التصوير البياني، حفني محمد شرف، ص 248.
(2) سورة الكهف، الآيتان: 100 ـ101. وينظر: سورة ق، الآية: 22.
(3) ينظر: الكشاف: 2 / 585.
(4) المصدر نفسه: 2 / 585.
(5) سورة البقرة، من الآية: 18.
(6) ينظر: السور الآتية: البقرة، الآية: 171. الأنعام، الآيتان: 25، 39. الأنفال، الآية: 22. يونس، الآيتان: 42، 43. هود، الآية: 20. الرعد، الآية: 19. الإسراء، الآية: 46. الكهف، الآية: 57. الأنبياء، الآية: 45. فصلت، الآيتان: 5، 44. الزخرف، الآية: 40.

الحق سماع رشد ويقين، فكأنهم معطلو حاسة السمع والبصر لأنهم حرموا أنفسهم من وظيفتهما الحقيقية التي خلقتا من أجلها.بل إنّ القرآن يصوّر هؤلاء الكافرين في حالة موت كما في قوله ـ تعالى ـ: ﴿ فَإِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ وَلَا تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا وَلَّوْاْ مُدْبِرِينَ ﴾ [1]، فالكافرون موتى بهذه الاستعارة التصريحية حيث استبدل لفظ الكافرين بالموتى بجامع عدم التبصر والوعي في الاثنين، فهم مسلوبو الحياة الحقيقية التي يبعثها الإيمان بالله الذي يحيي القلوب والأبدان، لأن المقصود من الحياة "الادراك والعقل فإذا عُدِما فقد عُدِمت الآثار المطلوبة من الحياة فتصير تلك الحياة مساوية للموت في عدم الفائدة المطلوبة والموت أولى بذلك فتنزل الحياة منزلته"[2].

فالغطاء على أعين الكافرين ﴿ أَعْيُنُهُمْ فِي غِطَآءٍ عَن ذِكْرِي ﴾ وعدم استطاعتهم السمع ﴿ لَا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعًا ﴾ فضلاً عمّا أشار إليه بهذا التصوير الحسي المؤثر من معنى العمى عن آيات الله المشاهدة بالأبصار إلى عمى بصائرهم، وعدم سماعهم صوت الحق سماع هداية وإيمان،فإنهما يؤديان إلى معنى مُكنى عنه يتوارى خلف تلك الألفاظ يتمثل في إعراض قلوبهم عن ذكر الله في حياتهم الدنيا عن إرادة وتصميم، وهو معنى يتسّق مع مشهد عرض جهنم لهؤلاء الكافرين ﴿ وَعَرَضْنَا جَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لِّلْكَافِرِينَ عَرْضًا ﴾ ، فالكافرون الذين أعرضوا عن ذكر الله حتى لكأن على عيونهم غطاء، ولكأن في اسماعهم صمماً، تُعرض عليهم جهنم فلا يعرضون عنها، كما كانوا يعرضون عن ذكر الله، فاليوم لا يستطيعون إعراضاً، لقد نُزع الغطاء عن عيونهم نزعاً فرأوا عاقبة الإعراض والعمى جزاءاً وفاقاً،فالتعبير القرآني يتسّق بين الإعراض والعرض متقابلين في المشهد، متقابلين في الحركة على طريقة التناسق الفني في القرآن [3].

وفي ضوء ما تقدم من الكنايات التي صوّرت موانع الإدراك عند الكافرين والمشركين والمنافقين التي حالت بينهم وبين المعرفة التي يدعوهم إليها القرآن الكريم يتجلّى عالم الكفر والضلال وما فيه من جهل وتقليد أعمى، عالم تُلغى فيه إنسانية الإنسان إذ تعطل وسائل الإدراك والمعرفة عنده فلا يفترق حينئذٍ عن البهيمة لأنه أصبح كمن لا عقل له فهو والبهائم سواء.

---

(1) سورة الروم، الآية: 52. وينظر: سورة الأنعام، الآية: 36. وسورة النمل، الآية: 80.

(2) نهاية الإيجاز في دراية الإعجاز، ص 129 ـ130. والفوائد المشوق إلى علوم القرآن وعلم البيان، ص 45ـ46.

(3) في ظلال القرآن: 5 / 414.

وإزاء عالم الكفر والضلال الذي يرزح فيه الكافرون يجلّي لنا القرآن بالتقابل عالم الإيمان والهدى وأصحابه المؤمنين أولي الألباب الذين تفتّحت وسائل الإدراك والمعرفة لديهم واحتيت بالنور والهدي الإلهي فتيقّظت حواسهم حتّ التيقظ وهي تستقبل دعوة الإيمان بآياته الكريمة بوعي وإدراك.

ويصور القرآن بالأسلوب الكنائي الموحي حال المؤمنين ومشاعرهم في بعض آياته التي نتخذ منها شواهد تجلّي عالماً مضاداً لعالم الكافرين في السلوك والمشاعر والإحساس.

لم يَخِرُّوا عليها صُمّاً وعُمْياناً:

تجلّي هذه الكناية التعريضية سمة من سمات عبد الرحمن في قوله ـ تعالى ـ: ﴿ وَالَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا ﴾ (1).

﴿ لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا ﴾ كناية، وجاء في تفسيرها: "﴿ لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا ﴾ ليس بنفي للخرور، وإنما هو اثبات له، ونفي للصم والعُمى، كما تقول: لا يلقاني زيد مسلّماً هي نفس السلام لا للقاء. والمعنى أنهم إذا ذكروا بها أكبوا عليها حرصاً على استماعها، وأقبلوا على المذكّر بها، وهم في اكبابهم عليها، سامعون بآذان واعية، مبصرون بعيون واعية، لا كالذين يذكّرون بها فتراهم مكبين عليها مقبلين على من يذكّر بها، مظهرين الحرص الشديد على استماعها، وهم كالصم العميان حيث لا يعونها ولا يتبصّرون ما فيها كالمنافقين وأشباههم" (2) فالكناية تعريضية تنفي الصم والعمى عن عباد الرحمن (المؤمنين) وتثبته للكافرين والمنافقين وأشباههم.. وهي كناية قائمة في بنيتها على استعارتين تصريحتين: ﴿ صُمًّا وَعُمْيَانًا ﴾ حيث إنه شبّه الكافر أو المنافق (المستعار له) بالأصم (المستعار منه) ثم حذف المستعار له(المشبه)وأبقى المشبه به(المستعار منه) على سبيل الاستعارة التصريحية، وبذلك يبدو الكافر أو المنافق في هيئة شخص أصم لا يسمع شيئاً فهو معطل حاسة السمع، وهذه هي حقيقة الكافر كما تجسدها الاستعارة، وإن كان يسمع الأصوات في حقيقته ولكنه لا يدرك معانيها ولا يعي، كما يصفهم الله في موضع آخر: ﴿ وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَاءً وَنِدَاءً صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴾ (3). وهم لا يسمعون فحسب، وإنما هم عميان كما تشير

(1) سورة الفرقان، الآية: 73.

(2) الكشاف: 3 / 233.

(3) سورة البقرة، الآية: 171. وينظر: سورة يونس، الآية: 42. وسورة هود، الآية: 20.

الاستعارة الثانية، حيث استعار للكافر(الأعمى) فهو معطل حاسة البصر وإن كان في الظاهر يرى الأشياء، ولكنه لا يعتبر بما يرى من الآيات المبثوثة في الكون أو لا يعتبر بآيات القرآن التي تؤدي إلى الاستبصار والإيمان والهُدى، هم كما يصفهم الله في موضع آخر على سبيل التعريض بهم: ﴿ أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ٱلْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰٓ ۚ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾ (1).

هم كما أوحت الكناية معطلو وسائل الاحساس والمعرفة، وذلك بسبب إصرارهم على الكفر وتصميمهم عليه وهو المعنى المكنى عنه الذي يقودنا إليه التعبير الكنائي القائم على بنية التشبيه.

ومن خلال اثبات هاتين الصفتين (الصم والعمى) للكافرين، فإنها تنفي عن المؤمنين صراحةً ﴿ لَمْ يَخِرُّوا۟ عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا ﴾ فهم يسمعون سماع هدى وإيمان، وهم يرون آيات الله المبثوثة في كل مكان بأبصارهم فيعقلون معانيها ويدركون مراميها فتزيدهم إيماناً مع إيمانهم.. ومن ثم فإن الكناية تنطوي على معنى مُكنى عنه يخصّهم ويتمثل في استجابتهم لآيات ربهم حرصاً على استماعها بآذان صاغية وقلوب خاشعة. فهم قد أفادوا ممّا وهبهم الله من حواس حيّة تؤدي وظيفتها التي خُلقت من أجلها، تلك الوظيفة التي خلق الله الانسان من أجلها ليحقق بها انسانيته فيسمو بها على المخلوقات الأخرى حيث معارج النور والهُدى، لأن قلوبهم احتيت بالعلم والحق النازل من السماء، كما تصوره الكناية على سبيل التمثيل في قوله ـ تعالى ـ: ﴿ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌۢ بِقَدَرِهَا فَٱحْتَمَلَ ٱلسَّيْلُ زَبَدًا رَّابِيًا ۚ وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِى ٱلنَّارِ ٱبْتِغَآءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَٰعٍ زَبَدٌ مِّثْلُهُۥ ۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ وَٱلْبَٰطِلَ ۚ فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَآءً ۖ وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمْكُثُ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ ﴾ (2).

ففي الآية الكريمة ثلاث كنايات تتمثل في قوله ـ تعالى ـ: ﴿ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌۢ بِقَدَرِهَا فَٱحْتَمَلَ ٱلسَّيْلُ زَبَدًا رَّابِيًا ﴾ قال ابن الأثير: "هذه الآية من باب الكنايات التي لفظها يجوز حمله على جانبي الحقيقة والمجاز، فإنه يجوز حمل الماء على المطر النازل من السماء وعلى العلم، وكذلك حمل الأودية على مهابط الأرض وعلى القلوب، وحمل الزبد على الغثاء الرابي

(1) سورة الرعد، الآية: 19. وينظر: سورة يونس، الآية: 43. وسورة الإسراء، الآية: 72. وسورة النمل، الآية: 81. وسورة الروم، الآية: 53. وسورة الزخرف، الآية: 40.
(2) سورة الرعد، الآية: 17.

الذي تقذفه السيول، وعلى الضلال"[1] ففي الآية كناية بالماء عن العلم، وبالأودية عن القلوب، وبالزبد عن الضلال، والذي جوّز هذه الكنايات وجود الوصف الجامع بين الماء وهو المعنى الظاهر القريب والمعنى المكنى عنه البعيد(العلم) فكلاهما يقوم بوظيفة الإحياء، فالماء يحيي الأرض بعد موتها، والعلم يحيي القلوب والعقول بعد موتها بالجهل، وكذلك بين الأودية وبين القلوب فكلاهما يجتمع عنده ويستقر ما يسبّب الحياة وكذلك بين الزبد الرابي وبين الضلال فكلاهما من الأوضار الضارة التي تضمحل بسرعة وتزول فلا حقيقة لها ولا ثبات.

بهذا العلم الذي أنزله الله احييت قلوب المؤمنين فخلص الإيمان في نفوسهم، واستقر التوحيد في قلوبهم فأخرج نباته زاهياً بقدر وحكمة [2] فامتاز حياتهم من حياة الكافرين التي غدت موتاً بما أصابهم من صمم عن سماع الحق، وعمى عن رؤية طريق الهُدى.

البلد الطيِّب يخرج نباته بإذن ربِّه والذي خَبُثَ لا يَخْرُجُ إلاّ نَكِداً:

يقدم القرآن بهذا التعبير الكنائي الموحي على سبيل التمثيل حال المؤمن من جهة وحال الكافرين من جهة أخرى وذلك في قوله ـ تعالى ـ: ﴿ وَٱلْبَلَدُ ٱلطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُۥ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ ۖ وَٱلَّذِى خَبُثَ لَا يَخْرُجُ إِلَّا نَكِدًا ۚ كَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ ٱلْآيَٰتِ لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ ﴾[3].

فالآية يمكن حملها على جانبي الحقيقة والمجاز، والمعنى الحقيقي القريب الذي يتبادر إلى الذهن أن الأرض الطيبة الكريمة التربة يخرج نباتها سريعاً حسناً وافياً، وأن الأرض السبخة الخبيثة لا يخرج نباتها إلاّ قليلاً لا خير فيه[4]. أما المعنى الكنائي البعيد فيُفهم من خلال فهم الآية على أنها مثل ضربه الله للمؤمن والكافر، كما قال ابن عباس[5] وعن قتادة: المؤمن سمع كتاب الله فوعاه بعقله وانتفع به، كالأرض الطيبة أصابها الغيث فأنبتت. والكافر بخلاف ذلك[6] والذي يرجّح هذا التمثيل ويقويه السياق قبل الكناية لِما ذكر من الماء النازل من السماء على البلد الميّت

(1) المثل السائر: 3 / 63.

(2) ينظر: الصورة الفنية في المثل القرآني، ص 286.

(3) سورة الأعراف، الآية: 58.

(4) ينظر: تفسير القرآن العظيم: 2 / 213. والكشاف: 2 / 88. ومواهب الرحمن في تفسير القرآن: 3 / 376.

(5) ينظر: تفسير القرآن العظيم: 2 / 213.

(6) الكشاف: 2 / 88.

وإخراج الثمرات به ﴿ وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ حَتَّى إِذَا أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا سُقْنَاهُ لِبَلَدٍ مَيِّتٍ فَأَنْزَلْنَا بِهِ الْمَاءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ كَذَلِكَ نُخْرِجُ الْمَوْتَى لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾ (1).

فالتعبير الكنائي ﴿ وَالْبَلَدُ الطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَالَّذِي خَبُثَ لَا يَخْرُجُ إِلَّا نَكِدًا ﴾ يصور حقيقتين مختلفتين: حقيقة المؤمن الذي يُؤمل منه الخير، ويُؤثر عنه الهدى، ويُرجى فيه الصلاح، وأن الكافر لا يُؤمل خيره، ولا يُحتمل نفعه، ولا يؤتمن شرّه (2) وخبثه، فالمؤمن طيّب كما دلّت الكناية وكما يصفه القرآن في مواضع شتى (3) لأنه استجاب لآيات ربه التي أنزلها حياة للقلوب والنفوس، فهو متفتح القلب والبصيرة.. أفاد من آيات الله علماً ومعرفةً فتتجسد ثمراته بالأعمال الصالحة النافعة في بناء الحياة والمجتمع. فالكناية قائمة في بنيتها على التشبيه الضمني الذي يعقد موازنة لطيفة بين الآيات النازلة من الله وبين الأمطار الغزيرة التي تنزل من رحمة الله بعباده من جهة وبين الإنسان المؤمن الطيّب القلب وبين البلد الطيّب التربة من جهة أخرى، فكلاهما يفيد مما أنزله الله، فالمؤمن يأخذ الآيات ببصر وبصيرة فيستفيد منها سعادة الدارين (4) والبلد الطيّب يفيد من الماء النازل من السماء فيعطي نباته المبارك بإذن ربه، أما الكافر فهو الخبيث كما تخرجه الكناية وكما يصفه القرآن في مواطن أخرى (5) لأنه لم يستجب للآيات النازلة من الله ﷻ فهو معطل القلب والبصيرة، فلم يسمع بسماع هدى، ولم يبصر ببصر إيمان، فهو ميت القلب والحواس، فهو يشبه كما دلّت الكناية بالتشبيه الضمني الأرض السبخة الجدباء التي لم تتأثر بالماء النازل من السماء فهي خبيثة نكدة لا يُرجى خيرها، ولا يحتمل نفعها، كذلك الكافر لا يُرجى منه الخير، ولا يؤتمن شرّه وخبثه، بل تتجسد أعماله الشريرة في الواقع والحياة خبثاً ونكداً، لأنه لم يؤمن ولن يهتد بالهدى الذي يحركه ويوجهه إلى الأعمال الصالحة النافعة، فهو قد تنكبّ عن طريق الخير والصلاح إلى طريق الشر والفساد.

---

(1) سورة الأعراف، الآية: 57.

(2) الصورة الفنية في المثل القرآني، ص 264.

(3) ينظر: سورة آل عمران، الآية: 1879. وسورة المائدة، الآية: 100. وسورة الأنفال، الآية: 37. وسورة النور، الآية: 26.

(4) ينظر: مواهب الرحمن في تفسير القرآن: 3/ 376.

(5) ينظر: سورة آل عمران، الآية: 179. وسورة المائدة، الآية: 100. وسورة الأنفال، الآية: 37. وسورة النور، الآية: 26.

وفي ضوء ذلك نلمح أثر الكناية في أداء المعاني بالصورة الحسية المؤثرة القريبة إلى الحس والوجدان والغنية بإيحاءاتها.

الأعمى والبصير، والظُّلمات والنور، والظلّ والحرور، والأحياء والأموات:

ترد هذه الكنايات المتضادة في معانيها في قوله ـ تعالى ـ: ﴿ وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ ۞ وَلَا الظُّلُمَاتُ وَلَا النُّورُ ۞ وَلَا الظِّلُّ وَلَا الْحَرُورُ ۞ وَمَا يَسْتَوِي الْأَحْيَاءُ وَلَا الْأَمْوَاتُ ۚ إِنَّ اللَّهَ يُسْمِعُ مَن يَشَاءُ ۖ وَمَا أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِي الْقُبُورِ ﴾ (1).

فهذه الآيات الكريمات يمكن حملها على جانبي الحقيقة والمجاز، والمعنى الحقيقي القريب الذي يتبادر إلى الذهن يتمثل في أن هذه الأشياء والمتباينة المختلفة لا تستوي، كالأعمى والبصير لا يستويان فبينهما فرق وبون كثير، وكذلك لا تستوي الظلمات ولا النور، ولا الظل ولا الحرور، ولا تستوي الأحياء ولا الأموات (2) فهي عوالم متضادة مختلفة.

أما المعنى الكنائي البعيد فيفهم من خلال فهم الآيات على أنها مثل للكافر والمؤمن كما قال بذلك المفسرون (3) وبذلك تمنحنا الكنايات ﴿ الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ ﴾ و ﴿ وَلَا الظُّلُمَاتُ وَلَا النُّورُ ﴾ و ﴿ وَلَا الظِّلُّ وَلَا الْحَرُورُ ﴾ و ﴿ وَمَا يَسْتَوِي الْأَحْيَاءُ وَلَا الْأَمْوَاتُ ﴾ دلالاتها من خلال التصوير الحسي العميق بإيحاءاتها.. فالمعنى الظاهر المباشر للأعمى هو تعطيل الحاسة البصرية لدى (الكافر)، فدلالة (الأعمى) هي انطفاء نور البصر في العين، وهي كذلك تشخص دلالة أيضاً على عطل الحواس الأخرى التي يتم عن طريقها الإدراك لدى الإنسان، والقرآن عن طريق العمى في الحاسة البصرية يعمق دلالة المعنى المكنى عنه المتمثل في انطفاء نور البصيرة في العالم الداخلي للكافر فتجسّد حقيقته بهذا التصوير ليثير مشاعر المتلقي وأحاسيسه حتى ينفذ إلى تأمل حقيقة الكافر الداخلية وإن بدا في الظاهر يبصر بعينيه الأشياء ويرى. وعلى الضد من هذه الصورة المظلمة للكافر تقف صورة (البصير) التي تشير في معناها الظاهر إلى نور البصر في العين الذي يتم عن طريقه رؤية الأشياء وإدراكها وعن طريق هذا المعنى الظاهر تتعمق دلالة المعنى

---

(1) سورة فاطر، الآيات: 19 ـ22.

(2) ينظر: تفسير القرآن العظيم: 3 / 530.

(3) ينظر: الكشاف: 3 / 480. وتفسير القرآن العظيم: 3 / 530. ومواهب الرحمن في تفسير القرآن: 6 / 413.

المكنى عنه والمتمثل في تيقّظ البصيرة في العالم الداخلي للمؤمن الذي تتجسّد حقيقته المشرقة بنور الإيمان المحيي للأبصار في الرؤية ومن ثم الاستجابة والإدراك في البصائر.

والإيمان المحيي للأبصار والبصائر، والكفر والضلال المميت للأبصار والبصائر بالمعنى الكنائي المصوَّر يتجسّدان في الكناية التالية (الظلمات والنور) في صورة حسية تشير إلى حقيقتهما العميقة الموحية، إذ إن ﴿ٱلظُّلُمَٰتُ﴾ تشير إلى معناها المكنى عنه وهو الكفر أو الضلال، و ﴿ٱلنُّورُ﴾ يشير إلى معناه المكنى عنه وهو الإيمان أو الهداية، وبذلك تضمّنت الكنايتان في صورتيهما الحسيتين إيحاءات عميقة دالة على تباين نوعين من الحياة تفترقان في طبيعتهما بهذا التصوير الكنائي في الحس والفكر، وهذا التباين أو التمايز بين الحياتين تنقله الكنايتان بدقة بيانية معجزة. ففكرة (الكفر) تتلبس في صورتها الكنائية الحسية (الظلمات) بصيغة الجمع دلالة على أوضار الحياة الكثيرة التي تحجب الأبصار والبصيرة، وكذلك "الكفر حاجب أبصار القلوب عن إدراك حقائق الإيمان "[1] على حين إنّ الإيمان (النور) جاء بصيغة المفرد، وفي هذا حكمة بالغة عبّر عنها صاحب تفسير المنار بقوله: "وقد أفرد النور وجمعت الظلمة هنا، وفي كل آية قُوبل فيها بين النور والظلام سواء كان ذلك في الحسي أو المعنوي، بل لم يذكر النور في القرآن إلاّ مفرداً، والظلمة إلاّ جمعاً، وحكمة ذلك: أن النور شيء واحد، وإن تعددت مصادره، ولكنه يكون قوياً ويكون ضعيفاً، وأما الظلمة فهي تحدث بما يحجب النور من الأجسام غير النيرة،وهي كثيرة جداً،وكذلك النور المعنوي شيء واحد، في كل نوع من أنواعه أو جزئي من جزئياته، ويقابل كل منها ظلمات متعددة، فالحق واحد لا يتعدد، والباطل الذي يقابله كثير "[2] فالظلمات بوصفها تعبر عن الكفر، فهي تصور طبيعة الكفر وفعله المدمر للحياة في أدق تصوير، فهو ليس (ظلمة) واحدة، وإنما(ظلمات) تسد منافذ الرؤية والبصيرة بكل جهاتها في الحياة فتحجب الانسان عن ممارسة الحياة الطبيعية، لأن الحيرة والقلق هما الشعور، والتخبط هو الحركة المسيطرة على فعل الانسان في تلك الظلمات المتبلّدة بعضها فوق بعض، فالكناية تنطوي على طاقة إيحائية وتصويرية في أداء المعنى.

(1) النكت في إعجاز القرآن، ص 92.
(2) تفسير المنار: 7 / 294.

ويقابل كناية (الظلمات) كناية (النور) التي تصور طبيعة الإيمان وفعله الباني للحياة، لأنه يفتح منافذ الرؤية والبصيرة بكل جهاتها في الحياة، ومن شأن التقابل بين الكنايتين أن يعمق معناهما في الحس والوجدان.

ويتحول الإيمان والكفر في التعبير الكنائي (الظل والحرور) إلى صورة حسية جديدة موحية تراها العين وتتحسسها النفس، وتفتح منافذ عدة للتفكير لتملّي هاتين الصورتين إذ تبعث الكناية (الظل) في جنبات النفس الارتياح والتروح، فالإيمان هو البلسم الذي ترتاح إليه النفس وتستقر في رحلة الحياة الدنيا وهي تواجه المتاعب والآلام والمشقات فيجد المؤمن في ظلّه الطمأنينة والسعادة والأمن، فضلاً عن الثواب في الحياة الأخرى، أما الكفر والضلال فهو (الحرور) بالتصوير الكنائي، ومن المعاني الحسية للحرور (السموم)، إلاّ أن السموم يكون بالنهار، والحرور بالليل والنهار [1] فالكفر يتجسّد بهذه الصورة الحسية من العذاب المستمر المتصل، وذلك لأن النفس الكافرة خاوية من نعمة الإيمان، فهو العقاب في الحياة الدنيا، فضلاً عن العقاب في الحياة الأخرى، لذلك فالكافرون (أموات) ليس أمواتاً بالمعنى المألوف للموت وهو الهلاك والفناء كما قد يتبادر، وإنما أموات بالمعنى الكنائي الجديد إزاء المؤمنين (الأحياء): ﴿ وَمَا يَسْتَوِي ٱلْأَحْيَآءُ وَلَا ٱلْأَمْوَٰتُ ﴾ الكافرون موتى لأنهم منطفئو الروح والبصيرة والإدراك، فهم والموتى سواء كما يقول القرآن، وكأن غاية الحياة وجوهرها كما يفهم من التعبير الكنائي يتمثل في الاستقامة والتبصر وتيقظ الروح،والتمييز بين الخير والشر، والحق والباطل، وأن الموت بمفهومه الكنائي ربما كان 'انغماس النفس في ظلمة الحيوانية، وبقاء الروح مكفوفة الإدراك تخبط في الأرض من غير غاية نبيلة تسعى إليها لتسعد بها سعادة أبدية'[2]، لأن الطاقة الروحية معطلة، فالكافرون يَحْيَون في حياتهم ويتقلبون مثل أي كائن حي دون تميّز أو تفاوت إذ يفقدون معنى الحياة المقصود، لأن المقصود من الحياة الإدراك والعقل فإذا عُدما تصير الحياة مساوية للموت في عدم الفائدة المطلوبة فتنزّل الحياة منزلته [3].

---

(1) الكشاف: 3/ 480. وينظر: لسان العرب: 4/ 177 (حرر).

(2) التصوير البياني دراسة تحليلية لمسائل البيان، ص 210.

(3) ينظر: نهاية الإيجاز في دراسة الإعجاز، ص 129 ـ130. وينظر: الفوائد المشوق إلى علوم القرآن وعلم البيان، ص 45 ـ46.

فالكناية بثّت الحياة في مفاصل الصورة وجدّدت معاني الكلمات في دلالات جديدة موحية مؤثرة في الحس والوجدان.

وبذلك يتجلى بالكنايات المعرفية عالمين متضادين: عالم الإيمان والهدى، وعالم الكفر والضلال على التقابل في دلالاتهما الفكرية والنفسية، إذ تحقق الكناية دلالات عميقة في الحس والشعور، وعلى بساطة التراكيب الكنائية ووضوحها تمنح الفكر والنفس قوة العطاء وعمق الإيحاء في المعاني والأفكار، إذ يتقابل أما الفكر والنفس عالمان متناقضان في دلالتهما في صورة بيانية كاشفة تفصل كل عالم من هذين العالمين بصفات حسية تشخص رموزاً لا ينقطع إيحاؤها بما أخرجت المعاني والأفكار بخصوبة وحيوية ليس لتقريرها حسب، وإنما لتوغل دلالاتها في كيان الإنسان ليتملّى معانيها وأفكارها، ولتترسخ معطياتها في الفكر والنفس.

الفصل السابع

الكناية التعريضية

الفصل السابع

الكناية التعريضية

الكناية التعريضية لون من ألوان الكناية "فالكناية تنقسم إلى تعريض وتلويح ورمز وإيماء وإشارة،ومساق الحديث يحسر لك اللثام عن ذلك"[1]. والتعريض هو "اللفظ الدال على الشيء من طريق مفهوم لا بالوضع الحقيقي، ولا المجازي، فإنك إذا قلت لمن تتوقع صلته ومعروفه بغير طلب: والله إنّي لمحتاج، وليس في يدي شيء. وأنا عريان والبرد قد آذاني، فإن هذا وأشباهه تعريض بالطلب، وليس هذا اللفظ موضوعاً في مقابلة الطلب لا حقيقة ولا مجازاً، إنما دلّ عليه من طريق المفهوم، بخلاف دلالة اللمس على الجماع"[2]. فالتعريض هو أن يطلق الكلام، ويشار به إلى معنى آخر يفهم من السياق[3] وقرائن الأحوال، ومما يشير إلى هذا قوله ـ تعالى ـ: ﴿ وَلَا جُنَاحَ عَلَيۡكُمۡ فِيمَا عَرَّضۡتُم بِهِۦ مِنۡ خِطۡبَةِ ٱلنِّسَآءِ أَوۡ أَكۡنَنتُمۡ فِيٓ أَنفُسِكُمۡ ﴾[4]. والتعريض في الخطبة هو: أن يقول راغب الزواج للمعتدة بعد انتهاء عدّتها، مثلاً: عسى الله أن يهيىء لي زوجة صالحة. أو: لعل الله أن يرزقك بعلاً صالحاً وإن النساء لمن حاجتي وأشباهه من الكلام[5] فهو إمالة الكلام إلى عرض يدل على الغرض[6]" وهو رغبته فيها، والزواج ليس مدلولاً لهذه الألفاظ حقيقةً ولا مجازاً، لأن المتكلم ذكر شيئاً دلّ به على شيء لم يذكره، ومن هذه الناحية افترق التعريض عن الكناية، لأن الكناية ذكر الشيء بغير لفظه الموضوع له كقولنا:طويل النجاد لطول القامة،وكثير

(1) مفتاح العلوم، ص 190. وينظر: الإيضاح: 2 / 466.
(2) المثل السائر: 3 / 56. وينظر: الطراز: 1 / 397 ـ398. وينظر: البرهان في علوم القرآن: 2 / 311.
(3) جواهر البلاغة في المعاني والبيان والبديع، أحمد الهاشمي، ص 350.
(4) سورة البقرة، من الآية: 235.
(5) ينظر: الكناية والتعريض، للثعالبي، ص 57. وينظر: الفوائد المشوق إلى علوم القرآن وعلم البيان، ص 134. وينظر: علم البيان في الدراسات البلاغية، ص 276.
(6) الكشاف: 1 / 373. والمنتخب من كنايات الأدباء وإشارات البلغاء، ص 56، 57.

الرماد للمضياف.والتعريض: "أن تذكر شيئاً تدل به على شيء لم تذكره كما يقول المحتاج للمحتاج إليه: جئتك لأسلم عليك، ولأنظر إلى وجهك الكريم [1]. وهو يعرض بطلب الصدقة.

ورغم هذا الافتراق بين الكناية والتعريض فإنهما يعدّان من طرق الفن الكنائي، لأنهما يدخلان في إطار عام وهو الإشارة إلى المعنى المراد من بعد عن طريق المعنى القريب الذي يدل عليه ظاهر اللفظ لعلاقة بينهما [2]. هي علاقة اللزوم في الكناية، وعلاقة يستدل عليها العقل في قرائن الأحوال ومقتضيات السياق في التعريض.

وقد توافر القرآن الكريم على هذا النوع من الكناية التعريضية التي تمتاز بالإيجاز في التعبير عن المعاني والأفكار التي تهدف إليها، فهي تحقق معناها أولاً ثمّ تصل إلى الغرض الذي ترمي إليه عن طريق المفهوم من السياق وقرائن الأحوال كما ذكرنا من غير أن تذكر الطرف المقابل المعرَّض به،وبالعدول من التصريح إلى التعريض يكون وقع المعنى في النفس مؤثراً وأقدر على إحداث الاستجابة النفسية المناسبة، وذلك بسبب التلميح إلى المعنى المراد نقله والاشارة إليه من عرض الكلام وجانبه ونقل المتلقي إليه بعد معاناة وتفكير، ومن هنا فإن التعريض الذي لا يقع إلاّ في التركيب على خلاف أقسام الكناية الأخرى التي تقع في المفردة والتركيب [3] يفيد القول بلاغة تفوق بلاغة أنواع الكناية الأخرى وذلك لأنه يشير بخفاء ومن دون وسائط ولوازم إلى معنى بعيد، مع اقراره في نفس السامع من طريق سياق القول ومقتضياته.

وفيما يأتي نستعرض الآيات القرآنية التي احتوت كنايات تعريضية، ثم نحاول تحليلها وبيان خصائصها وأثرها في سياق الآية الكريمة ما استطعنا إلى ذلك سبيلاً.

إنّما يتذكّر أولوا الألباب:

يستعمل القرآن هذا التعبير في موطنين على سبيل التعريض بالكافرين، أحدهما قوله ـ تعالى ـ: ﴿ أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ ﴾ [4].

قوله ـ تعالى ـ: ﴿ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ ﴾ تعريض بالكافرين، فليس الغرض من هذا القول ـ كما يقول عبد القاهر الجرجاني ـ أن يعلم السامعون ظاهر معناه،ولكن أن يذمّ الكفار وان

(1) ينظر: الكشاف: 1 / 372 ـ373.

(2) ينظر: الأسس النفسية لأساليب البلاغة العربية، ص 2290.

(3) ينظر: المثل السائر: 3 / 57. وينظر: البلاغة العربية ـالمعاني والبيان والبديع، ص 244.

(4) سورة الرعد، الآية: 19. وينظر: سورة الزمر، الآية: 9.

يقال: إنهم من فرط العناد ومن غلبة الهوى عليهم في حكم من ليس بذي عقل وإنكم إن طمعتم منهم في أن ينظروا ويتذكروا كنتم كمن طمع في ذلك من غير أولي الألباب"[1]. فالمعنى الظاهر للكناية التعريضية معلوم حكمه لا يجهله أحد، أي المؤمنون أصحاب القلوب

الواعية التي تنتفع بما ترى، وتعلم أن الذي أنزله الله هو الحق فتتبعه. ومن هنا تأتي الموازنة بين الفريقين: المؤمنين والكافرين على التقابل ليتجلّى المعنى ويتعمّق في الحسن والذهن ﴿ أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰ ﴾ والاستفهام بالهمزة يفيد إنكار تشابه حال الفريقين، وفهو تشبيه مستنكر، وهو عميق في دلالاته وحقيقته، فالمؤمنون هم أصحاب البصر والبصيرة على خلاف الكافرين ـ كما يخرجهم التعبير الاستعاري التصريحي القائم في بنيته على التشبيه ﴿كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰ﴾ فشبّه الكافر بالأعمى وذلك بجامع عدم البصر على سبيل الاستعارة التصريحية. والكافر ليس أعمى في الحقيقة، وإنما هو أعمى بهذا التصوير الاستعاري بمعناه الجديد الذي يصوّره القرآن، إذ العمى عمى القلب والبصيرة، كما قال ـ تعالى ـ: ﴿ فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَٰكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ ﴾ [2]. فالكفر عمى والكافر أعمى لأنه عطّل وسائل إدراكه ومعرفته عن العمل في ما خُلقت له فهو لا يرى العلم الذي أنزله الله وهو الحق الذي يعلمه أولو الألباب شأنه في ذلك شأن الأعمى الذي لا يميّز الأشياء.

وهذه الاستعارة القائمة في بنيتها على التشبيه تصعّد معنى التعريض المستفاد من ﴿إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ الذي جاء بأسلوب القصر بإنما، حيث قصر صفة التذكر على الموصوفين بـ ﴿أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ وهم المؤمنون لا تتعدى إلى غيرهم وهم الكافرون المعرّض بهم فهم لا يتذكرون ولا يتدبّرون الحق الذي أنزله الله، فالقصر "لبيان الواقع وحصر التفكير والتذكر المستقيم في أولي الألباب والعقول الخالصة"[3].

---

(1) دلائل الاعجاز، ص 333 ـ334. وينظر: البرهان في علوم القرآن: 2/ 314. وينظر: من بلاغة النظم العربي ـ دراسة تحليلية لمسائل علم المعاني ـ د. عبد العزيز عرفة: 2/ 61. وينظر: المعاني في ضوء أساليب القرآن، د. عبد الفتاح لاشين، ص 300.

(2) سورة الحج، من الآية: 46.

(3) مواهب الرحمن في تفسير القرآن: 6/ 504.

وبذلك تنال هذه الكناية التعريضية ﴿ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾ من الكافرين عن طريق مفهوم سياق الآية وتذمّهم وتخرجهم في حكم من ليس له بصر وعقل من غير أن تصرّح بذكرهم.

وتتكرر هذه الكناية التعريضية في موطن آخر معرّضة بالذين لا يعلمون (الكافرين)، بعد أن تثبت للمؤمنين الذي يعلمون ﴿ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾ سلوكاً عملياً شاكراً لله، فعلمهم يتخذ مجاله وصورته الشاكرة العاملة، وذلك في قوله ـ تعالى ﴿ أَمَّنْ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ سَاجِدًا وَقَآئِمًا يَحْذَرُ ٱلْءَاخِرَةَ وَيَرْجُواْ رَحْمَةَ رَبِّهِۦ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾ (1).

﴿ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾ تعريض بالكافرين بعد أن قررت المعنى الظاهر المعلوم وهو إثبات صفة التذكر للمؤمنين أولي الألباب دون غيرهم على وجه التخصيص. ويبرز سياق الآية هؤلاء المؤمنين الذين يعلمون ويعملون بمقتضى علمهم المستقر في النفوس والقلوب بهذا السلوك الخاشع: آناء الليل،والسجود والقيام، والحذر من عذاب الآخرة، ورجاء الرحمة من ربهم بهذا الجهد العامل الشاكر الذي يبذله هؤلاء العالمون العاملون. والكافرون المعرّض بهم يجهلون الحقيقة التي من أجلها خُلِقوا، فهم لا يعلمون فلا يستوي حالهم مع هؤلاء المؤمنين في صورتهم الوضيئة ﴿ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ والاستفهام هنا إنكاري ينفي أن يستوي حال الفريقين ويقرر واقعاً ناصعاً في دلالته المجازية فهو لايحتاج إلى جواب، لوضوح حال الفريقين، ولكنه استفهام يهدف إلى إقرار حقيقة وتوكيدها، ويقرع ويعرّض بالكافرين الذين لا يعلمون ازاء أولئك العالمين العاملين، والتقابل على سبيل التضاد من شأنه تعميق حال الفريقين في الحس والذهن.

ويمكن أن يفهم التعريض في الآية من جانب آخر بالعالمين غير العاملين في دلالته العامة، قال الزمخشري: "وأراد بالذين يعلمون: العاملين من علماء الديانة، كأنه جعل من لا يعمل غير عالم. وفيه ازدراء عظيم بالذين يقتنون العلوم، ثم لا يقتنون ويفتنون، ثم يفتنون بالدنيا، فهم عند الله جَهَلَة، حيث جعل القانتين هم العلماء، ويجوز أن يرد على سبيل التشبيه، أي: كما لا يستوي العالمون والجاهلون، كذلك لا يستوي القانتون والعاصون" (2).

(1) سورة الزمر، الآية: 9.
(2) الكشاف: 4 / 90.

وبذلك يستوي في دلالة التعريض الشاملة الكافرون الذين لا يعلمون ولا يعملون، والعالمون غير العاملين بما يجب عليهم من الطاعة، فهم جهلة على صعيد واحد مع الكافرين.

وفي ضوء ذلك يتجلى الايجاز في الكناية التعريضية ﴿إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ فليس المراد مها المعنى الظاهري المعلوم وهو قصر التذكر على المؤمنين القانتين فحسب، وإنما يتجاوز ذلك إلى معنى آخر يمثل الهدف الذي تلوّح به على سبيل التعريض.

وفي ضوء ذلك يمكن أن يفهم التعبير القرآني: ﴿إِنَّمَا تُنذِرُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ﴾ على أنه كناية تعريضية، والوارد في قوله ـ تعالى ـ: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ وَإِن تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَىٰ حِمْلِهَا لَا يُحْمَلْ مِنْهُ شَيْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰٓ إِنَّمَا تُنذِرُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَمَن تَزَكَّىٰ فَإِنَّمَا يَتَزَكَّىٰ لِنَفْسِهِۦ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ﴾ [1].

فالتعبير القرآني ﴿إِنَّمَا تُنذِرُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ﴾ يتجاوز معناه الظاهر الذي يدل عليه إلى التعريض بالذين ليس لهم هذه الخشية، قال الزركشي: "المقصود التعريض بلم من ليست له هذه الخشية، وأن يعرف أن لفرط عناده كأنه ليس له أذن تسمع، ولا قلب يعقل، وان الانذار له كلا انذار، وأنه قد أنذر من له هذه الصفة، وليست له"[2].

فالكناية التعريضية تنال من الكافرين على نحو خفي لطيف وكاشفة عن حالهم الذي تساوي عدهم الانذار وعدم الانذار لفرط عنادهم وتصميمهم عليه جهلاً وضلالاً، فهم لم يفيدوا من الانذار لأنهم بمنزلة من لا يسمع ولا يعقل فقد عطّلوا لديهم وسائل الحس والادراك، فلم يتأثروا بالنذير، ولم يستجيبوا له، فهم لا يؤمنون ولا يخشون ربّهم على خلاف المؤمنين الذين أفادوا مّما أنعم الله عليهم من سمع وبصر وأفئدة فأفادوا بالانذار واستجابوا فكان ديدنهم الخشية من الله ربهم.

(1) سورة فاطر، الآية: 18. وينظر: سورة الأنعام، الآية: 36.

(2) البرهان في علوم القرآن: 2 / 314.

فسئلوهم إن كانوا ينطِقون:

ترد هذه الكناية التعريضية على لسان سيدنا ابراهيم ﷺ يعرّض بها بقومه وبما كانوا يعبدون حين كسّر أصنامهم وذلك في قوله ـ تعالى ـ: ﴿ قَالُوٓاْ ءَأَنتَ فَعَلْتَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَا يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ۞ قَالَ بَلْ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا فَسْـَٔلُوهُمْ إِن كَانُواْ يَنطِقُونَ ۞ فَرَجَعُوٓاْ إِلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ فَقَالُوٓاْ إِنَّكُمْ أَنتُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ۞ ثُمَّ نُكِسُواْ عَلَىٰ رُءُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَٰٓؤُلَآءِ يَنطِقُونَ ﴾[1].

الكناية التعريضية قوله ـ تعالى ـ: ﴿ قَالَ بَلْ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا فَسْـَٔلُوهُمْ إِن كَانُواْ يَنطِقُونَ ﴾، والبادي من هذه الكناية التعريضية أن سيدنا ابراهيم ﷺ لم يرد بها اثبات نسبة الفعل الصادر عنه إلى الصنم، وإنما أراد اثبات الفعل له بالأسلوب التعريضي كي يلزمهم الحجة والبرهان على نحو من الاستهزاء بهم والتبكيت. قال الزمخشري: "هذا من معاريض الكلام ولطائف هذا النوع لا يتغلغل فيها أذهان الراضة من علماء المعاني. والقول فيه أن قصد ابراهيم (صلوات الله عليه) لم يكن إلى أن ينسب الفعل الصادر عنه إلى الصنم، وإنما قصد تقريره لنفسه واثباته لها على أسلوب تعريضي يبلغ فيه غرضه من إلزامهم الحجة وتبكيتهم، وهذا كما لو قال لك صاحبك وقد كتبت كتاباً بخط رشيق وأنت شهير بحسن الخط: أأنت كتبت هذا وصاحبك أمي لا يحسن الخط، فقلت له: بل كتبته أنت، كان قصدك بهذا الجواب تقريره لك بهذا الاستهزاء به، لا نفيه عنك واثباته للأمي. لأن اثباته ـ والأمر دائر بينكما للعاجز منكما ـ إستهزاء به وإثبات للقادر"[2].

وأشار ابن الأثير إلى معنى آخر أبعد من الأول لهذه الكناية التعريضية بقوله: "وهو أن كبير الأصنام غضب أن تعبد معه هذه الأصنام الصغار فكسرها، وغرض ابراهيم من ذلك أنه لا يجوز أن يعبد مع الله ـ تعالى ـ من هو دونه،فإنّ من هو دونه مخلوق من مخلوقاته، فجعل إحالة القول إلى كبير الأصنام مثالاً لِما أراده"[3].وما رآه ابن الأثير يُسلك في التمثيل، فيعمّق الكناية.

---

(1) سورة الأنبياء، الآيات: 62 ـ65.

(2) الكشاف: 3/ 98. وينظر: المثل السائر: 3/ 72. وينظر: البرهان في علوم القرآن: 2/ 311.

(3) المثل السائر: 3/ 72. ينظر: الفوائد المشوق إلى علوم القرآن وعلم البيان، ص 134. ومن بلاغة القرآن: 228.

وفي كِلا المعنيين فإن ابراهيم ﷺ يعرّض بهم وبآلهتهم التي يعبدونها من دون الله عن جهل وظلم، وتقليد أعمى لآبائهم [1] يسيطر على أفكارهم ونفوسهم ويوجّه سلوكهم فيصبحوا بلا عقل ولا تفكير، لأنهم يرون بعقول آبائهم حتى ولو علموا بأن آباءهم جاهلون.. من هنا يأتي التعريض بهم وبآلهتهم أسلوباً بليغاً حيّاً يعمل على إيقاظ نفوس قومه وقلوبهم لإزالة غشاوة التقليد الأعمى الذي غطّى على الحقيقة التي غفلوا عنها.. فالتعريض يحطم تلك الأغلال النفسية التي رانت على قلوبهم لتتجلى لهم الحقيقة، وليرد القلوب إليها والنفوس، وقد صوّر السياق لحظة رجوعهم إلى نفوسهم متدبرين متفكرين حين ألزمهم الحجة ﴿ فَرَجَعُوٓاْ إِلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ فَقَالُوٓاْ إِنَّكُمۡ أَنتُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾ أي لما ألزمهم الحجة وأخذ بمخانقهم، رجعوا إلى أنفسهم متدبرين ومتفكرين فقالوا: أنتم الظالمون على الحقيقة لا من ظلمتموه حين قلتم: ﴿ مَن فَعَلَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَآ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ [2] فهم يدينون أنفسهم وما هم فيه من سخف، وما في عبادتهم من ظلم ـ حين رجعت أنفسهم إلى الحقيقة الناصعة ـ إلاّ أنهم ارتدوا تلك الردة النفسية كما يصوّرها القرآن بالأسلوب الكنائي المجسّد، ارتداد نفوسهم إلى عبادة الأصنام ﴿ ثُمَّ نُكِسُواْ عَلَىٰ رُءُوسِهِمۡ لَقَدۡ عَلِمۡتَ مَا هَٰٓؤُلَآءِ يَنطِقُونَ ﴾. فالكناية ﴿ ثُمَّ نُكِسُواْ عَلَىٰ رُءُوسِهِمۡ ﴾ حركة مادية غليظة تشير إلى ذلك المعنى النفسي وهو انقلابهم من الحقيقة الناصعة وهي بطلان عبادتهم وشركهم، وقد استشعروها لحظة عندما ألزمهم سيدنا ابراهيم ﷺ الحجة والبرهان، انقلبوا إلى الشرك والمجادلة عن أصنامهم بالباطل والمكابرة، قال الزمخشري: "نكسته: قلبته فجعلت أسفله أعلاه. وانتكس: انقلب، أي: استقاموا حين رجعوا إلى أنفسهم وجاءوا بالفكرة الصالحة، ثم انتكسوا وانقلبوا عن تلك الحالة، فأخذوا في المجادلة بالباطل والمكابرة، وأن هؤلاء ـ مع تقاصر حالها عن حال الحيوان الناطق ـ آلهة معبودة، مضارّة منهم، أو انتكسوا عن كونهم مجادلين لابراهيم ﷺ مجادلين عنه، حين نفوا عنها القدرة على النطق" [3]. ويمكن أن تفهم الكناية ﴿ ثُمَّ نُكِسُواْ عَلَىٰ رُءُوسِهِمۡ ﴾ على الحقيقة، أي نكّسوا رؤوسهم حقيقة، فتكون بذلك كناية عن خجلهم وانكسارهم أمام الحقيقة التي بهتهم بها ابراهيم ﷺ وقد أشار الزمخشري إلى هذا الفهم بقوله: "أو قلبوا على رؤوسهم حقيقة،لفرط اطراقهم خجلاً وانكساراً وانخزالاً مما بهتهم به ابراهيم ﷺ

---

(1) ينظر: سورة الشعراء، الآية: 74.
(2) ينظر: الكشاف: 3 / 98. وقولهم هو الآية 59 من السياق نفسه.
(3) الكشاف: 3 / 98.

فقد أحاروا جواباً إلاّ ما هو حجة عليهم"[1]. فهي الحجة القوية التي يلزمهم إياها. وفي التوجيهين للكناية ينكشف معنيان تشير إليهما على نحو جلي:

أولهما: مجادلة هؤلاء القوم لنبيهم إبراهيم بالباطل والمكابرة على الرغم من استشعارهم الحقيقة في قرارة أنفسهم.

وثانيهما: عدم استنادهم إلى حجة يجادلون بها، فليس لهم إلاّ الإطراق، خجلاً وانكساراً أمام الحجة الواضحة والبرهان المبين.

نبأ الخصم:

يأتي هذا التعبير ضمن سياق تعريضي بسيدنا داود ﷺ وهو قوله ـ تعالى ـ: ﴿ وَهَلْ أَتَاكَ نَبَأُ الْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا الْمِحْرَابَ ۝ إِذْ دَخَلُوا عَلَىٰ دَاوُودَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ ۖ قَالُوا لَا تَخَفْ ۖ خَصْمَانِ بَغَىٰ بَعْضُنَا عَلَىٰ بَعْضٍ فَاحْكُم بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَلَا تُشْطِطْ وَاهْدِنَا إِلَىٰ سَوَاءِ الصِّرَاطِ ۝ إِنَّ هَٰذَا أَخِي لَهُ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً وَلِيَ نَعْجَةٌ وَاحِدَةٌ فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا وَعَزَّنِي فِي الْخِطَابِ ۝ قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ إِلَىٰ نِعَاجِهِ ۖ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ الْخُلَطَاءِ لَيَبْغِي بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ ۗ وَظَنَّ دَاوُودُ أَنَّمَا فَتَنَّاهُ فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ ۩ ۝ فَغَفَرْنَا لَهُ ذَٰلِكَ ۖ وَإِنَّ لَهُ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَآبٍ ۝ يَا دَاوُودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ ۚ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ ﴾[2].

من خلال هذه القصة يمرّر التعريض بالنبي داود ﷺ والتعريض هنا وسيلة مهذبة مؤثرة، فضلاً عن إيجازه، فهو "أبلغ في التوبيخ، من قبل أن التامل إذا أدّاه إلى الشعور بالمعرّض به، كان أوقع في نفسه، واشد تمكناً من قلبه، وأعظم أثراً فيه، وأجلب لاحتشامه وحيائه، وأدعى إلى التنبّه على الخطأ فيه من أن يبادره به صريحاً، مع مراعاة حسن الأدب بترك المجاهرة"[3].

وقد ذهبت بعض التفاسير في تفسير هذه الآيات إلى ما يجانب الصواب جرياً مع الاسرائيليات في التفسير بما لا يتلاءم مع طبيعة النبوة[4].

(1) المصدر نفسه: 3 / 98.
(2) سورة ص، الآيات: 21ـ26.
(3) الكشاف: 4 / 63.
(4) ينظر مثلاً: الكشاف: 4 / 62.

والنظر في هذه الآيات يلحظ:

ـ أن تسوّر الخصم المحراب والدخول على داود ﷺ قد تمّ في صورة غير طبيعية. قال ابن عباس: "إنّ داود ﷺ جزّأ زمانه أربعة أجزاء: يوماً للعبادة، ويوماً للقضاء، ويوماً للاشتغال بخواص أموره، ويوماً يجمع بني اسرائيل فيعظهم ويبكيهم، فجاؤه في غير يوم القضاء ففزع منهم، ولأنهم نزلوا عليه من فوق، وفي يوم الاحتجاب، والحرس حوله لا يتركون من يدخل عليه"[1]. فتسوّرهم المحراب ودخولهم عليه كان بطريقة عجيبة ممّا سبّب فزعاً للنبي داود ﴿فَفَزِعَ مِنْهُمْ﴾. والذي يؤكد كونه من الأنباء العجيبة الاستفهام ب (هل) في قوله: ﴿وَهَلْ أَتَاكَ نَبَؤُا الْخَصْمِ﴾ فظاهره الاستفهام. ومعناه الدلالة على أنه من الأنباء العجيبة التي حقها أن تشيع ولا تخفى على أحد، والتشويق إلى استماعه"[2]. وتسوّر المحراب بهذه الطريقة يُوحي بأن الخصم ليس من البشر بل هما من الملائكة، قال الزمخشري: "تصعّدوا سوره ونزلوا إليه، والسور: الحائط المرتفع.. روي أن الله ـ تعالى ـ بعث إليه ملكين في صورة انسانين، فطلبا أن يدخلا عليه، فوجداه في يوم عبادته، فمنعهما الحرس فتسوّروا عليه المحراب، فلم يشعر إلاّ وهما بين يديه جالسان"[3]. فضلاً عن أن طريقة حوارهما مع النبي داود يؤكد بأنهما من الملائكة ﴿..فَاحْكُم بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَلَا تُشْطِطْ﴾ أي "ولا تجر. أي ولا تبعد عن الحق، وهي مجاوزة الحدّ وتخطّي الحق"[4].

ـ في سياق القصة رمز حيوي يشير إلى ظلم الانسان لأخيه الانسان إلاّ الذين آمنوا وعملوا الصالحات ﴿قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ إِلَىٰ نِعَاجِهِ ۖ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ الْخُلَطَاءِ لَيَبْغِي بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ..﴾.

ـ يُلاحظ من سياق القصة أن سيدنا داود ﷺ قد حكم لأحد الخصمين وهو الذي أدلى بقوله وحجته: ﴿إِنَّ هَٰذَا أَخِي لَهُ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً وَلِيَ نَعْجَةٌ وَاحِدَةٌ فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا وَعَزَّنِي فِي الْخِطَابِ﴾ دون أن يمنح الخصم الآخر فرصة للادلاء بقوله وحجته ـ وهو النبي الملك الذي ولاّه الله أمر الناس

---

(1) الكشاف: 4 / 63.
(2) المصدر نفسه: 4 / 63.
(3) الكشاف: 4 / 63.
(4) المصدر نفسه: 4 / 63.

ليقضي بينهم بالحق والعدل - ومن هنا يتجلّى امتحان النبي داود وابتلاؤه فيعرض به السياق تعريضاً مؤثراً، لأنه لم يتبين الحق قبل إصدار الحكم، على الرغم من أن الخصم "قد اختارا أن يعرضا عليه القضية في صورة صارخة مثيرة.. ولكن القاضي عليه ألاّ يستثار، وعليه ألاّ يتعجّل. وعليه ألاّ يأخذ بظاهر قول واحد. قبل أن يمنح الآخر فرصة للإدلاء بقوله وحجته، فقد يتغير وجه المسألة كله، أو بعضه، وينكشف أن ذلك الظاهر كان خادعاً أو كاذباً أو ناقصاً"[1]. والتعقيب القرآني بعد ذلك يؤكد هذا المعنى التعريضي ويقويه، ويكشف عن طبيعة تلك الفتنة التي ابتلاه الله بها ﴿ فَغَفَرْنَا لَهُۥ ذَٰلِكَ ۖ وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَـَٔابٍ ۞ يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَٰكَ خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ ... ﴾. كما يجلي من هذه القصة التي عرضت بسيدنا داود ﷺ قيمة القضاء وأهميته في حياة الناس.

ما كانَ لِنَبِيٍّ أنْ يَكونَ لَهُ أسْرى حَتى يُثْخِنَ في الأرض:

ترد هذه الكناية معرّضة بالمسلمين على ما فعلوه في شأن أسرى معركة بدر، وذلك في قوله ـ تعالى ـ: ﴿ مَا كَانَ لِنَبِىٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ تُرِيدُونَ عَرَضَ ٱلدُّنْيَا وَٱللَّهُ يُرِيدُ ٱلْـَٔاخِرَةَ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ [2].

والإثخان هو "كثرة القتل والمبالغة فيه، من قولهم: أثخنته الجراحات إذا أثبتته حتى تثقل عليه الحركة. وأثخنه المرض إذا أثقله من الثخانة التي هي الغلظ والكثافة، يعني حتى يذل الكفر ويضعفه بإشاعة القتل في أهله ويعز الاسلام ويقويه بالإستيلاء والقهر. ثم الأسر بعد ذلك، ومعنى ﴿ مَا كَانَ ﴾ ما صحّ له وما استقام، وكان هذا يوم بدر"[3].

فالاثخان بالمشركين في المعركة هو الذي كان يجلب على المسلمين أن يفعلوه وذلك لإضعاف قوة المشركين وكسر شوكتهم وبخاصة أن معركة بدر هي أول معركة مع المشركين، وأن المشركين كانوا كثرة والمسلمين قلّة، فكان ينبغي على المسلمين أن ينقصوا عدد المحاربين المشركين بالقتل والمبالغة فيه لا أن يأسروهم ويستبقوهم ويطلقوهم بالفدية كما حدث، فعرّض الله بالمسلمين على فعلتهم، وكشف عن دافع ذلك وسببه: "﴿ تُرِيدُونَ عَرَضَ ٱلدُّنْيَا ﴾، أي:

(1) في ظلال القرآن: 7 / 97.
(2) سورة الأنفال، الآية: 67.
(3) الكشاف: 2 / 184. وينظر: أساس البلاغة، ص 43 (ثخن).

حطامها، سمي بذلك لأنه حدث قليل اللبث، يريد الفداء ﴿وَٱللَّهُ يُرِيدُ ٱلْـَٔاخِرَةَ﴾ يعني ما هو سبب الجنة من اعزاز الاسلام بالإثخان في القتل "[1].

وفي ذلك تقابل بين ﴿عَرَضَ ٱلدُّنْيَا﴾ وهو أخذ الأسرى واطلاقهم بالفداء وبين ثواب ﴿ٱلْـَٔاخِرَةَ﴾ الذي يريده الله للمسلمين والذي يسببّه الاثخان في قتل المشركين الذي فيه اعزاز للمسلمين ونصرهم، قال الزمخشري: "والله يريد عرض الآخرة على التقابل، يعني ثوابها ﴿وَٱللَّهُ عَزِيزٌ﴾ يغلب أولياءه على أعدائه ويتمكّنون منهم قتلاً وأسراً ويطلق لهم الفداء، ولكنه ﴿حَكِيمٌ﴾ يؤخر ذلك إلى أن يكثروا ويعزوا وهم يعجلون "[2]. ومن شان هذا التقابل أن يجلّي ذلك المعنى الكبير الذي يجب أن يحرص عليه المؤمنون وهو أن يريدوا ما يريده الله لهم، وهو الباقي الذي لا ينفد وفيه عزهم في الدنيا والآخرة، وأن يتجردّوا من عرض الدنيا القليل الذي ينفد وفيه ذلّهم إذ يشدهم إلى الأرض ويؤخرهم عن الإنطلاق.

المثل بامرأة نوحٍ وامرأة لُوطٍ:

يعرّض القرآن من خلال هذين المثلين ببعض زوجات النبي محمد ﷺ في سورة التحريم وأولها::

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَ تَبْتَغِى مَرْضَاتَ أَزْوَٰجِكَ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ۝ قَدْ فَرَضَ ٱللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَٰنِكُمْ وَٱللَّهُ مَوْلَىٰكُمْ وَهُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ۝ وَإِذْ أَسَرَّ ٱلنَّبِيُّ إِلَىٰ بَعْضِ أَزْوَٰجِهِۦ حَدِيثًا فَلَمَّا نَبَّأَتْ بِهِۦ وَأَظْهَرَهُ ٱللَّهُ عَلَيْهِ عَرَّفَ بَعْضَهُۥ وَأَعْرَضَ عَنۢ بَعْضٍ فَلَمَّا نَبَّأَهَا بِهِۦ قَالَتْ مَنْ أَنۢبَأَكَ هَٰذَا قَالَ نَبَّأَنِىَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْخَبِيرُ ۝ إِن تَتُوبَآ إِلَى ٱللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا وَإِن تَظَٰهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ مَوْلَىٰهُ وَجِبْرِيلُ وَصَٰلِحُ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَعْدَ ذَٰلِكَ ظَهِيرٌ﴾[3]. وفي ختام السورة الكريمة يأتي المثلان على سبيل التعريض الذي يلوّح بمعناه من بعيد محذّراً مُنذِراً أُمّيْ المؤمنين (حفصة وعائشة) ـ رضي الله عنهما ـ والتعريض بأم المؤمنين حفصة أرجح[4]، والمثل هو قوله ـ تعالى ـ:

﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱمْرَأَتَ نُوحٍ وَٱمْرَأَتَ لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَٰلِحَيْنِ

---

(1) الكشاف: 2 / 185.

(2) المصدر نفسه: 3 / 185.

(3) الآيات: 1 ـ4. ومما روي في أسباب النزول: "دخل رسول الله ﷺ بمارية القبطية سريته، بيت حفصة فجاءت فوجدتها معه فقال يا رسول الله في بيتي دون بيوت نسائك، قال: فإنها عليّ حرام أن أمسها يا حفصة واكتمي هذا عليّ فخرجت حتى أتت عائشة فأخبرتها فأنزل الله ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ﴾ الآيات. ينظر: لباب النقول في أسباب النزول، ص 745 ـ746.

(4) ينظر: الكشاف: 4 / 458.

فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا وَقِيلَ ٱدْخُلَا ٱلنَّارَ مَعَ ٱلدَّٰخِلِينَ ۝ وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱمْرَأَتَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ٱبْنِ لِى عِندَكَ بَيْتًا فِى ٱلْجَنَّةِ وَنَجِّنِى مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِۦ وَنَجِّنِى مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ۝ وَمَرْيَمَ ٱبْنَتَ عِمْرَٰنَ ٱلَّتِىٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَٰتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِۦ وَكَانَتْ مِنَ ٱلْقَٰنِتِينَ ﴾ (1). جاء في التفسير: "مثَل الله ﷻ حال الكفار في أنهم يعاقبون على كفرهم وعداوتهم للمؤمنين معاقبة مثلهم من غير إبقاء ولا محابات ولا ينفعهم مع عداوتهم لهم ما كان بينهم وبينهم من لحمة نسب أو وصلة صهر، لأن عداوتهم لهم وكفرهم بالله ورسوله قطع العلائق وبتّ الوصل، وجعلهم أبعد من الأجانب وأبعد، وإنْ كان المؤمن الذي يتّصل به الكافر نبيّاً من أنبياء الله، بحال امرأة نوح وامرأة لوط: لما نافقتا وخانتا الرسولين لم يغنِ الرسولان عنهما بحق ما بينهما وبينهما من وصلة الزواج إغناءً مّا من عـــذاب الله ﴿وَقِيلَ﴾ لهما عند موتهما أو يوم القيامة: ﴿ٱدْخُلَا ٱلنَّارَ مَعَ﴾ سائر ﴿ٱلدَّٰخِلِينَ﴾ الذين لا وصلة بينهم وبين الأنبياء أو مع داخليها من إخوانكما من قوم نوح وقوم لوط" (2)، ثم قال في المثل الثاني: "ومثّل حال المؤمنين ـ في أن وصلة الكافرين لا تضرّهم ولا تنقص شيئاً من ثوابهم وزلفاهم عند الله ـ بحال امرأة فرعون ومنزلتها عند الله ـ تعالى ـ مع كونها أعدى أعداء الله الناطق بالكلمة العُظمى، ومريم ابنة عمران وما أوتيت من كرامة الدنيا والآخرة والاصطفاء على نساء العالمين، مع أن قومها كانوا كفّاراً" (3). ففي طي هذين المثلين تعريض بالغ التأثير بأمّي المؤمنين (رضي الله عنهما) المذكورتين في أول السورة على ما فرط منهما من التظاهر على رسول الله ﷺ بما كرهه، وفي هذا التعريض تحذير لهما على أغلظ وجه وأشدّه، وذلك لأن في التمثيل ذكر الكفر ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱمْرَأَتَ نُوحٍ وَٱمْرَأَتَ لُوطٍ﴾ على الرغم من أن قوله ﷻ ﴿لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ هو من لطائف التقييد، إي إن المقصد الأصلي هو ضرب المثل للذين كفروا وفي هذا احتراس من أن يُحمل التمثيل على المشابهة من جميع الوجوه (4). وفي المثل الثاني إشارة إلى أن تكونا في الاخلاص والكمال كمثل هاتين المؤمنتين: ﴿ٱمْرَأَتَ فِرْعَوْنَ ... وَمَرْيَمَ ٱبْنَتَ عِمْرَٰنَ ...﴾ وأن لا تتّكلا على أنهما زوجا رسول الله ﷺ فإن ذلك

---

(1) الآيات: 10 ـ 12.

(2) الكشاف: 4 / 457.

(3) المصدر نفسه: 4 / 458.

(4) ينظر: تفسير التحرير والتنوير: 28 / 374.

لا ينفعهما إلاّ مع كونهما مخلصتين، فهذه امرأة لوط أنشت عليه كما أنشت حفصة على رسول الله ﷺ، وامرأة نوح قالت لقومه: إنه مجنون، فكلاهما تظاهرتا على الرسولين الكريمين بنفاقهما وإبطانهما الكفر فكانت عاقبتهما دخول النار مع الداخلين [1].

فالمثلان في ضوء ذلك يعدّان كناية تعريضية تلوّح بمناها التعريضي من بعيد والذي يُفهم عن طريق الإشارة المهذّبة التي تصون النفس الانسانية المخاطبة من الأذى ـ وبخاصة ـ وهي تعرّض بأمّي المؤمنين فتحفظ لهما مقامهما الكريم في بلوغ المراد. وهذا من خصائص التعريض في القرآن الكريم فهو من "الأساليب البيانية يحتمه الأدب القرآني، وتدعو إليه لغته المهذّبة، تقويماً للخُلق، وصيانة النفس من العبث والغيظ والأثارة المؤذية [2].

يا أختَ هرون ما كان أبوكِ امرأ سَوْءٍ وما كانتْ أمُّكِ بغياً:

ترد هذه الآية الكريمة على سبيل التعريض بالسيدة الطاهرة مريم (عليها السلام) من قبل قومها وذلك في سياق سيدنا عيسى ﷺ، قال ـ تعالى ـ:﴿ فَأَتَتْ بِهِۦ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُۥ ۖ قَالُواْ يَٰمَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْـًٔا فَرِيًّا ۝ يَٰٓأُخْتَ هَٰرُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ ٱمْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا ﴾ [3].

والمعنى الظاهر القريب للآية:﴿ يَٰٓأُخْتَ هَٰرُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ ٱمْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا ﴾ ، كما جاء في التفسير: "أي يا أخت الأخ الصالح أو شبيهة الرجل الرجل الصالح المشهور.. والمراد بهارون أخ لها من أبيها، وكان صالحاً، وقيل: رجل صالح مشهور في بني اسرائيل. وقيل: المراد هارون أخو موسى ﷺ، والمراد بالأخت المشابه والمماثل في التقوى، ما كان أبوك امرأً صاحب سوء في الأعمال والأخلاق، وما كانت أمّك بغياً أي زانية. والأصل إذا كان زكيّاً فالغالب أن الفرع يكون كذلك، فمن أين لك هذا الولد؟" [4].

إلاّ أنّ الآية يمكن عدّها كناية تعريضية تلوّح بمعناها البعيد الذي يقصده قومها على سبيل التعريض بها، على الرغم ممّا تحمله الآية من معنى نبيل يقرّر طهارة السيدة مريم (عليها السلام) وصلاح سيرتها يعترف به قومها، ولكن يشمّ في الآية التعريض (بالزنا)، فهم لم يواجهوها صراحةً بالمعنى، وإنما عرّضوا بذلك تعريضاً قوي التأثير وبالغه، وذلك من خلال نفي

(1) ينظر: الكشاف: 4 / 458.

(2) أصول البيان العربي، ص 119.

(3) سورة مريم، الآيتان: 27 ـ28.

(4) مواهب الرحمن في تفسير القرآن: 5 / 321. وينظر: الكشاف: 3 / 11.

السوء عن أبيها والبغي عن أمّها، ونداؤها بأنها أخت هارون المشهور عندهم بالصلاح، فضلاً عن الاستفهام الضمني المفهوم من السياق بعد النفي (من أين لك هذا الولد؟) الذي يفيد (التعجب) التعجب من هذا الشيء الفريّ الذي جاءت به ولا يعرف مصدره. فمن خلال النفي والاستفهام يُمرَّر المعنى التعريضي الذي أشاروا إليه وهو (الزنا) يتّهمون به الفتاة الطاهرة النقية.

أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثاً:

ويلمح الأسلوب التعريضي البعيد إلى المكذبين بالآخرة، وهم المحجوبون عن التبصّر بحكمة النشأة الأخرى، وذلك في قوله ـ تعالى ـ: ﴿ أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴾ [1].

والمعنى: ﴿ أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا ﴾ أي: 'عابثين، أي: ما خلقناكم للعبث، ولم يدعنا إلى خلقكم إلاّ حكمة اقتضت ذلك، وهي: أن نتعبدكم ونكلفكم المشاق من الطاعات وترك المعاصي،ثم نرجعكم من دار التكليف إلى دار الجزاء، فنثيب المحسن ونعاقب المسيء ﴿ وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴾ معطوف على ﴿ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ ﴾ ويجوز أن يكون معطوفاً على ﴿ عَبَثًا ﴾ أي للعبث، ولتركِكم غير مرجوعين'[2]. هذا هو المعنى الذي توضحه الآية وتقرّره، فحكمة البعث والنشور من حكمة الخَلْق، محسوب حسابها، ومقدّر وقوعها، ومدبّر غايتها، وما البعث والنشور إلاّ حلقة في سلسلة النشأة، تبلغ بها كمالها، ويتم فيها تمامها، ولا ينكر الحياة الأخرى ويغفل عنها إلاّ الكافرون المحجوبون عن حكمة الله الكُبرى، المتجلية في صفحات الكون المبثوثة في أطواء الوجود [3]. ففي الآية تعريض بهؤلاء على أغلظ وجه وأشدّه لإنكارهم هذه الحقيقة التي غفلوا عنها وحسبوا أنهم لا يرجعون إلى الله ولا يحاسبون على أعمالهم.

---

(1) سورة المؤمنون، الآية: 115.

(2) الكشاف: 3 / 162. وينظر: صفوة التفاسير: 2 / 321ـ322.

(3) ينظر: في ظلال القرآن: 6 / 50.

ما هذا إلاّ بَشَرٌ مِثْلُكُمْ:

ترد هذا العبارة على سبيل التعريض بسيدنا نوح ﷺ على لسان الكبراء من قومه، وذلك في قوله ـ تعالى ـ: ﴿ فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَوْمِهِ مَا هَٰذَا إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُرِيدُ أَن يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَنزَلَ مَلَائِكَةً مَّا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِي آبَائِنَا الْأَوَّلِينَ ﴾ [1].

وهذه قولة الكبراء من القوم يطلقونها من هذه الزاوية الضيّقة ﴿ مَا هَٰذَا إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ ﴾ واسلوب القصر بالنفي والاستثناء يؤكد تلك النظرة الضيّقة التي ينظرون منها، فهم ينظرون إلى شخص النبي بوصفه رجلاً لا يفترق عنهم بشيء بقصر (الموصوف: النبي الرسول) على (صفة: البشرية) فحسب، دونما نظر إلى ما يدعوهم إليه من دعوة كريمة عظيمة مجرّدة عن الأشخاص والذوات، فالرسول في نظرهم بشر مثلهم يريد أن يتفضّل عليهم ﴿ أَن يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ ﴾، أي: "يطلب الفضل عليكم ويرأسكم"[2]، وأنتم أنتم فلا تخلّوه وشأنه ولا تهملوا أمره حتى يستفحل خطبه ﴿ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ ﴾ إرسال الرسول ﴿ لَأَنزَلَ مَلَائِكَةً ﴾ اي رُسُلاً منهم ﴿ مَّا سَمِعْنَا بِهَٰذَا ﴾ أي بإرسال الرسول من البشر إلى البشر ﴿ فِي آبَائِنَا الْأَوَّلِينَ ﴾ يدل على فرط جهلهم بأحوال الأمم الماضية، فإن ارسال الرسل من البشر كان مشهوراً معهوداً معلوماً، وعلى قوة عنادهم بحيث أعماهم وجعلهم يعارضون ما علموا بوجوده"[3]. فهو الكذب والعناد والمكابرة، وإلاّ فإنّ ارسال الرسل من البشر إلى البشر لا من الملائكة هو رحمة من الله ورعايته بالبشر، فضلاً عن تكريمهم، فالنبي البشر هو من جنسهم وطبيعتهم يحسّ احساسهم ويشعر شعورهم، يألفهم ويألفونه.. فهو أقدر على إبلاغهم الرسالة بكل تكاليفها من غيره، كالملائكة، كما يقترحون، فالملائكة جنس من غير جنسهم، وطبيعة من غير طبيعتهم، فلا يألفونهم ولا ينسجمون معهم كالرسول من البشر، ولكنها المكابرة التي يتوارى معنى آخر يفهم عبارتهم ﴿ مَا هَٰذَا إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ ﴾ على سبيل التعريض "بأنهم أحق منه بالنبوة، وأن الله لو أراد أن يجعلها في أحد من البشر لجعلها فيهم، فقالوا: هب أنك واحد من الملأ ومُوازٍ لهم في المنزلة، فما جعلك أحق منهم بها؟"[4]

---

(1) سورة المؤمنون، الآية: 24. وينظر: سورة هود، الآية: 27.
(2) الكشاف: 3 / 144.
(3) مواهب الرحمن في تفسير القرآن: 6 / 24.
(4) المثل السائر: 3 / 72. وينظر: الفوائد المشوق إلى علوم القرآن وعلم البيان، ص 134. وينظر: علم البيان، د. عبد العزيز عتيق، ص 220.

ويقوي هذا المعنى التعريضي قولهم: ﴿ يُرِيدُ أَن يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ ﴾، بالنبوة التي هم أحق بها منه كما يزعمون لأنهم يملكون الجاه والرياسة والمال والقوة.. وهو ذات المعنى الذي قصده الكافرون والمشركون على عهد الرسول ﷺ بقولهم الذي حكاه القرآن الكريم ﴿ وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴾ [1] فهؤلاء كأولئك يحسبون بحساب المادة والتجارة والقوة، وينظرون بذواتهم الصغيرة تلك النظرة الضيّقة التي تحجب عنهم جوهر الرسالة وطبيعة النبوة وأهدافها التي تتغيّا اصلاحهم وإبراز انسانيتهم الطموسة "فما كانوا إذن ليدركوا طبيعتها ولا ليروا حقيقتها، وذواتهم الصغيرة الضئيلة تحجب عنهم جوهرها، وتعمي عليهم عنصرها، وتقف حائلاً بين قلوبهم وبينها، وإذاً القضية كلها في نظرهم قضية رجل منهم لا يفترق في شيء عنهم، يُريد أن يتفضّل عليهم، وأن يجعل لنفسه منزلة فوق منزلتهم" [2].

أولوا الأيدي والأبصار:

تتواشج الكناية والتعريض في تركيب واحد، نلحظ ذلك في وصف الله ﷻ لأنبيائه: ابراهيم وإسحاق ويعقوب (عليهم السلام) بأنهم: ﴿ أُولِي الْأَيْدِي وَالْأَبْصَارِ ﴾ في قوله ﷻ: ﴿ وَاذْكُرْ عِبَادَنَا إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ أُولِي الْأَيْدِي وَالْأَبْصَارِ ﴾ [3] قال الزمخشري في قوله ـ تعالى ـ: ﴿ أُولِي الْأَيْدِي وَالْأَبْصَارِ ﴾: "لما كانت أكثر الأعمال تباشر بالأيدي غلبت، فقيل في كل عمل هذا مما عملت أيديهم، وإن كان عملاً لا يتأتى فيه المباشرة بالأيدي، وعلى ذلك ورد قوله ﷻ ﴿ أُولِي الْأَيْدِي وَالْأَبْصَارِ ﴾ يريد: أولي الأعمال والفكر، كأن الذين لا يعملون أعمال الآخرة، ولا يجاهدون في الله، ولا يفكرون أفكار ذوي الديانات ولا يستبصرون في حكم المرضى الذين لا يقدرون على اعمال جوارحهم والمسلوبي العقول الذين لا استبصار بهم. وفيه تعريض بكل من لم يكن من عمال الله، ولا من المستبصرين في دين الله،وتوبيخ على تركهم المجاهدة والتأمل مع كونهم متمكّنين منهما" [4]. وبذلك يكون التعبير القرآني: ﴿ أُولِي الْأَيْدِي وَالْأَبْصَارِ ﴾ كناية عن العمل الصالح بالأيدي الذي هو مصدر قوة لصاحبه، فضلاً عن العمل الصالح بالنظر الصائب والحكمة والفكر السديد بالأبصار، وكِلا المعنيين متصل بالآخر ومنبثق عنه ويكمله،

(1) سورة الزخرف، الآية: 31.
(2) في ظلال القرآن: 6 / 24.
(3) سورة ص، الآية: 45.
(4) الكشاف: 4 / 76 ـ 77.

فهو المعنى الشامل للعمل الصالح المستقر في النفس مشاعر وأفكاراً ومن ثم يتجسد في الواقع حركةً وبناءاً، وبذلك يكون مظهراً من مظاهر القوة والبناء، كما تلمح الكناية إلى ذلك بالأيدي والأبصار، لذلك يجعلها القرآن نعمة تستحق الذكر الحسن والثواب الكريم.

ومن جانب آخر يمكن عدّ التعبير ﴿ أُوْلِي ٱلْأَيْدِي وَٱلْأَبْصَٰرِ ﴾ كناية تعريضية تلوّح بمعناها التعريضي من بعيد، فضلاً عن معناها الظاهر المعلوم. المعنى البعيد تعريض بالذي لا يعمل صالحاً فهو كالذي لا يد له، وبالذي لا يفكر تفكيراً سليماً صائباً فهو كالذي لا عقل له ولا نظر [1] فهو أعمى القلب والبصيرة لا يتفكر ولا يتدبر لأنه يفتقد الإيمان بالله الذي يبعث قوى النفس على التبصر الذي يوجهه إلى العمل الصالح، وفي ذلك تقابل ضمني بين الإيمان بوصفه مَعْلَماً من معالم القوة والبناء، وبين الكفر الذي هو ضعف والحلال وفساد للانسان والحياة.

والذين إذا ذكّروا بآيات ربهم لم يَخِرّوا عليها صُمّاً وعُمْياناً:

يُقدم القرآن أنموذجاً من الذين لا يسمعون سماع الهدى والإيمان ولا يُبصرون بصر الهداية على سبيل التعريض، بهذه الآية التي يسجل بها سمة من سمات عبد الرحمن الذي إذا ذكّروا بآيات ربهم حرصوا على استماعها بآذان واعية وعيون راعية: ﴿ وَٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّواْ عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا ﴾ [2].

فهذه سمة من سمات عباد الرحمن التي ذكرها السياق [3] فهم يتلقون آيات الله بالفهم والاعتبار، فيخرّون لله من غير صمم وعمى، قال الزمخشري "﴿ لَمْ يَخِرُّواْ عَلَيْهَا ﴾ ليس بنفي للخرور، وإنما هو إثبات له، ونفي للصمم والعمى،والمعنى: أنهم إذا ذكّروا بها أكبوا عليها حرصاً على استماعها، وأقبلوا على المذكّر بها وهم في إكبابهم عليها، سامعون بآذان واعية، مبصرون بعيون راعية، لا كالذين يذكّرون بها فتراهم مكبين عليها مقبلين على من يذكّر بها، مظهرين الحرص الشديد على استماعهم، وهم كالصم العميان حيث لا يعونها ولا يتبصّرون ما فيها كالمنافقين وأشباههم" [4].

(1) ينظر: في ظلال القرآن: 7 / 103.
(2) سورة الفرقان: 73.
(3) ينظر: الآيات: 63 ـ74.
(4) الكشاف: 3 / 233.

وتُعدُّ الآية كناية تعريضية تتجاوز معناها الظاهر المعلوم إلى ما تلوّح به من معنى تعريضي يستهدف المشركين الذين ينكّبون على آلهتهم وأباطيلهم دون إدراك أو تفكير، فهم صمّ وعميان لا يسمعون ولا يبصرون، وإنما يتّبعون الظنّ وما تهوى الأنفس [1]، وفي الكناية التعريضية تصوير لحركة الإنكباب على الوجه بلا سمع ولا بصر حركة تشير إلى معناها، ويتمثل في الجهل والتعصب الأعمى لما ينكبون عليه على خلاف عباد الرحمن الذين يدركون إدراكاً واعياً بصيراً ما في آيات الله من صدق فيؤمنون إيماناً واعياً بصيراً،لا تعصباً أعمى ولا انكباباً على الوجوه، وإنما يؤمنون إيمان العارف المدرك البصير [2]. ومن خلال الكناية التعريضية يتقابل الفريقان على سبيل التضاد ليتجلّى حال الفريقين: المشركين والمؤمنين، فيتعمق المعنى في ذهن المتلقي وحسه،بين حال المؤمنين في صورتهم الوضيئة: إيماناً وإدراكاً ومعرفةً.. وبين حال المشركين المعرّض بهم في صورتهم المظلمة: عُمْياً وصُمّاً وجَهْلاً.. فهما صورتان متضادتان تجلّي عالمين مختلفين.

وما هي من الظالمين ببعيد:

ترد هذه الكناية التعريضية في سياق تصوير العذاب الذي حلّ بقوم لوط في قوله ـ تعالى ـ: ﴿ فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ ۝ مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ ۖ وَمَا هِيَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ بِبَعِيدٍ ﴾ [3].

وهي صورة مروِّعة من العذاب. والمروي في التفسير "أن جبريل ﷺ قلع المدائن بيده بالقدرة المودعة له، في صورة بركان هزّ المدائن وقلعها من محلها وطيّرها إلى ارتفاع بقدر ما شاء الله، فقلبها من فوق وحطها في محلها فكان ما كان" [4]، وفوق هذا العذاب المروّع الأليم أمطر الله عليهم حجارة من سجيل منضود، وذلك زيادةً في تفظيع حالهم [5] وتحقير شأنهم.

(1) ينظر: سورة النجم، الآية: 23.

(2) ينظر: في ظلال القرآن: 6/ 186 ـ187.

(3) سورة هود، الآيتان: 82، 83. سجّيل: حجارة من طين. ومسوَّمة: معلَّمة. ينظر: تفسير الجلالين، ص 303.

(4) مواهب الرحمن في تفسير القرآن: 4/ 324. وينظر: الكشاف: 2/ 325.

(5) ينظر: مواهب الرحمن في تفسير القرآن: 4/ 324.

﴿ وَمَا هِيَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ بِبَعِيدٍ ﴾ قيل: "الضمير للقرى، أي هي قريبة من ظالمي مكة يمرّون بها في مسايرهم ڇٹ ڇبشيء بعيد"[1] فهي قريبة في مشهدها الذي يحكي العذاب الأليم الذي حلّ بقوم لوط، وفي عذابهم آيات للمعتبرين الذين يخافون العذاب الأليم كما قال ـ تعالى ـ في موضع آخر تعقيباً على مصرع قوم لوط: ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّلۡمُتَوَسِّمِينَ ۝ وَإِنَّهَا لَبِسَبِيلٖ مُّقِيمٍ ۝ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ لِّلۡمُؤۡمِنِينَ ﴾[2]، ولكن الظالمين لا يعتبرون بمصارع الغابرين.

ويُفهم التعبير القرآني: ﴿ وَمَا هِيَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ بِبَعِيدٍ ﴾ على أنه كناية تعريضية تلوّح بمعناها التعريضي الذي يستهدف الظالمين ويتوعّدهم ويهدّدهم بعذاب أليم بئيس كعذاب قوم لوط، فكلاهما ظالم يستحق العذاب، وسنّة الله لا تحابي أحداً، فهي سنّة لا تتبدّل ولا تتغيّر تعمل عملها في حركة التاريخ[3] الانساني،وإن اختلف نوع العذاب وشكله الذي يحلّ بالظالمين.

وكَأيِّنْ من نَبِيّ قَتَلَ معَهُ ربّيون كثيرٌ لِما وَهِنوا لِما أصابهم..:

يعرّض القرآن بالمسلمين المقاتلين في معركة أُحُدْ بما أصابهم من الوهن والانكسار عند الإرجاف بقتل رسول الله ﷺ ويضعفهم في مجاهدة المشركين، وذلك في قوله ـ تعالى ـ: ﴿ وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيّٖ قَٰتَلَ مَعَهُۥ رِبِّيُّونَ كَثِيرٞ فَمَا وَهَنُواْ لِمَآ أَصَابَهُمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَمَا ضَعُفُواْ وَمَا ٱسۡتَكَانُواْۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّٰبِرِينَ ۝ وَمَا كَانَ قَوۡلَهُمۡ إِلَّآ أَن قَالُواْ رَبَّنَا ٱغۡفِرۡ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسۡرَافَنَا فِيٓ أَمۡرِنَا وَثَبِّتۡ أَقۡدَامَنَا وَٱنصُرۡنَا عَلَى ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡكَٰفِرِينَ ۝ فَـَٔاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ ثَوَابَ ٱلدُّنۡيَا وَحُسۡنَ ثَوَابِ ٱلۡأٓخِرَةِۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴾[4].

والمعنى الظاهر للآية كما جاء في التفسير: "وكثير من نبيّ قاتل وجاهد وحارب الكفار معه ربّيون أي أناس علماء زهّاد أتقياء منسوبون إلى ربّهم نسبة الاختصاص والإخلاص، أو قاتل معه جمع كثير من أتباعه، وأصيبوا في سبيل الله بجراحات ومصائب من قتل الآباء والأولاد والحواشي وانتهاب الأموال ﴿ فَمَا وَهَنُواْ لِمَآ أَصَابَهُمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾ وما حصل لهم الفتور في الجهاد ﴿ وَمَا ضَعُفُواْ ﴾ في الدين ولا في مقابلة العدو ﴿ وَمَا ٱسۡتَكَانُواْ ﴾ وما خضعوا لهم، والله أحبهم لأنهم كانوا صابرين على الأذى في سبيل الله ﴿ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾"[5].

(1) الكشاف: 2 / 325.

(2) سورة الحجر، الآيات: 75، 77. وينظر: سورة الذاريات، الآية: 37.

(3) ينظر: التفسير الاسلامي للتاريخ، د. عماد الدين خليل، ص 275.

(4) سورة آل عمران، الآيات: 146 ـ148.

(5) مواهب الرحمن في تفسير القرآن: 2 / 270 ـ271. وينظر: الكشاف:1 / 469.

وما كان قولهم مع الجهاد في سبيل الله وقبول مصابه وجراحاته ﴿ وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلَّآ ﴾ هذا القول وهو إضافة الذنوب والإسراف إلى أنفسهم مع كونهم ربانيّين هضماً لها واستقصاراً والدعاء بالاستغفار منها مقدماً على طلب تثبيت الأقـدام في مـواطن الحـرب والنـصرة عـلى العدو وليكون طلبهم إلى ربهم عن زكاء وطهارة وخضوع أقرب إلى الاستجابة ﴿ فَـَٔاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا ﴾ من النصرة والغنيمة والعز وطيب الذكر. وخصّ ثواب الآخرة بالحسن دلالة على فضله وتقدمه وأنه هو المعتدّ به عنده "[1] يجزي به عباده المؤمنين الصابرين.

غير أنّ الآية الكريمة: ﴿ وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيٍّ قَـٰتَلَ مَعَهُۥ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا۟ لِمَآ أَصَابَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا۟ وَمَا ٱسْتَكَانُوا۟ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّـٰبِرِينَ ﴾ تُفهم على أنها كناية تعريضية تنطوي على معنى يعرِّض بالمنهزمين من أرض المعركة في أُحُد بسبب الضعف الـذي أصـابهم في مجاهـدة المـشركين وانكسارهم واستكانتهم للمنافقين المرجفين بقتل رسـول الله ﷺ، قال الزمخشري: "وهذا تعـريض بما أصابهم من الوهن والانكسار عند الارجاف بقتل رسول الله ﷺ وبـضعفهم عنـد ذلـك عـن مجاهدة المشركين واستكانتهم لهـم "[2]. والتعـريض بالمسلمين المنهـزمين الـذي يبـيّن ضـعفهم واستكانتهم ذو بعد تربوي نفسي يهدف إلى بناء تلك النفوس الضعيفة الإيمان من خلال كـشف ضعفها لتتجاوزه ، فما ينبغي للنفـوس المؤمنـة المتـصلة بـالله أن تـضعف وتـستكين في مجاهـدة الكافرين، والله مولاها وناصرها وهو خير الناصرين.

وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ:

ترد هذه الكناية العريضية في قولـه ـ تعـالى ـ: ﴿ قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ قُلِ ٱللَّهُ ۖ وَإِنَّآ أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ ﴾[3].

ثمة لنحلظ الآية تأمر الرسول ﷺ بتوجيه سؤال إلى المشركين ﴿ مَن يَرْزُقُكُم ﴾ ثم أمره بـأن يتولى الإجابة والإقرار عنهم بقوله: يرزقكم الله. وفي توجيه السؤال من الرسـول ﷺ ثـم الاجابـة عنه بدلاً من المشركين "إشعار بأنهم مقرّون به بقلوبهم، إلاّ أنهم ربمـا أبـوا أنْ يتكلمـوا بـه، لأن الذي تمكّن في صدورهم من العناد وحبّ الشرك قد ألجم أفواههم عن النطق بالحق مـع علمهـم بصحته، ولأنهـم إنْ تفوّهوا بأن الله رازقهـم: لزمهم أن يقال لهـم: فمـا بـالكم لا تعبـدون مـن

(1) الكشاف: 1 / 469.

(2) الكشاف: 1 / 469.

(3) سورة سبأ، الآية: 24.

يرزقكم وتؤثرون عليه من لا يقدر على الرزق"[1]، وفي ذلك تبكيت للمشركين وإلزام بالحجة الواضحة التي لا تحتاج إلى البيان.

ومن ثم تأتي الكناية التعريضية بعد إلزامهم بالحجة وإلجامهم بها ﴿ وَإِنَّآ أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴾ والمعنى: "وإن أحد الفريقين من الذين يوحدون الرازق من السموات والأرض بالعبادة ومن الذين يشركون به الجماد الذي لا يوصف بالقدرة، لعلى أحد الأمرين من الهدى والضلال"[2]. وليس في العبارة القرآنية إبهام بعدما ألزمهم الحجة التي تقرّ بها قلوبهم، وبعدما قدّم من التقرير البليغ بما فيه من دلالة واضحة على من هو من الفريقين على الهدى ومن هو في الضلال المبين، ولكنه "التعريض أفضل بالمجادل إلى الغرض، واهجم به على الغلبة، مع قلّة شغب الخصم وفلّ شوكته بالهوينا. ونحوه قول الرجل لصاحبه: عَلِمَ اللهُ الصادق مني ومنك، وإن أحدنا لكاذب"[3]. فالكناية التعريضية تهدف إلى تبكيتهم وتسفيه ما يعبدون بالأسلوب الهادئ الذي يأخذ بخناقهم، وإلاّ فإنّ الهدى واضح بيّن، وصاحبه على الحق مستعلٍ والضلال واضح بيّن، وصاحبه كأنه منغمس في ظلام، كما صوّر ذلك الحرفان: "على وفي ﴿ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴾ لأن صاحب الحق كأنه مستعلٍ على فرس جواد يركضه حيث يشاء، والضال كأنه منغمس في ظلام مرتبك فيه لا يدري أين يتوجه"[4]. ففي الحرفين اخراج للمعنى في صورة تشخيصية حيوية مؤثرة تمنحنا دلالة مصوّرة، نرى فيها الرسول ﷺ والمؤمنين على الهداية، في حين إنّ المشركين المجادلين في الضلال، وفي ذلك تقريب معنى الحق وأصحابه، وتقريب معنى الكفر والشرك وأصحابه، فصاحب الحق لظهور حجته وقوة إيمانه وتمكنه من دينه كأنه مستعلٍ ظهر جواد يهديه كيف يشاء،و(على) دالة على الاستعلاء موحية بهذا المعنى، أما أصحاب الباطل المعرّض بهم،فهم لشركهم وكفرهم ومكابرتهم كأنهم

(1) الكشاف: 3 / 458.
(2) المصدر نفسه: 3 / 458 ـ459.
(3) الكشاف: 3 / 459.
(4) المصدر نفسه: 3 / 459. وينظر: الاستعارة في القرآن الكريم، ص 98.

منغمسون في ظلمة ليس فيها بصيص من نور، و (في) الدالة على الظرفية تدل على هذا الانغماس في ظلمات الضلال [1].

وَمالِيَ لا أَعْبُدُ الذي فَطَرَني وإليهِ تُرجَعون:

يعرض القرآن بالمشركين على لسان الرجل الذي جاء من أقصى المدينة يسعى [*]، وذلك في قوله ـ تعالى ـ: ﴿ وَجَآءَ مِنۡ أَقۡصَا ٱلۡمَدِينَةِ رَجُلٞ يَسۡعَىٰ قَالَ يَٰقَوۡمِ ٱتَّبِعُواْ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ۞ ٱتَّبِعُواْ مَن لَّا يَسۡـَٔلُكُمۡ أَجۡرٗا وَهُم مُّهۡتَدُونَ ۞ وَمَا لِيَ لَآ أَعۡبُدُ ٱلَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ ۞ ءَأَتَّخِذُ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً إِن يُرِدۡنِ ٱلرَّحۡمَٰنُ بِضُرّٖ لَّا تُغۡنِ عَنِّي شَفَٰعَتُهُمۡ شَيۡـٔٗا وَلَا يُنقِذُونِ ۞ إِنِّيٓ إِذٗا لَّفِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٍ ۞ إِنِّيٓ ءَامَنتُ بِرَبِّكُمۡ فَٱسۡمَعُونِ ﴾[2].

والمعنى الظاهر لهذه الآيات هو: ﴿ وَجَآءَ مِنۡ أَقۡصَا ٱلۡمَدِينَةِ ﴾ أي من أبعد مواضعها ﴿ رَجُلٞ ﴾ وهو حبيب ﴿ يَسۡعَىٰ ﴾ أي يسرع في مشيه حرصاً على نصح قومه ﴿ قَالَ يَٰقَوۡمِ ٱتَّبِعُواْ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ۞ ٱتَّبِعُواْ مَن لَّا يَسۡـَٔلُكُمۡ أَجۡرٗا وَهُم مُّهۡتَدُونَ ﴾ أي ثابتون على الحق والاهتداء ﴿ وَمَا لِيَ لَآ أَعۡبُدُ ٱلَّذِي فَطَرَنِي ﴾ تلطف في إرشاد قومه بإيراده الكلام في معرض المناصحة ﴿ وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ ﴾ مبالغة في تهديدهم بتخويفهم من الله الذي يرجعون إليه وهو شديد العقاب ﴿ ءَأَتَّخِذُ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً إِن يُرِدۡنِ ٱلرَّحۡمَٰنُ بِضُرّٖ لَّا تُغۡنِ عَنِّي شَفَٰعَتُهُمۡ شَيۡـٔٗا وَلَا يُنقِذُونِ ۞ إِنِّيٓ إِذٗا ﴾ أي إذا اتخذت من دونه آلهة ﴿ لَّفِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٍ ﴾ أي واضح فإن إشراك مالا يحصل منه خير ولا دفع شرّ ضلال ﴿ إِنِّيٓ ءَامَنتُ بِرَبِّكُمۡ فَٱسۡمَعُونِ ﴾ أي فاسمعوا قولي فإني أعلن ذلك ولا أبالي بأي حادث هنالك "[3].

وقوله ـ تعالى ـ: ﴿ وَمَا لِيَ لَآ أَعۡبُدُ ٱلَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ ﴾ ينطوي على معنى تعريضي [4] فضلاً عمّا قرره من معنى قريب، فهو تعريض بقومه، والمراد: وما لكم

---

(1) ينظر: الكشاف: 3 / 459. والبرهان في علوم القرآن: 2 / 303. وينظر: نظرية الحروف العاملة ومبناها وطبيعة استعمالها القرآني بلاغياً، هادي عطية مطر الهلالي، ص 168.

(*) هو حبيب بن اسرائيل النجار (صاحب يس)، ينظر: الكشاف: 4 / 7. وتفسير الجلالين، ص 583.

(2) سورة يس، الآيات: 20 ـ25.

(3) مواهب الرحمن في تفسير القرآن: 6 / 433 ـ434.

(4) ينظر: البرهان في علوم القرآن: 2 / 313. والاتقان في علوم القرآن: 3 / 148.

لا تعبدون الذي فطركم [1] ولولا التعريض لكان المناسب أن يُقال: الذي فطرني وإليه أرجع [2] فهو يعرض بقومه وبما يعبدون من دون الله ومما يقوي التعريض ويجليه قوله بعد ذلك، فقد ساقه ذلك المساق: ﴿ ءَأَتَّخِذُ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً ﴾ ، والمراد: أتتخذون من دونه آلهة [3] إلى أن قال: ﴿ ءَامَنتُ بِرَبِّكُمْ فَٱسْمَعُونِ ﴾ دون (ربي) و (فاسمعوه) [4].

وبذلك يتجلّى المعنى التعريضي بهم وبآلهتهم، ينال منهم بطريق خفي إذ يسفّه ما هم فيه حال كونهم ضالّين عن الصراط المستقيم لا مَعْدَل عنه، فهم يعبدون من لا تصح له العبادة، لأنهم عطّلوا عقولهم وقلوبهم، فيعبدون مالا يضرّ ولا ينفع، ولا تغن شفاعتهم شيئاً، ولم يمكّنوا من أن يكونوا شفعاء عن الله، ولم يقدروا على انقاذهم، فهم في عبادتهم في ضلال بيّن لا يخفى على ذي عقل وتمييز [5] فالتعريض يكشف عن حالهم بعمق، وينال منهم بهذه الطريقة التعريضية اللطيفة، إذ سلك المتكلم كلامه في معرض المناصحة لنفسه وهو يريد مناصحتهم ليتلطّف بهم ويداريهم، فهو يتضمن اعلامهم على صورة لا تقتضي مواجهتهم بالخطاب المُنكِر، وكأنه لم يَعْنِهم، وبذلك يكون المعنى أدعى للتأثير في انفسهم والقبول له، فضلاً عن أن هذا التعريض يدل على محاسن أخلاق المتكلم وتواضعه حيث لا يُريد لهم إلاّ ما يريد لنفسه.. وفي ذلك تعليم في الخطاب للذين يعقلون [6].

(1) ينظر: الكشاف: 4 / 8. والبرهان في علوم القرآن: 2 / 313.
(2) ينظر: الكشاف: 4 / 8. والبرهان في علوم القرآن: 2 / 313.
(3) ينظر: البرهان في علوم القرآن: 2 / 313.
(4) ينظر: المصدر نفسه والمكان نفسه.
(5) ينظر: الكشاف: 4 / 8.
(6) ينظر: الكشاف: 4 / 8. والبرهان في علوم القرآن: 2 / 313. والاتقان في علوم القرآن: 3 / 148.

لا تُسْأَلُونَ عَمَّا أَجْرَمْنا ولا نُسألُ عمّا أجرمْنا:

ويفهم التعريض بالكافرين من هذه الآية كالآية السابقة [1] وهي قوله ـ تعالى ـ: ﴿ قُل لَّا تُسْـَٔلُونَ عَمَّآ أَجْرَمْنَا وَلَا نُسْـَٔلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ [2].

فلولا القصد بالآية التعريض بحال الكافرين وما هم عليه من إجرام في أعمالهم من كفرٍ ومعاصٍ، لكان حق الحال من حيث الظاهر أن يُقال: (لا تسئلون عمّا عملنا ولا نسأل عمّا تجرمون) [3] ولكنه أسند (الإجرام) إلى المتكلم، والعمل إلى المخاطبين، على سبيل التعريض بهم، فيكون التعريض "أدخل في الإنصاف وأبلغ" [4] لأنه يحقق المقصود على سبيل التلطّف [5] بهم، وهو التأثير في أنفسهم لقبول ما تهدف إليه الآية في استدراجهم إلى الإذعان والتسليم، فالتعريض يكشف عن حالهم وما هم فيه من إجرام وتنكّب عن الصراط المستقيم، وينال منهم في صورة خفية لطيفة، فضلاً عمّا يدل عليه من محاسن أخلاق المتكلم في الدعوة والخطاب وهو يواجه النفوس المجرمة للكفر والمعاصي والآثام فيتلطّف معها هذا التلّطف لعلها تتأثر وتستجيب لما يدعوهم إليه من خير، فتقلع عمّا هي فيه من إجرام وآثام.

لَوْ أَنْزَلْنا هذا القُرْآنَ على جَبَلٍ لَرَأَيْتَهُ خاشِعاً مُتَصَدِّعاً مِنْ خَشْيَةِ اللهِ:

ورد هذا التعبير في المثل القرآني، وهو قوله ـ تعالى ـ: ﴿ لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُۥ خَٰشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ ۚ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ [6].

وبنية هذا المثل القرآني قائمة على التصوير المجازي في نسبة الخشوع والتصدع والخشية إلى الجبل الأصم، "وليس من شأن الجبل أن يخشع ولا أن يخشى والخشوع والخشية، كلاهما من أفعال القلوب التي لا تصدر عن جماد، إلا أن يكون ذاك من صنع البيان إذ يبث الحياة في الصخر الأصم" [7] والمعنى "أن الجبل لو كان مما يعي القرآن، ويعرف البيان، لخشع في سماعه،

(1) ينظر: البرهان في علوم القرآن: 2 / 313.

(2) سورة سبأ، الآية: 25.

(3) ينظر: البرهان في علوم القرآن: 2 / 313.

(4) الكشاف: 3 / 459.

(5) ينظر: البرهان في علوم القرآن: 2 / 313.

(6) سورة الحشر، الآية: 21.

(7) الاعجاز البياني للقرآن ومسائل ابن الأزرق، ص 209. وينظر: الصورة الفنية في المثل القرآني، ص 160.

ولتصدع من عظم شأنه على غلظ اجرامه، وخشونة أكنافه، فالانسان أخف بذلك منه، إذ كان واعياً لقوارعه، وعالماً بصوادعه "[1] وفي ذلك بيان منزلة القرآن وعظمته، وشدة تأثيره في النفوس [2].

غير أن هذا التعبير القرآني يمكن عدّه كناية تعريضية بالانسان الذي لا يخشى ولا يخشع، وقد كشف الزمخشري عن معناها بقوله: "والغرض توبيخ الانسان على قسوة قلبه وقلّة تخشعه عند تلاوة القرآن وتدبّر قوارعه وزواجره "[3].

فإذا كان الجبل الأصم يخشع ويتصدّع من خشية الله، فمن باب أولى أن يخشى هذا الانسان ويخشع وهو المعني بالخطاب، وبذلك تتجلى الدلالة النفسية التي يهدف القرآن إلى إحداثها في الانسان المؤمن بخاصة وهو يتلقى آيات القرآن بالتدبر والتفكر فيتأثر ويستجيب خاشياً من الله خاشعاً له.

ضَرْبُ المثل بالقرية الآمنة المطمئنة:

يمكن أن يعدّ هذا المثل القرآني كسابقه كناية تعريضية، وهو قول - تعالى -: ﴿ وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ ﴾ [4].

والمثل القرآني يجسد العذاب في صورة شبح مفزع مخيف مذاق، إذ تحول الجوع والخوف وهما معنويان إلى صورة حسية على شكل لباس يغشى أهل القرية بالاستعارة التصريحية ﴿ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ ﴾ وللشريف الرضي تحليل لهذه الاستعارة منه قوله: "وإنما قال - سبحانه -: ﴿ لِبَاسَ الْجُوعِ ﴾ ولم يقل: طعم الجوع والخوف، لأن المراد بذلك - والله أعلم - وصف تلك الحال بالشمول لهم، والاشتمال عليهم، كاشتمال الملابس على الجلود، لأن ما يظهر منهم عن مضيض الجوع وأليم الخوف، من سوء الأحوال، وشحوب الألوان، وضؤولة الأجسام، كاللباس الشامل لهم، والظاهر عليهم "[5].

---

(1) تلخيص البيان في مجازات القرآن، ص 330. وينظر: مواهب الرحمن تفسير القرآن: 7 / 305.
(2) ينظر: الصورة الفنية في المثل القرآني، ص 322، 324.
(3) الكشاف: 4 / 406.
(4) سورة النحل، الآية: 112.
(5) تلخيص البيان في مجازات القرآن، ص 197.

وقد أكد الزمخشري هذا بقوله: "وأما اللباس فقد شبّه به لاشتماله على اللابس: كما غشى الانسان والتبس به من بعض الحوادث،وأما ايقاع الاذاقة على لباس الجوع والخوف، فلأنه لمّا وقع عبارة عمّا يغشى منهما ويلابس، فكأنه قيل: فأذاقه ما غشيهم من الجوع والخوف "[1]. ففي المثل " تتداخل استجابات الحواس فتضاعف حس الجوع والخوف لهم ولذعه وتأثيره وتغلغله في النفوس "[2]. واستجابات الحواس تتمثل في استعارة (الذوق) إذ تعمق درجة الاحساس ووطأة العذاب الذي عانته هذه القرية " لأنه كما يجد الذائق مرارة الشيء فهم في الاستمرار كتلك الشدة في المذاقة "[3].

وهذا العذاب الأليم الذي يغشى أهل القرية ويلابسهم كما جسّده التصوير الاستعاري في المثل القرآني يمكن أن يُفهم على أنه كناية تعريضية تستهدف في معناها التعريضي البعيد أهل مكة وما يصيبهم من العذاب الأليم، إذا هي كفرت بالله وأنعمه شأنها شأن الأمم السابقة، فضرب الله مثلاً على سبيل التعريض بمكة إنذاراً من مثل عاقبتها [4]. بل يمكن أن يُفهم المثل القرآني على أنه كناية تعريضية شاملة في معناها تشمل مكة وأهلها، فضلاً عن كل قرية أنعم الله عليها فكفرت بالله وأبطرتها النعمة في كل زمان ومكان. وبذلك يبقى المثل القرآني يشع بمعناه التعريضي منذراً بالنقمة والعذاب لكلّ قرية تكفر بالله وأنعمه.

ومن خلال ما استعرضنا من الكنايات التعريضية يتبيّن أن لها سمات فنية فهي تمتاز بالإيجاز في التعبير عن المعاني التي تهدف إليها، فهي تحقّق معناها أولاً، ثم تصل إلى الغرض أو المعنى البعيد الذي ترمي إليه عن طريق المفهوم من السياق وقرائن الأحوال من غير أن تذكر الطرف المقابل المعرَّض به، لذا تُعدّ من الأساليب البيانية التي تفيض بالأدب القرآني بما تحتمّه لغته المهذّبة تقوياً للخُلُق، وصيانة للنفس الانسانية من العبث والغيظ والإثارة المؤذية، ولذلك - أيضاً - يكون وقع المعنى مؤثراً وأقدر على احداث الاستجابة النفسية المناسبة التي يَقصد القرآن إلى احداثها في النفس الانسانية المتلقية.

---

(1) الكشاف: 2 / 498.
(2) في ظلال القرآن: 5 / 288.
(3) النكت في إعجاز القرآن، ص 90.
(4) ينظر: الكشاف: 2 / 497. وينظر: تفسير الجلالين، ص 367. وينظر: الصورة الفنية في المثل القرآني، ص 263.

الفصل الثامن

كنايات عن يوم القيامة

الفصل الثامن

كنايات عن يوم القيامة

تتعدد الكنايات في القرآن الكريم عن يوم القيامة، ويوم القيامة ـ كما يصفه القرآن ـ هو ذلك اليوم الذي يحدث فيه الانقلاب الكوني العظيم [1] ومما يجلّي شدة أهوال ذلك اليوم وتأثيره في الناس قوله ـ تعالى ـ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمْۚ إِنَّ زَلۡزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَيۡءٌ عَظِيمٞ ۝ يَوۡمَ تَرَوۡنَهَا تَذۡهَلُ كُلُّ مُرۡضِعَةٍ عَمَّآ أَرۡضَعَتۡ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمۡلٍ حَمۡلَهَا وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَٰرَىٰ وَمَا هُم بِسُكَٰرَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ ٱللَّهِ شَدِيدٞ﴾ [2].

ويستخدم القرآن في التعبير عن ذلك اليوم العظيم ألفاظاً كنائية متعددة، كل لفظ يجلّي صفة من صفاته وأهواله، وكلها تشير إلى: انفراط عقد هذا الكون المنظور، واختلال روابطه وضوابطه التي تمسك به في هذا النظام البديع الدقيق، وتناثر أجزائه بعد انفلاتها من قيد الناموس "[3] الذي يضبطها بقدرة الله وإرادته. كما أن تعدّد هذه الكنايات وتجمعّها على صعيد واحد يقرّب إلى الأذهان والقلوب على نحو من التوكيد أهوال ذلك اليوم وشدته على الكون والحياة والانسان فيُحدث الاستجابة النفسية التي يهدف إليها القرآن،إذ الملاحظ أن هذه الكنايات قد جاءت في سور مكية التي من أبرز أهدافها تأسيس أصول الدين الكبرى في القلوب والنفوس [4] وهي: توحيد الله ﷻ في الوهيته وربوبيته للكون والخلائق جميعاً، وفي مقدمتها: الانسان الذي كرّمه الله أيّما تكريم وفضّله على كثير ممّن خلق تفضيلاً[5] لذلك كان من صفات السور المكية وبخاصة السور القصيرة منها أنها ذات أسلوب وإيقاع قويين شديدين

---

(1) ينظر مثلاً: سورة التكوير، الآية: 11، وسورة الانفطار، الآيات: 1 ـ4، وسورة الانشقاق، الآيات: 1 ـ5، وسورة المرسلات، الآيات: 8 ـ11.

(2) سورة الحج، الآيتان: 1 ـ2.

(3) في ظلال القرآن: 8 / 253.

(4) ينظر: صفوة التفاسير: 3 / 414، وينظر: التفسير البياني القرآن الكريم، د. عائشة عبد الرحمن: 1 / 79.

(5) ينظر: سورة الإسراء، الآية: 70.

في وقعهما يعملان على قرع القلوب بحقائقها التي تؤديها [1]، منها هذه الكنايات التي ترد ـ على الأعم الأغلب ـ في مطالع هذه السور فتلفت الانتباه لفتاً قوياً في تلقي المعاني والأصول الكبرى للدين الحنيف.

وممّا يتّصل بهذه الكنايات عن يوم القيامة كنايات أخرى تتعلّق بمشاهد الناجين والمعذّبين في ذلك اليوم المشهود. مشهد الناجين وهم أصحاب اليمين الذين يُؤتون كتبهم باليمين، ومشهد المعذّبين وهم أصحاب الشمال الذين يؤتون كتبهم بالشمال أو من وراء الظهر. وإيتاء الكتاب باليمين للناجين الفائزين، وإيتاء الكتاب بالشمال أو من وراء الظهر للمعذّبين الخاسرين هي كنايات تشير إلى المعنى المُكنى عنه الذي يقصده القرآن الكريم، وسنحاول عرضها بعد عرض الكنايات عن يوم القيامة كلٌ على حدة بالتحليل الذي يكشف عن المعنى الذي ينطوي وراءها ما استطعنا إلى ذلك سبيلاً.

الواقعة:

تأتي الواقعة كناية عن يوم القيامة في موطنين من القرآن الكريم في قوله ـ تعالى ـ: ﴿إِذَا وَقَعَتِ ٱلْوَاقِعَةُ ۝ لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا كَاذِبَةٌ ۝ خَافِضَةٌ رَّافِعَةٌ ۝ إِذَا رُجَّتِ ٱلْأَرْضُ رَجًّا ۝ وَبُسَّتِ ٱلْجِبَالُ بَسًّا ۝ فَكَانَتْ هَبَآءً مُّنۢبَثًّا ۝ وَكُنتُمْ أَزْوَٰجًا ثَلَٰثَةً﴾ [2]. وجاءت في قوله ـ تعالى ـ أيضاً: ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِى ٱلصُّورِ نَفْخَةٌ وَٰحِدَةٌ ۝ وَحُمِلَتِ ٱلْأَرْضُ وَٱلْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَٰحِدَةً ۝ فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ ٱلْوَاقِعَةُ﴾ [3].

﴿وَقَعَتِ ٱلْوَاقِعَةُ﴾ المراد: القيامة، وصفت بالوقوع لأنها تقع لا محالة لأي: إذا وقعت التي لا بُدّ من وقوعها، ووقوع الأمر نزوله [4].

وقد عدل عن التصريح بلفظ ﴿ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ إلى الكناية عنه بلفظ ﴿ٱلْوَاقِعَةُ﴾ لا لاثبات معناها للقيامة حسب، وإنما لاثبات الشاهد والدليل، وهو أنها ستقع لا محالة، وحتمية وقوعها يشهد بها العقل الانساني في دراساته العلمية والفلكية التي تؤكد سير العالم إلى نهاية محتومة. وسيرتب على هذا الوقوع مشاهد محسوسة للفائزين بالجنة والخاسرين الذين يُساقون إلى جهنم

(1) ينظر: التعبير الفني في القرآن، بكري شيخ أمين، ص 252. وينظر: التفسير البياني للقرآن الكريم: 1 / 79.
(2) سورة الواقعة، الآيات: 1 ـ7.
(3) سورة الحاقة، الآيات: 13، 15.
(4) ينظر: الكشاف: 4 / 362.

إن لتعبير عن القيامة بالكناية ﴿ٱلۡوَاقِعَةُ﴾ تنقل فكرة البعث والنشور من دائرة الجدل إلى المسلمات [1]، وفهي ستقع وقعةً صادقةً ليس لها رجعة ولا ارتداد [2] في صورة كلها تهويل وتفخيم لشأنها، والتهويل يتجلّى من المطلع، فهو يبدأ بإذا الشرطية المحذوف جوابها، وحذف جواب (إذا) يحقّق دلالة التهويل والتفخيم لمعناها إذ يترك لخيال المتلقي ونفسه أن يذهبا في تخيّله وتصوّره كلّ مذهب وكأنّه ـ جواب إذا المحذوف ـ لا تحيط بوصفه الألفاظ والعبارات أو ليس لها طاقة تعبيرية عمّا سيحدث ويقع [*] فضلاً عن أن لفظ الكناية ﴿ٱلۡوَاقِعَةُ﴾ في حدّ ذاته يفيد العموم والشمول والشدة والمبالغة في إثبات المعنى وصورته، وذلك لأن لفظ الكناية من الأسماء التي ختمت بناء التأنيث فانتقلت من الوصفية إلى الأسمية، لذا كانت أغلب أسماء الحشر مؤنثة كالقارعة والحاقّة والطّامة والصّاخة لما فيها من العموم والشمول والشدة والقهر [3]. والتعريف في ﴿ٱلۡوَاقِعَةُ﴾ تعريف الجنس لتمييزها من بين الأجناس لأن في استحضاره زيادة تهويل لأنه حقيق بالتدبر [4].

وتتصاعد دلالة تهويل ﴿ٱلۡوَاقِعَةُ﴾ وتفخيمها بتكرار ﴿إِذَا﴾ الشرطية دون ذكر جوابها أيضاً: ﴿إِذَا رُجَّتِ ٱلۡأَرۡضُ رَجّٗا ۝ وَبُسَّتِ ٱلۡجِبَالُ بَسّٗا ۝ فَكَانَتۡ هَبَآءٗ مُّنۢبَثّٗا ۝ وَكُنتُمۡ أَزۡوَٰجٗا ثَلَٰثَةٗ﴾.

وما ذكر من أحداث وأهوال من رجّ الأرض، وبسّ الجبال وجعلها هباءً منبثاً هو بمثابة مقدمة مروّعة سيكون فيها، فهو التهويل والتفخيم لشأنها، فضلاً عن أن الجرس الموسيقي للفظ الكنائي ﴿ٱلۡوَاقِعَةُ﴾ يتناسب مع سياق التهويل والتفخيم ويدلّ عليه، فـ ﴿ٱلۡوَاقِعَةُ﴾ بمعناها وبجرس اللفظ ذاته،بما فيه من مدّ ثم سكون يتوسطهما حرف القاف من حروف الحلق المعروفة

---

(1) ينظر: سورة الواقعة ومنهجها في العقائد، محمود محمد غريب، ص 27. ولمزيد من التفصيل في توضيح الأدلة العقلية والاخلاقية والاجتماعية التي تدلل على حتمية وقوع الواقعة. أنظر الصفحات: 17 وما بعدها من المرجع نفسه.

(2) ينظر: الكشاف: 4 / 363.

(*) حذف جواب إذا في القرآن يشكل ظاهرة بلاغية ملحوظة في سياق يوم القيامة وهي تحقق إيجازاً وبلاغةً في التعبير، ينظر: المعاني في ضوء أساليب القرآن، ص 348.

(3) ينظر: معاني الأبنية في العربية: 122، 123، والعرب يستعملون التأنيث دلالة على المبالغة في النوع. ينظر: تفسير التحرير والتنوير: 27 / 159.

(4) ينظر: تفسير التحرير والتنوير: 27 / 159.

بضخامة صوتها وشدة وقعها في السمع وفي النفس تُلقَى في الحسّ كأنما هي ثقل ضخم ينقضّ من علٍ ثم يستقر، لغير ما زحزحة بعد ذلك ولا زوال [1].

على أنّ أجلى إيحاء لكناية ﴿ ٱلْوَاقِعَةُ ﴾ هو حتمية وقوعها، لذلك قال بعدها ﴿ لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا كَاذِبَةٌ ﴾ لتأكيد ذلك المعنى وترسيخه في الذهن والحس. فهي لابد واقعة، كأن طبيعتها وحقيقتها الدائمة أن تكون واقعة، فهي ذات إيحاء مقصود في صدد الارتياب فيها والتكذيب[2].

القارعة:

وردت الكناية ﴿ ٱلْقَارِعَةُ ﴾ في قوله ـ تعالى ـ: ﴿ ٱلْقَارِعَةُ ۞ مَا ٱلْقَارِعَةُ ۞ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْقَارِعَةُ ۞ يَوْمَ يَكُونُ ٱلنَّاسُ كَٱلْفَرَاشِ ٱلْمَبْثُوثِ ۞ وَتَكُونُ ٱلْجِبَالُ كَٱلْعِهْنِ ٱلْمَنفُوشِ ﴾ [3].

﴿ ٱلْقَارِعَةُ ﴾ كناية عن ﴿ ٱلْقِيَٰمَةِ ﴾، وقد عدل عن التصريح بلفظ ﴿ ٱلْقِيَٰمَةِ ﴾ إلى الكناية بلفظ ﴿ ٱلْقَارِعَةُ ﴾ لا لاثبات ذلك المعنى للقيامة، وإنما لاثبات شاهده ودليله، وهو انها تقرع القلوب وتزعجها بأهوالها، وذلك تفخيماً لشأن القيامة في النفوس"[4].

ولفظ الكناية ﴿ ٱلْقَارِعَةُ ﴾ في حد ذاته يفيد العموم والشمول والشدة والقهر في اثبات معناها، لأنها من الأسماء التي ختمت بتاء التأنيث فانتقلت من الوصفية إلى الأسمية، والكناية ﴿ ٱلْقَارِعَةُ ﴾ ليست وصفاً لكل ما يقرع وإنما هو اسم لهذا اليوم المخصص [5] كما أفاد التعريف تمييزاً لها من غيرها،فهو يوم القيامة الذي لا يحيط بوصف أهواله العقل والتصوّر، لذلك فإن السياق يفخّم من شأن يوم القيامة ويؤكدّه ويعظمّه بالاستفهام والتكرار: ﴿ ٱلْقَارِعَةُ ۞ مَا ٱلْقَارِعَةُ ۞ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْقَارِعَةُ ﴾، فهو الأمر العظيم الذي يُثير التساؤل، ثم أجاب بسؤال التجهيل ﴿ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْقَارِعَةُ ﴾ ولم يُجب عن ما هيّة ذلك اليوم وحقيقته، فهو فوق التصور والإدراك أجاب بما يكون فيه ﴿ يَوْمَ يَكُونُ ٱلنَّاسُ كَٱلْفَرَاشِ ٱلْمَبْثُوثِ ﴾، وهذا

(1) ينظر: في ظلال القرآن: 7 / 694.

(2) ينظر: المصدر نفسه: 8 / 253.

(3) سورة القارعة، الآيات: 1، 5، وينظر: سورة الحاقة، الآية: 4.

(4) علم البيان، د. عبد العزيز عتيق، ص 223.

(5) ينظر: معاني الأبنية في العربية، ص 122.

الأسلوب الذي يفخّم من شأن يوم القيامة ويعظمه هو الملحوظ في كنايات يوم القيامة المروِّع المفزع.

على أن أجلى إيحاء للكناية ﴿ ٱلْقَارِعَةُ ﴾ أنها تقرع القلوب والأسماع بفنون الأهوال والأفزاع [1] وتقرع الكون بالدمار والتحطيم، ويعمّق هذا الإيحاء الجرس الموسيقي المنبعث من حروف لفظ ﴿ ٱلْقَارِعَةُ ﴾ القاف والراء والعين المعروفة بقوتها وشدّتها، هذا فضلاً عن المدّ في صوت الألف.

وأصل القرع: "الضرب بشدة وقوة، تقول العرب: قرعتهم القارعة وفقرتهم الفاقرة، إذا وقع بهم أمر عظيم"[2] ووردت ﴿ قَارِعَةٌ ﴾ ﴿ ...وَلَا يَزَالُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ تُصِيبُهُم بِمَا صَنَعُوا۟ قَارِعَةٌ أَوْ تَحُلُّ قَرِيبًا مِّن دَارِهِمْ حَتَّىٰ يَأْتِىَ وَعْدُ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ ﴾[3] ﴿ قَارِعَةٌ ﴾ كناية عن أمر عظيم يقع بهم، وتنكير الكناية ﴿ قَارِعَةٌ ﴾ يدل على العموم والشمول في المعنى، قال الزمخشري: "﴿ تُصِيبُهُم بِمَا صَنَعُوا۟ ﴾ من كفرهم وسوء أعمالهم ﴿ قَارِعَةٌ ﴾ داهية تقرعهم بما يحل الله بهم في كل وقت من صنوف البلايا والمصائب في نفوسهم وأولادهم وأموالهم ﴿ أَوْ تَحُلُّ ﴾ القارعة ﴿ قَرِيبًا ﴾ منهم فيفزعون ويضطربون ويتطاير إليهم شرارها، ويتعدّى إليهم شرورها"[4].

فهي ذات معنى شامل وصفاً لكلّ ما يقرعهم ويزعجهم من صنوف البلايا في حياتهم الدنيا بسبب كفرهم وسوء أعمالهم، وبهذا التنكير للكناية تفترق في دلالتها عن ﴿ ٱلْقَارِعَةُ ﴾ بهذا التعريف في دلالتها المخصصة ليوم القيامة، فهي ليست وصفاً لكل ما يقرع، وإنما هي اسم ليوم القيامة على وجه التخصيص. وعلى الرغم من اشتراكهما في دلالة العذاب إلاّ أن ﴿ قَارِعَةٌ ﴾ خاضعة للوصف والتصوّر، أما ﴿ ٱلْقَارِعَةُ ﴾ فإنها لا تخضع للوصف والتصور لهولها وعظيم شأنها يذهب الخيال في تصوّر شأنها كل مذهب، فهي تقرع قلوب الناس جميعاً وتقرع الكون بالدمار والتحطيم، فيتضاءل ازاءها كل هول أو قارعة تقرع الناس وتزعجهم في حياتهم الدنيا. فمن شأن الكناية ﴿ ٱلْقَارِعَةُ ﴾ بأهوالها العظيمة التي لا يحيط بها الوصف أن

(1) ينظر: تفسير أبي السعود: 9 / 192.

(2) صفوة التفاسير: 3 / 595، وينظر: لسان العرب: 8 / 265 (قرع).

(3) سورة الرعد، من الآية 31.

(4) الكشاف: 2 / 413.

تحدث الاستجابة النفسية المقصودة التي يقصد القرآن اثارتها في المتلقي ليحقق أهدافه الدينية الكبرى.

الحاقّة:

جاءت ﴿ٱلۡحَآقَّةُ﴾ كناية عن يوم القيامة في قوله ـ تعالى ـ: ﴿ٱلۡحَآقَّةُ ۝ مَا ٱلۡحَآقَّةُ ۝ وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا ٱلۡحَآقَّةُ ۝ كَذَّبَتۡ ثَمُودُ وَعَادُۢ بِٱلۡقَارِعَةِ﴾ (1).

وقد عدل عن التصريح بلفظ ﴿ٱلۡقِيَٰمَةِ﴾ إلى الكناية بلفظ ﴿ٱلۡحَآقَّةُ﴾ وذلك لاثبات الشاهد والدليل، وهو أنها تحقّ في وقتها فتنزل بحكمها على الناس بالحقّ وفي ذلك تفخيم لشأن القيامة في النفوس. ولفظ الكناية ﴿ٱلۡحَآقَّةُ﴾ يفيد العموم والشمول والشدة والمبالغة في إثبات المعنى، وهو اسم على وجه التخصيص ليوم القيامة، إنّها تحقّ الحقّ في ذلك اليوم الذي لا يحيط به العلم والإدراك.

ويصعّد الأسلوب الذي تشكّلت فيه الكناية معنى تفخيم الحاقة وتهويلها منذ مطلع سورة الحاقة، وذلك بالاستفهام والتكرار، فالمطلع يبدأ بالكناية ﴿ٱلۡحَآقَّةُ﴾ كلمة مفردة لا خبر لها في ظاهر اللفظ: ﴿ٱلۡحَآقَّةُ﴾ ثم يتبعها باستفهام حافل بالاستعظام لماهيّة هذا الحدث العظيم: ﴿مَا ٱلۡحَآقَّةُ﴾ ثم يزيد هذا الاستهوال والاستعظام بالتجهيل، وإخراج المسألة عن حدود العلم والإدراك: ﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا ٱلۡحَآقَّةُ﴾ ثم لا يجيب عن هذا السؤال. ويدعك واقفاً أمام هذاالأمر المستهول المستعظم، الذي لا تدريه، ولا يتأتى لك أن تدريه ! لأنه أعظم من أن يحيط به العلم والادراك"(2).

على أن أجلى إيحاء للكناية ﴿ٱلۡحَآقَّةُ﴾ هو أنها تحق في وقتها بالحق والجرس الموسيقي يعمّق هذا الإيحاء ويجلّيه فايقاعها "أشبه شيء برفع الثقل طويلاً، ثم استقراره مكيناً. رفعه في مدة الحاء بالألف، وجدّة في تشديد القاف بعدها، واستقراره بالانتهاء بالتاء المربوطة التي تنطق هاء ساكنة"(3). فيستقر معناها في الذهن والحس والوجدان. وتصعيداً لوصف شدة الحاقة وما تنزل به بالحق من العذاب بالمكذبين قال بعد ذلك: ﴿كَذَّبَتۡ ثَمُودُ وَعَادُۢ بِٱلۡقَارِعَةِ﴾ التي تقرع الناس

(1) سورة الحاقة، الآيات: 1 ـ4.
(2) في ظلال القرآن: 8 / 250.
(3) المصدر نفسه: 8 / 246.

بالافزاع والأهوال، والسماء بالانشقاق والانفطار، والأرض والجبال بالدكّ والنسف، والنجوم بالطّمس والانكدار، ووضعت موضع الضمير لتدل على معنى القرع في الحاقة: زيادة في وصف شدتها"[1].

فتجاور الكنايتين: الحاقة والقارعة من شأنه تهويل العذاب الذي حلّ بالمكذبين بالقارعة من قوم عاد وثمود، فضلاً عن زيادة في وصف شدة الحاقة وتهويلها وتفخيم شأنها في حس المتلقي ووجدانه الذي يخاطبه القرآن لاحداث الأثر النفسي الذي يقصده في تحقيق أهدافه.

الصّاخّة:

وردت ﴿ الصَّاخَّةُ ﴾ كنايةً عن يوم القيامة في قوله ـ تعالى ـ: ﴿ فَإِذَا جَاءَتِ الصَّاخَّةُ ۞ يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ۞ وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ ۞ وَصَاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ ۞ لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ ﴾[2].

وقد عدل عن التصريح بلفظ ﴿ الْقِيَامَةِ ﴾ إلى الكناية بلفظ ﴿ الصَّاخَّةُ ﴾ لاثبات الشاهد لها والدليل، وهو أنها تصخّ الناس صخّاً بأهوالها الشديدة، أي تضرب آذان الناس فتصمّها، يُقال: "صخّهُ يصخُّهُ: ضرب أذنه فأصمّها، وصاح بهم صيحةً تصخُّ الآذان"[3] ويقال: "صخّ الحديث،مثل: أصاخ له، فوصفت النفخة بالصاخة مجازاً، لأن الناس يصخّون لها"[4]. والجرس الموسيقي للكناية يعمق هذا المعنى ويقويه، فهو جرس شديد "يكاد يخرق صماخ الأذن، وهو يشقّ الهواء شقّاً، حتى يصل إلى الأذن صاخّاً ملحّاً"[5]. وبناء الكناية يدل على العموم والشمول والشدة والقهر، وهي ليست وصفاً لكل ما يصخ، وإنما هي اسم يختص بيوم القيامة[6] ويبرّز السياق من أحوال الصاخة ما يجلّي الفزع النفسي الشديد الذي يصيب الناس: ﴿ يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ۞ وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ ۞ وَصَاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ ۞ لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ ﴾ فالهول يفزع النفس ويفصلها عن أولئك الذين تربطها بهم روابط لا تنفصم، ويستبدّ بها استبداداً: فلكلٍ نفسه وشأنه، ولديه الكفاية من الهمّ الخاص به الذي لا يدع له فضلة من وعي أو جهد، فهو يفر وينسلخ من الصق

(1) الكشاف: 4 / 479.
(2) سورة عبس، الآيات: 33 ـ37.
(3) اساس البلاغة، ص 250 (صخ).
(4) الكشاف: 4 / 563.
(5) في ظلال القرآن: 8 / 472. ومشاهد القيامة في القرآن، ص 63.
(6) ينظر: معاني الأبنية في العربية، ص 122 ـ123.

الناس به: ﴿يَوْمَ يَفِرُّ ٱلْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ﴿٣٤﴾ وَأُمِّهِۦ وَأَبِيهِ ﴿٣٥﴾ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَبَنِيهِ﴾ [1]. قال الزمخشري: "﴿يَفِرُّ﴾ منهم لاشتغاله بما هـو مدفوع إليه، ولعلمه أنهم لا يغنون عنه شيئاً وبدأ بالأخ، ثم الأبوين لأنهما أقرب منه، ثم بالصاحبة والبنين لأنهم أقرب وأحب، كأنه قال: يفرّ من أخيه، بل من أبويه، بل من صاحبته وبنيه" [2] على سبيل ذكر الخاص فالأخص.

وأجلى إيحاء للكناية ﴿ٱلصَّآخَّةُ﴾ العنف في أهوالها النافذة الخارقة فتصمّ آذان الناس بدواهيها الشديدة، فتقطع الروابط والوشائج بين أقرب الناس صلةً ورحماً فتُلقي في الحس والوجدان تبعية ما يتحمله الانسان مجرداً من الوشائج والصلات إلاّ صلته بالله ﷻ وتقواه.

الطامّة الكُبرى:

تأتي الطامة الكُبرى كناية عن يوم القيامة في قولـه ـ تعالى ـ: ﴿فَإِذَا جَآءَتِ ٱلطَّآمَّةُ ٱلْكُبْرَىٰ ﴿٣٤﴾ يَوْمَ يَتَذَكَّرُ ٱلْإِنسَٰنُ مَا سَعَىٰ﴾ [3].

وقد عدل القرآن عن التصريح بلفـظ ﴿ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ إلى الكناية ﴿ٱلطَّآمَّةُ ٱلْكُبْرَىٰ﴾ لاثبات الشاهد لها والدليل، وهو أنها تطمّ بدواهيها على الدواهي فتعمّ وتعلو، فهي ﴿ٱلطَّآمَّةُ ٱلْكُبْرَىٰ﴾ ليست وصفاً لكل طامّة تأتي بالأمور الهائلة الفظيعة، وإنما هي اسم لذلك اليوم العظيم على وجه التخصيص الذي لا يتمكن معها العقل والإدراك تصوّر طمومها. قال ابن عباس (رضي الله عنهما): "هي القيامة سمّيت بذلك لأنها تطمّ على كلّ أمـر هائل مفظع" [4]، وقال الزمخشري: "﴿ٱلطَّآمَّةُ﴾ الداهية التي تطمّ على الدواهي، أي تعلو وتغلب، وفي أمثالهم: جرى الوادي فطمّ على القَرى،وهي القيامة لطمومها على كـلّ هائلة" [5] وبنـاء الكنايـة وجرسها الموسيقي يصوّران هذا المعنى ويقربانه. فصيغة الكناية ﴿ٱلطَّآمَّةُ﴾ تدل على العموم والشمول والشدة والمبالغة، لأنها من الأسماء التي ختمت بتاء التأنيث فانقلبت من الوصفية إلى الأسمية [6] فأفادت هذه الدلالة فضلاً عن وصفها بالكبرى ﴿ٱلطَّآمَّةُ ٱلْكُبْرَىٰ﴾ لتقوّى هذه الدلالة ولتميّزها عن أية طامّة

(1) ينظر: مشاهد القيامة في القرآن، ص 63 ـ64.
(2) الكشاف: 4 / 553 ـ564.
(3) سورة النازعات: 34 ـ35.
(4) تفسير القرآن العظيم: 4 / 470.
(5) الكشاف: 4 / 557.
(6) معاني الأبنية في العربية، ص 122 ـ123.

أخرى تأتي بالدواهي والأمور العظيمة، كما أن 'الطامّة لفظة مصورة بجرسها لمعناها، فهي تطمّ وتعمّ وتربي وتطغى'[1] على كل شيء في الكون والوجود، أنها تطمّ على السماء المبنية، والأرض المدحوة، والجبال المرساة، والليل المغطش، والضحى المخرج، أنها تطمّ على هذا كلّه، وليغطّي مشهدها على تلك المشاهد جميعاً[2] كما يبرّز السياق لنا ذلك قبل مشهد الطامة ﴿ ءَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ ٱلسَّمَآءُ ۚ بَنَىٰهَا ۞ رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّىٰهَا ۞ وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَىٰهَا ۞ وَٱلْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ ۞ أَخْرَجَ مِنْهَا مَآءَهَا وَمَرْعَىٰهَا ۞ وَٱلْجِبَالَ أَرْسَىٰهَا ۞ مَتَٰعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَٰمِكُمْ ۞ فَإِذَا جَآءَتِ ٱلطَّآمَّةُ ٱلْكُبْرَىٰ ﴾[3]

ومن ضمن ما تطمّه الطامّة الكبرى هو المتاع الموقوت الذي ينتهي إلى أجله، قال صاحب الظلال: 'إنّ الحياة الدنيا متاع، متاع مقدّر بدقة وإحكام. وفق تدبير يرتبط بالكون كلّه ونشأة الحياة والانسان. ولكنه متاع ينتهي إلى أجله.. فإذا جاءت الطامة الكبرى غطّت كل شيء، وطمّت على كل شيء. على المتاع الموقوت، وعلى الكون المتين المقدر المنظّم. على السماء المبنية والأرض المدحوة والجبال المرساة والأحياء والحياة وعلى كل ما كان من مصارع ومواقع، فهي أكبر من هذا كلّه، وهي تطمّ وتعمّ على هذا كله ! عندئذٍ يتذكّر الانسان ما سعى، يتذكر سعيه ويستحضره، إن كانت أحداث الحياة، وشواغل المتاع أغفلته عنه وأنسته إياه، يتذكّره ويستحضره ولكن حيث لا يفيده التذكّر والاستحضار إلاّ الحسرة والأسى وتصوّر ما وراءه من العذاب والبلوى !'[4]

فأجلى إيحاء للكناية ﴿ ٱلطَّآمَّةُ ٱلْكُبْرَىٰ ﴾ الذي يبرز من خلال سياق الآيات ويتجلى فضلاً عن طمّ كل شيء بما فيها السماوات والأرض وطمّ كلّ أمر هائل مفظع، هو أنها تطمّ ذلك المتاع الموقوت الذي يغترّ به الانسان فيلهيه عمّا خُلق له ويُطغيه، فما أحرى بالانسان أن يتذكّر في حياته الدنيا قبل مجيء الطامّة الكبرى حين لا ينفع التذكّر.

---

(1) مشاهد القيامة في القرآن، ص 193.
(2) ينظر: مشاهد القيامة في القرآن، ص 193.
(3) سورة النازعات، الآيات: 27 ـ34.
(4) في ظلال القرآن: 8 / 449.

الغاشية:

وردت ﴿ٱلْغَٰشِيَةِ﴾ كناية عن يوم ﴿ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ في قوله - تعالى -: ﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ٱلْغَٰشِيَةِ﴾ [(1)].

﴿ٱلْغَٰشِيَةِ﴾ كناية عن ﴿ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ وقد عدل القرآن عن التصريح بلفظ ﴿ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ إلى لفظ ﴿ٱلْغَٰشِيَةِ﴾ لاثبات شاهدها ودليلها، وفي ذلك تعظيم لها في القلوب والنفوس، فالكناية دالة على أنها تغشى الناس بعذابها وتلبسهم أهوالها.

فالكناية اثبات لهذا النوع من عذاب يوم القيامة على سبيل التخصيص، قال الزمخشري: "﴿ٱلْغَٰشِيَةِ﴾ الداهية التي تغشى الناس بشدائدها وتلبسهم أهوالها، يعني: ﴿ٱلْقِيَٰمَةِ﴾"[(2)] والسياق يجلّي ملابسة العذاب وجوه الكافرين ومخالطته لها على نحو من التهويل الذي يفيده الاستفهام بـ ﴿هَلْ﴾ ﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ٱلْغَٰشِيَةِ﴾ إذ يلفت الاستفهام الانتباه لفتاً إلى استماع خبرها، والاطلاع على شأنها، وفي ذلك تعظيم لشأنها وتفخيم له، والجواب عن هذا الاستفهام الذي يسأل عن ﴿ٱلْغَٰشِيَةِ﴾، يعرضه السياق تفصيلاً، فنلحظ في جانب منه كيف يرتسم عذاب ﴿ٱلْغَٰشِيَةِ﴾ على وجوه الكافرين ﴿خَٰشِعَةٌ﴾[(3)] فهي وجوهٌ خاضعة ذلاً وإرهاقاً ﴿عَامِلَةٌ نَّاصِبَةٌ ۝ تَصْلَىٰ نَارًا حَامِيَةً ۝ تُسْقَىٰ مِنْ عَيْنٍ ءَانِيَةٍ﴾[(4)] بالغة الحرارة لا تبرد ولا تروي ﴿تُسْقَىٰ مِنْ عَيْنٍ ءَانِيَةٍ ۝ لَّيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِن ضَرِيعٍ ۝ لَّا يُسْمِنُ وَلَا يُغْنِي مِن جُوعٍ﴾[(5)] فهي تُطعم من شوك ترعاه الابل إذا كان رطباً وتعافه إذا جفّ، فيجتمع على تلك الوجوه عذاب الروح بالذل والخزي، فضلاً عن عذاب البدن بالنَّصَب والنار، إلى عذاب الظمأ والطوى، والشراب والطعام، بما هو أشد من الظمأ والطوى. وفي الجانب الآخر نلاحظ ما يقابل هذا على سبيل التضاد نعيم المؤمنين في يوم ﴿ٱلْغَٰشِيَةِ﴾ وهو يرتسم على وجوههم: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاعِمَةٌ ۝ لِّسَعْيِهَا رَاضِيَةٌ ۝ فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ ۝ لَّا تَسْمَعُ فِيهَا لَٰغِيَةً ۝ فِيهَا

---

(1) سورة الغاشية، الآية: 1.

(2) الكشاف: 4/ 592. وينظر: تفسير القرآن العظيم: 4/ 503.

(3) الآية: 2.

(4) الآيتان: 3 ـ5. عاملة ناصبة: قد عملت عملاً كثيراً ونصبت فيه وصليت يوم القيامة ناراً حامية. ينظر: تفسير القرآن العظيم: 4/ 503.

(5) الآيات: 5 ـ7.

﴿عَيْنٌ جَارِيَةٌ ۝ فِيهَا سُرُرٌ مَّرْفُوعَةٌ ۝ وَأَكْوَابٌ مَّوْضُوعَةٌ ۝ وَنَمَارِقُ مَصْفُوفَةٌ ۝ وَزَرَابِيُّ مَبْثُوثَةٌ﴾ (1) فوجوه المؤمنين ناعمة، راضية عن مسعاها، في جنة عالية هادئة لا تسمع فيها لاغية، فيها عين جارية روية عذبة، ولهم الراحة في السرر المرفوعة، والأكواب المهيأة للشراب، بل الرفاهية في الوسائد المصفوفة، والبسط المفروشة (2). وإبراز نعيم المؤمنين الذي يلابس وجوههم ويخالطها في يوم ﴿الْغَاشِيَةِ﴾ العظيمة بأفزاعها التي تلابس الكافرين بعذابها له قيمته الخاصة (3) إذ يتجلى تكريم الله ﷻ لهم، في منجاة بمفازتهم من عذابها الذي يغشى كلَّ شيء.

الآزفة:

جاءت ﴿الْآزِفَةُ﴾ كنايةً عن يوم القيامة في قوله ـ تعالى ـ: ﴿أَزِفَتِ الْآزِفَةُ ۝ لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ اللَّهِ كَاشِفَةٌ﴾ (4).

﴿الْآزِفَةُ﴾ كناية عن ﴿الْقِيَامَةِ﴾، وقد عدل القرآن عن التصريح بلفظ ﴿الْقِيَامَةِ﴾ إلى لفظ الكناية ﴿الْآزِفَةُ﴾ وذلك تعظيماً لشأنها وتفخيماً من خلال إثبات المعنى الذي تحمله ﴿الْآزِفَةُ﴾ ليوم القيامة والذي من شأنه إحداث الأثر النفسي المتمثل بتخويف المتلقي وترهيبه من شأنها، إذ الكناية تصوّر ﴿الْقِيَامَةِ﴾ وكأنها قد ﴿أَزِفَتِ﴾ بالعذاب والهلاك، والتعبير عنها بالماضي ﴿أَزِفَتِ﴾ يدلّ دلالة بالغة على تحققها وكأنه قد فُرغ منها، ومجيء الكناية ﴿الْآزِفَةُ﴾ فاعلاً من مادة الفعل الماضي ﴿أَزِفَتِ﴾ للتهويل على السامع لتذهب النفس كل مذهب ممكن في تعيين هذه التي ﴿أَزِفَتِ﴾، فضلاً عن التعريف في الكناية، فهو تعريف جنس لتمييزها من بين الأجناس لأن في استحضاره زيادة تهويل لأنه حقيق بالتدبّر (5).

---

(1) الآيات: 8 ـ16. وينظر: مشاهد القيامة في القرآن، ص 160.

(2) مشاهد القيامة في القرآن، ص 160.

(3) ينظر: المصدر نفسه، ص 160.

(4) سورة النجم، الآيتان: 57 ـ58. وينظر: سورة غافر، الآية: 18.

(5) ينظر: تفسير التحرير والتنوير: 27 / 158 ـ159.

وقال الزمخشري: ﴿ أَزِفَتِ الْآزِفَةُ ﴾ قربت، الموصوفة بالقرب في قوله ـ تعالى ـ: ﴿ اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ ﴾[1]﴾[2]. فهي قد اقتربت كاسحة جارفة، وهي الطامّة والقارعة التي جاء النذير يحذّركم إياها أو هو العذاب الذي لا يعلم إلاّ الله نوعه وموعده، ولا يملك إلاّ الله كشفه ودفعه: ﴿ لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ اللَّهِ كَاشِفَةٌ ﴾[3].

فأجلى إيحاء للكناية ﴿ الْآزِفَةُ ﴾ هو قرب أزوفها بكل أهوالها وشدائدها التي صوّرتها الكنايات السابقة، فهي الطامّة والقارعة والغاشية والحاقة ولكن السياق هنا يبرز إيحاء قربها وسرعة وقوعها لأنه إنذار وتحذير من العذاب والهلاك الذي حلّ بالأقوام الغابرة: قوم نوح وعاد وثمود ولوط، يذكّر به وينذر: ﴿ وَأَنَّهُ أَهْلَكَ عَادًا الْأُولَىٰ ۝ وَثَمُودَا فَمَا أَبْقَىٰ ۝ وَقَوْمَ نُوحٍ مِّن قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا هُمْ أَظْلَمَ وَأَطْغَىٰ ۝ وَالْمُؤْتَفِكَةَ أَهْوَىٰ ۝ فَغَشَّاهَا مَا غَشَّىٰ ۝ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكَ تَتَمَارَىٰ ۝ هَٰذَا نَذِيرٌ مِّنَ النُّذُرِ الْأُولَىٰ ۝ أَزِفَتِ الْآزِفَةُ ﴾[4] فناسب السياق أن يكون الانذار بعذاب القيامة بلفظ الكناية ﴿ الْآزِفَةُ ﴾ الدّالة على الانذار الشديد بقرب وقوعها.

الراجفة والرادفة:

وردت هاتان الكنايتان اللتان تصوّران على نحو شديد ما يقع من الهول والاضطراب في الكون يوم القيامة في قوله ـ تعالى ـ: ﴿ يَوْمَ تَرْجُفُ الرَّاجِفَةُ ۝ تَتْبَعُهَا الرَّادِفَةُ ۝ قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ وَاجِفَةٌ ۝ أَبْصَارُهَا خَاشِعَةٌ ﴾[5].

﴿ الرَّاجِفَةُ وَالرَّادِفَةُ ﴾ كنايتان، وقد ورد لهما أكثر من معنى تحتمله الكنايتان في أداء الغرض المقصود منهما، قال الزمخشري: ﴿ الرَّاجِفَةُ ﴾ الواقعة التي ترجف عندها الأرض والجبال، وهي النفخة الأولى: وصفت بما يحدث بحدوثها ﴿ تَتْبَعُهَا الرَّادِفَةُ ﴾ أي الواقعة التي تردف الأولى، وهي النفخة الثانية. ويجوز أن تكون الرادفة من قوله ـ تعالى ـ: ﴿ قُلْ عَسَىٰ أَن يَكُونَ رَدِفَ لَكُم بَعْضُ الَّذِي تَسْتَعْجِلُونَ ﴾[6] أي ﴿ الْقِيَامَةِ ﴾ التي يستعجلها الكفرة استبعاداً لها، وهي رادفة لهم لاقترابها.

---

(1) سورة القمر، من الآية: 1.

(2) الكشاف: 4 / 331.

(3) في ظلال القرآن: 7 / 633.

(4) سورة النجم، الآيات: 50 ـ57.

(5) سورة النازعات، الآيات: 6 ـ9.

(6) سورة النمل، من الآية: 72.

وقيل: ﴿ يَوْمَ تَرْجُفُ ٱلْأَرْضُ وَٱلْجِبَالُ ﴾ الأرض والجبال، من قوله: ﴿ ٱلرَّادِفَةُ ﴾ [1] و ﴿ ﴾: السماء والكواكب، لأنها تنشق وتنتثر كواكبها على أثر ذلك"[2].

وفي ضوء ذلك نلحظ أن المعنى المكنى عنه بلفظ الكناية ﴿ ٱلرَّاجِفَةُ ﴾ هو:

ـ الواقعة،وهي (النفخة الأولى) للحدث العظيم (يوم القيامة) ووصفت بالراجفة بما يحدث بوقوعها وهو: رجفان الأرض والجبال والأحياء جميعاً.

ـ الأرض والجبال، ويعزز هذا المعنى، قوله ـ تعالى ـ: ﴿ يَوْمَ تَرْجُفُ ٱلْأَرْضُ وَٱلْجِبَالُ ﴾.

ونلحظ أن المكنى عنه بلفظ الكناية ﴿ ٱلرَّادِفَةُ ﴾ هو:

ـ الواقعة، وهي (النفخة الثانية) التي تردف (النفخة الأولى)، ويعزز هذا المعنى قوله ـــــ تعـــــالى ﴿ وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ ﴾ [3].

ـ سماء،وما فيها أي تردف الأرض وما عليها فتتبعها في الدمار والانشقاق وتناثر كواكبها على أثر ذلك.

ـ قيامة، التي يستعجلها الكفرة استبعاداً لها، وهي رادفة لهم لاقترابها.

وفي ضوء هذا المعنى للرادفة تكون ﴿ ٱلرَّاجِفَةُ ﴾ مقدمة لوقوع الحدث العظيم ﴿ ٱلْقِيَٰمَةِ ﴾.

ويمكن أن نفهم ﴿ ٱلرَّاجِفَةُ ﴾ على أنها كناية عن يوم القيامة، ووصفت بالراجفة بما يحدث بوقوعها من رجفان الأرض والجبال وزلزلتها واضطراب نظام الكون والأحياء جميعاً، وكل هذه مظاهر تنبئ عن شدة ذلك اليوم العظيم الذي يُباغت فيه الناس بالراجفة، كما دلّ الاسنادالمجازي للكناية ﴿ ٱلرَّاجِفَةُ ﴾ ' إذ أسند الرجف إلى الأرض نفسها،ـ والأصل أنها مرجوفة لا راجفة،فيتحقّق بهذا الاسناد مباغتة لا يدري معها الانسان يوم ﴿ ٱلْقِيَٰمَةِ ﴾ من أين جاء الرجف، وفيه تركيز للانتباه في أخذة الرجفة [4].

(1) سورة المزمل، من الآية: 14.
(2) الكشاف: 4 / 554.
(3) سورة الزمر، الآية: 68.
(4) ينظر: التفسير البياني للقرآن: 1 / 131.

وأما ﴿ ٱلرَّادِفَةُ ﴾ فيمكن أن نفهم على أنها كناية عن كل ما يتبع الرجفة من بعثرة ما في القبور [1] للحشر والحساب، ويقوي هذا المعنى أنه يتصل بما بعده: ﴿ قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ وَاجِفَةٌ ۝ أَبْصَٰرُهَا خَٰشِعَةٌ ﴾.

ومن شأن هذه الأحداث التي ستقع يوم ﴿ ٱلْقِيَٰمَةِ ﴾ أن يحس القلب البشري معها بالزلزلة والرجفة والهول والاضطراب، وأن يهتز هزّة الخوف والوجل والرعب الذي لا ثبات معه ولا قرار، ويدرك ويحس حقيقة قول الله ﷻ: ﴿ قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ وَاجِفَةٌ ۝ أَبْصَٰرُهَا خَٰشِعَةٌ ﴾ فهي شديدة الاضطراب، يرتسم الخشوع في أبصارها فيشير إلى الذل والخوف والانكسار والانهيار [2].

ويتجلى التناسب الفني في التعبير الكنائي ﴿ ٱلرَّاجِفَةُ ﴾ مع القلوب الواجفة والأبصار الخاشعة، فواجفة أي: "شديدة الاضطراب" [3] و ﴿ خَٰشِعَةٌ ﴾ أي "ذليلة" [4] بما عاينت من أهوال ﴿ ٱلرَّاجِفَةُ ﴾ التي يرجف عندها كل شيء ويضطرب، ويملكه الخوف والرعب فيرتسم على الأبصار استسلاماً وذلةً وانكساراً.

ومن خلال ما سبق من كنايات عن يوم ﴿ ٱلْقِيَٰمَةِ ﴾ تتجمع معانٍ وإيحاءات تصف هذا اليوم العظيم الذي يحدث فيه ذلك الانقلاب الكوني الرهيب بأهواله العظيمة، وبفضل هذه (الكنايات) بصفاتها المتعددة يقترب ذلك اليوم إلى العقول والقلوب، وإلاّ فإن حقيقته وماهيته لا يحيط بها العقل والإدراك البشري.

على أنّ القرآن الكريم يقدم تعابير كنائية أخرى تصور شدة ذلك اليوم وكربه على الكافرين في مشاهد يوم ﴿ ٱلْقِيَٰمَةِ ﴾ من ذلك:

الكشف عن الساق:

يرد هذا التعبير الكنائي في قوله ـ تعالى ـ في مشهد من مشاهد يوم القيامة: ﴿ يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ ۝ خَٰشِعَةً أَبْصَٰرُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ۖ وَقَدْ كَانُوا۟ يُدْعَوْنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ وَهُمْ سَٰلِمُونَ ﴾ [5].

(1) ينظر: المصدر نفسه: 1 / 132.
(2) ينظر: في ظلال القرآن: 8 / 441.
(3) الكشاف: 4 / 554.
(4) نفسه: 4 / 554، وصفوة التفاسير: 3 / 514.
(5) سورة القلم، الآيتان: 42 ـ 43.

﴿ يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ ﴾ كناية عن الشدة وصعوبة الخطب، إذ يشتدّ الكرب والضيق على هؤلاء المتكبّرين الذين يدعون إلى السجود ـ هناك ـ فلا يستطيعون.

فكناية الكشف عن الساق: مَثَلٌ في شدة الأمر وصعوبة الخطب [1] الذي يَلقاهُ الكافرون يوم القيامة، وليس هناك ساق ولا كشف عن الساق كما تقول للأقطع الشحيح: يده مغلولة، ولا يد له ولا غلّ،وإنما هو كناية عن البخل،وأراد الله ﷻ بهذا التعبير المبالغة في حسابهم، وإهانتهم وعقوبتهم، فالكناية تدل على أمرٌ مبهم في الشدة منكر خارج عن المألوف، كأنه قيل: يوم يقع أمرٌ فظيعٌ هائل [2]. والأصل في الكناية ' أي من وقع في شيء يحتاج فيه إلى الجدِّ شمّر عن ساقه [3]' فجعل لكل أمر فظيع [4]، وكان من عادة العرب أن يقولوا لكل من يجدّ في أمر ويبالغ فيه (كشف عن ساقه) وأصل هذا التعبير، أنّ من يجّد في عمل من الأعمال سواء أكان حرباً أم غير حرب، فإنه يشمِّر عن ساقه حتى لا يعوقه عن الجد وسرعة الحركة، كما نقول اليوم، فلان شمّر عن ساعد الجدّ، وإن كان لا يرتدي قميصاً بأكمام، فعبّر في الكناية باللازم وهو الكشف عن الساق، وأراد ملزومه الجد والاهتمام بالأمر [5].

فالكناية تجسِّد المعنى النفسي وهو شدة الكرب والضيق الذي فيه الكافرون المتكبرون في صورة حسية مؤثرة، وفوق كربهم وضيقهم فإنهم يلقون التوبيخ والتبكيت ﴿ وَيُدْعَوْنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ ﴾. فدعوتهم إلى السجود في يوم القيامة الذي يشمر فيه عن الساعد ويكشف فيه عن الساق يشير إلى تبكيتهم وتوبيخهم، فقد فات أوان السجود، وهم لا يملكون السجود ولا يستطيعون إما لفوات الوقت المناسب، وإما للهول الذي يغشاهم ويعجزهم عن الحراك، وهم خاشعون خشوع الذلّة، وقد كانوا يأبون خشوع العبادة ﴿ خَٰشِعَةً أَبْصَٰرُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ۖ وَقَدْ كَانُوا۟ يُدْعَوْنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ وَهُمْ سَٰلِمُونَ ﴾. فالتعبير الكنائي فضلاً عن الآيتين اللتين تشكّل فيهما يشير إلى الكرب والضيق والعجز والتوبيخ والتحدي المخيف [6].

---

(1) الكشاف: 4 / 475.

(2) ينظر: الكشاف: 4 / 475 ـ476. وينظر: القرآن إعجازه وبلاغته، ص 221 ـ222.

(3) الجامع لأحكام القرآن: 18 / 249.

(4) المفردات: 363، 650 ـ651.

(5) القرآن إعجازه وبلاغته، ص 222.

(6) ينظر: في ظلال القرآن: 2388. وينظر: مشاهد القيامة في القرآن، ص 5.

جعل الولدان شيباً:

تصور هذه الكناية أهوال يوم ﴿ٱلْقِيَـٰمَةِ﴾ وشدائده، أهوال تشيب منها الولدان، وتنفطر منها السماء، وذلك في قوله ـ تعالى ـ: ﴿فَكَيْفَ تَتَّقُونَ إِن كَفَرْتُمْ يَوْمًا يَجْعَلُ ٱلْوِلْدَٰنَ شِيبًا ۝ ٱلسَّمَآءُ مُنفَطِرٌۢ بِهِۦ كَانَ وَعْدُهُۥ مَفْعُولًا﴾ [1].

﴿يَجْعَلُ ٱلْوِلْدَٰنَ شِيبًا﴾ كناية ترسم في معناها الحقيقي الشيب في نواصي الأطفال في ذلك اليوم، وهي صورة تشير إلى المعنى المكنى عنه وهو شدة ذلك اليوم بأهواله، قال الزمخشري: "فكيف تقون أنفسكم يوم القيامة وهوله، إن بقيتم على الكفر ولم تؤمنوا وتعملوا ﴿يَجْعَلُ ٱلْوِلْدَٰنَ شِيبًا﴾ مَثَلٌ في الشدّة يُقال في اليوم الشديد: يومٌ يشيب نواصي الأطفال. الأصل فيه: أن الهموم والأحزان إذا تفاقمت على الانسان أسرع فيه الشيب" [2]. وهي شدائد وأهوال عظيمة بأحزانها وهمومها كما يشير تشكيل الكناية شيب الولدان دون غيرهم، فالولدان كما هو معلوم أقلّ تحسّساً بالهموم والأحزان والشدائد، فارتسام الشيب في رؤوسهم يشكّل صورة غريبة مثيرة، تشير إلى غرابة ذلك اليوم في شدائده وأهواله، فهي لا تشبه أهوال الدنيا وشدائدها، هي شدائد وأهوال عظيمة يشيب لها الولدان فكيف بالرجال؟ وتنفطر منها السماء على عظمها وإحكامها ﴿ٱلسَّمَآءُ مُنفَطِرٌۢ بِهِۦ﴾ وعلى الخيال أن يتملّى هذه الصورة المروعة فإنها تحذير شديد من ذلك اليوم المخيف الذي لا ريب فيه ولا مفرّ منه ﴿كَانَ وَعْدُهُۥ مَفْعُولًا﴾.

ومما يتصل بيوم ﴿ٱلْقِيَـٰمَةِ﴾ من مشاهد، مشهد أصحاب اليمين، وهم المؤمنون الناجون الذين يُؤْتون كتبهم بأيمانهم،فهم أهل الثواب يصفهم القرآن بالتعبير الكنائي ﴿أَصْحَـٰبَ ٱلْيَمِينِ﴾ [3]، ومشهد ﴿أَصْحَـٰبُ ٱلشِّمَالِ﴾ [4] فهم الكافرون المعذّبون الذين يَلْقون كتبهم بشمائلهم أو من وراء ظهورهم،وهم أهل العذاب يصفهم القرآن بالتعبير الكنائي ﴿أَصْحَـٰبُ ٱلشِّمَالِ﴾. ويأتي المشهدان على سبيل التقابل، وذلك حتى يبرز مشهد كِلا الفريقين، وتتعمق ـ على سبيل التضاد ـ دلالتهما في الحس والوجدان بين مصير هؤلاء وهؤلاء.

---

(1) سورة المزمل، الآيتان: 17 ـ18.

(2) الكشاف: 4 / 513.

(3) سورة المدثر، من الآية 39.

(4) سورة الواقعة، من الآية: 41.

ونحن إذ نعرض هذه الكنايات فإننا لا نـدري حقيقة الكتاب ولا كيفية أتيانه بـاليمين أو بالشمال أو من وراء الظهر. وإنما يجلّي القرآن الكريم حقيقة (النجاة) من وراء أتيان الكتاب باليمين، وحقيقة (الهلاك) من وراء اتيان الكتاب بالشمال أو من وراء الظهر، وهما حقيقتان المقصود أن نستيقنهما كما أخبر بهما القرآن الكريم [1].

أصحاب اليمين:

يستعمل القرآن هذا التعبير كنايةً عن موصوف للدلالة على المؤمنين الناجين من العذاب، فهم أهل الجنة والثواب، من ذلك قوله ـ تعالى ـ: ﴿ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ ۝ إِلَّا أَصْحَابَ الْيَمِينِ ۝ فِي جَنَّاتٍ يَتَسَاءَلُونَ ۝ عَنِ الْمُجْرِمِينَ ۝ مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ ۝ قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ ۝ وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ الْمِسْكِينَ ۝ وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ الْخَائِضِينَ ۝ وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ الدِّينِ ۝ حَتَّى أَتَانَا الْيَقِينُ ۝ فَمَا تَنْفَعُهُمْ شَفَاعَةُ الشَّافِعِينَ ﴾ [2].

﴿ إِلَّا أَصْحَابَ الْيَمِينِ ﴾ هم المؤمنون أهل الجنة والسعادة [3]، وهم ﴿ أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ ﴾ [4]، أي: اليمن والبركة [5]، وقال الزمخشري في: ﴿ أَصْحَابَ الْيَمِينِ ﴾ عدة أقوال:

- الذين يؤتون صحائفهم بأيْمانهم.
- أصحاب المنزلة السنية، من قولك: فلان مني باليمين إذا وصفته بالرفعة.
- أصحاب اليمين، لأن السعداء ميامين على أنفسهم بطاعتهم.
- أصحاب اليمين هم الموجّهون في الجنة ذات اليمين [6].

وأورد الرازي في ﴿ أَصْحَابَ الْيَمِينِ ﴾ ثلاثة أقوال:

- الذين يؤتون صحائفهم بأيْمانهم.
- أصحاب القوة.
- أصحاب النور [7]، لقوله ـ تعالى في الآية الثامنة من سورة التحريم: ﴿ نُورُهُمْ يَسْعَى بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ ﴾.

---

(1) ينظر: في ظلال القرآن: 8 / 519.
(2) سورة المدثر، الآيات: 38 ـ48. وينظر: سورة الواقعة، الآيات: 8، 18، 27، 38، 90، 91.
(3) ينظر: التفسير الكبير: 29 / 142، والمفردات: 553.
(4) سورة الواقعة، الآية: 8.
(5) ينظر: تفسير التحرير والتنوير: 27 / 285.
(6) الكشاف: 4 / 363.
(7) التفسير الكبير: 29 / 142 ـ143.

ومن خلال الجمع بين هذه الأقوال في ﴿أَصْحَٰبُ ٱلْيَمِينِ﴾ يتبيّن أن المؤمنين يأخذون نتيجة الحساب كتاباً بأيمانهم، فيجدون النعيم والثواب، فتكون منزلتهم حسنة، ومكانتهم مرموقة[1] وهو المعنى الذي يفهم من وراء لفظ الكناية.

وكانت العرب تتفاءل بالميامن، وتتطيّر من المشائم، و"تزجر على السانح، وتتبرك به، وتكره البارح، وتتشائم به"[2]. والسانح: مال ولاّك ميامنه، والبارح: ما ولاك مياسره[3]. واليمن: البركة[4]، ويقال: فلان ميمون النقيبة، إذا كان ميمون الأمر، ينجح فيما حاول ويظفر به[5]، ومن المجاز: هو عنده باليمين، أي: بمنزلة حسنة[6].

واليمين أيضاً: القوة، قال الشماخ:

إذا ما رايَةٌ رُفِعَتْ لِمَجْـــدٍ تلَقّـــاها عُرابَــــةُ باليَمينِ[7]

قال المبرد: "قوله: تلقاها عرابة باليمين، قال أصحاب المعاني: معناهُ بالقوة، وقالوا مثل ذلك في قول الله ﷻ: ﴿وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦ﴾[8]"[9].

والمسوغ لاستعمال (اليمين) للدلالة على القوة على سبيل المجاز المرسل هو علاقة السببية، فاليمين سبب القوة، أو الآلية عند عدد من البيانيين على اعتبار أن اليمين آلة القوة.

وذكر عبد القاهر الجرجاني أن "الناس يقولون للرجل إذا أرادوا حثّه على الأمر وأن يأخذ فيه بالجد: أخرج يدك اليمنى. وذاكُ أنها أشرف اليدين وأقواهما التي لا غناء للأخرى دونها، فلا عُنِيَ انسان بشيء إلاّ بدأ بيمينه فهيّأها لنيله، ومتى ما قصدوا جعل الشيء في جهة

---

(1) ينظر: ألفاظ الثواب في القرآن الكريم، ص 304 ـ305.
(2) الكامل: 1 / 189.
(3) لسان العرب: 2 / 490 (سنح).
(4) المصدر نفسه: 14 / 458 (يمن).
(5) إصلاح المنطق، ابن السكّيت، ص 355.
(6) أساس البلاغة، ص 514 (يمن).
(7) أسرار البلاغة، ص 309. وينظر:: لسان العرب: 13 / 461 (يمن).
(8) سورة الزمر، من الآية: 67.
(9) الكامل: 1 / 76. وينظر: أسرار البلاغة، ص 310.

العناية جعلوه في اليد اليمنى "[1]. وعلى هذا فاليمين ارتبطت دلالاتها بالخير والبركة والسعادة والقوة والعناية [2] وهي المعاني والظلال التي تشير إليها كناية ﴿ أَصْحَٰبَ ٱلْيَمِينِ ﴾.

وكناية ﴿ أَصْحَٰبَ ٱلْيَمِينِ ﴾ في سياق الآيات التي أوردناها تدل، فضلاً عمّا أوحت به من معانٍ على أن هؤلاء المؤمنين هم المطلوقون من الرهن ﴿ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ ﴾ [3]، أي: "كل نفس رهن بكسبها عند الله غير مفكوك ﴿ إِلَّآ أَصْحَٰبَ ٱلْيَمِينِ ﴾ فإنهم فكوا عنه رقابهم بما أطابوه من كسبهم، كما يخلص الراهن رهنه بأداء الحق "[4]. ومن ذلك يتجلّى تكريمُهم وفضلُ الله عليهم في ذلك الموقف الذي يُرتهن فيه المكذّبون الكافرون بأعمالهم التي تقيّدهم فلا يفلتوا منها.

وتتصاعد دلالة تكريم المؤمنين ﴿ أَصْحَٰبَ ٱلْيَمِينِ ﴾ بأن الله ﷻ قد خولهم حقّ سؤال المجرمين عن مصيرهم الذي انتهوا إليه ﴿ مَا سَلَكَكُمْ فِى سَقَرَ ﴾ [5] وهو استفهام يُوحي بإهانة المجرمين، وتتعمّق دلال إهانتهم من خلال السياق الذي يعرض إجابتهم واعترافهم على نحو من الاطناب: ﴿ قَالُوا۟ لَمْ نَكُ مِنَ ٱلْمُصَلِّينَ ۞ وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ ٱلْمِسْكِينَ ۞ وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ ٱلْخَآئِضِينَ ۞ وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ ۞ حَتَّىٰٓ أَتَىٰنَا ٱلْيَقِينُ ﴾ [6] فهي إطالة في الجواب مقصودة، بيّن سبب ارتهانهم في موقفهم هذا، وتجلّي إهانتهم على نحو عميق، ويبين السياق بالأسلوب الكنائي سبب مصيرهم هذا ﴿ قَالُوا۟ لَمْ نَكُ مِنَ ٱلْمُصَلِّينَ ﴾ ، وهذه الآية كناية لأنها تفهم على الحقيقة والمعنى: أن هؤلاء المجرمين لم يكونوا من المصلّين في حياتهم الدنيا. وأما المعنى البعيد المكنى عنه الذي تلمح به الصلاة هو الإيمان كله، فهم لم يكونوا مؤمنين، وبذلك تشير الكناية إلى أهمية الصلاة في الاسلام، فالصلاة رمز الإيمان ودليله، ويدل انكارها على الكفر [7].

ويعزز هذا المعنى المكنى عنه للصلاة ما ذكر بعد ذلك، فإذا ما فقدت النفس الإيمان بالله ـ سبحانه ـ فإنها تفقد الدافع إلى فعل الخير ومنه: إطعام المسكين، وتفقد توازنها في الباطل مع الخائضين، وتكذّب بيوم الدين، يوم الحساب والجزاء الذي فيه ترتهن بأعمالها كما نرى المجرمين الآن.

---

(1) أسرار البلاغة، ص 312.

(2) ألفاظ الثواب في القرآن الكريم، ص 304.

(3) سورة المدثر، الآية: 38.

(4) الكشاف: 4 / 523.

(5) سورة المدثر، الآية: 42.

(6) سورة المدثر، الآيات: 43ـ47.

(7) ينظر: في ظلال القرآن: 8 / 370. وينظر: تفسير التحرير والتنوير: 9 / 164.

وإزاء صورة هؤلاء المجرمين نقف صورة المؤمنين ﴿أَصْحَٰبُ ٱلْيَمِينِ﴾ على التقابل ليتجلّى مصير الفريقين على التضاد ويتعمّق المعنى في حس المتلقي ووجدانه.

أصحاب الشمال:

يستعمل القرآن هذا التعبير كنايةً عن موصوف هو الكافرون المعذّبون في نار جهنّم، فهم أهل الشُّؤْم والعذاب، نقرأ ذلك في قوله ـ تعالى ـ: ﴿وَأَصْحَٰبُ ٱلشِّمَالِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلشِّمَالِ ۝ فِى سَمُومٍ وَحَمِيمٍ ۝ وَظِلٍّ مِّن يَحْمُومٍ ۝ لَّا بَارِدٍ وَلَا كَرِيمٍ ۝ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَبْلَ ذَٰلِكَ مُتْرَفِينَ ۝ وَكَانُوا۟ يُصِرُّونَ عَلَى ٱلْحِنثِ ٱلْعَظِيمِ﴾[1].

﴿أَصْحَٰبُ ٱلشِّمَالِ﴾ هم أهل النار والشقاوة، وقال الزمخشري في ﴿أَصْحَٰبُ ٱلشِّمَالِ﴾ عدة أقوال:

- الذين يؤتون صحائفهم بشمائلهم.
- أصحاب المنزلة الدنية، من قولك: فلان مني بالشمال إذا وصفته بالضعة.
- أصحاب الشمال أشقياء، لأن الأشقياء مشائيم على أنفسهم بمعصيتهم.
- أصحاب الشمال هم الموجّهون في النار ذات الشمال[2].

ومن خلال هذه الأقوال في ﴿أَصْحَٰبُ ٱلشِّمَالِ﴾ يتبين أن الكافرين يأخذون نتيجة الحساب كتاباً بشمائلهم، فيجدون العذاب والعقاب، فتكون منزلتهم دنية، فهم الأشقياء المشائيم على أنفسهم، كما قال فيهم ـ تعالى ـ في موضوع آخر: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا هُمْ أَصْحَٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ ۝ عَلَيْهِمْ نَارٌ مُّؤْصَدَةٌۢ﴾[3].

﴿أَصْحَٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ﴾ هم: أصحاب الشمال والشؤم أي المشائيم على أنفسهم[4] وهم: ﴿عَلَيْهِمْ نَارٌ مُّؤْصَدَةٌۢ﴾ من وصدت الباب وأصدته: إذا أطبقته وأغلقته[5] أي: مغلقة عليهم فهم فيها محبوسون، هذا هو المعنى الظاهر، أما المعنى المكنى عنه البعيد هو خلودهم في النار لا يخرجون منها بحكم إغلاقها عليهم، وكلا المعنيين متلازمان مقصود.

(1) سورة الواقعة، الآيات: 41ـ46.
(2) الكشاف: 4 / 363.
(3) سورة البلد، الآيتان: 19ـ20.
(4) ينظر: الكشاف: 4 / 604. وينظر: تفسير التحرير والتنوير: 27 / 285.
(5) الكشاف: 4 / 604. وينظر: أساس البلاغة، ص 501 (وصد).

إتيان الكتاب من وراء الظهر:

تأتي هذه الكناية (إتيان الكتاب من وراء الظهر) في موطن واحد مقابل إتيان الكتاب باليمين، وذلك في قوله ـ تعالى ـ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡإِنسَٰنُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدۡحٗا فَمُلَٰقِيهِ ۞ فَأَمَّا مَنۡ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ ۞ فَسَوۡفَ يُحَاسَبُ حِسَابٗا يَسِيرٗا ۞ وَيَنقَلِبُ إِلَىٰٓ أَهۡلِهِۦ مَسۡرُورٗا ۞ وَأَمَّا مَنۡ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ وَرَآءَ ظَهۡرِهِۦ ۞ فَسَوۡفَ يَدۡعُواْ ثُبُورٗا ۞ وَيَصۡلَىٰ سَعِيرًا ۞ إِنَّهُۥ كَانَ فِيٓ أَهۡلِهِۦ مَسۡرُورًا ۞ إِنَّهُۥ ظَنَّ أَن لَّن يَحُورَ ۞ بَلَىٰٓۚ إِنَّ رَبَّهُۥ كَانَ بِهِۦ بَصِيرٗا﴾[1].

تُعدّ الكناية ﴿وَرَآءَ ظَهۡرِهِۦ﴾ صورة جديدة في التعبير عن المعذّبين المشؤومين وذلك بالقياس إلى التعبيرين الكنائيين المألوفين في القرآن الكريم وهما: ﴿أَصۡحَٰبُ ٱلۡيَمِينِ﴾ الذين يأخذون كتبهم بأيمانهم، و ﴿أَصۡحَٰبُ ٱلشِّمَالِ﴾ الذين يأخذون كتبهم بشمائلهم، فهما الصورتان المألوفتان في استعمال القرآن. أما الكناية ﴿وَرَآءَ ظَهۡرِهِۦ﴾ فهي صورة جديدة لا تأتي إلاّ في هذا الموضع من القرآن.

قال الزمخشري في هذه الكناية: ﴿وَرَآءَ ظَهۡرِهِۦ﴾ قيل: تغلّ يمناه إلى عنقه، وتجعل شماله وراء ظهره، فيُؤتى كتابه بشماله من وراء ظهره. وقيل: تخلع يده اليسرى من وراء ظهره"[2]. لذلك لا يمتنع أن يكون الذي يُعطى كتابه بشماله يعطاه من وراء ظهره، فهي هيئة الكاره المُكره الخزيان من المواجهة[3].

والبادي أن الكناية ﴿وَرَآءَ ظَهۡرِهِۦ﴾ صورة حسية أعمق وأغلظ وأعنف في تصويرها للمعنى وفي إيحائها عن الخزي والمهانة والنسيان، على الرغم من أن الكنايتين (الشمال ووراء الظهر) تشيران إلى حقيقة الهلاك والثبور.

ولعل في كناية ﴿وَرَآءَ ظَهۡرِهِۦ﴾ إشارة إلى حياتهم الدنيا التي اتخذوا فيها آيات الله ورسله هزواً بالنسيان والإهمال كما تعبّر الكناية الواردة في قوله ـ تعالى ـ على لسان رسوله سيدنا شعيب ﷺ مخاطباً قومه: ﴿قَالَ يَٰقَوۡمِ أَرَهۡطِيٓ أَعَزُّ عَلَيۡكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَٱتَّخَذۡتُمُوهُ وَرَآءَكُمۡ ظِهۡرِيًّاۖ إِنَّ رَبِّي بِمَا تَعۡمَلُونَ مُحِيطٞ﴾[4].

---

(1) سورة الانشقاق، الآيات: 6 ـ15.

(2) الكشاف: 4 / 580.

(3) ينظر: في ظلال القرآن: 8 / 519.

(4) سورة هود، الآية: 92. وينظر: سورة البقرة، الآية، 101. وسورة آل عمران، الآية: 187.

﴿وَاتَّخَذْتُمُوهُ وَرَاءَكُمْ ظِهْرِيًّا﴾ كنايةً عن النسيان والاهمال، قال الزمخشري: "﴿وَاتَّخَذْتُمُوهُ وَرَاءَكُمْ ظِهْرِيًّا﴾ ونسيتموه وجعلتموه كالشيء المنبوذ وراء الظهر لا يعبأ به"[1]، وتقول العرب: "جعل هذا الأمر وراء ظهره أي تولّى عنه معرضاً، لأن ما يجعل وراء الظهر لا ينظر إليه، فهو كناية عن الإعراض"[2]. فالكناية تجسد صفة هؤلاء في صورة حسية مؤثرة موحية بحماقتهم وغلظتهم وسوء تصرّفهم إذ يُعرضون عن آيات الله ويهملونها، كالشيء الذي لا يعبأ به، فهو الجحود للنعمة في أبشع صورها..

وفي ضوء ذلك فإن كناية ﴿وَرَآءَ ظُهُورِهِ﴾ تشير إلى ما فعلوه في حياتهم الدنيا، وفيها إيحاء بنسيانهم وإهمالهم فيكون الجزاء من جنس العمل.

(1) الكشاف: 4 / 331. وينظر: الفروق اللغوية، ص 245.

(2) صفوة التفاسير: 1 / 84.

الفصل التاسع

كنايات في موضوعات متفرِّقة

الفصل التاسع

كنايات في موضوعات متفرِّقة

يضم هذا الفصل مجاميع من الكنايات، تشكل كلّ مجموعة منها موضوعاً معيناً قائماً بذاته، لذلك أسميناه كنايات متفرقة، فهو يدل على معناه، أي موضوعات متفرقة، إذ تشترك مجموعة من الصور الكنائية في معالجة موضوعات يجمعها خيط فكري واحد، فمثلاً المجموعة الأولى التي تحمل عنواناً هو (كنايات عن الشدّة والكرب) تصوّر الشدائد والأهوال التي يمرّ بها الانسان في حياته وفي أثناء موته وبعثه إلى الحياة الأخرى وغير ذلك. يجمعها خيط فكري وإن اختلف الموقف والحال.. وتأتي المجموعة الثانية تصوّر نماذج من مصارع الغابرين التي أهلكها الله بذنوبها، فجعل مصارعهم ذِكرى لِمن كان له قلب فيعتبر بها.. وتصوّر المجموعة الثالثة والرابعة طائفةً من صور عذاب الله، وطائفة من صور الرحمة الألهية الواسعة، ومجموعة من الآيات الكريمة منها تتعلق بخلق الكون، كل ذلك يعرضه القرآن بالتصوير الكنائي الذي يحتضن الأفكار والمعاني فيؤديها بحيوية وقوة تأثير في المتلقي تعمل على إحداث الاستجابة النفسية التي يهدف إليها القرآن.

وفيما يأتي استعراض كنايات كل مجموعة على حدة، لحاول فيه بيان القيمة البلاغية للفن الكنائي في التعبير عن الأفكار والمعاني بالطريقة التصويرية المؤثرة.

(1) كنايات عن الشدة والكرب:

يضم هذا العنوان ثلاث صور تشترك بإيحاء الشدة والكرب التي تنتاب الإنسان في حياته.. الشدة والكرب التي يواجهها في أثناء حياته وموته وبعثه، وشدة وكرب وهو يواجه الحياة، يعرضها القرآن من خلال مواجهة نبي من الأنبياء (عليهم السلام) قوة الظالمين المنحرفين عن الفطرة السوية.

التفاف السّاق بالسّاق:

ترد هذه الكناية في مشهد الاحتضار عند الموت في قوله ـ تعالى ـ: ﴿ كَلَّآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلتَّرَاقِيَ ۝ وَقِيلَ مَنْۜ رَاقٍ ۝ وَظَنَّ أَنَّهُ ٱلْفِرَاقُ ۝ وَٱلْتَفَّتِ ٱلسَّاقُ بِٱلسَّاقِ ۝ إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ ٱلْمَسَاقُ ﴾ [1].

فالمَنِيّة التي يتجرّعها كل إنسان، يصور القرآن مشهدها بهذا التصوير الموحي. إنه مشهد يكاد يتحرك، فكل آية منه ترسم حركة وتخرج لمحة من حالة الاحتضار التي يرتسم معها الجزع والحيرة واللهفة ومواجهة الحقيقة التي لا دافع لها ولا رادّ، إنها الحقيقة التي لا مفر منها [2] ﴿ إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ ٱلْمَسَاقُ ﴾.

إنه مشهد الموت الذي ينتهي إليه كل حي في أجله المرسوم. وهذا المشهد يعرضه القرآن في سياق إيثار المشركين العاجلة(الحياة الدنيا) وانغماسهم في لذائذها وشهواتها، فهم غافلون عمّا بين أيديهم من الأهوال والشدائد التي تنتظرهم ومنها الموت في مشهده المعروض. والشدة في المشهد تلمحها بالردع والزجر ابتداء ﴿ كَلَّآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلتَّرَاقِيَ ﴾: "﴿ كَلَّآ ﴾ ردع عن إيثار على الآخرة، كأنه قيل: ارتدعوا عن ذلك وتنبهوا على ما بين أيديكم من الموت الذي عنده تنقطع العاجلة عنكم، وتنتقلوا إلى الآجلة التي تبقون فيها مخلدين [3]" والضمير في ﴿ بَلَغَتِ ٱلتَّرَاقِيَ ﴾ عائد إلى الروح والتراقي: أعالي الصدر [4] أي شارف الانسان على الموت ﴿ وَقِيلَ مَنْۜ رَاقٍ ﴾ أي: فقال أهله: من يرقي ويطبّ ويشفي هذا المريض [5] ﴿ وَقِيلَ مَنْۜ رَاقٍ ﴾ أي وأيقن المحتضر أنه سيفارق الدنيا والأهل والمال، لمعاينته ملائكة الموت [6] وتلوّي المحتضر من السكرات والنزوع ﴿ وَٱلْتَفَّتِ ٱلسَّاقُ بِٱلسَّاقِ ﴾ وهي كناية تتكثف فيها معاني المشهد المعروض في شدّته وكربه، قال الزمخشري: "﴿ وَٱلْتَفَّتِ ﴾ ساقه بساقه والتوت عليها عند الموت، وعن قتادة ماتت رجلاه فلا تحملانه، وقد كان عليهما جوالاً، وقيل: شدة فراق الدنيا بشدة إقبال الآخرة، على أن المساق مَثلٌ في

(1) سورة القيامة، الآيات: 26 ـ30.
(2) ينظر: في ظلال القرآن: 8 / 385 ـ386.
(3) الكشاف: 4 / 530.
(4) ينظر: التفسير الكبير: 30 / 230.
(5) ينظر: البحر المحيط: 8 / 389 ـ390.
(6) صفوة التفاسير: 3 / 487.

الشدة"[1]. وما ذكره الزمخشري يجلّي المعنى المادي الظاهري والمعنى النفسي الشعوري الذي تنطوي عليه الكناية، فالمعنى الظاهري للكناية هو التفاف الساق بالساق، أي التواء ساق على أخرى عند الموت، وهي حركة تشير إلى المعنى المُكنى عنه وهو شدة الموت وكربه سواء أكان هو ألم الموت ووجعه أم شدة فراق الدنيا وانقطاع أي وسيلة لاستنفاذ الروح من الاقبال على الآخرة في أول منزل من منازلها (القبر)، قال ابن عباس: "المراد اجتمعت عليه شدة مفارقة الدنيا، مع شدة الموت وكربه، فيكون ذلك من باب التمثيل للأمر الهائل العظيم، حيث يلتقي عليه شدة كرب الدنيا، مع شدة كرب الآخرة، كما يُقال: شمّرت الحرب عن ساق"[2] دلالة على شدتها وضراوتها. فالكناية تجسّد بالتصوير الحسي المعاني الشعورية التي تنتاب المحتضر من شدة وكرب وهو يقبل على الآخرة.

لتركبنّ طبقاً عن طبق:

تأتي هذه الكناية في مشهد من مشاهد الطبيعة التي يقسم بها الله ﷻ في قوله ـ تعالى ـ: ﴿ فَلَآ أُقۡسِمُ بِٱلشَّفَقِ ۞ وَٱلَّيۡلِ وَمَا وَسَقَ ۞ وَٱلۡقَمَرِ إِذَا ٱتَّسَقَ ۞ لَتَرۡكَبُنَّ طَبَقًا عَن طَبَقٖ ﴾[3].

﴿ لَتَرۡكَبُنَّ طَبَقًا عَن طَبَقٖ ﴾ كناية تخرج المعنى في صورة حسيّة، والتعبير بالركوب ﴿ لَتَرۡكَبُنَّ ﴾ يُوحي بالشدة والمعاناة وهو المعنى الظاهري لهذا التركيب الكنائي، أما المعنى المكنى عنه الذي تشير إليه الصورة الكنائية فهو الشدائد والأهوال والكروب التي يجتازها الانسان في حياته الدنيا وما بعدها من موت ثم بعث وما يعانيه من أهوال القيامة وكروبها وشدائدها، قال الطبري: "أنهم يُلقون من شدائد يوم القيامة وأهواله أحوالاً"[4] وقال الزمخشري: "لتركبن أحوالاً بعد أحوال هي طبقات في الشدة بعضها أرفع من بعض، وهي الموت وما بعده من مواطن القيامة وأهوالها"[5].

والبادي أن المعنى المكنى عنه لا ينحصر بشدائد الموت وشدائد يوم القيامة وأهواله حسب، وإنما هو ذو مدلول عام يشمل حياة الانسان قبل موته وفي أثناء موته وما بعد ذلك من

(1) الكشاف: 4 / 530. وينظر: المفردات، ص 363.
(2) صفوة التفاسير: 3 / 487.
(3) سورة الانشقاق، الآيات: 16 ـ19.
(4) جامع البيان في تفسير القرآن: 30 / 80.
(5) الكشاف: 4 / 581، وينظر: روح المعاني: 9 / 331.

منازل حتى يستقر في إحدى الدارين الجنة أو النار، وهو المعنى الذي ذهب إليه الراغب بقوله: "يترقى منزلاً عن منزل، وذلك إشارة إلى أحوال شتى في الدنيا.. وأحوال شتى في الآخرة.. إلى حين المستقر في إحدى الدارين "[1]" فالشدة والمعاناة التي يركبها الانسان ذات مدلول عام، وهو المعنى الذي يؤكده قوله ـ تعالى ـ في موضع آخر: ﴿ لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ فِي كَبَدٍ ﴾ [2] ففيه دلالة كل تعب ومشقة [3] اي شدائد ومشقات يمر بها في أحوال متعاقبة مقدرة مرسومة، كتلك الأحوال المتعاقبة على الكون من الشفق، والليل وما وسق، والقمر إذا اتسق تمضي وفق مشيئة الله تنتهي عند غايتها، وفي ذلك يتجلى التناسق بين الكناية وما تشير إليه من أحوال متعاقبة مع الأحوال المتعاقبة مما ذكر من مشاهد كونية طبيعية، إذ يُمثل انتقالاً لطيفاً من معنى إلى معنى، وهذا التناسق هو من سمات القرآن البديع [4].

ومما يؤكد شدة هذه الأهوال وكروبها ومعاناتها توظيف الاستعارة المكنية في بنية الكناية ﴿ لَتَرْكَبُنَّ طَبَقًا عَن طَبَقٍ ﴾ ' فالركوب استعارة مكنية فيها تشبيه هذه الأحوال بمطايا يركبها الناس واحدة بعد واحدة، ثم حذف المشبه به (المستعار منه) وأبقى شيئاً من لوازمه وهو الركوب على سبيل الاستعارة المكنية. وبذلك تتواشج الاستعارة مع الكناية في إخراج المعنى بحيوية وقوة تأثير.

ضاقَ بهم ذَرْعاً:

وردت هذه الكناية في موطنين من القرآن الكريم في سياق قصة سيدنا لوط ﷺ وهي تجلّي بالتصوير الشدة التي عاناها مع قومه المنحرفين عن الفطرة السوية، نقرأ ذلك في قوله ـ تعالى ـ: ﴿ لَتَرْكَبُنَّ طَبَقًا عَن طَبَقٍ ﴾ [5].

﴿ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا ﴾ كناية عن صفة سيدنا لوط ﷺ ومعناها: "ضاق بشأنهم وبتدبير أمرهم ذرعه أي طاقته، وقد جعلت العرب ضيق الذراع والذرع: عبارة عن فقد الطاقة، كما قالوا: رحب الذراع كذا، إذا كان مطيقاً له، والأصل فيه أن الرجل إذا طالت ذراعه نال مالا

(1) المفردات، ص 450.
(2) سورة البلد، الآية: 4.
(3) ينظر: الكشاف: 4 / 602.
(4) ينظر: في ظلال القرآن: 8 / 521 ـ522.
(5) سورة هود، الآية: 77. وينظر: سورة العنكبوت / الآية: 33.

يناله القصير الذراع، فضرب ذلك مثلاً في العجز والقدرة"[1]. فالكناية تخرج المعنى النفسي بالتمثيل تصويراً له وتجسيداً،وهو المعنى المُكنى عنه ويتمثل في الشدة والكرب التي تجاوزت طاقته فعجز عن مقاومة قومه ومدافعتهم عن ضيوفه الذين حسب أنهم إنس فخاف عليهم من خبث قومه، ومما يصعّد معنى الكناية المقصود المجاز العقلي الذي انتهت به الآية ﴿ وَقَالَ هَٰذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ ﴾ فالزمن ﴿يَوْمٌ﴾ لا يكون عصيباً شديداً، وإنما هي في نفسه ﷺ في ذلك اليوم عصبية مكروبة، ولكن وصف اليوم بأنه عصيب بهذا الاسناد المجازي باعتبار العلاقة الزمانية يصوّر عمق الشدة والكرب الذي ملأ عليه أقطار نفسه وفاض فشمل الزمن، فهي لا ترى مخرجاً أو ركناً تأوي إليه [2] تخلّصاً من هذا الكرب.

(2) كنايات عن مصارع الغابرين:

يعرض القرآن الكريم مصارع الغابرين للعبرة والموعظة، فهي تحذّر الناس الوقوع فيما وقعوا فيه من الذنوب والخطايا التي أهلكتهم [3]. فسنّة الله ﷻ جارية لا تتبدل ولا تحابي أحداً ولا تحيد [4]. فما نزل بالأقوام الكافرة الغابرة من عذاب قد ينزل في الأقوام اللاحقة ـ إنْ هي كفرت ـ وإن اختلفت صور العذاب التي تحلّ بهم،لذلك يقدم القرآن مصارع الغابرين في مساحة واسعة من آياته تحكي قصص اهلاكهم وفي طياتها التحذير والتخويف.. وفيها ذكرى لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد [5]. فالنفس الانسانية شديدة الحساسية والتأثر بمصارع الغابرين التي تحث على الذكرى والاعتبار.

وقد كانت مصارع الغابرين كما يعرضها القرآن بألوان من العذاب والعقاب فَكُلاً أخذ الله بذنبه، كما قال ـ تعالى ـ: ﴿ فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنبِهِۦ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ

---

(1) الكشاف: 3/ 356 ـ357.

(2) ينظر: سورة هود، الآية: 80.

(3) ينظر السور الآتية: آل عمران، الآية 11، ويونس، الآيتان: 13 ـ14، وغافر، الآيتان: 21، 81، ومحمد، الآية 10 مثلاً.

(4) ينظر السور الآتية: هود، الآيات: 83، 100، 101، 102، 1165، 117، والحجر، الآيتان: 4 ـ5. والاسراء، الآية: 58. والفتح، الآية: 23 مثلاً.

(5) ينظر: سورة ق، الآية: 37.

ٱلصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾ (1).

ونحن إذ نعرض مصارع الغابرين فإنما نعرضها في سياقات نصوص وصور كنائية لنحاول تحليلها وبيان قيمتها البلاغية في التعبير والتصوير والتأثير.

فَغَشِيَهُم مِّنَ اليمّ ما غَشِيَهُم:

يأتي هذا التعبير الكنائي مصوّراً عذاب فرعون وجنوده، وذلك في قوله ـ تعالى ـ: ﴿ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ بِجُنُودِهِۦ فَغَشِيَهُم مِّنَ ٱلْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ ﴾ (2).

﴿ فَغَشِيَهُم مِّنَ ٱلْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ ﴾ كنايةٌ كثّفت معاني كثيرة وقامت في بنيتها على التهويل، تهويل المعنى المكنى عنه وهو: شدة عذابهم وفظاعته الذي غشّاهم لا يعلم كنهه إلاّ الله، جاء في التفسير: "﴿ غَشِيَهُمْ ﴾ من باب الاختصار، ومن جوامع الكلم التي تستقل مع قلتها بالمعاني الكثيرة، أي: غشيهم مالا يعلم كنهه إلاّ الله" (3). وفضلاً عن هذا التجهيل لشدة العذاب وفظاعته الذي حلّ بهم، فإنّ الفعل (غَشِيَ) يعمّق من شدة هذا العذاب الموصوف الذي غمرهم وغطّاهم، فالتغشية: التغطية (4) أي: غطّاهم العذاب ولابسهم بأهواله، وغمرهم بألوان منه لا يعلم وصفها على حقيقتها إلاّ الله.

وهذا العذاب الذي صوّرته الكناية على سبيل التجهيل والتعظيم يتناسب مع فرعون وجنوده في طغيانهم وفسادهم الذي ملأ الأرض (5) وفرعون الطاغية هو مدّعي الألوهية قولاً وفعلاً (6) فناسب هذا العذاب جنس العمل، فغشيهم البحر وما فيه وغمرهم بالعذاب بهذا التعظيم له والتفظيع الذي يتراءى من خلاله بأهواله العظيمة.

ويتكرر الفعل (غَشِيَ) في صورة كنائية أخرى في تصوير العذاب الذي حلّ بقوم لوط، وذلك في قوله ـ تعالى ـ: ﴿ وَٱلْمُؤْتَفِكَةَ أَهْوَىٰ ۝ فَغَشَّىٰهَا مَا غَشَّىٰ ﴾ (7) والمؤتفكة هي القُرى التي

---

(1) سورة العنكبوت، الآية: 40.
(2) سورة طه، الآية: 78.
(3) الكشاف: 3 / 61.
(4) ينظر: لسان العرب: 15 / 126 (غشا).
(5) ينظر: سورة القصص، الآية: 4.
(6) ينظر: سورة القصص، الآية: 38. وسورة النازعات، الآية: 24.
(7) سورة النجم، الآيتان: 53 ـ54.

انتفكت بأهلها، أي: انقلبت، وهم قوم لوط ﴿ أَهْوَىٰ ﴾ رفعها إلى السماء على جَناح جبريل، ثم أهواها إلى الأرض، أي: أسقطها"[1].

والكناية في قوله ـ تعالى ـ: ﴿ فَغَشَّىٰهَا مَا غَشَّىٰ ﴾ تصوّر عذابهم على سبيل الإيجاز، فالمعنى المكنى عنه، وهو العذاب الفظيع المروّع لا يحدّه التصوير الكنائي، وإنا هو مطلق على سبيل التجهيل والتعظيم تذهب النفس كل مذهب في تصوره وتخيّله.

قال الزمخشري: "﴿ مَا غَشَّىٰ ﴾ تهويل وتعظيم لما صبّ عليها من العذاب وأمطر عليها من الصخر المنضود"[2] فالكناية موحية بالمعنى المكنى عنه لا تحدّده ولا تحصره وإنما يتراءى من سجفها صورة الدمار والخسف التي تدمّر كلّ شيء فقد لابستهم بأموالها وغطّتهم، فهي صورة غريبة مروّعة من العذاب، ولكنها تناسب فعلتهم الغريبة التي حكاها عنهم القرآن الكريم[3] فكان عقابهم جزاءً وفاقاً.

فالكنايتان تعرض صورتين من العذاب مروّعتين، وقد عملت الكناية متضافرة مع الأسلوب الموجز في كل منهما ـ والإيجاز من خصائص الكناية القرآنية ـ على تصوير العذاب المناسب للسياق إذ اعتمدت الكناية في بنيتها على التجهيل والتعميم في إخراج المعنى المكنى عنه لتهويله وتفظيعه، ولتوحي بلسع العذاب الذي غشاهم بأهواله، وتلقي من ثم في نفس السامع أو القارئ الرعب من هذا المصير المشؤوم، فيعمل على تجنبه، ويمتثل لأمر الله، ويعم الصلاح والخير في حياة الفرد والمجتمع، وبذلك يتحقق الهدف المنشود.

قَطعُ الدابر:

يعبّر القرآن عن إهلاك الكافرين الظالمين بالتصوير الكنائي الموحي (قطع الدابر) في قوله ـ تعالى ـ: ﴿ فَقُطِعَ دَابِرُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾[4].

---

(1) الكشاف: 4 / 341، وينظر: البحر المحيط: 8 / 170.

(2) الكشاف: 4 / 341، وينظر: تفسير التحرير والتنوير: 27 / 155، وينظر: سورة هود، الآية: 82، وسورة الحجر، الآية: 74. وصفاً لعذابهم بالمطر.

(3) ينظر: سورة الأعراف، الآيتان: 80 ـ81، وسورة العنكبوت، الآيتان: 28 ـ28.

(4) سورة الأنعام، الآية: 45. وينظر: السور الآتية: الأعراف، الآية: 72، والأنفال، الآية: 7، والحجر، الآية: 66.

﴿ فَقُطِعَ دَابِرُ الْقَوْمِ ﴾ كنايةٌ تواشجت معها في التعبير والتصوير استعارة (القطع)، والقطع إنما يكون للأشياء المتماسكة الصلبة كالخشب مثلاً وما شابه ذلك، قال عبد القاهر الجرجاني: "ان القطع إذا أطلق فهو لإزالة الاتصال من الأجسام التي تلتصق أجزاؤها، وإذا جاء في تفريق الجماعة وإبعاد بعضهم عن بعضكان شبه الاستعارة، وإنْ كان المعنى في الموضعين على إزالة الاجتماع ونفيه"[1]. وهذه الاستعارة القريبة أو شبه الاستعارة كما يقول عبد القاهر تصوِّر العذاب النازل بالظالمين على نحو مخصوص لأن القطع يشير إلى "معنى نفسي دقيق هو هذه الوشائج التي تقوم بين الجماعة القائمة في مكان واحد،والمجتمعة في أرض واحدة، والتي هي أشبه باللحمة في الثوب"[2]. فالاستعارة تشير إلى تقطيع هذه الصلات المتلاحمة بالعذاب النازل بهم، فهو عذاب شديد وكأنه تقطيع وتمزيق للأجسام والأوصال لا يغادر منهم أحداً كما تصوّر الكناية ﴿ دَابِرُ الْقَوْمِ ﴾ فالدابر هو: آخر القوم، قال الزمخشري: "آخرهم لم يترك منهم أحد، قد استؤصلت شأفتهم"[3] فالكناية تشير إلى معناها المكنى عنه والمتمثل في عذاب الاستئصال الذي يروِّعهم ويفزعهم، وهذا الترويع والفزع توحي به الكناية، بما فيها من حركة، لأن الدابر: فاعل من دبر إذ أدبر[4] وفي ذلك تصوير لحالهم مدبرين من الفزع حين نزول العذاب، لعل في الإدبار نجاة أو أمان ! ولكنه العذاب الشديد الذي يستأصلهم بأخذ آخرهم، فكيف بأولهم؟ فهو العذاب الذي يعمّ بالهلاك فلا يترك أحداً من الظالمين على قيد الحياة ﴿ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾.

المشي في المساكن:

مما يدل على مصارع الغابرين آثارهم، ومن هذه الآثار ما هي قائمة، ومنها مندثرة كالزرع المحصود، كما يحكي القرآن ذلك: ﴿ ذَٰلِكَ مِنْ أَنبَاءِ الْقُرَىٰ نَقُصُّهُ عَلَيْكَ ۖ مِنْهَا قَائِمٌ وَحَصِيدٌ ﴾[5]. فآثارهم معروضة للمتأملين والمعتبرين فهي تزحم النفس والخيال ﴿ مِنْهَا قَائِمٌ ﴾ لا تزال آثاره شاخصة باقية

(1) أسرار البلاغة، ص 44.
(2) التصوير البياني دراسة تحليلية لمسائل البيان، ص 202 ـ203. وينظر: الاستعارة في القرآن الكريم، ص 85.
(3) الكشاف: 2 / 18، وينظر: تفسير التحرير والتنوير: 9 / 272 ـالكتاب الثاني.
(4) الكشاف: 2 / 156.
(5) سورة هود، الآية: 100. وينظر: سورة يونس، الآية: 34، وسورة الأنبياء، الآية: 15.

تروي قصة الكفر والبطر، ومنها ﴿ وَحَصِيدٌ ﴾ عافي الأثر كالزرع المحصود، وكلٌ منهما دالٌّ على موت أهلها وهلاكهم وزوالهم بعد الحركة والحياة.

والقرآن يتخذ من آثارهم ومساكنهم هذه معرضاً للإنذار والعبرة، كما نقرأ مثلاً في قوله ـ تعالى ـ: ﴿ أَفَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّنَ ٱلْقُرُونِ يَمْشُونَ فِى مَسَٰكِنِهِمْ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلنُّهَىٰ ﴾ [1].

﴿ يَمْشُونَ فِى مَسَٰكِنِهِمْ ﴾ كناية، والمعنى الظاهر الذي تدلّ عليه هو: أي وهؤلاء المكذّبين يمشون في مساكن أولئك المكذّبين، فلا يرون فيها أحداً ممن كان يسكنها ويعمرها"[2] فهم يتقلّبون في مساكنهم ويعاينون آثار هلاكهم الشاخصة الموحشة لا ديار فيها ولا نافخ نار. أما المعنى المكنى عنه المقصود فهو ملزوم المشي في هذه المساكن ويتمثل في العبرة والاتعاظ ممّا تحكيه تلك الآثار والمساكن الخاوية عن مصارع الغابرين الظالمين، عبرة تجنّب الذين يمشون في تلك المساكن سنّة الله الجارية في إهلاك الظالمين، والعبرة التي تبتعثها تلك المساكن الخاوية الموحشة في الحس والوجدان تكفي للإنذار والموعظة، فما لهم لا يعتبرون، ولا يتعظون كما يدل الاستفهام التعجبي بالهمزة: ﴿ أَفَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ ... ﴾ تعجيب من حال الكافرين الذين لا يعون معنى الانذار، والعبرة أمامهم معروضة للأنظار، ﴿ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلنُّهَىٰ ﴾ فهي عبرة للمؤمنين أصحاب العقول، وفي ذلك تعريض بالكافرين المكذّبين الذين لا يعتبرون بالآيات المعروضة، وإنما هي آيات للمؤمنين العقلاء المتوّسمين.

ولا شكّ في أن القلب المؤمن حين يجول في مصارع القرون، وحين تطالع العين آثارهم ومساكنهم عن كثب، وحين يتملّى تلك المساكن وقد خلت من أهلها الظالمين، ويتصوّر شخوصهم الذاهبة، وحركاتهم وسكناتهم، وخواطرهم وأحلامهم، وهمومهم وآمالهم.. حين يتأمّل هذا الحشد من الصور المزدحمة، ثم لا يرى إلاّ الخواء الموحش.. حينئذٍ يستيقظ للعبرة، ويدرك يد القدرة التي أخذت القرون الأولى لظلمها وهي قادرة على أن تأخذ ما يليها، ويعي معنى الانذار والعبرة التي تبتعثها تلك المساكن [3] الخاوية.

---

(1) سورة طه، الآية: 128. وينظر السور الآتية: النمل، الآية: 52، والقصص، الآية: 58، والعنكبوت، الآية: 38، والسجدة، الآية: 26، والصافات، الآيتان: 137 ـ138، والأحقاف، الآية: 25.

(2) تفسير القرآن العظيم: 3/ 446، وينظر: صفوة التفاسير: 2/ 506.

(3) ينظر: في ظلال القرآن: 5/ 504.

إرَمَ ذاتِ العماد. وثمود الذين جابوا الصخر بالواد. وفرعون ذو الأوتاد:

ترد هذه الكنايات الثلاث في قوله ـ تعالى ـ: ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ۝ إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ ۝ الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ ۝ وَثَمُودَ الَّذِينَ جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ ۝ وَفِرْعَوْنَ ذِي الْأَوْتَادِ ۝ الَّذِينَ طَغَوْا فِي الْبِلَادِ ۝ فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفَسَادَ ۝ فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ ۝ إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ ﴾ (1).

في هذه الآيات الكريمة تتشكّل ثلاث كنايات: ﴿ إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ ﴾ و﴿ وَثَمُودَ الَّذِينَ جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ ﴾ و﴿ وَفِرْعَوْنَ ذِي الْأَوْتَادِ ﴾ ثلاث أمم غابرة ذوات حضارة بلغت مبلغاً يذكر، قوم عاد، وقوم ثمود، وقوم فرعون. يخبرنا القرآن عنها لاتخاذ العبرةمنها والموعظة، فهذه الحضارات التي شيّدتها هذه الأمم لم تنجها من العذاب والهلاك لمّا كفرت بالله وعتت عن أمره.. والسياق يُفتتح بالاستفهام بالهمزة: ﴿ أَلَمْ تَرَ .. ﴾ للتنبيه وإثارة اليقظة للالتفات إلى ما أنزل الله بها من عذاب طاغ كما صوّرته الاستعارة المكنية (صَبّ).

الكناية الأولى: ﴿ إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ ﴾ يصف بها "عاد الأولى أهل إرم ذات البناء الرفيع، الذين كانوا يسكنون بالأحقاف بين عمان وحضرموت" (2) وهذه الكناية تشير إلى أكثر من معنى مُكنى عنه، فهي ذات إيحاءات متعددة تقرّب إلى الذهن ما كانت عليه عاد من قوة وعز وسيادة كما تدل مادة هذه الكناية. قال ابن منظور: "عَمَدَ الحائط يَعْمِدُه عَمْداً: دعمه، والعمود الذي تحامل الثِّقْلُ عليه من فوق كالسقف يُعْمَدُ بالأساطين المنصوبة. وعَمَدَ الشيءَ يَعْمِدُه عَمْداً: أقامه. والعمادُ: ما أُقيمَ به، وعمدت الشيءَ فانعَمَدَ أي أقمته بعمادٍ يُعْتَمِدُ عليه. والعماد:الأبنية الرفيعة.. وقوله ـ تعالى ـ: ﴿ذَاتِ الْعِمَادِ﴾، قيل: معناه أي ذات الطُّول، وقيل أي ذات البناء الرفيع، وقيل: أي ذات البناء الرفيع المُعَمَّد" (3) وقال المبرِّد في قول الخنساء:

طويلُ النِّجادِ رفيعُ العِمادِ ساد عَشيرتَه أمْرَدا

فقولها طويل النجاد، تريد نجاده، طول قامته، وهذا مما يمدح به الشريف. وقولها رفيع العماد، وإنما تريد ذاك يقال: رجل معتمد أي طويل ومنه قوله ﷻ: ﴿ إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ ﴾ أي الطول" (4) وهذه المعاني التي تشير إليها الكناية قد ذكرها القرآن في مواضع أخرى، فممّا يدل على أبنيتهم الرفيعة

(1) سورة الفجر، الآيات: 6 ـ14.

(2) صفوة التفاسير: 3 / 556، وينظر: سورة الأحقاف، الآية: 21.

(3) لسان العرب: 3 / 303 (عَمَد).

(4) الكامل: 2 / 281.

المُعْمَدة التي تشير إلى رقي حضاري قوله ـ تعالى ـ على لسان نبيهم هود ﷺ مخاطباً إياهم: ﴿ أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ ءَايَةً تَعْبَثُونَ ۞ وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ ﴾ [1] ومما يدلّ على قوتهم وبسطتهم في الجسم قال ـ تعالى ـ: ﴿ وَٱذْكُرُوٓاْ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِى ٱلْخَلْقِ بَصْۜطَةً ﴾ [2] فعاد بلغت من الحضارة حتى أنها لتتخذ المصانع لنحت الجبال وبناء القصور، وتشييد العلامات على المرتفعات، وحتى ليجول في خاطرهم أن هذه المصانع وما ينشؤونه بوساطتها من البنيان كافية لحمايتهم من الموت [3] وهم بدلاً من أن يؤمنوا بالله ويشكروه على نعمه عليهم كفروا وجحدوا نعمه وركنوا إلى قوتهم فدمرهم الله وعذّبهم عذاباً شديداً بالريح الصرصر العاتية التي سخّرها عليهم في أيامٍ نَحِسات [4].

والكناية الثانية: في شأن ثمود الذين ﴿ ٱلَّذِينَ جَابُواْ ٱلصَّخْرَ بِٱلْوَادِ ﴾ أي تقطّع الصخر، يُقال "جاب الثوب واجتابه: قطّعه.. وجاب الصخرة: خرقها" [5] وتقطيع الصخر وخرقه الذي يدل عليه ظاهر الكناية يراد منه ملزومه وهو المعنى المُكنى عنه الذي تُوحي به ويتمثل في رقيهم الحضاري الذي بلغوه من قوة مادية وسيادة، فثمود قد قطّعت الصخر لتشييده بيوتاً وقصوراً،وقد أشار القرآن في مواضع أخرى إلى هذا المعنى في قوله ـ تعالى ـ على لسان نبيهم صالح ﷺ مخاطباً إياهم: ﴿ وَٱذْكُرُوٓاْ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِن سُهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ ٱلْجِبَالَ بُيُوتًا ۖ فَٱذْكُرُوٓاْ ءَالَآءَ ٱللَّهِ وَلَا تَعْثَوْاْ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴾ [6]. فالكناية تشير إلى رقيهم الحضاري الذي بلغوه بما أنعم الله عليهم.. ولكنهم كفروا وعتَوا عن أمر ربهم ورسوله فأخذتهم صاعقة العذاب الهُون بما كانوا يكسبون [7].

وأما الكناية الثالثة: في شأن فرعون ﴿ وَفِرْعَوْنَ ذِى ٱلْأَوْتَادِ ﴾ فقد قيل فيها عدة معانٍ:

ـ أنه كان يوتد من يريد تعذيبه بأربعة أوتاد في يديه ورجليه ويتركه حتى يموت.

---

(1) سورة الشعراء، الآيتان: 128 ـ129.

(2) سورة الأعراف، من الآية: 60. وينظر: سورة هود، الآية: 52، وسورة الشعراء، الآية: 130.

(3) في ظلال القرآن: 8 / 571.

(4) ينظر: سورة الحاقة، الآيتان: 6 ـ7، وسورة فصلت، الآية: 15، وسورة الذاريات، الآيتان: 41 ـ42، وسورة القمر، الآيتان: 19 ـ20.

(5) أساس البلاغة، ص 68 (جوب). وينظر: لسان العرب: 1 / 285 (جوب).

(6) سورة الأعراف، الآية: 74. وينظر: سورة الشعراء، الآية: 149.

(7) ينظر: سورة فصلت، الآية: 17، وسورة الذاريات، الآية: 44.

ـ المراد بالأوتاد المباني العظيمة الثابتة.

ـ المراد الدلالة على ثبات ملكه.

ـ المراد بأنه صاحب الأهرامات والمباني العظيمة الثابتة التي تقوم في الأرض كالأوتاد[1].

ورجّح بعض المفسرين المحدثين بأنها الأهرامات التي تشبه الأوتاد الثابتة في الأرض المتينة البنيان[2].

والبادي أن الكناية تشير إلى كل هذه المعاني، فهي كناية موحية، إلاّ أنّ أقرب معنى ظاهري تدل عليه هو أنه كان يوتد من يريد تعذيبه بأوتاد حتى يموت، والمعنى الأول الذي أوردناه، ويؤيد هذا المعنى ما ورد في القرآن في مواضع أخرى من تهديد فرعون للسحرة الذي آمنوا بموسى ﷺ، تهديدهم بعذاب التصليب في جذوع النخل وتقطيع أيديهم وارجلهم من خلاف[3]،ففي جذوع النخل إشارة صريحة إلى هذه الأوتاد بوصفها وسيلة تعذيب معروفة لدى فرعون.. وممّا يؤيّد هذا المعنى الظاهر القريب السياق الذي جاءت فيه الكناية، فهو سياق عذاب، العذاب الطاغي الغامر الذي صبّه الله عليهم ﴿ فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ ۞ إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ ﴾ وكان جزاءهم الذي لقوه هو من جنس عملهم.

أما المعنى المُكنى عنه البعيد الذي تشير إليه الكناية والذي نرجّحه هو ثبات ملكه المرتكز على القوة، وممّا يقوّي هذا المعنى ويجلّيه ما ورد في القرآن عن جعل الجبال في الأرض أوتاداً لها لتثبيتها واستقرارها ﴿ أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ مِهَٰدًا ۞ وَٱلْجِبَالَ أَوْتَادًا ﴾ [4] فالثبات والاستقرار هو المعنى الذي تشير إليه الكناية وهو معنى ينطوي على المعاني الأخرى وهو من مظاهر ثبات الملك الدالّ عليه كالمباني العظيمة الثابتة التي تقوم في الأرض كالأوتاد أو تلك الاهرامات التي تشبه الأوتاد الثابتة في الأرض المتينة البنيان، وكلها تشير إلى رقيّ حضاري، وقوة مادية،ولكنها قوة مادية طاغية، فقد أشار القرآن إلى قوة فرعون وجبروته، وأشار إلى البنيان العظيمة والأنهار التي تجري من تحتها[5] وطغيانه في الأرض وتعذيبه لبني اسرائيل بألوان

(1) ينظر: صفوة التفاسير: 3/ 56، وينظر: الكشاف: 4/ 597.

(2) ينظر: في ظلال القرآن: 8/ 571، وينظر: 7/ 90.

(3) ينظر: السور الآتية: الأعراف، الآية: 124. وطه، الآية: 71. والشعراء، الآية: 49.

(4) سورة النبأ، الآيتان: 6 ـ7. ينظر: سورة النحل، الآية: 15.

(5) سورة الزخرف، الآية: 51.

العذاب [1] بل ادّعى الألوهية قولاً وفعلاً [2] إنه كان عالياً في الأرض من المسرفين [3] فأخذه الله وجنوده أخذ عزيز مقتدر، فلم تصمد قوته الغاشمة أمام قوة الله وجبروته وهذه هي سنّة الله في الأقوام الكافرة الطاغية التي تبلغ مبلغاً من الحضارة المادية بكل ألوانها ؛ لأنها منقطعة عن الله كافرة به، فيأخذها بألوان من العذاب الأليم.

نقص الأرض من أطرافها:

وردت هذه الكناية في قوله ـ تعالى ـ: ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا وَاللَّهُ يَحْكُمُ لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِ وَهُوَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴾ [4].

تتصل هذه الكناية: ﴿ نَأْتِي الْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا ﴾ بالكنايات الثلاث السابقة في شأن عاد وثمود وفرعون، إذ تصوّر لنا عاقبة الأمم الكافرة بالله ﷻ مهما بلغت حضارتها المادية في الرقي والتطور. وجاء في تفسيرها: "﴿ أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ ﴾ أرض الكفر ﴿ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا ﴾ بما نفتح على المسلمين من بلادهم، فتنقص دار الحرب وتزيد في دار الاسلام، وذلك من آيات النصرة والغلبة" [5]. فالكناية تصور هذا المعنى على سبيل التمثيل بالصورة الحسية والمتمثلة بنقصان الأرض من أطرافها، وهذا يمثل المعنى الظاهر القريب لها، أما المعنى المكنى عنه البعيد فهو يلتقي مع هذا المعنى من حيث النصر والغلبة للمسلمين،والدمار والهلاك للكافرين، إلاّ أنه يتجسّد على نحو مخصوص ويقرّر حقيقة، وسنّة من سنن الله في الأرض، وتتمثل هذه الحقيقة (المعنى المكنى عنه) في أن يد الله ﷻ القوية تفعل فعلها في الأمم القوية الغنية ـ حين تبطر وتكفر وتفسد ـ فتنتقص من قوتها ومن ثرائها، وتنقص من قدرها، وتحصرها في رقعة من الأرض ضيّقة بعد أن كانت ذات سلطان وسيادة، وإذا حكم الله عليها بالانحسار فلا معقّب لحكمه ﴿ وَاللَّهُ يَحْكُمُ لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِ ﴾ ولابد له من النفاذ [6].

(1) سورة طه، الآية: 47.
(2) سورة القصص، الآية: 38. وسورة النازعات، الآية: 24.
(3) سورة يونس، الآية: 83. وسورة القصص، الآية: 4.
(4) سورة الرعد، الآية: 41. وينظر: سورة الأنبياء، الآية: 44.
(5) الكشاف: 2 / 416. وينظر: صفوة التفاسير: 2 / 87.
(6) ينظر: في ظلال القرآن: 5 / 102.

وبذلك فإن الكناية تشير إلى هذا اللون من العذاب البطيء وبه تُطوى رقعة الدول المتغلّبة وتنحسر وتزول أو تكون دويلات صغيرة لا قوة لها ولا سيادة،وكانت من قبل أمبراطوريات، فإذا هي مغلوبة على أمرها بعد أن كانت غالبة، وإذا هي فقيرة قليلة العدد بعد أن كانت غنية كثيرة العدد.. وهذه هي سنّة الله كما تجلّيها الكناية.

(3) كنايات عن العذاب:

والعذاب الذي تصوِّره هذه الكنايات متنوع منه عذاب أصحاب جهنم الذين يغشاهم عذابها من فوقهم ومن تحت أرجلهم، ومنه عذاب في الحياة الدنيا لأولياء الشيطان تخرجه الكناية بالتصوير الحسي المؤثر، وفيما يأتي عرض لها:

من فوقهم ومن تحت أرجلهم:

تأتي هذه الكناية في قوله ـ تعالى ـ: ﴿ يَوْمَ يَغْشَىٰهُمُ ٱلْعَذَابُ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ وَيَقُولُ ذُوقُوا۟ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ (1).

﴿ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ ﴾ كناية ومعناها الظاهر القريب هو أنّ العذاب يغشاهم من الجهتين: من فوقهم ومن تحتهم، أما المعنى المُكنى عنه المقصود فهو أنّ العذاب يحيط بهم إحاطة شاملة، فهو عذاب شديد يُطبق عليهم فيغشاهم ويلابسهم من كل مكان، ولكن الكناية تصوِّره من فوقهم، ومن تحت أرجلهم، لأنّ ذلك أبلغ في تصوير العذاب، إذ الكناية تخرج العذاب وكأنه حِمَمٌ تقذفهم به من فوق، أو براكين تنفجر عنه من تحت أقدامهم (2) وفي ذلك يتجلى هول العذاب وشدته، فضلاً عن إيحاء التخويف والفزع الذي تثيره الصورة في نفس المتلقي.

وثمة تلحظ الكناية في سياق آخر في قوله ـ تعالى ـ: ﴿ قُلْ هُوَ ٱلْقَادِرُ عَلَىٰٓ أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُم بَأْسَ بَعْضٍ ٱنظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ ﴾ (3).

(1) سورة العنكبوت، الآية: 55، وينظر: سورة الزمر، الآية: 16.
(2) ينظر: من أسرار التعبير القرآني، ص 47.
(3) سورةالأنعام، الآية: 65.

﴿ مِّن فَوْقِكُمْ أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ ﴾ كناية عن العذاب الشديد الغامر الذي يحيط بهم، وخصَّ بالذكر: من فوق ومن تحت لأنهما أبلغ في تصوير العذاب الذي يقهرهم به الله ﷻ إنْ شاء، وأشدّ وقعاً في النفس من تُصَوُّره آتياً من يمين أو شمال، فالوهم قد يخيّل للانسان أنه قد يقدر على دفع العذاب من يمين أو شمال، أمَّا العذاب الذي يصبُّ عليه من فوق، أو يأخذه به من تحت، فهو عذاب غامر قاهر مزلزل، لا مقاومة له ولا ثبات معه. والكناية موحية بهذا الإيحاء القوي في حس الانسان ووجدانه، كما أنها تقرر حقيقة قدرة الله على أخذ العباد بالعذاب من حيث شاء وكيف شاء [1].

والكناية فضلاً عن ذلك لُماحة إلى ألوان من العذاب التي أخذ الله بها قسماً من الأقوام الكافرة الغابرة، تشير إليها الكناية تخويفاً وتحذيراً. قال الزمخشري: "﴿ عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ ﴾ كما أمطر على قوم لوط وعلى أصحاب الفيل الحجارة، وأرسل على قوم نوح الطوفان ﴿ أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ ﴾ كما أغرق فرعون وخسف بقارون" [2].

فالله قادر على أن يأخذهم بهذه الألوان من العذاب كما أخذ الأقوام السابقة، وهو المعنى نفسه الذي حذّر الله منه المشركين وهدّدهم به في قوله ﷻ: ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّقُوا مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَمَا خَلْفَكُمْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ۝ وَمَا تَأْتِيهِم مِّنْ آيَةٍ مِّنْ آيَاتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴾ [3]

ومعنى الكناية ﴿ اتَّقُوا مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَمَا خَلْفَكُمْ ﴾: "وإذا قيل للمشركين احذروا سخط الله وغضبه، واعتبروا بما حلّ بالأمم السابقين قبلكم من العذاب بسبب تكذيبهم الرسل، واحذروا ما وراءكم من عذاب الآخرة لكي ترحموا أعرضوا واستكبروا ودلّ عليه قوله ـ تعالى ـ: ﴿ إِلَّا كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴾" [4] فهي كناية عن عذاب الدنيا بالتعبير ﴿ مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ ﴾ وعن عذاب الآخرة بالتعبير ﴿ وَمَا خَلْفَكُمْ ﴾ وفي ذلك إيحاء يقرب العذاب الذي يحيط بهم فهو أمامهم ووراء ظهورهم يأخذهم في أي لحظة فهي صورة كنائية تثير في النفس الترهيب والتخويف من هذا العذاب القريب منهم والمحيط بهم وهم عنه غافلون.

---

(1) ينظر: في ظلال القرآن: 3 / 269.

(2) الكشاف: 2 / 25.

(3) سورة يس، الآيتان: 45ـ46.

(4) صفوة التفاسير: 3 / 17. وينظر: الكشاف: 4 / 14، والجامع لأحكام القرآن: 15 / 36.

من بين أيديهم ومن خلفهم وعن أيمانهم وعن شمائلهم:

يصوّر القرآن الكريم بهذا التعبير الكنائي محاولة ابليس ـ لعنه الله ـ الدائبة لاغواء آدم ﷺ وذريته، في قوله ـ تعالى ـ على لسان ابليس: ﴿ قَالَ فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ ۝ ثُمَّ لَآتِيَنَّهُم مِّن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَن شَمَائِلِهِمْ ۖ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ ﴾ [1].

﴿ مِّن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَن شَمَائِلِهِمْ ﴾ كنايةً، والمعنى الحسي القريب لها أن ابليس سيأتي البشر من كل الجهات لاغوائهم وإضلالهم عن طريق الله، عن طريق الحق والهدى، فهو العدو يأتي من الجهات الأربع للإطباق على عدوه.

أما المعنى المكنى عنه فهو تجسيد لوسوسته وتسويله للبشر ما أمكنه وقدر عليه [2] من الإغواء والتضليل، والكناية تخرج هذا المعنى وتقرِّبه إلى الأذهان في صورة متحركة، نرى فيها إبليس ـ لعنه الله ـ في إصراره العنيد على إغواء بني آدم، فهو يتربّص بهم قاعداً لهم صراط الله المستقيم، والقعود كنايةً عن الملازمة، ووجه الكناية هو أنَّ ملازمة المكان تستلزم الإعياء من الوقوف عنده، فيقعد الملازم طلباً الراحة، ومن ثم أطلق على المستجير اسم القعيد، ومن إطلاق القعيد على الملازم قوله ـ تعالى ـ: ﴿ إِذْ يَتَلَقَّى الْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ ﴾ [3] أي ملازم إذ لا يُوْصَف بقعود ولا قيام "[4].

والصراط استعارة تصريحية تصوّر الاسلام من ايمان بالله وطاعات في صورة حسية، وابليس سيقعد على هذا الصراط المستقيم يصدّ عنه كل من يحاول اجتيازه إلى الله ﷻ ويرجعهم عنه ويضللهم في شتى محاولاته كما صوّرت الكناية، فينقلبوا كافرين لا يعرفون الله ولا يشكرونه ولا يفلت منه إلاّ القليل ﴿ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ ﴾ ونفي الشكر كناية عن الكفر كما قال ـ تعالى ـ: ﴿ وَاشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونِ ﴾ [5] ووجه الكناية أن إبليس أراد الأدب مع الله ـ تعالى ـ فلم يصرِّح بين يديه بكفر أتباعه المقتضي أنه يأمرهم بالكفر [6].

(1) سورة الأعراف، الآيتان: 16 ـ17.
(2) ينظر: الكشاف: 2 / 73.
(3) سورة ق، الآية: 17. وينظر: سورة الأعراف، الآية: 86.
(4) تفسير التحرير والتنوير: 8 / 47 ـالكتاب الثاني ـ.
(5) سورة البقرة، من الآية: 152.
(6) ينظر: تفسير التحرير والتنوير: 8 / 50 ـالكتاب الثاني ـ.

ولا يخفى ما في التصوير الكنائي من تحذير من هـذا العـدو والمتربّص الـذي لا ينـي في إضلال البشر للحيلولة بينهم وبين الايمان والطاعة، تحذير شديد يثير النفس المؤمنة بـالله الطائعة له أن تتيقظ لهذا العدو وتدرأ خطره بتقوى الله وطاعته فتنجو من عذاب الله.

(4) كنايات عن الرحمة:

وهي كنايات متعددة تصور رحمة الله الواسعة بعباده، وفيما يأتي عرض لنماذج منها:

فتح البركات من السماء والأرض:

وردت هذه الكناية التصويرية في قوله ـ تعالى ـ: ﴿ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾ (1).

﴿ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ ﴾ كنايةٌ قائمة في بنيتها على الاستعارة المكنية حيث شبّه البركات وكأنها محصورة خلف الأبواب المستغلقة، ثم حذف الأبواب وأبقى شيئاً من لوازمها وهي (فتحنا) على سبيل الاستعارة المكنية، وفيها تتعمق دلالة تيسير البركـات عليهم، قال الزمخشري: " فإن قلت: ما معنى فتح البركات عليهم؟ تيسيرها عليهم كما ييسر أمر الأبواب المستغلقة بفتحها. ومنه قولهم: فتحت على القارئ، إذا تعذرت عليه القراءة فيسرتها عليهم بالتلقين "(2) والاستعارة ليست غاية بحد ذاتها وإنما هي وسيلة تقودنا إلى معنى مُكنى عنه يتوارى خلفها، وبذلك تكون كناية تشير إلى معناها المكنى عنه، ويتمثل في ذلك الفيض من الرزق المبارك من السماء والأرض، وهو رزق لا ينحصر بالماء النازل من السماء والنبات في الأرض، وإنما هو طرق يأتي من كل وجه بلا تحديد وتقييد، هو رزق مبارك ذو دلالة شاملة لكل أنواع البركات في كل صورها وأشكالها المادية والمعنوية، وذلك بشرط الايمان والتقوى كما دلّ سياق الآية ﴿ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم ... ﴾ فالمعنى المكنى عنه غير محدد برزق مبارك معين، وإنما يشير إلى دلالة السّعة والفيض والخصب والرضا والسعادة. وهي صورة جلية من صور الرحمة الالهية بعباده لو آمنوا به واتّقوه.

(1) سورة الأعراف، الآية: 96.
(2) الكشاف: 2 / 105.

الأكل من فوق ومن تحت الأرجل:

وتلتقي هذه الكناية مع الكناية السابقة في تصوير رحمة الله بعباده بالصورة الحسية في تقريب المعنى المكنى عنه إلى الأذهان، وذلك في قوله ـ تعالى ـ عن اليهود والنصارى: ﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَاةَ وَالْإِنجِيلَ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِم مِّن رَّبِّهِمْ لَأَكَلُوا مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِم مِّنْهُمْ أُمَّةٌ مُّقْتَصِدَةٌ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ سَاءَ مَا يَعْمَلُونَ ﴾ [1].

فالكناية ﴿ لَأَكَلُوا مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِم ﴾ تصوير حسي، والمعنى القريب كما جاء في التفسير: "لأكلوا الأرزاق النازلة عليهم ﴿ مِن فَوْقِهِمْ ﴾ من السماء بإنزال مباديها، والأرزاق النابتة ﴿ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِم ﴾ أي ممّا تحتها من الأراضي الخصبة المنبتة المثمرة" [2]، وأورد الزمخشري ثلاثة أوجه من المعاني:

- أن يفيض عليهم بركات السماء وبركات الأرض.
- أن يكثر الأشجار المثمرة والزروع المغلة.
- أن يرزقهم الجنان اليانعة الثمار يجتنون ما تهدّل منها من رؤوس الشجر ويلتقطون ما تساقط على الأرض من تحت أرجلهم [3].

أما المعنى المكنى عنه بهذا التعبير الكنائي فهو السّعة في الرزق على المؤمنين المتقين، رزق مبروك لا يتحدد بالجهتين المذكورتين (فوق وتحت) حسب، وإنما فيه دلالة الوفرة تعمّ البلاد بالخيرات والثمار والأرزاق ينالها العباد بشرط الإيمان والتقوى.

وبذلك تجلي هذه الكناية، فضلاً عن الكناية السابقة المعنى المكنى عنه مصوَّراً بالصورة الحسية المؤثرة بقرآن سنّة من سنن الله تتمثل في أن الايمان والتقوى يكفل للمؤمنين المتقين وفرة في الرزق المبارك في حياتهم الدنيا، فضلاً عن جزاء الدار الآخرة بنعيمها الدائم الباقي.

(1) سورة المائدة، الآية: 66.
(2) مواهب الرحمن في تفسير القرآن: 3 / 179.
(3) الكشاف: 1 / 630.

وحملناه على ذات ألواح ودسر:

ترد هذه الكناية في سياق الطوفان، وهي تجلي صورة من صور الرحمة الالهية بالعباد المؤمنين: نوح ﷺ ومن آمن معه، وذلك في قوله ـ تعالى ـ: ﴿ وَحَمَلْنَٰهُ عَلَىٰ ذَاتِ أَلْوَٰحٍ وَدُسُرٍ ﴾ [1].

﴿ عَلَىٰ ذَاتِ أَلْوَٰحٍ وَدُسُرٍ ﴾ كنايةٌ عن السفينة التي حملت نوحاً ﷺ ومن معه من المؤمنين، قال الزمخشري: "أراد السفينة، وهي من الصفات التي تقوم مقام الموصوفات فتنوب منابها وتؤدي مؤداها" [2] أي فكنّي عن الموصوف (السفينة) بلفظين هما: الألواح والدسر اللذان يشيران إلى أنها كانت سفينة محكمة بهما، وهو المعنى الذي يُلائم سياق الطوفان الصعب الذي أحاط خطره وأحدق بكل حي ﴿ فَفَتَحْنَآ أَبْوَٰبَ ٱلسَّمَآءِ بِمَآءٍ مُّنْهَمِرٍ ۞ وَفَجَّرْنَا ٱلْأَرْضَ عُيُونًا فَٱلْتَقَى ٱلْمَآءُ عَلَىٰٓ أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ ۞ وَحَمَلْنَٰهُ عَلَىٰ ذَاتِ أَلْوَٰحٍ وَدُسُرٍ ﴾ [3] فهي سفينة محكمة قد صنعها سيدنا نوح بعين الله ورعايته كما قال ـ تعالى ـ: ﴿ أَنِ ٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا ﴾ [4]، والتنكير في ﴿ أَلْوَٰحٍ ﴾ يفيد التعظيم والنوعية معاً، فهي من نوع من الألواح غريب وعظيم، وكذلك يُقال في (الدسر) [5].

وقد لحظ الدكتور محمد أبو موسى معنى آخر مضاداً لهذا المعنى بقوله: "الكناية عن السفينة بذات الألواح والدسر ليس بياناً لمكانتها وقوتها وأنها يأمن من فيها، وإنما هو تهوين لها، وأنها لا تحفظ أحداً، وإنما كان الحفظ بعناية الله وحدها، وكأنهم في وسط هذا الموج الهادر الذي ابتلع الحياة والأحياء آمنون وهم على ألواح لا تُغني عنهم من الأمر شيئاً، لأن عناية الله كانت هي التي تحفظ، وفي هذا تكريم لهؤلاء الذين آمنوا، وأنهم لم ينجوا بسفينة ناجية، وإنما نجوا على سطوح ألواح هينة" [6].

وفي هذا يتجلى بيان الكرامة التي كانت من الله لنوح والذين معه ورحمته بهم في ذلك الموقف وهوله العظيم الذي أحاط بالأحياء والحياة.

---

(1) سورة القمر، الآية: 13، وينظر: السور الآتية: الشورى، الآية: 32، والذاريات: 3، والرحمن، الآية 24، والحاقة، الآية: 11 وفيها كنايات عن السفينة بوصفها آية من آيات الله وتجلي صورة من صور رحمة الله بالناس.

(2) الكشاف: 4 / 345.

(3) سورة القمر، الآيات: 11 ـ13.

(4) سورة المؤمنون، من الآية: 27.

(5) ينظر: التصوير البياني دراسة تحليلية لمسائل البيان، ص 417 ـ418.

(6) التصوير البياني دراسة تحليلية لمسائل البيان، ص 418.

(5) كنايات أخرى:

يضم هذا المبحث عدة كنايات، كل كناية تنفرد بموضوع معين، وفيما يأتي عرض لها:

التنشئة في الحلية وفي الخصام غير مبين:

وردت هذه الكناية عن الإناث في قوله ـ تعالى ـ: ﴿ أَوَمَن يُنَشَّؤُا فِي الْحِلْيَةِ وَهُوَ فِي الْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ ﴾ [1] كناية عن موصوف وهي (المرأة)، وقد أبرزت هذه الكناية في المرأة صفات معينة، وهي صفات ذوات دلالة مهمة في سياق الآيات التي تشكلت فيها الكناية، ويحسن بنا ايرادها ليتجلى معنى الكناية بوضوح: ﴿ وَجَعَلُوا لَهُ مِنْ عِبَادِهِ جُزْءًا إِنَّ الْإِنسَانَ لَكَفُورٌ مُّبِينٌ ۞ أَمِ اتَّخَذَ مِمَّا يَخْلُقُ بَنَاتٍ وَأَصْفَاكُم بِالْبَنِينَ ۞ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَٰنِ مَثَلًا ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ۞ أَوَمَن يُنَشَّؤُا فِي الْحِلْيَةِ وَهُوَ فِي الْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ ﴾ [2].

فالكناية تشير إلى أن النعومة والرخاوة من صفات النساء، وفي ذلك رمز إلى أن هاتين الصفتين ليستا من أوصاف الرجال الذين أعدوا للمجالدة وتعمير الأرض، فالنشءُ في الزينة والنعومة من المعايب والمذام للرجل، وأنها من صفة المرأة، فعلى الرجل أن يتجنب ذلك ويأنف منه [3] وكون (المرأة) تنشأ في الحلية فهي مشغولة بظواهر الأمور وزينتها. وفي الكناية بيان لتجاوزهم وغبنهم حين جعلوا الاناث جزءاً من الرحمن وبضعةً منه ـ تعالى عمّا يقولون عُلُوّاً كَبِيراً ـ وهذا يتنافى مع الجبروت والملكوت وسيطرة الربوبية، والعرب أعرف أقوام الأرض بما تنطوي عليه المرأة من الضعف والعجز، وما تحتاج إليه من الحياطة والحماية، وحياة الحرب والغارة التي كانت قطعة من وجودهم لم يكن للمرأة فيها بلاء، ثم يجعلونها مثلاً للرحمن وهم ﴿ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِالْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ [4] ﴾ [5].

---

(1) سورة الزخرف، الآية: 18.

(2) سورة الزخرف، الآيات: 15 ـ18.

(3) ينظر: الكشاف: 4 / 192، وينظر: التصوير البياني دراسة تحليلية لمسائل البيان، ص 418 ـ 419.

(4) سورة النحل، الآية: 58.

(5) التصوير البياني دراسة تحليلية لمسائل البيان، ص 419.

﴿ وَهُوَ فِي ٱلْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ ﴾ تجلي صفة أخرى للموصوف الذي يتربّى في الزينة والنعمة، وهو إذا احتاج إلى مجاثاة الخصوم ومجاراة الرجال. كان غير مبين، ليس عنده بيان، ولا يتأتى ببرهان يحتج به من يخاصمه [(1)] وذلك لضعفهنّ فطرة عن الرجال.

وبذلك يبرز عجز الموصوف وضعفه في التعبير الكنائي بإثبات شاهده ودليله من الواقع الذي يعايشونه، ومنطقهم الذي يؤمنون به، فيتجلى ظلمهم وغبنهم، فضلاً عن شركهم بالله ﷻ حين يجعلون له ممّا خلق جزءاً من المخلوقين.

تطهير الثياب:

جاءت هذه الكناية خطاباً للرسول ﷺ في قوله ـ تعالى ـ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ۞ قُمْ فَأَنذِرْ ۞ وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ ۞ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ﴾ [(2)].

﴿ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ﴾ كناية، والمعنى القريب لها هو: أن الله ﷻ أمر رسوله ﷺ بأن تكون ثيابه طاهرة من النجاسات، لأن طهارة الثياب شرط في الصلاة لا تصح إلاّ بها [(3)]، والمؤمن طيّب طاهر، لا يليق منه أن يحمل الخبيث. وقد كان المشركون لا يتطهّرون، فأمره الله أن يتطهّر وأن يطهّر ثيابه [(4)].

أما المعنى البعيد المُكنى عنه، فهو (القلب) كما قال ابن عباس (رضي الله عنهما): كَنى بالثياب عن القلب والمعنى وقلبك فطهّر من الاثم والمعاصي بقول غيلان:

وإنّي بحمـــــد الله لا ثوبَ فاجرٍ لَبِســـــتُ ولا من غَدْرَةٍ أتقنّعُ [(5)]

وتقول العرب: "فلان طاهر الثياب وطاهر الجيب والذيل والأردان إذا وصفوه بالنقاء من المعايب ومدانس الأخلاق، وفلان دنس الثياب للغادر، وذلك لأن الثوب يلابس الانسان ويشتمل عليه، فكنّي به عنه. ألا ترى إلى قولهم: أعجبني زيد ثوبه، كما يقولون: أعجبني زيد عقله وخلقه، ويقولون المجد في ثوبه، والكرم تحت حلته، يكنون عن نسبة المجد والكرم إليه. ولأن الغالب أن من طهّر باطنه ونقّاه عني بتطهير الظاهر وتنقيته، وأبى إلاّ اجتناب الخبث وإيثار

---

(1) الكشاف: 4 / 191.
(2) سورة المدثر، الآيات: 1 ـ4.
(3) ينظر: الكشاف: 4 / 516.
(4) صفوة التفاسير: 3 / 474.
(5) جامع البيان في تفسير القرآن: 29 / 91. وينظر: التفسير الكبير: 30 / 193.

الطهر في كل شيء"[1] فلما كان الثوب كالشيء الملازم للانسان، جعلوه كناية على سبيل المجاورة، وكناية المجاورة هي ـ كما عرّفها البلاغيون ـ أن نريد ذكر الشيء فنتركه إلى ما جاوره[2] وجعل الرازي مردّ حسن هذه الكناية إلى هذه المجاورة بين لفظ الكناية والمعنى المكنى عنه[3]. كما يتجلى حسن الكناية من حيث المعنى في ملاءمتها لسياق الانذار الذي جاءت فيه، فطهارة الموصوف (القلب) هي الحالة المناسبة للتلقّي من الملأ الأعلى، فالطهارة هي ألصق شيء بطبيعة الرسالة، وهي ضرورية لملابسة الانذار والتبليغ[4].

البهتان المُفترى بين اليدين والرجلين:

وردت هذه الكناية في قوله ـ تعالى ـ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُؤْمِنَٰتُ يُبَايِعْنَكَ عَلَىٰٓ أَن لَّا يُشْرِكْنَ بِٱللَّهِ شَيْـًٔا وَلَا يَسْرِقْنَ وَلَا يَزْنِينَ وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَٰدَهُنَّ وَلَا يَأْتِينَ بِبُهْتَٰنٍ يَفْتَرِينَهُۥ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ وَلَا يَعْصِينَكَ فِى مَعْرُوفٍ فَبَايِعْهُنَّ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُنَّ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾[5].

﴿ بِبُهْتَٰنٍ يَفْتَرِينَهُۥ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ ﴾ كناية عن موصوف، قال ابن عباس (رضي الله عنهما): "لا يلحقن بأزواجهن غير أولادهن"[6] وقال الزمخشري: "كانت المرأة تلتقط المولود فتقول لزوجها: هو ولدي منك، كنى بالبُهتان المُفترى بين يديها ورجليها عن الولد الذي تلصقه بزوجها كذباً، لأن بطنها الذي تحمله فيه بين اليدين، وفرجها الذي تلده به بين الرجلين"[7] فالموصوف هو الولد اللقيط، وليس المراد الزنا وذلك لتقدمه في السياق بالنهي صريحة ﴿ وَلَا يَزْنِينَ ﴾ ولعل هذا التحفظ ـ بعد المبايعة على عدم الزنا ـ كان للحالات الواقعة وتشتبه من أن تبيح المرأة نفسها لعدة رجال، فإذا جاءت بولد، نظرت أيُّهم أقرب به شبهاً فألحقته به، وربما اختارت هي أحسنهم فألحقت به ابنها وهي تعلم من هو أبوه! والكناية تشمل هذه الحالة وغيرها من كل

(1) الكشاف: 4 / 516. وينظر: صفوة التفاسير: 3 / 474، والمنتخب من كنايات الأدباء وإشارات البلغاء، ص 8.
(2) ينظر: المثل السائر: 3 / 58.
(3) التفسير الكبير: 30 / 192.
(4) ينظر: في ظلال القرآن: 8 / 360.
(5) سورة الممتحنة، الآية: 12.
(6) الاتقان في علوم القرآن: 2 / 47.
(7) الكشاف: 4 / 415، وينظر: روح المعاني: 9 / 57.

بهتان مزور يدّعى، ولعل ابن عباس (رضي الله عنهما) خصصه بذلك المعنى لمناسبة واقعة وتتذاك [1].

ومن ثم نلحظ من الكناية والسياق مدى اهتمام القرآن بالمرأة إذ يرتفع بها إلى حيث تحقق إنسانيتها إذا ما تحققت في واقعها باجتناب ما ينهى عنه القرآن.

(1) في ظلال القرآن: 8 / 70.

الخاتمة

بعد أن شارفت ـ بحمد الله تعالى ـ نهاية المطاف في كتابة هذا؛ وقد كان تجربة عظيمة ممتعة في رحاب القرآن العظيم،وجدتني أقف على نتائج تمخّض عنها، أجملها بما هو آتٍ:

1 ـ تبيّن لنا ـ خلال المهاد ـ أن الكناية في اللغة هي عدول عن لفظ إلى آخر دال عليه،وهذا العدول لا يعني إخفاء المعنى المقصود للإيهام والتضليل كما هو في (التورية)، ولا يعني ـ أيضاً ـ توخي الجمال والتفنن والتوسع في التعبير اللغوي، أو ارادة غرض مما يرمي إليه سياق العبارة حسب، وهو بالضرورة يجانب إبراز المعنى واظهاره وكشفه فينقلب التعبير إلى تعبير مباشر يقرّر معناه بطريقة مباشرة، وإنما يعني أنّ المعنى المكنى عنه ليس بالواضح وضوح المذكور صراحةً، ولا هو بالخفي المضلِّل الذي لا تكاد تتبيّنه بالتأمل وإمعان النظر، وإنما هو أشبه ما يكون مكسواً بثوب رقيق شفاف يُوحي بالمعنى ولا يباشر به يُلمِّح إليه ولا يقرِّره.

أما الكناية في الاصطلاح فقد أسهم جمع غفير من العلماء وبخاصة أصحاب البلاغة في تطوير دلالاتها الاصطلاحية حين استقرت مصطلحاً عند المتأخرين منهم.

ولاحظنا في المهاد أن المفهوم اللغوي للكناية هو الطابع الأساس لها إلى عصر قُدامة بن جعفر (ت 337 هـ) حيث أُريد بها غالباً (الستر والإخفاء) وإنْ لم تخلُ من العمق والنضج ومن بعض الملاحظات التي حددت التعريف الاصطلاحي،ثم وجدنا أنها قد تطورت من المفهوم اللغوي إلى المفهوم الاصطلاحي عند قُدامة، فهو أول من عرّفها باسم (الإرداف) ولم يسمّها كنايةً، كما فعل أبو هلال العسكري، وابن سنان الخفاجي، وعبد القاهر الجرجاني من بعده، والشواهد التي ساقها له هي من شواهد الكناية.

وذهب المهاد إلى أنّ الكناية تعبير مجازي وهو ما ذهب إليه أكثر علماء البيان،وذلك لأن الكناية من أساليب التعبير غير المباشرة، وما يُراد منها غير ما يدل عليه ظاهر اللفظ وهو المعنى الحقيقي، وإنّما المقصود معنى آخر يختفي وراء ظاهر اللفظ الكنائي ويرتبط به، وما دام المُراد ليس الحقيقة المؤداة بظاهر اللفظ، فالأَوْلى أن تكون

الكناية من المجاز، فضلاً عن أن هناك ألواناً من الكناية يتعذّر فهم معناها الحقيقي أو إيراده، ويتضح ذلك بخاصة مع الكناية بالتمثيل.

وتبيّن أن التعريض هو لون من ألوان الكناية، أو طريقة متميّزة من طرقها له خاصية فنية في التعبير عن المعنى إذا جاء في سياقه المعيّن النابع من الموقف الخاص الذي يُقال فيه الكلام، وأن دلالة التعريض هي أخفى من دلالة الألوان الأخرى من الكناية كالإرداف والتمثيل والتلويح والإيماء والإشارة، لأن دلالته تتحقّق من جهة المفهوم، ودلالتها لفظية وضعية من جهة المجاز، وأن التعريض يختصّ باللفظ المركب وأن صور الكناية الأخرى تشمل اللفظ المفرد والمركب معاً.

وفي ضوء الوسائط بين المَكني به والمكني عنه قرباً أو بُعداً أو خفاءً أو جلاءً كان تقويم البلاغيين لأسلوب الكناية، إذ جعلوا معيار جودة الكناية راجعاً إلى هذه الوسائط في بيانها ووضوحها في الدلالة على المعنى المقصود، وعدوّا ذلك شرطاً من شروط البلاغة. وقد أسّس البلاغيون المتأخرون مصطلحات في ضوء هذه الوسائط التي توصلنا إلى المكنى عنه، فبنوا على ذلك خمسة أنواع هي: التعريض والتلميح والإيماء والإشارة والرمز.

كما نظر البلاغيون في طبيعة (المكنى عنه) الذي يتوارى خلف سجف الكناية فجعلوه ثلاثة أضرب، وتبعاً لذلك فإن الكناية أنواع ثلاثة: الكناية عن الصفة، والكناية عن الموصوف، والكناية عن النسبة.

وكل ما ذكروه من هذه الأضرب هو صور بديلة لازمة للمعنى الحقيقي المقصود يتميز الواحد من الآخر بسمة لغوية وفنية في التعبير عن الأفكار والمعاني بحيوية وقوة وتأثير، لأن الكناية من الأساليب البيانية التي تتسم بالإيجاز وغير المباشرة في التعبير عن المعنى، وهي تؤدي المعنى بذكر لوازم حسية تكون دليلاً وبرهاناً في إثبات المعنى، ومن ثم كانت الكناية أبلغ من التصريح وأوقع في النفس منه وآكد في إثبات المعنى في الذهن والنفس وهذا سرّ بلاغتها.

ولاحظ المهاد أن المفسرين واللغويين والنحاة والأدباء والبلاغيين قد عُنوا جميعاً بالكناية القرآنية في الاستشهاد بها، وبيان المعاني التي تنطوي عليها، إلاّ أن ما ذكروه من الكنايات القرآنية كان محدوداً، إذ يكرر ـ على الأغلب ـ اللاحق منهم ما ذكره

السابق، لذلك ظلّت الكناية القرآنية بحاجة إلى استقصاء شامل في القرآن كله، استقصاء يجمعها على صعيد واحد لدراستها دراسة موضوعية شاملة تبيّن خصائصها التعبيرية والتصويرية بوصفها أسلوباً من أساليب القرآن البليغة المعجزة.

2 ـ وفي الفصل الأول (الكناية الجنسية) لاحظ: دقّة القرآن الكريم في استخدامه الكناية، إذ إن كل الكنايات الجنسية تشترك في المعنى المكنى عنه الرئيس (الجماع)، وتفترق كل كناية بإيحاء خاص ينسجم مع السياق الذي تكون فيه،فهي موضوعة في موضعها اللائق بها، وهو وجه من وجوه إعجاز القرآن، ويتجلّى في الكناية الجنسية البعد التهذيبي، فالقرآن بالكناية يتسامى ويترفع عن التصريح بالألفاظ البذيئة المفحشة التي تخدش الشعور وتحطّ من الذوق الإنساني وهو يرتفع بالعلاقة الزوجية إلى أفق كريم ينأى بها عن الصورة الحيوانية الغليظة، ومن مجموع إيحاءات الكناية الجنسية نلحظ إيحاءاً للإنسان بالصورة الإنسانية في المباشرة والالتقاء.

ولاحظنا أنّ ما ورد من الكنايات الجنسية ينطوي على دلالة موحية خاصة ـ إذا ما قُورنت بما ورد في القرآن من ألفاظ صريحة دالّة على الفاحشة كـ (الزنا واللواط) التي تقلّ قلّة ملحوظة إزاء الكنايات الجنسية المشروعة بين الزوجين ـ وتتمثل هذه الدلالة في الحث على تضييق النطق بالفاحش من القول والتداول به في المجتمع، لأن تداوله يعمل على إزالة التحرج من ارتكاب الفاحشة، فتشيع في النفوس ثم تشيع بعد ذلك في المجتمع، فهو بُعد اجتماعي مرتبط بالبُعد التهذيبي، وهما هدف من أهداف القرآن الذي يُحارب شيوع الفاحشة في الواقع، لأنها لا تلبّي الفطرة السليمة، وتعمل على فساد المجتمع.

3 ـ وعلى صعيد الفصل الثاني (الكناية اللونية) أظهر: أن الكناية باللون نوعان:

الأول: ذكر اللفظ الدال على اللون مباشرة في التعبير عن المعاني والمشاهد والمواقف النفسية المتنوعة، كالكناية باللون الأبيض، والأسود، والأزرق، والأخضر، والأصفر.

والثاني: التعبير عن اللون بصورة غير مباشرة، يدرك فيها اللون من خلال الصورة الكنائية التي يتغلغل فيها اللون فيتداعى للمتلقي بطريقة ذهنية، فيشير بذلك

إلى المعاني والإيحاءات المتنوعة، وتبيّن من عرض أمثلة الكناية باللون بدلالة مباشرة وغير مباشرة أنها كانت غنية بإيحاءاتها، فهي ذات قيمة فنية في تصويرها للمعاني والمشاهد فيما ترسمه من ظلال حول المعنى فتُوحي بأكثر من دلالتها الظاهرة،وهي أكثر ما ترد في مشاهد يوم القيامة بوصفها أسلوباً ذا قوة تعبيرية في تجسيد المعاني النفسية في حيوية وقوة تأثير وإمتاع.

4 ـ وبيّن الفصل الثالث (الكناية النفسية) على نحو جلي الإشارات الوجدانية والمشاعر النفسية التي جسّدتها الكناية بالتصوير الفني المؤثر، والكناية القرآنية لا تقف في معانيها ودلالاتها عند التصوير الحسي، وإنما يُوحي التصوير فيها بتضاعف دلالي معنوي ونفسي مؤثر يقرِّب الأفكار والمعاني إلى الحس والوجدان فتنفعل له النفس انفعالاً من شأنه أن يحدث إستجابة نفسية معينة في المتلقي.

والكناية النفسية تظهر بالتصوير الحسي دخائل النفوس، والمشاعر الباطنة، والانفعالات النفسية في حركات حسية نابضة بالحياة، سواء أكانت هذه الحركة باليد أم بالرأس أم بالعين أم غير ذلك من أعضاء جسم الانسان، فإنها تشير إلى المعاني النفسية المقصودة من ندم وحسرة وغيظ وحقد وجحود وإعراض، وهزيمة وخوف وهلع وفزع، واحتقار واستهانة، وفرح ومسرّة وطمأنينة.تعرض كل هذه المعاني النفسية في سياقات مختلفة وأحوال متباينة في الحياة الدنيا في مواقف متنوعة، وفي الآخرة في مشاهد يوم القيامة المروِّعة.

5 ـ وجلّى الفصل الرابع (الكناية الخُلُقية) موضوعات تتعلّق بقيم خُلُقية إيجابية كانت أم سلبية مثل: الغيبة والنميمة، والبخل والتبذير، والشجاعة والجبن، والتكبر والتواضع، والعفة والصبر على مغريات الحياة الدنيا، وما إلى ذلك من موضوعات تتعلّق بأخلاق الانسان وسلوكه وهو يتحرك ضمن المجتمع الذي يعيش فيه.

والقرآن حين يعرض هذه الموضوعات الخُلُقية ـ على الأغلب ـ لا يعرضها بتعابير ذهنية مجردة وبتقريرية مباشرة، وإنما يعرضها بالأسلوب الكنائي الذي ينهض بنصيبه الفني الكامل في أداء المعاني وتصويرها بطريقة من شأنها أن تحدث الاستجابة الوجدانية المناسبة في السامع أو القارئ وهو يتلقى هذه الموضوعات التي يقصد القرآن الى تثبيتها في نفسه وقلبه أو تنفيره منها.

6 ـ وبيّن الفصل الخامس (الكناية الساخرة) أن السخرية أسلوب عدائي مصوغ بروح الفكاهة عمد إليه القرآن الكريم لتحقيق أغراض قصد إليهـا، والسخرية في القرآن الكريم قد ينظر إليها بعضهم على أنها لا تتفق وجلالة القرآن من حيث إنه كلام الله، لذلك لا يسوِّغون نسبة السخرية بمعناها المعروف إلى الله ﷻ، لكن القرآن بصفته ناطقاً بلسان المسلمين يجعل الصور الساخرة التي ساقها، ومنها (الكنايات الساخرة) يجعلها كأنها صادرة من المسلمين أو ممثِّلة لموقفهم، وذلك لأن القرآن في كل اتجاهاته يحشِّد كل أسلحته وطاقاته ليعزِّز مركز المسلمين ويدفعهم إلى النصر، وفي الوقت نفسه يحطِّم مركز أعداء الاسلام ويدفع بهم إلى الهزيمة أو الشعور بها أو توقعُّها.

لذلك فإن الكنايات الساخرة التي تُمثِّل جانباً ملحوظاً من أسلوب السخرية في القرآن هي ليست أسلوباً تعبيرياً وتصويرياً يبعث على الضحك، وليست هي تهجُماً أو هجاءً أو تهوين شأن الخصم حسب، وإنما هي ـ أيضاً ـ وسيلة حيوية لتحقيق أهداف على جانب كبير من الأهمية سواء من الناحية النفسية أم من الناحية الاجتماعية.

والكناية الساخرة في طبيعتها سلاح يستخدمه القرآن ضد أعداء المسلمين، وهي في ـ الأعم الأغلب ـ تستهدف أئمة الكفـر والشرك الـذين يسـددّون ضرباتهم العدائية للاسلام والمسلمين بكل ما أُوتوا من قـوة.. لذلك ميّزهم القرآن بتعابير كنائية ساخرة تنال منهم نيلاً مؤلماً، إذ نهضت الكناية بوظيفتها الفنية في أداء المعاني والأفكار التي قصد القرآن إليها، ولو جاءت تعابير حقيقية غير الكناية لما استطاعت أن تنهض بما نهضت به الكناية تعبيراً وتصويراً في مواضعها التي اختارها القرآن.

7 ـ أما الفصل السادس (الكناية المعرفية) فقد تناول تلك الكنايات التي تتعلّق بالحواس من سمع وبصر وفؤاد والتي يتم بها تحصيل العلم والمعرفة التي هي أداة هادية إلى الإيمان بالله ﷻ، فيتماز الانسان بها من المخلوقات الأخرى، وبيّن هـذا الفصل من خلال كناياته عالمين متضادين: عالم الإيمان والهُدى وأصحابه المؤمنين، وعالم الكفر والضلال وأصحابه الكافرين الضالين، على التقابل في دلالاتهما الفكرية والنفسية، وقد حقّقت الكنايات المعرفية دلالات عميقة في الحس والشعور، وبقدر بساطة التراكيب الكنائية ووضوحها تكون قوة عطائها وعمق إيحائها في المعاني والأفكار، إذ يتقابل أمام الفكر والنفس عالمان متناقضان في دلالاتهما في صورة بيانية كاشفة تفصل كل عالم من هـذين

العالمين بصفات حسية تشخص رموزاً لا ينقطع إيحاؤها بما أخرجت المعاني والأفكار بحيوية ليس لتقريرها حسب، وإنما لتتوغل دلالاتها في كيـان الانسان ليتملّى معانيها وأفكارها، ولترسّخ معطياتها في الفكر والنفس.

8 ـ وأيقن: أن (الكناية التعريضية) في الفصل السابع هي لون من ألوان الكناية لا تقع إلاّ في التركيب على خلاف ألوان الكناية الأخرى التي تقع في المفردة والتركيب، وهي تفيد القول بلاغة في سياقها، وذلك لأنها تشير بخفاء ومن دون وسائط ولوازم إلى معنى بعيد فتبعث على إثارة الذهن للتعرف على المعنى المُراد، من طريق سياق القول ومقتضياته، ولأنها تمتاز بالإيجاز في التعبير عن المعاني التي تهدف إليها، فهي تحقّق معناها الذي ترمي إليه من طريق المفهوم من السياق وقرائن الأحوال من غير ذكر ما يتعلّق بالطرف المقابل المعرَّض به حفاظاً على مشاعره من الامتهان، لذلك تعدّ من الأساليب البيانية التي تفيض بالأدب القرآني الذي تنطبع به لغته المهذبة تقويماً للخُلُق، وصيانةً للنفس الانسانية من العبث والغيظ والإثارة المؤذية، ولذلك يكون وقع المعنى مؤثراً وأقدر على الاستجابة النفسية المناسبة التي يقصد القرآن إلى إحداثها في النفس الانسانية المتلقية.

9 ـ وبيّن الفصل الثامن (كنايات عن يوم القيامة) أنّ القرآن يستخدم ألفاظاً كنائية متعدّدة في التعبير عن يوم القيامة، وكلها تشير إلى انفراط عقد هذا الكون المنظور، واختلال روابطه وضوابطه التي تُمسك به في هذا النظام البديع الدقيق، وتناثر أجزائه بعد انفلاتها من قيد الناموس الذي يضبطها بقدرة الله وإرادته.

وكشف: عن أنّ كلّ لفظ من هذه الألفاظ الكنائية عن يوم القيامة يجلّي صفة من صفات ذلك اليوم العظيم وأهواله بلفظه وإيقاعه الموسيقي، إذ إنّ الألفاظ الكنائية عن يوم القيامة من الأسماء التي خُتِمَت بتاء التأنيث فانتقلت من الوصفية إلى الأسمية، لذا فهي تفيد العموم والثبوت والشدّة والقهر، كما أنّ التعريف في هذه الألفاظ هو تعريف الجنس لتميزها من بين الأجناس على وجه التخصيص، فيوم القيامة هو يوم عظيم لا تحيط الألفاظ والعبارات بوصف أهواله وأحداثه.. إلاّ أن تعدد هذه الكنايات وتجمعها على صعيد واحد يقرّب إلى الأذهان والقلوب على نحو من التوكيد أهوال ذلك اليوم وشدته على الكون والحياة والانسان، فتحدث الاستجابة

النفسية التي يهدف إليها القرآن، إذ الملاحظ أن هذه الكنايات قد جاءت في سور مكية التي من أبرز أهدافها تأسيس أصول الدين الكبرى في القلوب والنفوس،وهي توحيد الله ﷻ في ألوهيته وربوبيته للكون والخلائق جميعاً، وفي مقدمتها: الانسان الذي كرّمه الله أيّما تكريم وفضّله على كثير ممّن خلق تفضيلاً.

وبيّن الفصل أن هناك كنايات أخرى تتصل بكنايات يوم القيامة تصوِّر شدة ذلك اليوم وكربه على الكافرين في مشاهد يوم القيامة، وكنايات أخرى تتعلّق بمشاهد الناجين والمعذّبين في ذلك اليوم المشهود،مشهد الناجين وهم أصحاب اليمين الذين يؤتون كتبهم باليمين، ومشهد المعذّبين وهم أصحاب الشمال الذين يُؤتون كتبهم بالشمال أو وراء الظهر. فالقرآن يجلي حقيقة (النجاة) من وراء إتيان الكتاب باليمين، وحقيقة (الهلاك) والثبور من وراء إتيان الكتاب بالشمال أو من وراء الظهر،وهما حقيقتان المقصود أن نستيقنهما كما أخبر بهما القرآن الكريم.

10 ـ ثم ينتهي: بالفصل التاسع (كنايات في موضوعات متفرقة)، وقد ضمَّ مجاميع من الكنايات، تشكِّل كلُّ مجموعة منها موضوعاً قائماً بذاته، وتشترك كل مجموعة من الصور الكنائية في معالجة موضوعات يجمعها خيط فكري واحد.

المجموعة الأولى: بعنوان (كنايات عن الشدّة والكرب) اشتركت فيها ثلاث كنايات بإيحاء الشدة والكرب الذي ينتاب الانسان في حياته، والشدة والكرب الذي يواجهه في موته وبعثه، وشدّة وكرب وهو يواجه الحياة، يعرضها القرآن من خلال مواجهة نبي من الأنبياء (عليهم السلام) قومه الظالمين المنحرفين عن الفطرة السوية.

والمجموعة الثانية: (كنايات عن مصارع الغابرين) كعاد وثمود وفرعون التي أهلكها الله بذنوبها، فجعل مصارعهم ذكرى لمن كان له قلب فيعتبر بها..

والمجموعة الثالثة: (كنايات عن العذاب) التي تصوِّرصوراً متنوعة من عذاب الله، منها عذاب أصحاب جهنم الذين يغشاهم عذابها من فوقهم ومن تحت أرجلهم، ومنها عذاب في الحياة الدنيا لأولياء الشيطان..

والمجموعة الرابعة: (كنايات عن الرحمة) وتصوِّر صوراً من رحمة الله الواسعة لعباده..

والمجموعة الخامسة: (كنايات أخرى) تنفرد فيه كل كناية بموضوع معين

وإذ يعرض القرآن هذه الموضوعات في مجاميعها، فإنه يعرضها بالتصوير الكنائي الذي يحتضن الأفكار والمعاني فيؤديها بحيوية وقوة تأثير في المتلقي تعمل على إحداث الاستجابة النفسية التي يهدف إليها القرآن.

هذه أبرز النتائج وأميزها، عسى أن نكون قد وفّقنا في بيانها، وآخر دعوانا أنْ الحمدُ لله ربِّ العالمين.

المصادر والمراجع

- ابن القيم وحسّه البلاغي في تفسير القرآن، د. عبد الفتاح لاشين، دار الرائد العربي، ط 1، بيروت 1402 هـ 1982 م.
- الاتقان في علوم القرآن، السيوطي: جلال الدين عبد الرحمن، تحقيق: محمد أبو الفضل ابراهيم، مكتبة ومطبعة المشهد الحسيني، القاهرة (د. ت).
- الأدب الرمزي، هُنري بير، ترجمة: هنري زُغيب، منشورات عويدات، ط 1، بيروت 1981.
- أساس البلاغة، جار الله محمود بن عمر الزمخشري:عبد الرحيم محمود، مطبعة أولاد اورفائد، ط 1، 1372 هـ 1953 م.
- أسرار البلاغة، الإمام عبد القاهر الجرجاني، صححه وعلّق حواشيه: السيد محمد رشيد رضا، دار المعرفة للطباعة والنشر، بيروت 1398 هـ 1978 م.
- الأسس النفسية لأساليب البلاغة العربية، د. مجيد عبد الحميد ناجي، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، ط 1، بيروت 1404 هـ 1984 م.
- الاسلام والتربية الجنسية، د. وجيه زين العابدين، مكتبة المنار الاسلامية، الكويت (د. ت).
- أسلوب السخرية في القرآن الكريم، د. عبد الحليم حفني،الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1978.
- الأسلوب الكنائي نشأته تطوره بلاغته، د. محمود السيد شيخون، الناشر: مكتبة الكليات الأزهرية، ط 1، القاهرة 1398 هـ 1978 م.
- إصلاح المنطق، لابن السكّيت، شرح وتحقيق: أحمد محمد شاكر وعبد السلام محمد هارون، دار المعارف بمصر، ط 3، 1970.
- أصول البيان العربي رؤية بلاغية معاصرة ، د. محمد حسين علي الصغير، مطبعة دار الشؤون الثقافية، بغداد 1986 (سلسلة كتب شعرية).

- الإعجاز البياني للقرآن ومسائل ابن الأزرق، د. عائشة عبد الرحمن بنت الشاطئ، مطابع دار المعارف بمصر 1971.
- الإعجاز الطبي في القرآن، د. السيد الجميلي، مطبعة أشبيلية، بغداد، (د. ت).
- إعجاز القرآن البياني بين النظرية والتطبيق، د. حفني محمد شرف، مطابع الأهرام التجارية، 1390 هـ 1970 م.
- الأمثال في القرآن الكريم، د. محمد جابر الفياض، دار الشؤون الثقافية العامة، ط 1، بغداد 1988.
- أنوار الربيع في أنواع البديع، ابن معصوم المدني، حققه وترجم لشعرائه: شاكر هادي شكر، مطبعة النعمان، ط 1، النجف 1389 هـ 1969 م.
- الإيضاح في علوم البلاغة، الخطيب القزويني، شرح وتعليق وتنقيح: د. محمد عبد المنعم خفاجي، الشركة العالمية للكتاب، بيروت 1989.
- إيقاع اللون في القصيدة العربية الحديثة، د. علوي الهاشمي (مهرجان المربد الشعري التاسع)، ضمن (الشعر العربي عند نهايات القرن العشرين)، دار الحرية للطباعة، بغداد 1410 هـ 1989 م.
- البحر المحيط، الأندلسي: أثير الدين محمد بن يوسف بن حيان، الناشر: مكتبة ومطابع النصر الحديثة، بيروت (د. ت).
- البديع، عبد الله بن المعتز، نشر وتعليق: اغناطيوس كراتشقوفسكي (د. ت).
- بديع القرآن، ابن أبي الأصبع المصري، تحقيق: حفني محمد شرف، دار نهضة مصر للطبع والنشر، القاهرة، (د. ت).
- البرهان في علوم القرآن، بدر الدين محمد بن عبد الله الزركشي، تحقيق: محمد أبو الفضل ابراهيم، عيسى البابي الحلبي وشركاه، ط 2، (د. ت).
- البرهان في وجوه البيان، أبو الحسين اسحاق بن ابراهيم بن سليمان بن وهيب الكاتب، تحقيق: د. أحمد مطلوب، ود. خديجة الحديثي، ط 1، بغداد 1387 هـ 1967م.

- بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز، مجد الدين محمد بن يعقوب الفيروزآبادي، تحقيق: محمد علي النجار، القاهرة 1385 هـ 1965 م.
- البلاغة تطور وتاريخ، د. شوقي ضيف، دار المعارف بمصر، ط 2، (د. ت).
- البلاغة العربية المعاني والبيان والبديع ، د. أحمد مطلوب، وزارة التعليم العالي و: العلمي، الجمهورية العراقية، ط ، بغداد 1400 هـ 1980.
- البلاغة عند الجاحظ، د. أحمد مطلوب، منشورات وزارة الثقافة والاعلام، الجمهورية العراقية، دار الحرية للطباعة، بغداد 1403 هـ 1983م (سلسلة دراسات 342).
- البلاغة فنونها وأفنانها علم المعاني ، د. فضل حسن عباس،دار الفرقان، ط 1، عمّان 1405 هـ 1985 م.
- البلاغة والتطبيق، د. أحمد مطلوب، د. كامل حسن البصير، مطبعة دار الكتب، ط 1، جامعة الموصل 1982.
- البلاغة الواضحة، علي الجارم ومصطفى أمين، دار المعارف بمصر، ط 7، (د. ت).
- بناء الصورة الفنية في البيان العربي موازنة وتطبيق ، د. كامل حسن البصير، مطبعة المجمع العلمي العراقي 1407 هـ 1987 م.
- البيان والتبيين، أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، مكتبة الخانجي، القاهرة 1968 م.
- تأويل مشكل القرآن، أبو عبد الله بن مسلم بن قتيبة، تحقيق: السيد أحمد صقر، ط 3، المدينة المنورة 1401 هـ 1981 م.
- التبيان في البيان، الطيبي: شرف الدين الحسين بن محمد بن عبد الله، تحقيق: د. توفيق الفيل وعبد اللطيف لطف الله، ذات السلاسل للطباعة والنشر، ط 1، الكويت 1476 هـ 1986.
- التبيان في تفسير القرآن، الطوسي: أبو جعفر محمد بن الحسن، صححه ورتبه: أحمد شوقي الأمين وأحمد حبيب قصير، مطبعة النعمان، النجف الأشرف، (د. ت).
- تحرير التحبير في صناعة الشعر والنثر وبيان إعجاز القرآن،ابن أبي الأصبع المصري، تحقيق: د. حفني محمد شرف، مطابع شركة الاعلانات الشرقية، القاهرة 1383 هـ 1963 م.

- التشبيهات القرآنية والبيئة العربية، واجدة مجيد الأطرقجي، منشورات وزارة الثقافة والاعلام، الجمهورية العراقية، دار الحرية للطباعة، 1978، (سلسلة دراسات 143).
- التصوير البياني، حفني محمد شرف، مكتبة الشباب، المطبعة العثمانية، ط 2، 1973.
- التصوير البياني دراسة تحليلية لمسائل البيان ، د. محمد أبو موسى، دار التضامن للطباعة، ط 2، القاهرة 1400 هـ 1980.
- التصوير الفني في القرآن، سيد قطب، (د. ت)، (د. ط).
- التعبير القرآني رؤية بلاغية نقدية ، د. شفيع السيد، دار غريب للطباعة، القاهرة 1977.
- التعبير الفني في القرآن، د. بكري شيخ أمين، دار الشروق، ط 4، القاهرة، 1400 هـ 1980 م.
- التعابير القرآنية والبيئة العربية في مشاهد القيامة، ابتسام مرهون الصفار، مطبعة الآداب، ط 1، النجف 1378 هـ 1967 م.
- التفسير الاسلامي للتاريخ، د. عماد الدين خليل، مطبعة أوفسيت الميناء، ط 2، بغداد 1978.
- تفسير أبي السعود المسمّى إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم، لأبي السعود محمد بن محمد العمادي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، (د. ت).
- التفسير البياني للقرآن الكريم، د. عائشة عبد الرحمن، دار المعارف، ط 6، القاهرة 1982.
- تفسير التحرير والتنوير، محمد الطاهر بن عاشور، الدار التونسية للنشر، المطبعة الرسمية للجمهورية التونسية، 1973 م.
- تفسير الجلالين، جلال الدين محمد بن أحمد المحلي وجلال الدين عبد الرحمن السيوطي، مطبوعات مكتبة محمد نهاد هاشم الكتبي، (د. ت)، بهامش (القرآن الكريم).
- تفسير القرآن العظيم، أبو الفداء اسماعيل بن كثير القرشي الدمشقي، دار الجيل، ط 1، بيروت 1408 هـ 1988 م.
- التفسير الكبير (مفاتيح الغيب)، فخر الدين الرازي، دار الكتب العلمية، ط 2، (د. ت).

- تفسير المنار (تفسير القرآن الكريم)، محمد رشيد رضا، مطبعة المنار بمصر، ط 1، 1346 هـ.
- تلخيص البيان في مجازات القرآن، الشريف الرضي، تحقيق: محمد عبد الغني حسن، دار إحياء الكتب العربية، البابي الحلبي، ط 1، القاهرة 1374 هـ 1955 م.
- التلخيص في علوم البلاغة، القزويني: جلال الدين محمد بن عبد الرحمن القزويني الخطيب، ضبطه وشرحه: عبد الرحمن البرقوقي، دار الكتاب العربي، بيروت، (د. ت).
- تهذيب الأخلاق، يحيى بن عدي التكريتي، تحقيق وترجمة: د. ناجي التكريتي، وزارة التعليم العالي و: العلمي، بغداد 1992.
- جامع البيان في تفسير القرآن، أبو جعفر محمد بن جرير الطبري، دار المعرفة للطباعة والنشر، ط 2، بيروت 1392 هـ 1972 م.
- الجامع الكبير في صناعة المنظوم من الكلام والمنثور، ابن الأثير: ضياء الدين ابن الأثير، تحقيق: د. مصطفى جواد و د. جيل سعيد، المجمع العلمي العراقي، بغداد 1375 هـ 1956 م.
- الجامع لأحكام القرآن، أبو عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي، الناشر: دار الكاتب العربي للطباعة والنشر، القاهرة 1387 هـ 1967 م.
- جرس الألفاظ ودلالتها في: البلاغي والنقدي عند العرب، د. ماهر مهدي هلال، الجمهورية العراقية، وزارة الثقافة والاعلام، دار الرشيد للنشر 1980 (سلسلة دراسات رقم 195).
- جواهر البلاغة في المعاني والبيان والبديع، أحمد الهاشمي، منشورات دار إحياء التراث العربي، ط 12، بيروت، (د. ت).
- جوهر الكنز تلخيص كنز البراعة في أدوات ذوي البراعة ، نجم الدين أحمد بن اسماعيل بن الأثير الحلبي، تحقيق: د. محمد زغلول سلام، الناشر: منشأة المعارف بالأسكندرية، (د. ت).

- حلية المحاضرة في صناعة الشعر، محمد بن الحسن الحاتمي، تحقيق: د. جعفر الكتاني، الجمهورية العراقية، وزارة الثقافة والاعلام، دار الرشيد للنشر، 1979، (سلسلة كتب التراث 82).
- الحيوان، أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ،تحقيق وشرح: عبد السلام محمد هارون، ط 3، 1388 هـ 1969 م.
- خزانة الأدب وغاية الأرب، ابن حجة الحموي، دار القاموس الحديث للطباعة والنشر، بيروت، (د. ت).
- الخلاصة في مذاهب الأدب الغربي، د. علي جواد الطاهر، منشورات دار الجاحظ للنشر، الجمهورية العراقية، دار الحرية للطباعة، بغداد، 1983، (الموسوعة الصغيرة 121).
- دراسات في علم النفس الاسلامي، د. محمود البستاني، دار البلاغة، ط 1، بيروت 1408 هـ 1988 م.
- دلائل الإعجاز، للإمام عبد القاهرالجرجاني، تعليق وشرح: محمد عبد المنعم خفاجي، مطبعة الفجالة الجديدة، ط 1، القاهرة 1389 هـ 1969 م.
- دلالات التراكيب دراسة بلاغية ، د. محمد أبو موسى، دار المعلم للطباعة، ط 1، القاهرة 1399 هـ 1979 م.
- دفاع عن البلاغة، أحمد حسن الزيات، مطبعة الرسالة، القاهرة 1945.
- رسائل الجاحظ، تحقيق وشرح: عبد السلام محمد هارون، الناشر: مكتبة الخانجي بالقاهرة، (د. ت).
- الرمزية في الأدب العربي، د. درويش الجندي، دار نهضة مصر للطبع والنشر، مطبعة نهضة مصر، القاهرة 1972.
- الرمزية والأدب العربي الحديث، أنطون غطاس كرم، دار الكشاف للنشر والطباعة والتوزيع، بيروت 1949.
- الرمزية والرومانتيكية في الشعر اللبناني، أميّة حمدان، منشورات وزارة الثقافة والاعلام، الجمهورية العراقية، دار الرشيد للنشر 1989، (سلسلة دراسات 267).

▪ الرؤية البيانية عند الجاحظ، ادريس بلمليح، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء 1404 هـ 12984 م.
▪ روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، لأبي الفضل شهاب الدين السيد محمود الآلوسي البغدادي، المطبعة الكبرى الميرية، ط 1، مصر، 1310 هـ .
▪ الروض المريع في صناعة البديع، ابن البّناء المراكشي العددي، تحقيق: رضوان بنشقرون، نشر وطبع دار النشر المغربية، الدار البيضاء 1985.
▪ سر الفصاحة، ابن سنان الخفاجي، شرح وتصحيح: عبد المتعال الصعيدي، مكتبة ومطبعة محمد علي صبيح وأولاده1372 هـ 1953 م.
▪ سورة الواقعة ومنهجها في العقائد، محمود محمد غريب، الدار العربية للطباعة، بغداد 1977.
▪ سيكولوجية الفكاهة والضحك، د. زكريا ابراهيم، دار مصر للطباعة، (د. ت).
▪ الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية، اسماعيل بن حماد الجوهري، أحمد عبد الغفور عطّار، دار العلم للملايين، ط 4، بيروت 1407 هـ 1987م.
▪ صحيح البخاري، البخاري: أبو عبد الله محمد بن اسماعيل البخاري، مطبوعات محمد علي صبيح وأولاده بميدان الأزهر بمصر، (د. ت).
▪ صفوة البيان لمعاني القرآن، حسنين محمد مخلوف، ط 3، (د. ت).
▪ صفوة التفاسير، محمد علي الصابوني، دار القرآن الكريم، ط 2، بيروت، المجلد الأول طبع في 1400 هـ 1980 م. والثاني والثالث في 1401 هـ 1981 م.
▪ الصورة الأدبية، د. مصطفى ناصف، القاهرة 1378 هـ 1958 م.
▪ الصورة الفنية في المثل القرآني دراسة نقدية وبلاغية ، د. محمد حسين علي الصغير، الجمهورية العراقية، وزارة الثقافة والاعلام، دار الرشيد للنشر 1981، (سلسلة دراسات رقم 288).
▪ الطب النبوي، ابن قيّم الجوزية، صححه: عبد الغني عبد الخالق، مطبعة منير، ط 2، 1985.
▪ الطبيعة في القرآن الكريم، د. كاصد ياسر الزيدي، دار الرشيد، منشورات وزارة الثقافة والاعلام، العراق، 1980، (سلسلة دراسات رقم 236).

- الطراز المتضمّن لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز، العلوي: يحيى بن حمزة بن علي العلوي اليمني، مطبعة المقتطف بمصر 1332 هـ 1914 م.
- عبد القاهر الجرجاني بلاغته ونقده، د. أحمد مطلوب، ط 1، بيروت، 1393 هـ 1973 م.
- عروس الأفراح في شرح تلخيص المفتاح، بهاء الدين السبكي، ضمن شروح التلخيص، مطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاه بمصر، (د. ت).
- العقد الفريد، ابن عبد ربّه: أبو عمر أحمد بن محمد بن عبد ربه الأندلسي، شرحه وضبطه وصححه: أحمد أمين وآخرون، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، ط 2، بيروت 1375 هـ 1956 م.
- العلاقات الجنسية غير الشرعية وعقوبتها في الشريعة والقانون، د. عبد الملك عبد الرحمن السعدي، دار الأنبار للطباعة والنشر، ط 3، 1410 هـ 1989 م.
- علم البيان، د. عبد العزيز عتيق، دار النهضة العربية للطباعة والنشر، بيروت، (د. ت).
- علم البيان دراسة تاريخية فنية في أصول البلاغة العربية ، د. بدوي طبانة، المطبعة الفنية الحديثة، ط 4، 1977.
- علم البيان في الدراسات البلاغية، علي البدري، مكتبة النهضة المصرية، ط 2، 1404 هـ 1984 م.
- علم عناصر الفن، فرج عبو، دار دلفين للنشر، إيطاليا، ميلانو 1982.
- العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده،ابن رشيق القيرواني: أبو علي الحسن بن رشيق، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، دار الجيل، ط 4، بيروت 1972.
- الفروق اللغوية، أبو هلال العسكري، ضبطه وحققه: حسام الدين القدسي، دار الكتب العلمية، بيروت، (د. ت).
- فقه اللغة العربية، د. كاصد ياسر الزيدي، دار الكتب للطباعة والنشر، جامعة الموصل 1407 هـ 1987 م.
- الفلسفة الخُلُقية نشأتها وتطورها، د. توفيق الطويل،الناشر: دار المعارف بالأسكندرية، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة 1960.

- الفوائد المشوق إلى علوم القرآن وعلم البيان، ابن قيّم الجوزية، القاهرة 1327 هـ .
- في البنية والدلالة رؤية لنظام العلاقات في البلاغة العربية، د. سعد أبو الرضا، الناشر: منشأة المعارف بالأسكندرية 1987.
- في ظلال القرآن، سيد قطب، دار إحياء التراث العربي، ط 5، بيروت، 1386 هـ 1967 م.
- القاموس المحيط، مجد الدين محمد بن يعقوب الفيروزآبادي، مطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر، 1371 هـ 1952م.
- القرآن إعجازه وبلاغته، د. عبد القادر حسين، مطبعة الأمانة، مصر 1975 م.
- القرآن والصورة البيانية، د. عبد القادر حسن، عالم الكتب، ط 2، بيروت، 1405 هـ 1985 م.
- القزويني وشروح التلخيص، د. أحمد مطلوب، مطابع دار التضامن، ط 1، بغداد ، 1387 هـ 1967 م.
- الكامل، المبرّد: أبو العباس محمد بن يزيد، عارضه بأصوله وعلّق عليه: محمد أبو الفضل ابراهيم والسيد شحاتة، دار نهضة مصر للطبع والنشر، مطبعة نهضة مصر، القاهرة، (د. ت).
- كتاب البرصان والعرجان والعميان والحولان، الجاحظ: أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ، تحقيق وشرح: عبد السلام محمد هارون، منشورات وزارة الثقافة والاعلام، الجمهورية العراقية، دار الطليعة للطباعة والنشر، بيروت 1982، (سلسلة كتب التراث).
- كتاب سيبويه، أبي بشر عمرو بن عثمان بن قنبر، تحقيق وشرح: عبد السلام محمد هارون، دار غريب للطباعة، ط 3، القاهرة 1408 هـ 12988 م.
- كتاب الصناعتين، العسكري: أبو هلال، الحسن بن عبد الله بن سهل، تحقيق: علي محمد البجاوي ومحمد أبو الفضل ابراهيم، دار احياء الكتب العربية، البابي الحلبي، ط 1، القاهرة 1371 هـ 1952 م.

- كتاب العين، أبو عبد الرحمن الخليل بن أحمد الفراهيدي، تحقيق: د. مهدي المخزومي و د. ابراهيم السامرائي، دار الشؤون الثقافية العامة، وزارة الثقافة والاعلام، دار الحرية للطباعة، بغداد 1986.
- كتاب المُلَمَّع، صنعة أبي عبد الله الحسين بن علي النمري، تحقيق: وجيهة أحمد السُّطل، مطبعة زيد بن ثابت، دمشق 1396 هـ 1976 م.
- الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، جار الله محمود بن عمر الزمخشري، المجلد الأول، دار الفكر، بيرت. والمجلدات الثاني والثالث والرابع، ترتيب وضبط وتصحيح: مصطفى حسين أحمد، مطبعة الاستقامة، ط 2، القاهرة 1373 هـ 1953 م.
- الكناية أساليبها ومواقعها في الشعر الجاهلي ، محمد الحسن علي الأمين أحمد، بيروت 1405 هـ 1985 م.
- الكناية والتعريض ضمن رسائل الثعالبي أو نثر النظم وحل العقد ، أبو منصور عبد الملك بن محمد بن اسماعيل الثعالبي، قدّم له: علي الخاقاني، دار صعب، بيروت، (د. ت).
- لباب النقول في أسباب النزول، جلال الدين عبد الرحمن السيوطي، بهامش تفسير الجلالين، مطبوعات مكتبة محمد نهاد هاشم الكتبي، (د. ت).
- لسان العرب، ابن منظور: أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم، دار صادر، (د. ت).
- لغة المنافقين في القرآن، د. عبد الفتاح لاشين، دار الرائد العربي، ط 1، بيروت 1405 هـ 1985 م.
- اللغة واللون، د. أحمد مختار العمر، دار البحوث العلمية، ط 1، 1402 هـ 1982 م.
- اللون، محمد يوسف همام، مطبعة الاعتماد، ط 1، مصر 1348 هـ 1930 م.
- المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، ابن الأثير: ضياء الدين بن الأثير، قدّمه وعلّق عليه: د. أحمد الحوفي و د. بدوي طبانة، دار نهضة مصر للطبع والنشر، مطبعة نهضة مصر، القاهرة، (د. ت).

- مجاز القرآن، صنعة أبي عبيدة معمر بن المثنى التيّمي، عرضه بأصوله وعلّق عليه: د. محمد فؤاد سزكين، مكتبة الخانجي، دار الفكر، ط 2، 1390 هـ 1970 م.
- مجاز القرآن خصائصه الفنية وبلاغته العربية، د. محمد حسين علي الصغير، طباعة ونشر دار الشؤون الثقافية العامة، ط 1، بغداد 1994.
- المختصر على تلخيص المفتاح، سعد الدين التفتازاني، ضمن شروح التلخيص، مطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاه بمصر، (د. ت).
- مدخل إلى موقف القرآن الكريم من العلم، د. عماد الدين خليل، مطبعة الزهراء الحديثة، ط 3، الموصل 1405 هـ 1985 م.
- المذاهب الأخلاقية الكبرى، افرانسوا غريغورا، ترجمة: قتيبة المعروفي، منشورات عويدات، ط 1، بيروت 1970 م.
- المذاهب الأدبية من الكلاسيكية إلى العبثية، د. نبيل راغب، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1977، (المكتبة الثقافية 343).
- المشاهد في القرآن الكريم دراسة تحليلية وصفية ، د. حامد صادق قنيبي، مكتبة المنار، ط 1، الأردن 1984.
- مشاهد القيامة في القرآن، سيد قطب، دار المعارف بمصر، (د. ت).
- معاني الأبنية في العربية، د. فاضل صالح السامرائي، ط 1، 1401 هـ 1981م.
- المعاني الثانية في الأسلوب القرآني، فتحي أحمد عامر، الناشر: منشأة المعارف بالأسكندرية، 1976.
- معاني القرآن، أبو زكريا يحيى بن زياد الفرّاء، عالم الكتب، ط 2، بيروت، 1980.
- المعاني في ضوء أساليب القرآن، د. عبد الفتاح لاشين، المكتبة الأموية، ط 4، 1983.
- مع القرآن في عالمه الرحيب، د. عماد الدين خلي ل، دار العلم للملايين، بيروت، (د. ت).
- المعجزة الكبرى القرآن، محمد أبو زهرة، دار الفكر العربي 1390 هـ 1970 م.
- معجم المصطلحات البلاغية وتطورها، د. أحمد مطلوب، مطبعة المجمع العلمي العراقي، بغداد، 1407 هـ 1987 م.

- معجم مقاييس اللغة، لأبي الحسين أحمد بن فارس بن زكريا، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، مطبعة البابي الحلبي، ط 2، 1392 هـ 1972 م.
- المعرفة الصوفية (دراسة فلسفية في مشكلات المعرفة)، ناجي حسين جودة، دار عمّار، ط 1، عمان 1412 هـ 1992 م.
- مفتاح العلوم، أبو يعقوب يوسف بن أبي بكر محمد علي السكاكي، مطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر، ط 1، 1356 هـ 1937 م.
- المفردات في غريب القرآن، الحسين بن محمد المعروف بالراغب الأصبهاني، أعده للنشر وأشرف على الطبع: د. محمد أحمد خلف الله، الناشر: مكتبة الأنجلو المصرية، المطبعة الفنية الحديثة 1970.
- من أسرار التعبير القرآني دراسة تحليلية لسورة الأحزاب ، د. محمد أبو موسى، الناشر: دار الفكر العربي، مطبعة السعادة، 1396 هـ 1976 م.
- من بلاغة القرآن، أحمد بدوي، دار نهضة مصر للطبع والنشر، مطبعة نهضة مصر، القاهرة 1370 هـ 1950 م.
- من بلاغة النظم العربي دراسة تحليلية لمسائل علم المعاني ، د. عبد العزيز عبد المعطي عرفة، عالم الكتب، ط 2، 1405 هـ 1984 م.
- المنتخب من كنايات الأدباء وإشارات البلغاء،أبو العباس أحمد بن محمد الجرجاني الثقفي،عني بتصحيحه: السيد محمد بدر الدين النعساني الحلبي، مطبعة السعادة، ط 1، مصر 1326 هـ 1908 م.
- مواهب الرحمن في تفسير القرآن، محمد عبد الكريم المدرس، عني بنشره: محمد علي القره داغي، دار الحرية للطباعة، ط 1، بغداد 1406 هـ 1986 م. وطبع المجلد السابع في 1409 هـ 1989 م.
- مواهب الفتاح في شرح تلخيص المفتاح، ابن يعقوب المغربي، ضمن شروح التلخيص، مطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاه بمصر، (د. ت).

- نصوص قرآنية في النفس الانسانية، د. عز الدين اسماعيل، طباعة ونشر دار الشؤون الثقافية العامة، آفاق عربية، ط 2، بغداد 1986.
- نظرية الحروف العاملة ومبناها وطبيعة استعمالها القرآني بلاغياً، د. هادي عطية مطر الهلالي، مكتبة النهضة العربية، ط 1، 1406 هـ 1986 م.
- نقد الشعر، لأبي الفرج قُدامة بن جعفر، تحقيق وتعليق: د. محمد عبد المنعم خفاجي، دار الكتب العلمية، بيروت، (د. ت).
- النكت في إعجاز القرآن، الرماني: أبو الحسن علي بن عيسى، ضمن ثلاث رسائل في إعجاز القرآن، تحقيق: محمد خلف الله أحمد و د. محمد زغلول سلام، دار المعارف بمصر، ط 3، 1976.
- نهاية الأرب في فنون الأدب، شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب النويري، نسخة مصورة عن طبعة دار الكتب، القاهرة، (د. ت).
- نهاية الإيجاز في دارية الإعجاز، فخر الدين الرازي، تحقيق: د. ابراهيم السامرائي و د. محمد بركات حمدي أبو علي، دار الفكر للنشر والتوزيع، عمان 1985.
- ثانياً الرسائل والأطاريح الجامعية:
- أساليب المجاز في القرآن الكريم (اطروحة دكتوراه)، د. أحمد حمد محسن الجبوري، كلية الآداب، جامعة بغداد، 1989.
- الاستعارة في القرآن الكريم (رسالة ماجستير)، أحمد فتحي رمضان، كلية الاداب، جامعة الموصل، 1988.
- ألفاظ الثواب في القرآن الكريم دراسة دلالية (رسالة ماجستير)، عماد عبد يحيى، كلية الآداب، جامعة الموصل، 1987.
- الألفاظ النفسية في القرآن الكريم دراسة دلالية (رسالة ماجستير)، أيمن توفيق الوتاري، كلية الآداب، جامعة الموصل، 1994.

- البُنى والدلالات في لغة القصص القرآني دراسة فنية (أطروحة دكتوراه)، د. عماد عبد يحيى، كلية الآداب، جامعة الموصل، 1412 هـ 1992 م.
- منهج الطوسي في تفسير القرآن الكريم (أطروحة دكتوراه)، د. كاصد ياسر الزيدي، كلية الآداب، جامعة القاهرة، 1396 هـ 1976 م.
- نشاط الصفدي في النقد والبلاغة (أطروحة دكتوراه)، د. مناهل فخر الدين فليح، كلية الآداب، جامعة القاهرة، 1397 هـ 1978 م.
- ثالثاً المجلات والدوريات:
- ألفاظ النصر والتمكين في القرآن الكريم دراسة دلالية ، د. عبد الوهاب محمد علي العدواني وعماد عبد يحيى، مجلة آداب الرافدين، تصدر عن كلية الآداب، جامعة الموصل، العدد (23) 1992.
- التعبير عن اللون في الشعر العربي القديم،د. وولف دتريش فيشر، مجلة التربية والعلم، العدد (8) 1989.
- جدل اللون في شعر خليل حاوي، د. بشرى حمدي البستاني، مجلة آداب الرافدين، تصدر عن كلية الآداب، جامعة الموصل، العدد (25) 1993.
- الجرس والإيقاع في تعبير القرآن، د. كاصد ياسر حسين، مجلة كلية آداب الرافدين، تصدر عن كلية الآداب، جامعة الموصل، العدد (9) 1978.
- شاعرية الألوان عند امرئ القيس، محمد عبد المطلب، مجلة فصول، العدد (2) 1985.
- الكناية، محمد جابر الفياض، مجلة المجمع العلمي العراقي، (ج 1 37)، مطبعة المجمع العلمي العراقي، بغداد 1406 هـ 1986 م.
- مقومات النصر في القرآن الكريم، د. كاصد ياسر الزيدي، مجلة آداب الرافدين، تصدر عن كلية الآداب، جامعة الموصل، العدد (23) 1992.




9789957572334



دار غيداء للنشر والتوزيع

تلاع العلي - شارع الملكة رانيا العبدالله - مجمع العساف التجاري - الطابق الأول
تلفاكس : 5353402 6 962+ - خلوي : 95667143 7 962+
ص.ب : 520946 عمان 11152 الأردن - E-mail: darghidaa@gmail.com